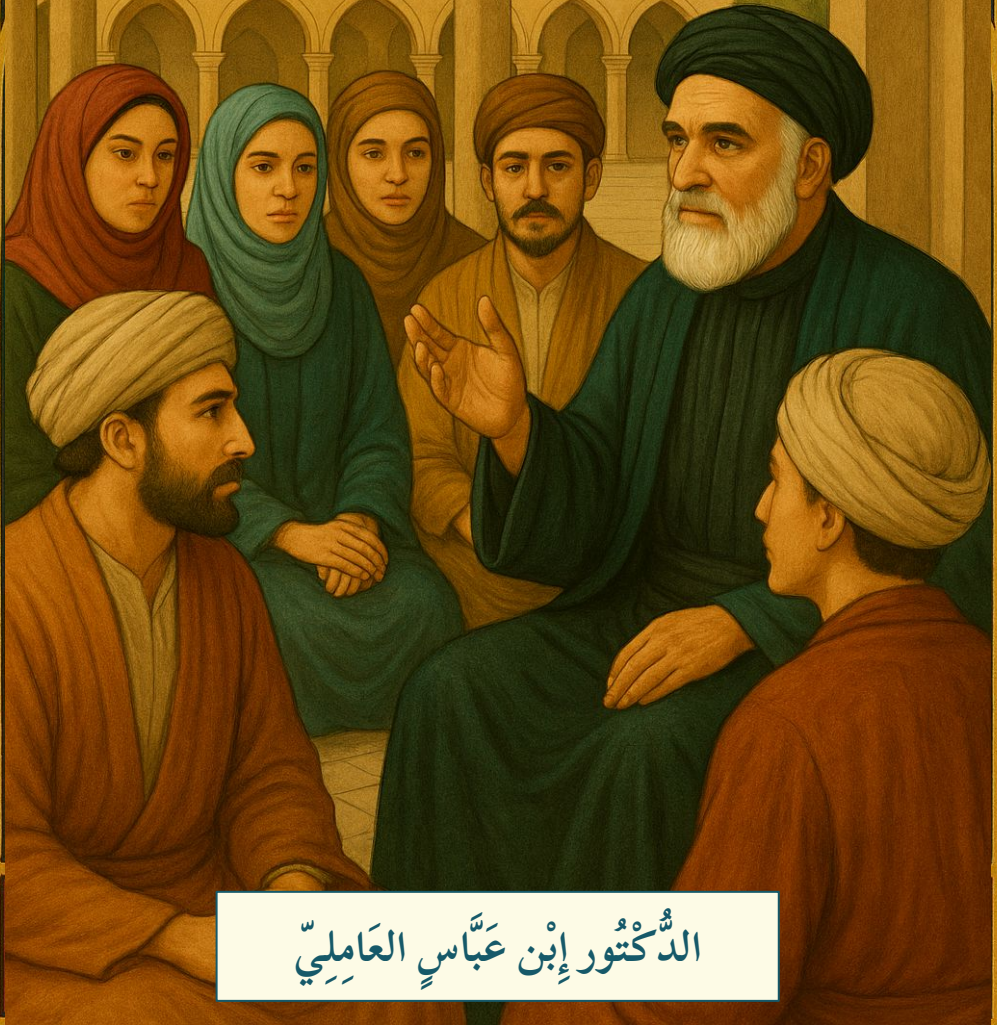


مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ
لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ



الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعَامِلِيُّ

مُقَدِّمَاتٌ فِي مِيزَانِ الْبَيَانِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ

رَوَايَةُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَنَشْأَةُ الطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ التَّجْرِبِيَّةِ

وَالْعِلْمِ الْحَدِيثِ

حَبْكَةُ خَيَالِيَّةٌ فِي حِوَارِ الْإِمَامِ وَجَابِرِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ أُصُولِ

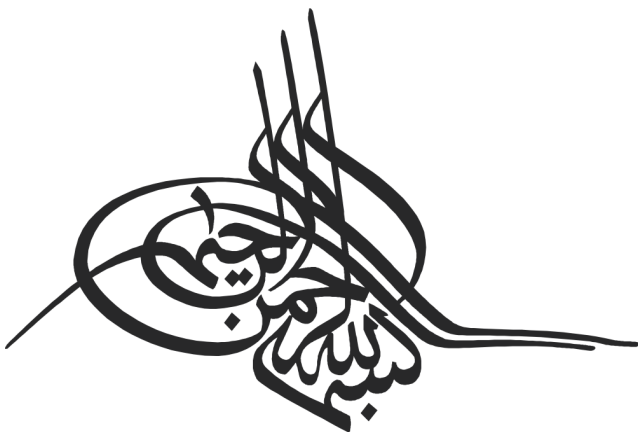
عِلْمِ التَّجْرِبَةِ فِي مِيزَانِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

دَلِيلُ الْمُعْتَبِرِ إِلَى الْكَوْنِ الْمُحْكَمِ

الْأَسْرَارُ الْمَكْنُونَةُ فِي الْمِيزَانِ

الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعَامِلِيُّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ



رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي
(طه : 25-27)

حُقُوقُ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ ©

الْمُؤَلِّفُ: ابْنُ عَبَّاسٍ الْعَامِلِيُّ - ٢٠٢٥م

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ. لَا يَجُوزُ إِعَادَةُ طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ،
أَوْ أَيِّ جُزْءٍ مِنْهُ، أَوْ نَقْلُهُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، سَوَاءً أَكَانَتْ الْكُتُبُوتِيَّةً أَمْ
مِكَانِيكِيَّةً أَمْ صَوْتِيَّةً أَمْ صَوْتِيَّةً، أَوْ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ أُخْرَى، دُونَ إِذْنِ خَطِّيِّ مُسَبِّقٍ مِنَ
الْمُؤَلِّفِ أَوْ النَّاشِرِ. يُسْتَنْى مِنْ ذَلِكَ الْإِقْتِبَاسُ الْقَصِيرُ لِعَرْضِ الْبَحْثِ أَوْ النَّقْدِ،
وَذَلِكَ فِي حُدُودِ مَا تَسْمَحُ بِهِ قَوَانِينُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ الْمَعْمُولُ بِهَا.

تَرْخِيسُ أَكَادِيمِيٌّ مُحَدَّدٌ

تَمَّ تَخْصِيسُ نُسْخٍ مُحَدُودَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ لِلتَّوْزِيعِ الْأَكَادِيمِيِّ وَالْبَحْثِيِّ، وَذَلِكَ
لِفَائِدَةِ الطُّلَّابِ وَالْمَرَاكِزِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْبَحْثِيَّةِ. وَيَخْضَعُ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ النُّسْخِ
لِلشُّرُوطِ التَّالِيَةِ:

- أَلَّا يُسْتَعْمَلَ الْمُصَنَّفُ فِي أَيِّ اسْتِغْلَالٍ تِجَارِيٍّ.
- أَنْ يُذَكَّرَ الْمَصْدَرُ وَالْمُؤَلِّفُ ذِكْرًا وَافِيًّا فِي أَيِّ اسْتِشْهَادٍ أَوْ نَقْلِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

- أَلَا تُجْرَى عَلَيْهِ تَغْيِيرَاتٌ تَمَسُّ مَضَامِينَهُ الْعِلْمِيَّةَ أَوْ تَحْرِيفَاتٌ تَضُرُّ بِالسِّيَاقِ الْمَقْصُودِ.

للتواصل مع المؤلف : IbnAbbasAlamili@gmail.com

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ^ج
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ^ج
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
(هود: 88)

نُسْخَةُ مَحْدُودَةٍ قَبْلَ النُّشْرِ

يُقَدِّمُ هَذَا الْعَمَلُ السَّرْدِيُّ «رِوَايَةَ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَنَشْأَةَ الطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ التَّجَرُّبِيَّةِ وَالْعِلْمَ الْحَدِيثِ» مَشْهَدًا فِكْرِيًّا مُرَكَّبًا يَنْسِجُ حَوَارًا تَخِيلِيًّا بَيْنَ الْإِمَامِ وَجَابِرٍ لِاسْتِكْنَاهِ أَصُولِ التَّجَرُّبَةِ وَمِيزَانِهَا الْمَعْرِفِيِّ فِي ضَوْءِ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» الْمُسْتَقَمِّ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَهُوَ يُزَاوِجُ بَيْنَ الْخِيَالِ الْأَدَبِيِّ وَالتَّأْسِيسِ الْمُنْهَجِيِّ لِمَبَادِي السَّبَبِيَّةِ وَالْعَائِيَّةِ وَالتَّوَثُّيقِ وَالتَّكْرَارِ، وَيُظْهِرُ كَيْفَ تَتَأَرَّرُ الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ وَالصَّنَاعَاتُ التَّطْبِيقِيَّةُ فِي فَسِيحِ الْمَسْجِدِ وَالسُّوقِ لِتَشْكِيلِ عَقْلِ تَجَرُّبِيٍّ مُتَوَاضِعٍ يَطْلُبُ الْبُرْهَانَ وَيَزِنُ الْأَقْوَالَ بِالشَّوَاهِدِ. وَتُسَهِّمُ الرِّوَايَةُ فِي رَسْمِ بَنِيَّةِ ابْتِسَامِيَّةٍ تُوَحِّدُ الْمَرْجِعَ الْقِيَمِيَّ بِالْإِجْرَاءِ الْعِلْمِيِّ، فَتَعِيدُ افْتِرَاحَ قِرَاءَةِ حَيَّةٍ لِلتَّرَاثِ التَّجَرُّبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَتُفَكِّرُ فِي مَوْقِعِهِ مِنْ خَرِيطَةِ الْعِلْمِ الْمُعَاصِرِ، مَعَ تَشْدِيدٍ عَلَى أَخْلَاقِ الْبَحْثِ وَحُدُودِ الْمَعْرِفَةِ وَتَوَازُنِ الْأَدَاةِ وَالْعَايَةِ.

فَوْقَ ذَلِكَ فَهِيَ رِوَايَةٌ تَعْلِيمِيَّةٌ تَرْبِيَّةٌ مُوجَّهَةٌ لِلطُّلَّابِ فِي الْمَرَاكِجِ الثَّانَوِيَّةِ وَالْجَامِعِيَّةِ وَلِمُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ، تَهْدَفُ إِلَى تَوَامَةِ أَلْعَقْلِ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْفِطْرَةِ، وَإِلَى تَنْشِئَةِ بَاحِثٍ يَزِنُ الْأَدَاةَ بِالْعَايَةِ وَيَصِلُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْقِيَمِ.

تَنْوِيَّةٌ: حُدُودُ الْفَهْمِ وَإِمْكَانَاتُ التَّأْوِيلِ

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ، وَمَا يُقَدِّمُهُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَأْمُلٍ فِي الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ، لَيْسَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ لِاسْتِكْشَافِ الْوَاقِعِ وَاسْتِجْلَاءِ مَعَانِي النُّصُوصِ فِي سِيَاقِ التَّجَرُّبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ. إِنَّ أَيَّ فَهْمٍ يُطْرَحُ هُنَا، سِوَاءَ تَعَلُّقٍ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ بِالْإِسْلَامِ عَامَّةً، إِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ إِدْرَاكِ الْقَارِئِ وَسَعْيِهِ الْمُخْلِصِ لِلِاقْتِرَابِ مِنَ الْحَقِيقَةِ، بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ أَدَوَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ وَمُعْطَيَاتُهُ الْمَعْرِفِيَّةُ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَدَّعِي، بِأَيِّ حَالٍ، أَنَّهُ الْفَهْمُ النَّهَائِيُّ أَوِ الْمُطْلَقُ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ (ص)، فَالِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ الْحَقِّ مِنْ كَلَامِهِ وَسُنَّتِهِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ تَقْتَضِي الْبَحْثَ وَالسُّؤَالَ وَإِعَادَةَ النَّظَرِ، وَمَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ تَظَلُّ مُحْدُودَةً بِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْمَقْدَرَةِ الْعَقْلِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ أَيَّ تَأْوِيلٍ أَوْ تَحْلِيلٍ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ فِي إِطَارِهِ كَبَشَرٍ يَسْعَى لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، لَا كَمَوْقِفٍ قَطْعِيٍّ يُلْزَمُ الْآخَرِينَ أَوْ يَدَّعِي الْعِصْمَةَ مِنَ الْخَطَا.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَنُرَدُّ فِي دُعَائِنَا:

﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

قَائِمَةُ الْمُحْتَوَيَاتِ

9	قَائِمَةُ الْمُحْتَوَيَاتِ
14	الإِهْدَاءُ الْأَوَّلُ
15	الإِهْدَاءُ الثَّانِي
16	كَلِمَةُ الْمُؤَلِّفِ
20	التَّمْهِيدُ
23	مَشْهُدُ الْبَدْءِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ
33	الْأَزْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ لِلْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
44	الْمَحْوَرُ الْأَوَّلُ: مُغَامَرَةُ الْكُؤُنِ
46	الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: سِرُّ الْبَدْءِ وَأَنَاشِيدُ النَّظَامِ
48	الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ وَحْدَةِ الْمَرْجِعِ
60	الدَّرْسُ الثَّانِي: الْإِنْسِجَامُ وَسُطُوعُ التَّوَازُنِ

75 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: سُنَنُ الْكَوْنِ وَمِيزَانُ النَّظَامِ

86 الْفَصْلُ الثَّانِي: سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ وَالْغَايَاتِ

87 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ السَّبَبِيَّةِ

96 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْغَايَةِ

108 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الْإِسْتِدَامَةِ

117 الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: مَوَازِينُ الْوُجُودِ وَالْمَعْرِفَةِ

118 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْإِنْسِجَامِ

131 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّنَاغُمِ وَالْإِتْسَاقِ

138 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ التَّرَابُطِ

146 الدَّرْسُ الرَّابِعُ: مِيزَانُ الْكُلِّيَّةِ

154 الْمَحْوَرُ الثَّانِي: صَيْدُ الْحَقِيقَةِ

156 الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: قَلْعَةُ الْبُرْهَانِ وَالْإِطْمِئْنَانِ

158 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: الْإِدْعَاءُ وَطَلَبُ الْبُرْهَانِ

165 الدَّرْسُ الثَّانِي: مَنْطِقُ الدَّلِيلِ وَخَطَرُ الظَّنِّ

- 172 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: قَلْعَةُ الطُّمَائِنَةِ
- 182 الْفَصْلُ الثَّانِي: مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ وَالْكَشُوفَاتِ
- 184 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: الْغَيْبُ الْمُحْجُوبُ وَالْغَيْبُ الْمَشْهُودُ
- 196 الدَّرْسُ الثَّانِي: الْكَشُوفَاتُ وَنُورُ الْعِلْمِ
- 207 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: التَّفَكُّرُ وَمَنْهَجُ الْإِدْرَاكِ
- 217 الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: تَوَاضُعُ الْعِلْمِ وَحُدُودُهُ
- 218 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْفَسَادِ
- 229 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّوَاضُعِ
- 241 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
- 250 الْمَحْوَرُ الثَّلَاثُ: الْأَخْلَاقُ وَالْمُجْتَمَعُ
- 252 الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: عَدَالَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
- 254 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
- 265 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْقِسْطِ وَعَدَمُ الطُّغْيَانِ
- 275 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الرَّحْمَةِ وَالْأَسْتِدَامَةِ

- 282 الْفَصْلُ الثَّانِي: مَلَحَمَةُ الْإِحْسَانِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ
- 283 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّعَاوُنِ وَالتَّقْوَى
- 291 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْأَسْتِخْلَافِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ
- 302 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مَلَحَمَةُ الْفَيْمِ
- 312 الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: نُورُ التَّقْوَى وَعُمْرَانُ الْأَرْضِ
- 313 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّعَارُفِ وَالْعُمْرَانِ
- 322 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّقْوَى وَالْعُبُودِيَّةِ
- 332 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: الْعُمْرَانُ الْمُسْتَدَامُ
- 340 الْمَحْوَرُ الرَّابِعُ: خَرِيطَةُ الْعَمَلِ
- 342 الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: دَلِيلُ الْمُجَرَّبِ وَالْبَاحِثِ
- 344 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: أَسَاسُ الْمَنْهَجِ التَّجْرِبِيِّ
- 351 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ قَدْرِ الْأَشْيَاءِ
- 363 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: التَّجَرُّبَةُ وَالْبَحْثُ عَنِ الْإِطْمِئْنَانِ
- 370 الدَّرْسُ الرَّابِعُ: قُوَّةُ التَّكْرَارِ (جَرِي الْعَادَةِ) وَالتَّوْثِيقِ

- 377 الْفَصْلُ الثَّانِي: سِحْرُ التَّسْخِيرِ وَالتَّشْكِيلِ
- 378 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّسْخِيرِ إِلَّا لِهَيِّ
- 387 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّحْوِيلِ وَالْمَنْفَعَةِ
- 394 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: اِتِّقَانُ الصُّنْعِ
- 406 الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: مِيرَاثُ الْبَيَانِ وَالْخَلْفِ
- 407 الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّوْثِيقِ وَالْبَيَانِ
- 414 الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْمَقْدُورِ وَالتَّفْصِيلِ
- 422 الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الْبَيَانِ وَمِيرَاثُ الْخَلْفِ
- 432 الدَّرْسُ الرَّابِعُ: مِيزَانُ الْأَسْتِدْلَالِ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ
- 443 الدَّرْسُ الْخَامِسُ: الْأَسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ فِي الْعِلْمِ التَّجْرِبِيِّ

الْإِهْدَاءُ الْأَوَّلُ

إِلَى رُوحِي وَإِلَى الطَّاهِرَتَيْنِ،

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْعَمَلَ، وَيَجْعَلَهُ صَدَقَةً جَارِيَةً فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكُمَا، وَأَنْ يَرْفَعَ دَرَجَتَكُمَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ٤١)

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٢٤)

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، وَاجْزِهِمَا بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالْسَّيِّئَاتِ عَفْوًا وَعُفْرَانًا.

رَحِمَكُمَا اللَّهُ بِوَسَائِعِ رَحْمَتِهِ، وَأَسْكَنَكُمَا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى.

الْمُؤَلِّفُ

الْإِهْدَاءُ الثَّانِي

إِلَى زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، وَرَفِيقَةِ دَرْبِي مُنْذُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ عَامًا، أُمُّ أَوْلَادِي
السَّبْعَةِ، وَعَشِيقِي الْخَالِدِ، وَصَدِيقَتِي وَمُلْهِمَتِي.

إِلَيْكَ أَهْدِي هَذَا الْعَمَلَ، أَنْتِ الَّتِي كُنْتَ قَبْلَ أَنْ تَصِيرِي أَسْتَاذَةً
جَامِعِيَّةً، الْمُرَبِّيَّةَ الْأُولَى فِي بَيْتِنَا؛ فَرَبَّيْتَ أَوْلَادَنَا السَّبْعَةَ وَعَلَّمْتَهُمْ فِي الْمَدْرَسَةِ
الْبَيْتِيَّةِ، فَتَفَوَّقُوا بِفَضْلِ اللَّهِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالدِّينِ.

ثُمَّ انْطَلَقْتَ بَعْدَ ذَلِكَ تُعَلِّمِينَ فِي الْجَامِعَةِ بِرِسَالَةٍ نَبِيلَةٍ، تَفْتَحِينَ لِلْجِيلِ
الْجَدِيدِ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ، وَتُرْشِدِينَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

فَكُنْتَ فَكُنْتَ نِعَمَ الزَّوْجَةِ، وَنِعَمَ الْأُمِّ، وَنِعَمَ الْمُعَلِّمَةِ، وَنِعَمَ الْحَبِيبَةِ،
جَعَلَكَ اللَّهُ لِي وَلِأَوْلَادِنَا ذُخْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

كَلِمَةُ الْمُؤَلِّفِ

تُقَدِّمُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ إِحْدَى مُقَدِّمَاتِ «مِيزَانِ الْبَيَانِ»؛ مَدْخَلًا أَدَبِيًّا مُبَسَّرًا لِمَشْرُوعِ مَعْرِفِيٍّ يَسْتَنْبِطُ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِلْمًا جَدِيدًا لِنَنْظِيمِ الْفِكْرِ وَتَهْدِيدِ التَّعْبِيرِ وَتَأْسِيسِ الْمُحَاجَّةِ الْحَقَّةِ. فِ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» لَيْسَ تَرْفِيعًا لِمَفَاهِيمَ مُتَفَرِّقَةٍ، وَلَا تَحْشِيَةً لِمَعَارِفَ مُتَنَازِعَةٍ؛ بَلْ هُوَ نِظَامٌ مَعْرِفِيٌّ مُؤَسَّسٌ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ: قَاعِدَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَقَاعِدَةُ الْهُدَى الَّذِي يَشُقُّ لِلْعَقْلِ سَبِيلَهُ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانُ﴾.

يَتَعَلَّمُ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» مِنَ الْقُرْآنِ كَيْفَ تُنْظَمُ الْفِكْرَةُ فِي سِلْسِلَةٍ بَيِّنَةٍ، وَكَيْفَ تُصَاغُ فِي لَفْظٍ مُحْكَمٍ، وَكَيْفَ تُدَافِعُ عَنْ حَقِّهَا بِالْبُرْهَانِ الصَّادِقِ وَالْقِيَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَهُوَ، مِنْ ثَمَّ، بِدِيلٌ مِنْهَجِيٌّ لِمَسَالِكِ عُلُومِ «الْمَنْطِقِ» مِنْ أُصُولِهَا الْيُونَانِيَّةِ إِلَى صَيَغِهَا الْحَدِيثَةِ؛ لَا لِرَفْضِ مَا فِيهَا مِنْ مَكَاسِبِ مُحَقِّقَةٍ، بَلْ لِإِعَادَةِ وَضْعِ «الْوِزْنِ» فِي مَوْضِعِهِ: لُغَةً وَمَعْنًى وَمَقْصِدًا وَبُرْهَانًا، عَلَى مَا يُوَافِقُ الْفِطْرَةَ وَيَهْتَدِي بِنُورِ الْوَحْيِ.

وَيَجْمَعُ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» بَيْنَ «مَوَازِينِ الْكَلَامِ» (دَلَالَةٌ وَبَلَاغَةٌ وَتَرْكِيبٌ) وَبَيْنَ الرِّيَاضِيَّاتِ (نِسْبًا وَهَيْكَلًا وَاحْتِمَالًا) وَ«عِلْمِ التَّجْرِئَةِ» (فَرْضًا وَاخْتِبَارًا وَتَكْذِيبًا) وَالْحَوْسِبَةِ وَالذِّكَاةِ الْإِصْطِنَاعِيَّ (نَمْدَجَةً وَمُحَاكَاةً وَتَعَلُّمًا) وَالْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ (مُشَاهَدَةً وَمَسْحًا وَتَأْوِيلًا). إِنَّهُ جِسْرٌ لِتَوْحِيدِ مَقَاسِي «الْمَعْنَى» وَ«الْعَدَدِ» وَ«التَّجْرِئَةِ» فِي مَعْيَارٍ وَاحِدٍ: مِيزَانٌ يَزِنُ الْفِكْرَ قَبْلَ الْعِبَارَةِ، وَيَزِنُ الْعِبَارَةَ قَبْلَ الْحُجَّةِ، وَيَزِنُ الْحُجَّةَ قَبْلَ الْحُكْمِ.

وَتَهْدِفُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ، فِي إِطَارِهَا التَّعْلِيمِيِّ، إِلَى تَوْلِيدِ «تَشَابُكِ كَمِّيٍّ»، فِي الْمَعْنَى الْمَعْرِفِيِّ الْإِسْتِعَارِيِّ، بَيْنَ «تَعْقُلِ» الْإِنْسَانِ الْمُبْنِيِّ عَلَى «الْفِطْرَةِ» وَ«عِلْمِ الْبَيَانِ» الَّذِي ائْتَمَنَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ ٤)؛ أَيْ بِنَاءَ لُحْمَةٍ حَيَّةٍ بَيْنَ السَّلِيلَةِ الْمُهْتَدِيَّةِ وَالنِّظَامِ الْمَعْرِفِيِّ الْمُهَنْدَسِ، لِتَنْشَأَ «عَادَاتُ فِكْرٍ» جَدِيدَةٌ تُتَرْجَمُ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ إِلَى لَفْظٍ مُحْكَمٍ، وَتُتَرْجَمُ اللَّفْظُ الْمُحْكَمُ إِلَى بُرْهَانٍ مُجَرَّبٍ، وَتُتَرْجَمُ الْبُرْهَانُ إِلَى فِعْلٍ عَادِلٍ فِي الْمُجْتَمَعِ.

وَلَا تَقِفُ غَايَةُ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» عِنْدَ التَّفْقِيرِ النَّظَرِيِّ؛ بَلْ هُوَ مَشْغُولٌ بِصِنَاعَةِ «أَدَوَاتٍ» لِلتَّطْبِيقِ: مَعَاجِمُ لِلْمَفَاهِيمِ الْمِفْتَاحِيَّةِ، وَخَوَازِمِيَّاتٌ لِتَتَبُعِ التَّعْلِيلَ وَالِاسْتِدْلَالَ، وَنَمَازِجُ لِلتَّجَارِبِ وَمُحَاكَاتِهَا، وَمَقَاسِي لِحَقْدَةِ التَّبْلِغِ وَعَدَالَةِ الْأَثَرِ الْاجْتِمَاعِيِّ. هَكَذَا يُرِيدُ هَذَا الْمَشْرُوعُ أَنْ يُحَوِّلَ «الْبَيَانَ» مِنْ مَجَالٍ لِلْجَمَالِ وَحَسْبٍ إِلَى «مِيزَانٍ» لِلْحَقِّ وَالْعَمَلِ.

وَإِنِّي، وَأَنَا أَقَدِّمُ هَذِهِ الرَّوَايَةَ، أَرَى فِيهَا مِفْتَاحًا تَرْبُويًّا لِإِصْلَاحِ عِلَاقَتِنَا بِاللُّغَةِ وَالْقُرْآنِ وَالْعَقْلِ؛ فَهِيَ نَصٌّ تَطْبِيقِيٌّ يَسْتَدْعِي الْقَارِئَ، طَالِبًا وَمُعَلِّمًا وَبَاحِثًا، إِلَى الْمُمَارَسَةِ: أَنْ يَسْمَعَ، وَيَسْتَفْرِئَ، وَيَسْتَدِلَّ، وَيُحَاجَّ، وَيُجَرَّبَ. لَا نَبْغِي مَعَ هَذَا أَنْ نَنْقُصَ مَا سَبَقَ مِنْ تَرَاثِ التَّفَكِيرِ الْبَشَرِيِّ، وَلَا أَنْ نَنْعَزِلَ عَنْ مَكَاسِبِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّا نَبْغِي أَنْ «نُزِنَ» كُلُّ ذَلِكَ بِمِيزَانٍ يُصْلِحُ مَوَاضِعَ الْقُوَّةِ وَيُقَوِّمُ أَوْهَامَ الْمَنَهَجِ.

إِنَّ الْهَدَفَ الْأَسْمَى لِنِشَاءِ «عِلْمِ مَوَازِينِ الْبَيَانِ» وَتَطْوِيرِهِ هُوَ صِنَاعَةُ «حَضَارَةِ إِسْلَامِيَّةٍ حَدِيثَةٍ» تَقُومُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، بِدِيلًا رَاشِدًا لِأَنْسَاقٍ غَالِبَةٍ تَهَالِكُ بِأَزْمَاتِهَا الْبُيُوتِيَّةِ وَالْبَيْئِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَحَلًّا مُتَدَرِّجًا لِمُشْكِلَاتِ الْإِنْسَانِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. فَإِذَا لَمْ يَعُدِ «التَّقَدُّمُ» مَقْيَسًا بِسُرْعَةِ الْأَدَاةِ فَحَسْبُ، بَلْ بِمِيزَانِ الْمَعْنَى وَعَدَالَةِ الْأَثَرِ وَسَعَةِ الْمُشْتَرَكِ الْإِنْسَانِيِّ، انْتَدَى يَسْتَوِي الْعِلْمُ قِيَمًا، وَتَسْتَقِيمُ الْقِيَمُ عِلْمًا.

هَكَذَا أُرِيدُ لِهَذِهِ الرَّوَايَةِ أَنْ تَكُونَ: نَقْرَةَ الْبِدْرَةِ فِي تُرَابِ النَّفْسِ، تُوقِظُ فِيهَا «الْفِطْرَةَ» وَ«الْبَيَانَ»، وَتَفْتَحُ فِي الذِّهْنِ «مَخْبَرًا» يَلْتَقِي فِيهِ اللَّفْظُ وَالْعَدَدُ وَالتَّجَرُّبَةُ وَالْعَدْلُ. فَإِنْ خَرَجَ الْقَارِئُ مِنْهَا بِسُؤَالٍ أَجْلَى، وَمِيزَانٍ أَدَقَّ، وَعَادَةَ تَفَكِيرٍ أَصْلَبَ، فَقَدْ بَلَغَتْ الرَّوَايَةُ غَايَتَهَا الْأُولَى، وَبَلَغَ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» بَابًا مِنْ أَبْوَابِهِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

والله وليّ التوفيق.

المؤلف

التَّمْهِيدُ

تُقَدِّمُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ لِلْقَارِي الْكَرِيمِ مِفْتَاحًا لِمَشْرُوعٍ أَوْسَعَ سَمِّيْنَاهُ «مِيزَانُ الْبَيَانِ»؛ مَشْرُوعًا يَرْجِعُ بِالْعَقْلِ إِلَى مَعِينِ الْقُرْآنِ، وَيُعِيدُ صِلَتَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُمَا نِظَامَ الْفِكْرِ، وَصِيَاعَةَ الْعِبَارَةِ، وَسُنَنَ الْإِحْتِجَاجِ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ. نُرِيدُ لِهَذَا الْمِيزَانِ أَنْ يَكُونَ مَعْيَارًا يَزِنُ الْكَلِمَةَ قَبْلَ أَنْ تُقَالَ، وَيَزِنُ الْفِكْرَةَ قَبْلَ أَنْ تُسَاقَ، وَيَزِنُ الْعَمَلَ قَبْلَ أَنْ يُزَاوَلَ؛ فَإِذَا اسْتَوَى الْمِيزَانُ اسْتَقَامَ النَّظَرُ، وَإِذَا اسْتَقَامَ النَّظَرُ صَلَحَ الْعَمَلُ.

وَقَدْ اخْتَرْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِقِصَّةٍ تَأْخُذُ بِيَدِ الْقَارِي إِلَى دَاخِلِ الْمَخْبَرِ وَالْدَّرْسِ، لِتَرْيَهُ كَيْفَ يُولَدُ السُّؤَالُ، وَكَيْفَ تُنْسَجُ الْفِكْرَةُ، وَكَيْفَ تُخْتَبَرُ النَّتِيجَةُ. فَالْحِكَايَةُ هُنَا لَيْسَتْ تَسْلِيَّةً، بَلْ طَرِيقًا إِلَى التَّعَلُّمِ؛ وَالشَّخْصِيَّاتُ لَيْسَتْ أَشْبَاحًا تَمُرُّ، بَلْ مَرَايَا نَنْظُرُ فِيهَا إِلَى أَنْفُسِنَا كَيْفَ نَتَعَلَّمُ، وَكَيْفَ نَسْأَلُ، وَكَيْفَ نَحْكُمُ بِالْقِسْطِ.

إِنَّ «مِيزَانَ الْبَيَانِ» يَبْتَنِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكُنٍ: أَوَّلُهَا الْمَعْنَى الَّذِي تُرِيهِ

الْآيَاتُ وَتُقِيمُهُ الدَّلَالَاتُ الصَّحِيحَةُ؛ وَثَانِيهَا الْعَدَدُ الَّذِي يُحْكِمُ التَّقْدِيرَ وَيَضْبِطُ التَّفْسِيمَ؛ وَثَالِثُهَا التَّجَرُّبَةُ الَّتِي تَكْشِفُ الْخَفِيَّ بِالِاخْتِبَارِ وَتُصَحِّحُ الظَّنَّ بِالْبَيِّنَةِ. فَإِذَا تَعَاظَدَ الْمَعْنَى وَالْعَدَدُ وَالتَّجَرُّبَةُ، أَمَكَنَ لِلِنَّاسِ أَنْ يَبْنِيَ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَعُمُرَانَا يُرْضِي اللَّهُ وَيَضُمُّ النَّاسُ إِلَى مَصَالِحِهِم بِالْعَدْلِ.

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ، مَعَ قِصَرِهَا، مَعْبَرٌ إِلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ؛ تُقَرِّبُ مَفَاتِيحَ التَّفْكِيرِ، وَتَدُلُّ عَلَى طَرِيقِ الْوَقَارِ فِي الطَّلَبِ، وَتَبْسُطُ لِلطَّالِبِ وَالْمُعَلِّمِ خُطُوبَاتِ التَّصَوُّرِ، ثُمَّ التَّصَدِيقِ، ثُمَّ الْإِخْتِبَارِ، ثُمَّ الْحُكْمِ. وَقَدْ جَعَلْنَاهَا بِلِسَانٍ قَرِيبٍ، وَنَفْسٍ رَفِيقٍ، وَأُسْلُوبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ جَمَالِ الْعِبَارَةِ وَحِسَابِ الْمَعْنَى، لِيَجْتَمَعَ فِيهَا نَصِيبُ الْقَلْبِ وَنَصِيبُ الْعَقْلِ.

نُرِيدُ، بِفَضْلِ اللَّهِ، أَنْ يَتَخَرَّجَ مِنْ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» قَارِئٌ يَعْرِفُ مَوَاطِنَ الصَّوَابِ فِي الْكَلَامِ، وَمَسَالِكَ الْأَشْتِبَاهِ فِي الظُّنُونِ، وَخُدُودَ التَّجَرُّبَةِ فِي الْأَشْيَاءِ؛ قَارِئٌ إِذَا سَمِعَ قَالَ: «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ»، وَإِذَا بَحَثَ قَالَ: «لَا أَقُولُ إِلَّا بَيِّنَةً»، وَإِذَا عَمِلَ قَالَ: «لَا أَقْدِمُ نَفْعًا صَغِيرًا عَلَى عَدْلٍ كَبِيرٍ». فَبِمِثْلِ هَذَا يَلْتَمِسُ الدِّينُ وَالْدُّنْيَا، وَيَقُومُ الْعِلْمُ عَلَى هُدًى، وَيُضِيءُ الْهُدَى سُبُلُ الْعِلْمِ.

هَكَذَا يَدْخُلُ الْقَارِئُ هَذَا التَّمْهِيدَ، ثُمَّ يَسِيرُ فِي صُحْبَةِ الْحِكَايَةِ إِلَى مَوَاطِنِ التَّدَبُّرِ وَالتَّجَرُّبَةِ، عَلَى أَمَلٍ أَنْ يَخْرُجَ بِمِيزَانٍ أَدَقَّ، وَسُؤَالٍ أَجْلَى، وَعَادَةٍ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَفْكِيرٍ أَرْسَخَ؛ فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ كَانَتِ الرَّوَايَةُ بَذْرَةً مُبَارَكَةً، وَكَانَ «مِيزَانُ الْبَيَانِ»
نَبْتًا يَزْدَادُ نُمُوًّا بِكُلِّ قَارِئٍ صَادِقٍ، وَبِكُلِّ طَالِبٍ مُجِدِّ، وَبِكُلِّ مُعَلِّمٍ أَمِينٍ.

مَشْهُدُ الْبَدْءِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ

الْكُوفَةُ فِي سِيَاقِهَا التَّارِيخِيِّ

لَا تَكْتَفِي الْكَلِمَاتُ بِوَصْفِ مَدِينَةِ كَالْكُوفَةِ فِي مُتَنَصِفِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْمِيلَادِيِّ. لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ رُقْعَةٍ عَلَى الْأَرْضِ، بَلْ كَانَتْ قَلْبًا يَنْبُضُ بِالتَّارِيخِ، وَعَقْلًا يُفَكِّرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَرُوحًا تَتَوَقَّ لِلْعُودَةِ إِلَى الْمَحَوَرِ. لِيَسْمَحَ لِي أَنْ أَخْذَكَ فِي رَحْلَةٍ إِلَى ذَلِكَ الْمَشْهَدِ، إِلَى تِلْكَ الْأَرْقَةِ الْمُتَعَرِّجَةِ، وَإِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ الَّذِي شَهِدَ مَا لَمْ يَشْهَدْهُ مَكَانٌ آخَرُ.

كَانَتْ شَمْسُ الْكُوفَةِ تَمِيلُ إِلَى الْغُرُوبِ، فَتُنْقَلِي بِخُيُوطِهَا الذَّهَبِيَّةِ عَلَى سَطْحِ الْفُرَاتِ، وَيَخْتَلِطُ لَوْنُ الْمَاءِ بِلَوْنِ السَّمَاءِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَدِينَةُ بِأَكْمَلِهَا إِلَى لَوْحَةٍ تُخْبِرُ عَنْ قِصَّةٍ مِنَ الصَّرَاعِ وَالْحَيْنِ. عَلَى مَتْنِ سَفِينَةِ النَّهْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْقُ مِيَاهَ الْوَقْتِ، جَلَسَ عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَتَكَشَّفُ أَمَامَهُ كَالْكِتَابِ الَّذِي يُفْتَحُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. لَمْ يَكُنْ قَادِمًا لِلتِّجَارَةِ أَوْ السِّيَاحَةِ، بَلْ لِبَحْثٍ عَنْ جَوَابٍ لِسُؤَالٍ أَرْقَهُ سِنِينَ: "هَلْ لِلْأَشْيَاءِ مِيزَانٌ خَفِيٌّ".

كَانَتْ رَائِحَةُ الصَّنَاعَةِ تَصِلُ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ مَلَاحُ الْمَدِينَةِ. رَائِحَةُ الْخَشَبِ الْمُنْحَوْتِ فِي وَرَشِ الْأَسَاطِيلِ، وَالْمَعَادِنِ الْمَصْهُورَةِ فِي أَفْوَاهِ الْكَبِيرِ، وَالْجُلُودِ الْمَدْبُوعَةِ بِعُطُورِ النَّبَاتِ. كَانَتْ كُلُّ رَائِحَةٍ تَحْمِلُ مَعَهَا قِصَّةَ جُهْدٍ، وَكُلُّ صَوْتٍ يَحْمِلُ مَعَهُ أَنْشُودَةَ عَمَلٍ. كَانَتْ الْمَدِينَةُ تُحَاكِي الْأَرْضَ فِي تَنَوُّعِهَا. كُلُّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَهَا قَلْبٌ يَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّهُ نَبْضٌ لَا يَخْلُو مِنْ حَيْنٍ إِلَى مَاضٍ لَمْ يَمْضِ كُلُّهُ.

لَمْ تَكُنِ الْكُوفَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُجَرَّدَ مَدِينَةٍ، بَلْ كَانَتْ مَشْهَدًا لِلتَّارِيخِ الَّذِي يُصْنَعُ. فَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي كَانَتْ عَاصِمَةً لِلْخِلَافَةِ فِي عَهْدِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبَعْدَ أَنْ نُقِلَ مُعَاوِيَةُ مَرْكَزَ الْحُكْمِ إِلَى الشَّامِ، ظَلَّتْ فِي قَلْبِ أَهْلِهَا عِشْقًا لِهَذِهِ الْعَاصِمَةِ الْقَدِيمَةِ. أَصْبَحَتِ الْكُوفَةُ مَرْكَزًا لِلْمُعَارَضَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْحُكْمِ الْأُمَوِيِّ، وَكَانَ عُلَمَاؤُهَا وَأَهْلُهَا يَنْظُرُونَ إِلَى كُلِّ فُرْصَةٍ لِكَيْ تَعُودَ إِلَى مَكَانِهَا الْمُحَوَّرِيِّ فِي التَّارِيخِ. كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْلَامُ السِّيَاسِيَّةُ تَشْتَعِلُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا، وَلَكِنَّهَا أَثْمَرَتْ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَأَخْرَجَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ كَانُوا عِمَادَ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ لِلْإِسْلَامِ.

أَلْقَتِ السَّفِينَةُ مَرَسَاهَا، وَخَرَجَ النَّاسُ مِنْهَا بِخُطُواتٍ مُسْرِعَةٍ. كُلُّ وَاحِدٍ لَهُ قِصَّةٌ وَغَايَةٌ. كَانَ بَعْضُهُمْ يَحْمِلُ الْأَمْنَةَ الثَّقِيلَةَ، وَبَعْضُهُمْ يَحْمِلُ دَفَاتِرَ وَمَخْطُوطَاتٍ، وَبَعْضُهُمْ يَحْمِلُ فَقْطَ أَحْلَامًا فِي عَيْونِهِ. كَانَ عَاصِمٌ يَسِيرُ فِي

الْأَزَقَّةُ الْمُتَعَرِّجَةُ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ فِي مَتَاهَةٍ، وَلَكِنَّهَا مَتَاهَةٌ لَا تُضِيعُ، بَلْ تَقُودُ.

كَانَتْ لِكُلِّ حَيٍّ فِي الْكُوفَةِ قِصَّتُهُ الْخَاصَّةُ. فِي حَيِّ الصُّنَاعِ، كَانَتْ أَصْوَاتُ الْمَطَارِقِ عَلَى الْحَدِيدِ وَالْخَشَبِ تَخْتَلِطُ بِأَصْوَاتِ الْغِنَاءِ الشَّعْبِيِّ. وَفِي حَيِّ الْبَرَّازِينِ، كَانَتْ رَائِحَةُ الْقُطْنِ وَالْحَرِيرِ الْهِنْدِيِّ تَمَلُّ الْأَجْوَاءَ. وَفِي حَيِّ الشُّجَارِ، كَانَ صَوْتُ الْعُقُودِ الَّتِي تُعْقَدُ، وَالْأَصْوَاتِ الْمُتَرَفِّعَةِ لِلتَّفَاوُضِ، وَحَرَكَةُ الْحِسَابَاتِ تُشَكِّلُ سِيمْفُونِيَّةً خَاصَّةً. كَانَ كُلُّ هَذَا الصَّخَبِ وَالْحَرَكَةِ لَا يُغْطِي عَلَى الْحَنِينِ إِلَى الْأُمَجَادِ الْقَدِيمَةِ، وَإِلَى الْأَحْلَامِ الَّتِي لَمْ تَتَحَقَّقْ كُلُّهَا بَعْدُ.

بَوَابَةُ الْمَسْجِدِ وَسِرُّ الْحَلَقَاتِ

وَصَلَ عَاصِمٌ إِلَى بَوَابَةِ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ. لَمْ يَكُنْ مَسْجِدًا كَالْمَسَاجِدِ الَّتِي رَأَاهَا فِي حَيَاتِهِ. كَانَ صَرْحًا لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. فِي سَاحَتِهِ الْوَاسِعَةِ، كَانَتْ هُنَاكَ حَلَقَاتٌ مِنَ النَّاسِ، كُلُّ حَلَقَةٍ لَهَا عَالِمٌ وَلَهَا مَوْضُوعٌ. كَانَتْ هَذِهِ الْحَلَقَاتُ تُمَثِّلُ الْمَعَارِفَ الَّتِي لَمْ تَدَوِّنْ فِي الْكُتُبِ بَعْدُ.

عَلَى بُعْدِ خُطَوَاتِ، كَانَتْ حَلَقَةٌ لِلْفِقْهِ؛ يَتَصَدَّرُهَا عَالِمٌ يُجِيبُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الْعُقُودِ وَالْمُعَامَلَاتِ. تَتَعَالَى الْأَصْوَاتُ وَتَتَدَافَعُ الْحُجَجُ، يُقَدِّمُهَا قَائِلٌ وَيَرُدُّهَا آخَرٌ. وَفِي حَلَقَةٍ أُخْرَى كَانَ عَالِمٌ آخَرٌ يَتَحَدَّثُ عَنِ النَّحْوِ؛ تُتْلَى الشُّوَاهِدُ، وَتُشْرَحُ أَصُولُ الْإِعْرَابِ، وَتُذَكَّرُ أَقْوَالُ أَوَائِلِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ بِلَا تَسْمِيَةِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لِمَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ عُرِفَ بَعْدُ. وَهُنَاكَ، عَلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْمَسْجِدِ، كَانَتْ حَلَقَةٌ
لِلْكَلامِ؛ الْجَدَلُ حَاضِرٌ، وَالْحُجْبُجُ الْعَقْلِيَّةُ تُقَدَّمُ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْعَقِيدَةِ.

كَانَ مَسْجِدُ الْكُوفَةِ يَقُومُ مَقَامَ مَجْمَعٍ عِلْمِيٍّ مُبَكِّرٍ فِي التَّارِيخِ، إِنْ لَمْ
يَكُنْ أَوَّلُهُ فَمِنْ أَوَائِلِهِ بَعْدَ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ؛ حَيْثُ الْعِلْمُ لَيْسَ مُجَرَّدَ كِتَابٍ، بَلْ
حَلَقَةٌ وَحَوَارٍ، وَجُهْدٌ مُتَّصِلٌ لِتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ.

كَانَ عَاصِمٌ يَتَجَوَّلُ بَيْنَ الْحَلَقَاتِ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ. كَانَ حَرْفِيًّا
يَعْرِفُ كَيْفَ يَجْعَلُ الْحَدِيدَ يَطِيعُهُ، وَكَيْفَ يَجْعَلُ الْخَشَبَ يُشَكِّلُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ
يَكُنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَجْعَلُ الْأَفْكَارَ تَطِيعُهُ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ الْمَبَادِيءَ الَّتِي تُحَرِّكُ
كُلَّ هَذَا الْعِلْمِ. وَهُنَاكَ، عَلَى بُعْدِ خُطَوَاتٍ، رَأَى حَلَقَةً جَدِيدَةً، حَلَقَةٌ لَمْ
يَحْضُرْهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ. كَانَ فِيهَا الْإِمَامُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ بِنَظَرَةٍ تُوَحِّدُ
الْقُلُوبَ وَالْعُقُولَ.

مَسْجِدُ الْكُوفَةِ دَارُ عِلْمٍ

لَمْ يَكُنْ مَسْجِدُ الْكُوفَةِ مُحَفِّلًا لِلصَّلَاةِ فَقَطْ، بَلْ قَامَ مِنْبَعًا يَنْبُضُ بِالْعِلْمِ
وَالْحِكْمَةِ وَمَجْمَعًا يَتَسَّعُ لِفُنُونِ الزَّمَانِ. فِي سَاحَتِهِ الْأَفْسِيحَةِ ائْتَقَدَتْ حَلَقَاتُ
مُتَنَوِّبَةٍ لِكُلِّ حَلَقَةٍ عَالِمٍ وَمَوْضُوعٍ وَطَلَبَةٍ، فَعَدَا الْمَكَانُ سُوقًا لِلْمَعْرِفَةِ يَتَبَادَلُ فِيهِ
النَّاسُ بَضَاعَةَ الْفَهْمِ وَيَزِنُونَ قَوْلًا بِقَوْلٍ عَلَى مِيزَانٍ مُحْكَمٍ.

تَنْبَسِطُ قُرْبَ الْمَدْخَلِ حَلَقَةُ الْفِقْهِ، فَيَجْلِسُ أَلْعَالِمُ عَلَى حَصِيرٍ مُتَوَاضِعٍ
وَيَحْفُهُ تُجَارٌ يَسْأَلُونَ عَنْ عُقُودِهِمْ وَفَلَّاحُونَ يَلْتَمِسُونَ حُكْمَ الرَّيِّ وَقَاضٍ
يَسْتَوْضِحُ نَوَازِلَ الْقَضَاءِ. تَتَدَافَعُ الْأَقْوَالُ وَتَتَرَاجَعُ الْبَيِّنَاتُ وَالْمَقْصِدُ وَاحِدٌ:
إِصَابَةُ الْحَقِّ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى الْوَاقِعِ. فَيَصِيرُ الْفِقْهُ عِلْمًا يَعْمَلُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ لَا قَوْلًا
مُجَرَّدًا.

وَتَهْدَأُ فِي رُكْنٍ آخَرَ حَلَقَةُ الْعَرَبِيَّةِ، فَيَرَسُمُ الْمُعَلِّمُ بِيَدِهِ خُطُوطًا عَلَى
الْثُرَابِ وَيُبَيِّنُ أَقْسَامَ الْكَلِمَةِ وَوُجُوهَ الْأَعْرَابِ. يُقِيمُ الْقَاعِدَةَ عَلَى شَاهِدٍ مِنْ
الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ وَيَرْفُضُ التَّكْلُفَ، فَهُنَا تُصَانُ لُغَةُ الْوَحْيِ وَتُرْتَّبُ فِي أَصُولٍ
يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ جَهِلَ اللَّسَانَ حِيلَ بَيْنَهُ وَيَبْنَ فَهْمُ الدَّلِيلِ وَتَحْقِيقُ الْحُكْمِ.

وَتَنْعَقِدُ فِي رُكْنٍ ثَالِثٍ حَلَقَةُ الْعَقِيدَةِ وَالنَّظَرِ، فَتَجْرِي بُحُوثُ التَّوْحِيدِ
وَالصِّفَاتِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَتَسَاقُ الْحُجَجُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُحْكَمَةُ دِفَاعًا عَنِ الْإِيمَانِ.
يَتَحَاوَرُ أَهْلُ النَّظَرِ وَأَهْلُ الْأَثَرِ وَيَرْجِعُونَ فِي الْفَصْلِ إِلَى شَاهِدٍ وَمِيزَانٍ، فَتَقُومُ
الْعِمَارَةُ عَلَى صَنْعَةٍ تَبْنِي وَعَقِيدَةٍ تُقِيمُ الْقَصْدَ وَتَهْدِي الْعَمَلَ.

وَيُظْهَرُ الْمَسْجِدُ فِي جُمْلَتِهِ دَارَ عِلْمٍ وَمَوْئِلَ تَعَاوُنٍ: كِتَابٌ يُتْلَى وَحَلَقَةٌ
تُنَاقَشُ وَمِيزَانٌ يُفَصَّلُ، فَيَرْتَقِي الطَّالِبُ مِنَ السُّؤَالِ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ.

وَيَطْبَعُ هَذَا الْمَجْلِسُ نُفُوسَ الشَّخْصِيَّاتِ وَمَسَائِلَهَا؛ فَيَنْظُرُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمِرَاةَ عَلَى قَدْرِ مَشْرِيبِهِ فَتَنَعَكِسُ حَيْرَتُهُ أَوْ رَجَاؤُهُ أَوْ طَلَبُهُ.

يَتَخَطَّى عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ الْحَلَقَاتِ وَقَدْ أَثْقَلَتْهُ حَيْرَةٌ كَرِيمَةٌ؛ فَتَشْهَدُ يَدَاهُ
لَهُ بِصِيَاغَةِ الْخَشَبِ وَتَطْوِيعِ الْحَدِيدِ وَيَسْأَلُ قَلْبُهُ عَنْ مِيزَانِ لِلْفِكْرِ كَمِيزَانِ
الْمَادَّةِ. يَعْرِفُ أَنَّ لِكُلِّ صَنْعَةٍ أُصُولًا وَأَنَّ لِكُلِّ مَادَّةٍ طَبِيعَةً، ثُمَّ يَلْتَمِسُ مَبَادِيَّ
تُوَلَّفُ بَيْنَ حَرَكَةِ أَلْيَدٍ وَنَظَرِ الْعَقْلِ لِتَسْتَقِيمَ الْحُجَّةُ فِي الْمَحْسُوسِ وَالْمَعْقُولِ.

وَيَرْصُدُ جَابِرُ الْمَشْهَدِ بَعْثِينَ تُحِبُّ التَّجَرُّبَةُ؛ فَيَرَى الْفَقْهَ يَقُومُ مُعَامَلَاتِ
التُّجَّارِ وَيَرَى الْعَرَبِيَّةَ تُقِيمُ لِسَانًا يَصِفُ الْعَالَمَ وَيَرَى بُحُوثَ الْعَقِيدَةِ تُهْدِبُ
مَقَاصِدَ الْقُلُوبِ. يَسْتَدِلُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعُلُومَ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى
نُقْطَةِ الْإِلْتِقَاءِ، فَيَتَّخِذُ مِنَ الْمَسْجِدِ بَدَاءَةً طَرِيقٍ إِلَى سَبِيلٍ مُجَرَّبٍ يَصِلُ فِيهِ
الشَّاهِدُ بِالتَّطْبِيقِ.

وَيَقُومُ الْإِمَامُ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ مِيزَانًا لِلنَّظَرِ؛ فَيَوْحِدُ الْمَرْجِعَ وَيُرِدُّ كُلَّ
فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ وَيَخْتِمُ الْمَشْهَدَ بِجُمْلَةٍ مِيزَانِيَّةٍ تُسْكِنُ النَّفْسَ:

«لِكُلِّ بَابٍ شَاهِدٌ وَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ مِيزَانٌ، فَمَنْ قَامَ بِالشَّاهِدِ وَوَزَنَ قَوْلَهُ
أَسْتَقَامَتْ لَهُ الطَّرِيقُ.»

مَلَامِحُ الْكُوفَةِ الْحَضَارِيَّةِ

خَرَجَ عَاصِمُ الْحَرَفِيِّ مِنْ سَاحَةِ الْمَسْجِدِ فَشَعَرَ أَنَّ الْمَدِينَةَ لَيْسَتْ
جُدْرَانًا وَارِقَةً فَقَطْ بَلْ كَانَتْ يَتَنَفَّسُ وَيُضْحُّ فِي عُرُوقِهِ نَبْضًا لَا يَفْتُرُ. تَبَدَّتْ لَهُ
الْأَحْيَاءُ كَأَسْفَارٍ مَفْتُوحَةٍ لِكُلِّ حَيٍّ قِصَّتُهُ وَصَوْنُهُ وَرَائِحَتُهُ وَإِشَارَتُهُ، فَاسْتَبَانَ أَنَّ
الْعِلْمَ لَا يَنْحَصِرُ فِي حَلْقَةٍ تُقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ بَلْ يَتَجَسَّدُ فِي كُلِّ رُكْنٍ وَيَجْرِي
فِي كُلِّ صَنْعَةٍ.

وَسَارَ فِي أَرْقَةِ الصَّنَاعِ فَاخْتَلَطَتْ فِي أُذُنَيْهِ دَقَاتُ الْمَطَارِقِ عَلَى الْحَدِيدِ
وَالْخَشَبِ وَهَمَّهَاتُ الْعَامِلِينَ، فَتَأَلَّفَ مِنْ ذَلِكَ نَشِيدٌ مُؤَزَّوْنٌ يَقُولُ بِاللِّسَانِ
وَالْحَالِ إِنَّمَا نَحْنُ نَصْنَعُ الْحَيَاةَ. وَكَانَ الْغُبَارُ يَرْقُصُ فِي خُيُوطِ الضِّيَاءِ الْمُنْسَابَةِ
إِلَى الْمَحَارِبِ وَتَتَلَأَلُ شَرَارَاتُ تَنْفُلَتْ مِنْ فَمِ الْكَبِيرِ فَتُضِيءُ لَحْظَةً ثُمَّ تَخْمَدُ.
وَمَالَ خُطُواتٍ إِلَى حَيِّ الْبَرَازِينِ فَتَرَاءَتْ أَلْوَانُ قُطْنٍ وَحَرِيرٍ كَأَمْوَاجٍ تُقَلِّبُهَا أَيْدٍ
حَاذِقَةٌ، وَتَرَادَّتْ أَلْسِنَةُ الْبَائِعِينَ وَالْمُشْتَرِينَ فَارْتَسَمَتْ صُورُهُ مَعَاشٍ يَنْهَضُ عَلَى
الْإِتْقَانِ وَيَسْتَقِيمُ بِالزُّنَّةِ وَالْقِيَاسِ.

وَاتَّجَهَ نَحْوَ سُوقِ التُّجَّارِ فَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ التَّفَاوُضِ وَتَعَاقَبَتْ أَيْدٍ تُقَلِّبُ
صُحُفًا وَأَكْفُ تُحْصِي وَتَرِنُ، وَتَوَالَتْ نَظَرَاتٌ مُتَنَبِّهَةٌ تَتَّبَعُ مَصَالِحَ الْبَيْعِ
وَالشِّرَاءِ. فَافْصَحَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ سَعْيٍ يَرْفُدُ أَلْبِلَادَ وَيُهَيِّئُ لِلطَّالِبِ وَالصَّانِعِ زَادًا

وَأَدَاةٌ، فَيَتَرَاوَرُّ الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ وَلَا يَغْلِبُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ.

وَمَرَّ بِحَيِّ النَّجَّارِينَ فَأَنْبَعَثَتْ رَائِحَةُ الْخَشَبِ الْمُنْحَوْتِ فَذَكَرْتُهُ بِصَبْرِ
الْيَدِ وَدَقَّةِ الْمِسْطَرَّةِ، وَوَقَفَ عَلَى أَبْوَابِ الْحَدَّادِينَ فَسَرَتْ إِلَيْهِ نَفْحَةُ الْمَعْدِنِ
الْمُدَابِ فَأَشَارَتْ إِلَى نُمُوٍّ فِي الصَّنَاعَةِ وَاسْتِمْرَارٍ فِي التَّجَرُّبَةِ، وَمَرَّ بِالْدَّبَّاعِينَ
فَامْتَرَجَتْ أَرْيَاحُ الْجُلُودِ بِعُطُورِ النَّبَاتِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَسْخِيرِ مَا فِي الْأَرْضِ بِعِلْمٍ
وَبَصِيرَةٍ. فَبَدَأَ لَهُ أَنَّ كُلَّ رَائِحَةٍ تَحْمِلُ خَبَرَ صَنْعَةٍ وَأَنَّ كُلَّ صَوْتٍ يَرْفَعُ أَنْشُودَةَ
عَمَلٍ فَتَتَارَزُ الْحَرْفُ وَتَتَنَاسَبُ كَمَا يَتَنَاسَبُ الْقَوْلُ الْمَوْزُونُ مَعَ شَاهِدِهِ.

وَأَنْفَتَحَ لَهُ شَاطِئُ الْفُرَاتِ فَإِذَا سَفِينَةٌ تُلْقِي مِرْسَاهَا وَنَارِلُونَ يَسْعَوْنَ كُلُّ لَهُ
حَاجَةٌ وَغَايَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ مَتَاعًا يُقِيمُ الْمَعِيشَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ صُحُفًا يُقِيمُ
الْمَعْرِفَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَ بِأَمَلٍ يَسُوقُهُ. وَتَتَفَاوَحُ فِي الْمَرْسَى أَلْسِنَةُ وُجُوهُ قَدِمَتْ
مِنْ نَوَاحٍ شَتَّى فَتَتَبَادَلُ مَا عِنْدَهَا مِنْ سِلَعٍ وَخَبَرَاتٍ وَأَمْثَالٍ وَعَبَرٍ، فَيَزِيدُ ذَلِكَ
الْمَوْقِفُ سَعَةً فِي الرِّزْقِ وَفِي الدَّرَايَةِ مَعًا.

وَتَلَاخَقَتْ فِي ذِهْنٍ عَاصِمٍ صُورٌ تَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا كَأَنَّهَا سَلَّمَ يَرْفَى
عَلَيْهِ النَّظَرُ: صَوْتُ الْمَعْمُولِ يَأْتِي بِحَدِّهِ مِنَ الصَّنْعَةِ، وَسُوقٌ يَأْتِي بِتَنْدِيرِهِ مِنَ
التَّجَرُّبَةِ، وَمَرْسَى يَأْتِي بِأَخْبَارِهِ مِنَ الْبِلَادِ فَيَتَسَّعُ مِنْهَا الْفَهْمُ. فَعَرَفَ أَنَّ الْمَدِينَةَ لَا
تُعْطِي ثَمَرَهَا لِمَنْ يَفْقُ عَلَى الظَّاهِرِ، بَلْ تُبَيِّنُ سِرَّهَا لِمَنْ جَمَعَ بَيْنَ قَوْلٍ مَوْزُونٍ
وَفِعْلٍ مَحْسُوسٍ وَرَبَطَ الْأَشْيَاءَ بِمِيزَانٍ يَعْدِلُ بَيْنَهَا.

وَعَادَ يَسْتَدِلُّ بِمَا رَأَى عَلَى مَا لَا يَرَى فَاسْتَقَامَتْ فِي قَلْبِهِ قَاعِدَةٌ بَيِّنَةٌ: لَا يَقُومُ الْعُمَرَانُ بِقَوْلٍ يُتْلَى دُونَ صَنْعَةٍ تَعْمَلُ، وَلَا تَسْتَقِيمُ الصَّنْعَةُ دُونَ قَوْلٍ يُزْنُهَا. فَإِذَا اتَّصَلَ النَّظَرُ بِالْعَمَلِ وَالشَّاهِدُ بِالتَّطْبِيقِ قَامَتِ الطَّرِيقُ وَسَارَ السَّائِرُ وَأَنْفَتَحَتْ لِلْمَدِينَةِ مَعَانٍ تَزِيدُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا تَنْقُطُ.

الْكُوفَةُ كَنْقَطَةُ تَقَاطُعٍ لِلطَّرُقِ الْكُبْرَى

وَقَعَتِ الْكُوفَةُ عَلَى ضِفَافِ الْفُرَاتِ فِي قَلْبِ الْهِلَالِ الْخَصِيبِ فَكَانَتْ نُقْطَةً تَقَاطُعٍ لِلطَّرُقِ الْكُبْرَى وَمَنْزِلَ رِحَالِ الرُّكْبَانِ. وَمِنْهَا خَرَجَتْ قَوَافِلُ تَحْمِيلِ كُتُبٍ وَخَبَرَاتٍ وَأَخْلَاقًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَسَائِرِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا رَجَعَتْ قَوَافِلُ تَفِيضِ سِلْعًا وَأَسْرَارًا وَأَخْبَارًا. وَعِنْدَ سُوقِهَا الْوَاسِعِ الْمُشْرِفِ عَلَى الْمَرْسَى الْوُثِيرِ تَلَاَقَتْ أَلْسِنَةُ وَوُجُوهٌ وَتَقَابَلَتْ عَادَاتٌ وَمَذَاقَاتٌ فَغَدَا الْمَكَانُ مَجْمَعًا تَتَبَادَلُ فِيهِ الْأُمَمُ الْمُنْفَعَةُ وَالْحِكْمَةُ.

وَدَخَلَ عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ السُّوقَ فَأَبْصَرَ مَا لَمْ يَرَ قَبْلَ ذَلِكَ؛ أَطْرَحَهُ فَارِسِيَّةٌ تَتَلَفَّتْ أَلْوَانُهَا وَقُطُنٌ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ يَلِينُ فِي الْكَفِّ وَحَرِيرٌ دَقِيقٌ جَاءَ مِنْ مَسَالِكِ الشَّرْقِ وَصَنَاعَاتٌ يَمْنِيَّةٌ مَصْقُولَةٌ تَجْلُو الْعَيْنَ. وَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ التَّفَاوُضِ وَالْمِزَادِ وَتَرَاوَحَتْ أَكْفُ تَزْنُ وَأُخْرَى تُثَبِّتُ فِي الصُّحُفِ فَأَحَسَّ أَنَّهُ بَيْنَ مِيزَانَيْنِ يَتَعَاوَنَانِ؛ مِيزَانُ سِلْعٍ يَقُومُ بِالْوِزْنِ الْمَحْسُوسِ وَمِيزَانُ عُقُولٍ يَقُومُ بِالتَّجْرِيبَةِ

وَالْإِعْتِبَارِ.

وَتَأَمَّلْ وَجْهَ الرُّكْبَانِ فَرَأَى فِي الْعُيُونِ قِصَصَ الْأَسْفَارِ وَفِي كُلِّ دُكَّانٍ
بَدِيعًا مِمَّا لَمْ يَعْهَدْ فَعَلِمَ أَنَّ الْأَخْتِلَاطَ لَيْسَ عَابِرًا بَلْ هُوَ صِنَاعَةُ عَقْلِ تَهْدُبُ
السُّؤَالَ وَتُنْضِجُ الْمَقْدَارَ وَتُعَلِّمُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَيْفَ يُقَابِلُونَ الْأَشْيَاءَ بِنَظَائِرِهَا
وَيَرُدُّونَ كُلَّ قَوْلٍ إِلَى شَاهِدٍ. ثُمَّ مَالَ نَحْوَ الْمَرْسَى فَإِذَا سَفِينَةٌ تُلْقِي مِرْسَاهَا
وَنَازِلُونَ يَسْعَوْنَ بَيْنَ مَتَاعٍ يُقِيمُ الْمَعِيشَةَ وَصُحُفٍ تُقِيمُ الْمَعْرِفَةَ وَأَمَالٍ تُقِيمُ الْهِمَّةَ
فَاتَّسَعَ الْمَنْظَرُ حَتَّى بَدَأَ لَهُ أَنَّ الْمَدِينَةَ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ يَقْرُوهُ النَّاسُ وَيَكْتُبُونَ فِيهِ.

وَتَوَالَتْ فِي قَلْبِهِ قَاعِدَةٌ مُحْكَمَةٌ مِثْلُ مَا يَتَوَالَى صَوْنُ الْمِيزَانِ عَلَى
الْكَفَّتَيْنِ؛ لَا يَقُومُ الْعِلْمُ بِقَوْلٍ يُتْلَى وَحْدَهُ وَلَا بِحِرْفَةٍ تُزَاوِلُ وَحْدَهَا بَلْ يَسْتَقِيمُ
بِاتِّحَادِ النَّظَرِ وَالْعَمَلِ وَيَزْدَهَرُ بِانْصِهَارِ السُّوقِ وَالْحَلَقَةِ. فَإِذَا اجْتَمَعَ الشَّاهِدُ
وَالْتَّطَبَّقَ وَتَقَابَلَتِ الْمَنَافِعُ وَالْمَعَارِفُ قَامَ الْعُمَرَانُ وَانْفَتَحَتْ لِلْمَدِينَةِ مَعَانٍ
جَدِيدَةٌ كُلُّ يَوْمٍ لَا تَنْقَطِعُ.

الْأُزْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ لِلْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

نَظَرَ كَثِيرٌ إِلَى الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ فَرَأَهُ رَوْضًا مُزْدَهَرًا يَجْرِي فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى نِظَامٍ آسِرٍ وَتَتَفَتَّحُ فِيهِ الْعُلُومُ وَالْفُنُونُ بِلَا عَثْرَةٍ. وَكَشَفَتِ الْأَخْبَارُ الْقَدِيمَةُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا أَنَّ تِلْكَ الْفَتْرَةَ مَعَ بَهَائِهَا لَمْ تَخُلْ مِنْ شُقُوقٍ دَقِيقَةٍ فِي الْبُنْيَانِ؛ خَفِيَّةٍ لِلْعَيْنِ وَبَالِغَةٍ فِي الْأَثَرِ. وَبَدَتْ فِي قَلْبِ ذَلِكَ الْمَسِيرِ أُزْمَةٌ عَمَلِيَّةٌ لَا تَقِفُ عِنْدَ جِدَالِ الْفِكْرِ بَلْ تَمَسُّ الصَّنْعَةَ وَالزَّرَاعَةَ وَمَعَاشَ النَّاسِ كُلِّ يَوْمٍ.

تَمَثَّلَتِ الْأُزْمَةُ فِي غِيَابِ طَرَائِقَ مَدَوْنَةٍ تُقَوِّمُ الْحِرَفَ وَتَضْبِطُ أَعْمَالَ الرِّبِّ وَالزَّرْعِ وَسَائِرِ الْمِهَنِ. وَأَعْتَمَدَتِ الْمَهَارَةُ عَلَى خِبْرَةِ مَكْنُونَةٍ يَنْقُلُهَا الْأُسْتَاذُ إِلَى التَّلْمِيزِ بِالْمُحَاكَاةِ فَيُحَسِّنُ هَذَا وَيُخْفِي ذَكَ، ثُمَّ لَا يَبْقَى لِلْسَّرِّ دَفْتَرٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَلَا قَاعِدَةٌ يَسْتَوِي عَلَيْهَا الْعَامِلُونَ. فَلَمْ تَثْبُتِ التَّجَارِبُ فِي كُتُبٍ وَلَمْ تَنْتَظِمِ الْخُطُوبَاتُ فِي مَوَازِينٍ وَقَدَارَاتٍ، فَتَعَدَّرَ تَكَرُّرُ النَّتِيجَةِ عَلَى يَدَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَأَضْطَرَبَتِ الْجَوْدَةُ بَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ.

وَأَتَّسَعَ الْمَصْرُ سِيَاسَةً وَمَعَاشًا وَفِكْرًا فَازْدَادَتْ الْحَاجَةُ إِلَى إِنْتَاجِ كَثِيرٍ مَضْبُوطٍ يُوفِّي مَطَالِبَ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ. وَلَمْ يَسَعِ التَّعْوِيلُ عَلَى الْخِبْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَحَدَهَا أَنْ يُؤَكِّدَ الْجَوْدَةَ وَيُدِيمَ الْإِبْتِدَاعَ؛ فَالْأَسْوَاقُ تَطْلُبُ مَقْدَارًا مَعْرُوفًا وَوَقْتًا مَحْسُوبًا وَوَحْدَاتٍ مُوَحَّدَةً، وَذَلِكَ كُلُّهُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِقَوَاعِدَ مُشْتَرَكَةٍ تُجْمَعُ وَتُتَابَعُ وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا الْقَلَمُ وَالْمِيزَانُ.

وَأَوْقَدَ هَذَا الْخَلْلَ فِي قُلُوبِ بَعْضِ النُّظَّارِ بَحْثًا جَادًّا عَنْ طَرِيقٍ يَجْمَعُ بَيْنَ حَرَكَةِ أَلْيَدٍ وَنَظَرِ أَلْعَقْلِ؛ طَرِيقٍ تُكْتَبُ فِيهِ الْخُطُوبَاتُ وَتُسَمَّى الْأَدَوَاتُ وَتُقَاسُ الزِّيَادَاتُ وَالنَّقْصَانَاتُ، فَيُصْبِحُ «دَفْتَرُ التَّجَرُّبَةِ» وَ«دَفْتَرُ الْإِعْتِبَارِ» سُلَمَيْنِ يُرْقَى عَلَيْهِمَا مِنَ التَّقْلِيدِ إِلَى التَّقْعِيدِ وَمِنَ الْمُصَادَفَةِ إِلَى الْقَصْدِ. وَهُنَالِكَ يَلْتَقِي الْقَوْلُ الْمَمُوزُونَ بِالْفِعْلِ الْمَحْسُوسِ فَيَنْشَأُ نُورٌ جَدِيدٌ يُبْصِرُ الصَّنْعَةَ وَيُثَبِّتُ لَهَا مَعْيَارًا يُتَوَارَثُ بِالْكِتَابَةِ كَمَا يُتَوَارَثُ بِالتَّعَلُّمِ.

وَبِهَذِهِ الْخُلَاصَةِ تَبَيَّنَ أَنَّ رَاحَةَ الْعُمَرَانِ لَا تَنِمُّ إِلَّا إِذَا انْقَلَبَ السِّرُّ الْمَهْنِيُّ عِلْمًا مُشَاعًا مَكْتُوبًا وَانْتَقَلَ التَّقْلِيدُ إِلَى طَرَائِقِ مَوْزُونَةٍ يُشْهَدُ عَلَيْهَا وَتُكْرَرُ بِغَيْرِ الْمُصَادَفَةِ. فَإِذَا اتَّحَدَتِ أَلْيَدُ وَالْعَقْلُ وَاتَّصَلَ الشَّاهِدُ بِالتَّطْبِيقِ ثَبَتَتْ لِلْحَضَارَةِ قُوَّةٌ تُنَبِّتُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَسْتَدْرِجُ مِنَ الزِّيَادَةِ مَا يَدْفَعُ عَنْهَا الضَّعْفَ وَالْخَلَلَ.

أَزْمَةُ الْقِيَاسِ فِي الصَّنَاعَةِ

فِي قَلْبِ الْكُوفَةِ حَيْثُ تَتَشَعَّبُ الْأَزَقَةُ الضَّيِّقَةُ وَتَتَفَتَّحُ الْحَارَاتُ كَأُورَاقِ كِتَابٍ قَدِيمٍ يَتَعَاقَبُ قُرَاؤُهُ، كَانَ عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ يَقْضِي نَهَارَهُ بَيْنَ حَانُوتِهِ وَسُوقِهِ. لَيْسَ فِي حَانُوتِهِ إِلَّا مِدْقٌ وَمِنْشَارٌ وَمِسْطَرَّةٌ وَقِسِيَّاتٌ مِنْ خَشَبٍ وَحِرَامٌ جِلْدٍ يَشْدُو لَهُ قِطْعَتَيْنِ حَتَّى يَسْتَقِيمَا عَلَى قَدَرٍ مُحَدَّدٍ. تَتَلَطَّخُ الْأَرْضُ بِبُرَادَةِ الْخَشَبِ وَتَفُوحُ رَائِحَةُ الْمَعْدِنِ الْمُسَخَّنِ وَيَرْتَجِفُ الْهَوَاءُ بِرَجْعِ الْمِقْطَعِ عَلَى الطَّاوِلَةِ. هُنَالِكَ كَانَ الصَّانِعُ مِيزَانَ نَفْسِهِ وَخَبِيرَتَهُ شَرِيعَتَهُ، فَلَا قَاعِدَةَ مَدُونَةٍ تُسَاوِي بَيْنَ الْأَيْدِي وَلَا طَرِيقَةَ مُحْكَمَةٍ تُوحِّدُ مَرَاتِبَ الْعَمَلِ مِنْ تَسْمِيَةِ الْأَدَوَاتِ إِلَى مَقَادِيرِ الزَّمَنِ وَخُدُودِ الْخَلَلِ.

وَعَلَى قُرْبٍ مِنْهُ يَقُومُ أَبُو سَلَمَةَ بِأَدَوَاتٍ مِثْلِ أَدَوَاتِهِ وَبِخَشَبٍ مِنْ نَوْعِ خَشَبِهِ فَيَرْتَفِعُ عَمَلُهُ فِي السُّوقِ وَيُرْكَنُ عَمَلُ عَاصِمٍ إِلَى الْجَانِبِ. فَأَيْنَ مَوْضِعُ التَّفَاوُتِ لَيْسَ فِي الْأَدَوَاتِ وَحْدَهَا وَإِنَّمَا فِي مِيزَانِ خَفِيِّ يَعْرِفُهُ الْقَلِيلُ وَتَضِيعُ مَعَالِمُهُ عِنْدَ الْكَثِيرِ. كَانَ الْقِيَاسُ هُنَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْيَدِ وَالْيَدُ تَتَعَبُ وَتَخْتَلِفُ وَتَكْتَسِبُ مَزَاجَهَا مِنْ صَاحِبِهَا، فَلَا تُعْطِي نَتِيجَةً مُتَكَرِّرَةً وَلَا جُودَةً مُوَحَّدَةً.

وَلَمْ تَقِفِ الْمَسْأَلَةُ عِنْدَ تَسَاوِي الْأَدَوَاتِ وَاخْتِلَافِ النَّتِيجَةِ، بَلْ بَرَزَتْ مُعْضِلَةُ الْإِبْتِكَارِ؛ فَالصَّانِعُ يُقَلِّدُ مَا رَأَى وَإِذَا هُمْ أَنْ يَزِيدَ أَوْ يُحَسِّنَ عَادَ إِلَى طَرِيقَةِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمُحَاوَلَةُ وَالْخَطَأُ، فَيُضَيِّعُ أَيَّامًا فِي تَجَارِبٍ لَا تُثَبِّتُ فِي دَفْتَرٍ وَلَا تُحْمَلُ إِلَى غَيْرِهِ. هَكَذَا يَبْدَأُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ السَّابِقُ لَا مِنْ حَيْثُ انْتَهَى، فَتَتَفَرَّقُ الْقُوى وَتَضَيِّعُ خَبِرَاتٌ نَمِينَةً فِي هَوَاءِ الْوَرِشَةِ كَالْتُّرَابِ يَثُورُ ثُمَّ يَهْبِطُ.

وَفِي السُّوقِ تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الْأَزْمَةُ إِلَى كُلْفَةٍ عَلَى الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي؛ فَالْتَّاجِرُ لَا يَعْرِفُ قِيَمَةَ السِّلْعَةِ إِلَّا بَعْدَ الرُّؤْيَةِ وَالِاخْتِبَارِ، وَلَا يُوجَدُ اصْطِلَاحُ مُشْتَرِكٍ يَدُلُّ عَلَى مَرَاتِبِ الْحَوْدَةِ وَحُدُودِ السَّمَاكِ. وَمَعَ اَزْدِحَامِ الْأَسْوَاقِ وَتَدَافُعِ الرِّكَابِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ تَكْثُرُ مَسَالِكُ الْغِشِّ وَتَضْطَرِبُ الْأَسْعَارُ وَتَنْقَطِعُ ثِقَةُ النَّاسِ. وَإِنَّ الْمِيزَانَ إِذَا ضَعُفَ فِي حَانُوتٍ ضَعُفَ فِي سُوْقٍ، وَإِذَا ضَعُفَ فِي سُوْقٍ هَزَّ عُمْرَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٥٢)

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْمِيزَانِ أَصْلٌ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالْعُمْرَانِ.

وَيَمْتَنِدُ الْحَلَلُ مِنَ الْحِرْفِ الْيَدَوِيَّةِ إِلَى الْمَشِيدَاتِ الْكُبْرَى؛ تُشِيدُ فَنَاطِرُ وَجُسُورٌ عَلَى فِطْنَةِ مُهَنْدِسٍ وَتَجَارِبِ سِنِينَ دُونَ قَوَاعِدِ مُحْكَمَةٍ تُسَمَّى الْأَقْدَارَ وَتُحَدِّدُ مَرَاتِبَ الْأَثْقَالِ وَمَقَادِيرَ الدَّعَائِمِ وَحُدُودَ الْخَطَرِ. فَإِذَا وَقَعَ خَلَلٌ صَغِيرٌ فِي تَقْدِيرِ انْقِلَابٍ إِلَى كَارِثَةٍ، لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَا تُكْتَبُ لِيَرْجَعَ إِلَيْهَا غَيْرُ صَاحِبِهَا وَلَا تُعْرَضُ عَلَى مِيزَانٍ مُشْتَرِكٍ.

وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ حَاجِزٌ خَفِيٌّ فِي عَقْلِيَّةِ الزَّمَانِ يَفْصِلُ بَيْنَ عِلْمٍ مَقْرُوءٍ فِي
الْحَلَقَاتِ كَأَلْفِهِ وَاللِّسَانِ وَالنَّظَرِ، وَبَيْنَ عِلْمٍ مَمْرُوسٍ فِي الْحَانُوتِ كَالصَّنَاعَةِ
وَالزَّرَاعَةِ. فَلَا يَرَى بَعْضُ النُّظَّارِ أَنَّ صِنْعَةَ الْحَدِيدِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلتَّدْوِينِ، وَلَا يَلْتَفِتُ
بَعْضُ الصُّنَّاعِ إِلَى قَوَاعِدِ التَّحْرِيرِ وَالتَّفْعِيدِ فِي الْأَلْفَافِ وَالْمَعَانِي. هَذَا التَّفَكُّكُ
حَرَمَ الْمَدِينَةَ وَحَدَّةَ الْمِيزَانِ وَتَرَكَهُمُ الْمَعْرِفَةَ.

ثُمَّ إِنَّ أَسْرَارَ الْمَهَنِ تَتَدَاوَلُ شَفَوِيًّا فَيَمُوتُ كَثِيرٌ مِنْهَا بِمَوْتِ أَهْلِهَا. يُمَكِّنُ
لِصَانِعٍ أَنْ يُحْسِنَ سَيْفًا لَا يَنْكَسِرُ ثُمَّ لَا يَقْدِرُ غَيْرُهُ عَلَى نَظِيرِهِ لِأَنَّ حُدُودَ التَّسْقِيَةِ
وَمَقَادِيرَ النَّارِ وَأَزْمَنَةُ التَّبْرِيدِ لَمْ تُسَمَّ وَلَمْ تُكْتَبْ. وَهَكَذَا تَعْدُمُ الصَّنَاعَةُ ذَاكِرَتَهَا،
فَلَا إِسْنَادٌ لِلْمَهْنَةِ وَلَا كُتُبٌ طَبَقَاتٍ تُحْفَظُ فِيهَا طُرُقُ الْعَمَلِ وَحُدُودُهُ.

عِنْدَ هَذَا الْمَفْصِلِ يَتَبَيَّنُ لِلنَّاظِرِ أَنَّ حَاجَتَنَا لَيْسَتْ إِلَى قُطْعَةٍ أَدَاةٍ جَدِيدَةٍ
بَلْ إِلَى طَرِيقَةٍ تُنْشِئُ الْأَدَاةَ وَتُقَوِّمُهَا وَتَجْعَلُ النَّتِيجَةَ تَخْرُجُ مُتَشَابِهَةً إِذَا تَشَابَهَتِ
الْأَسْبَابُ. طَرِيقَةُ تَنْمُو كَمَا تَنْمُو النَّبَاتَةُ عَلَى مَاءٍ مُقَدَّرٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَرِعَايَةٍ دَائِمَةٍ.
وَهَذِهِ هِيَ الْحَاجَةُ الْمُنْهَجِيَّةُ الَّتِي نُرِيدُ لِلْقَارِي أَنْ يُبْصِرَهَا وَيَتَتَبَعَ نُمُوَهَا
وَأَسْتِقَامَتَهَا.

فَكَيْفَ تَنْشَأُ الطَّرِيقَةُ وَكَيْفَ تَنْتَشِرُ

تَبَدُّلاً بِتَسْمِيَةِ الْأَدَاةِ وَوَصْفِ الْمَادَّةِ وَتَحْدِيدِ الْقَدْرِ وَتَرْتِيبِ الْخُطُواتِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ تُجَرَّبُ فِي حَانُوتَيْنِ عَلَى يَدَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ فَإِذَا تَشَابَهَتِ النَّتِيجَةُ عُلِمَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ صَالِحَةً لِلنَّقْلِ. ثُمَّ يُكْتَبُ ذَلِكَ فِي دَفْتَرِ التَّجَرُّبَةِ وَيُلْحَقُ بِهِ دَفْتَرُ الْإِعْتِبَارِ لِتُسَجَّلَ الْقَوَادِحُ وَمَوَاضِعُ الْخَلَلِ. ثُمَّ يُتَابَعُ التَّطْبِيقُ فِي أَمَاكِنَ شَتَّى وَأَزْمَنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لِتُعْرَفَ حُدُودُ الطَّاقَةِ وَمَرَاتِبُ الْأَدَاءِ. ثُمَّ تُقَوَّمُ الطَّرِيقَةُ وَتُنْفَخَ وَتُلَخَّصَ فِي صِغَةٍ مَعْيَارِيَّةٍ يَسْتَوِي عَلَيْهَا الصَّانِعُونَ. ثُمَّ تُنَشَرُ فِي حَلَقَاتِ التَّعْلِيمِ وَمَجَالِسِ الْحَرْفِ وَتُلَزَمُ بِهَا الْعُقُودُ فِي السُّوقِ فَيُصْبِحُ الْمِيزَانُ مُشْتَرَكًا وَالْجُودَةُ مَعْرُوفَةً وَالثَّقَّةُ قَائِمَةً. ثُمَّ يُرَاجَعُ الْقَضَاءُ وَأَهْلُ الشَّهَادَةِ هَذِهِ الطَّرَائِقَ فَيَحْفَظُونَ حُقُوقَ النَّاسِ وَيَرُدُّونَ النَّزَاعَ إِلَى مِيزَانٍ ظَاهِرٍ.

هَكَذَا تَنْبُتُ الطَّرِيقَةُ وَتَكْبُرُ: مُشَاهَدَةٌ تُنْتِجُ تَجَرُّبَةً، وَتَجَرُّبَةٌ تُنْتِجُ تَكَرُّرًا، وَتَكَرُّرٌ يُنْتِجُ قَاعِدَةً، وَقَاعِدَةٌ تُنْتِجُ عَدْلًا فِي الْكِفَاتَيْنِ. وَمَعَ كُلِّ دَوْرَةٍ يَقِلُّ الْهَدَرُ وَيَثْبُتُ الْقَدْرُ وَتَسْتَمِرُّ الزِّيَادَةُ عَلَى نِسْبَةٍ مَعْقُولَةٍ فَلَا يَكُونُ النُّمُوُّ فَوْرَةً تَنْقَطِعُ وَلَا سُرْعَةً تُفْضِي إِلَى الْخِتَالِ، بَلْ هُوَ نُمُوٌّ مُوزُونٌ مُسْتَدَامٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الْقَمَرِ: ٤٩)

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ صَفَاءَ الْقَدَرِ أَصْلٌ فِي التَّدْبِيرِ كَمَا هُوَ أَصْلٌ فِي الْخَلْقِ.

وَعِنْدَ هَذَا الْمَفْصِلِ يَدْخُلُ الْإِمَامُ بِبَصِيرَتِهِ فَيَجْمَعُ أَهْلَ الْحَلَقَاتِ وَأَهْلَ

الْحَرْفِ عَلَى مِثَاقٍ يَرْفَعُ سِرَّ الْمِهْنَةِ إِلَى عِلْمٍ مَكْتُوبٍ وَيَجْعَلُ الْمِيزَانَ شَاهِدًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. يُسَمَّى الْأَدَوَاتِ وَالْمَوَادِّ وَمَرَاتِبِ الْخُطُوبَاتِ وَخُدُودِ الْخَطَرِ وَمَوَاضِعِ الْقُوَّةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ دَفَاتِرَ التَّجْرِبَةِ وَسِجَلَاتِ الْجُودَةِ وَمَعْيَارَاتِ الشُّوقِ، فَيَعْمَلُو الصَّنِيعَ عَلَى قَاعِدَةٍ وَيَرْتَفِعُ الْإِبْتِكَارُ عَلَى شَاهِدٍ، وَيُصْبِحُ الْمُجْتَمَعُ قَادِرًا عَلَى تَوْسِيعِ الصَّنَاعَةِ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ رُوحَهَا وَلَا عَدْلَ مِيزَانِهَا.

فَإِذَا تَمَاسَكَتِ الطَّرِيقَةُ وَطَالَ عَلَيْهَا الزَّمَانُ، نَمَتْ أَدَوَاتُ جَدِيدَةٍ مِنْ جَوْفِهَا، وَتَوَلَّدَتْ مَقَادِيرُ أَدَقُّ، وَتَسَاوَى فِي التَّعْلِيمِ مَنْ كَانَ يَسْتَعْلِقُ عَلَيْهِ الْأَمْسُ وَمَنْ كَانَ يُعَدُّ مُتَفَوِّقًا. هُنَالِكَ تَسْتَقِيمُ الصَّنَاعَةُ وَتَزْدَهَرُ الْأَسْوَاقُ وَتَأْمَنُ الْأَحْكَامُ لِأَنَّ شَاهِدَ الْحَقِّ ظَاهِرٌ وَمِيزَانَ الْعَدْلِ مُقَامٌ. وَبِذَلِكَ يَفْهَمُ الْقَارِئُ أَنَّ الْحَاجَةَ الْمُنْهَجِيَّةَ لَا تُقْضَى فِي فَوْرَةٍ وَلَا تُسْتَجَلَبُ بِشِعَارٍ، بَلْ تَنْشَأُ وَتَكْبُرُ عَلَى خُطُوبَاتِ مُوزُونَةٍ وَشُهُودٍ مُتَكَرِّرٍ وَكِتَابَةٍ مُحْكَمَةٍ وَتَعَاهُدٍ مُسْتَدَامٍ، حَتَّى يُصْبِحَ الْمِيزَانُ خُلُقًا فِي الْيَدِ كَمَا هُوَ قَاعِدَةٌ فِي الْعَقْلِ.

تَحَدِّيَاتُ الزَّرَاعَةِ وَالْهَنْدَسَةِ الزَّرَاعِيَّةِ

تَسَرَّبَتِ الْأَزْمَةُ مِنْ وَرَشِ الصَّنَاعِ إِلَى حُقُولِ الزَّرَاعِ، فَمَا نَقَصَ الْمِيزَانُ فِي الْحَانُوتِ إِلَّا ظَهَرَ نَقْصُهُ فِي الْحَقْلِ. وَقَامَتِ الْكُوفَةُ بِمَوْضِعٍ مُمَيَّزٍ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ فِي قَلْبِ الْهَلَالِ الْخَصِيبِ فَفَاضَتْ خَيْرَاتُهَا، ثُمَّ بَدَأَ أَنْ الْخِصْبُ

وَحَدَهُ لَا يَكْفِي مَا لَمْ يُدْعَمْ بِطَرِيقَةٍ مُوزُونَةٍ تُقِيمُ الزَّرَاعَةَ عَلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ وَمِيزَانٍ مُشْتَرَكٍ.

وَكَانَ فِي حَيِّ الزَّرَّاعِ عَبْدُ اللَّهِ الْفَلَّاحُ يَنْظُرُ إِلَى سَاقِيَّتِهِ الصَّغِيرَةِ وَقَدْ جَرَى فِيهَا الْمَاءُ خَائِرًا؛ يَبْلُغُ أَوَّلَ الْحَقْلِ ثُمَّ يَضْعُفُ قَبْلَ آخِرِهِ. بَنَى السَّاقِيَةَ كَمَا رَأَاهَا عِنْدَ أَبِيهِ وَجَدَّهُ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ مِقْدَارَ الْمِيلِ الَّذِي يَجِبُ لِلْأَرْضِ، وَلَا حِسَابَ جَرَيَانِ الْمَاءِ فِي الْقَنَاةِ، وَلَا حُدُودَ الثَّرْبَةِ مَا تَحْتَمِلُهُ وَمَا تَضُرُّهُ. فَإِنْ زَادَ الْمَاءُ غَرِقَتْ الْجُذُورُ وَفَسَدَتْ الْأَرْضُ، وَإِنْ قَلَّ عَطِشَ النَّبَاتُ وَضَعُفَ الْحَصَادُ. هُنَالِكَ تَبَدَّتْ أَزْمَةُ الْمَنْهَجِ فِي الزَّرَاعَةِ: عَمَلٌ مَأْثُورٌ لَا قَاعِدَةَ مَكْتُوبَةً لَهُ، وَتَجَرُّبَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ لَا دَفْتَرَ لَهَا.

وَكَانَ الْمَوَاسِمُ تُتَلَقَّى بِحَدْسِ السَّنِينَ، فَإِذَا اضْطَرَبَ الْجَوْ اضْطَرَبَ مَعَهُ الْحَصَادُ. لَا سِجْلٌ لِلرَّصْدِ يُبَيِّنُ مَا نَزَلَ مِنْ غَيْثٍ وَمَا هَبَّ مِنْ رِيحٍ وَمَا غَابَ مِنْ بَرْدٍ وَحَرٍّ، وَلَا تَقْوِيمٌ يُبَيِّنُ مَوَاقِيتَ الزَّرْعِ وَالْحَصَادِ عَلَى شَاهِدٍ يَشْتَرِكُ فِيهِ الزَّرَّاعُ. فَتَكُونُ سَنَةٌ تُفِيضُ وَأُخْرَى تَشْجُحُ، ثُمَّ لَا يَعْرِفُ النَّاسُ لِمَ فَاضَتْ تِلْكَ وَلِمَ شَحَّتْ هَذِهِ.

ثُمَّ إِنَّ غِيَابَ الْقِيَاسِ يَبْلُغُ الْمَشَارِعَ الْكُبْرَى؛ فَتُخَفَّرُ قَنَوَاتُ وَتُقَامُ سُدُودٌ عَلَى حَذَقٍ مُشْرِفٍ وَمَجَارِبَ سِنِينَ، دُونَ قَوَاعِدَ مُحْكَمَةٍ تُسَمَّى عُرْضَ الْمَجْرَى وَعُمُقُهُ وَمِيلُهُ وَحَدُّ الطُّوفَانِ وَقَدَرُ التَّصْرِيفِ فِي كُلِّ بَابٍ. فَإِذَا زَادَ الْمَاءُ وَقْصُرَتْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمَخَارِجُ انْقَلَبَ الْفَضْلُ غَمْرًا، وَإِذَا قَلَّ الْمَاءُ وَاسْتَحَفَّ النَّاسُ بِحُقُوقِ الرَّيِّ
تَفَاوَتْ الْحِصَادُ وَظَلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١٨)،

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ فِي الْمَاءِ أَصْلٌ فِي التَّدْيِيرِ كَمَا هُوَ أَصْلٌ فِي
التَّكْوِينِ.

وَعَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَا يَتَحَقَّقُ الْإِنْتَاجُ الْوَفِيرُ وَلَا تَسْتَمِرُّ الزِّيَادَةُ عَلَى
نِسْبَةٍ مَعْقُولَةٍ، لِأَنَّ عَمَلَ الزَّرَاعَةِ يَبْقَى فَنًّا شَخْصِيًّا لَا عِلْمًا جَمْعِيًّا. فَإِذَا تُوَفِّيَ
زَارِعٌ مُحْكَمٌ مَاتَتْ مَعَهُ طَرِيقَةٌ، وَإِذَا اعْتَلَّ نَاطِرُ الْمَجْرَى اعْتَلَّتْ مَعَهُ أَقْدَارُ الْمَاءِ
فِي الْقَرْيَةِ كُلِّهَا.

هُنَالِكَ تَنْشَأُ الْحَاجَةُ الْمُنَهْجِيَّةُ الَّتِي نُرِيدُ لِلْقَارِي أَنْ يَرَاهَا وَيَتَّبَعَ نُمُوهَا
نُمُوًّا مُسْتَدَامًا مُوزُونًا، لَا فَوْرَةً تَظْهَرُ ثُمَّ تَنْقَطِعُ. وَمِفْتَاحُهَا طَرِيقَةُ زِرَاعِيَّةٌ تُقِيمُ
مَرَاتِبَ الْعَمَلِ عَلَى تَسْمِيَةٍ وَتَقْدِيرٍ وَتَجَرُّبَةٍ وَتَدْوِينٍ وَتَدَاوُلٍ:

تَبْدَأُ بِتَسْمِيَةِ الْأَدَوَاتِ وَتَحْدِيدِ أَفْسِسَتِهَا؛ فَيَعْرِفُ مِقْيَاسَ الْمِيلِ (خَيْطُ
مَشْدُودٌ مَعَ عَصَا مُسْتَوِيَّةٍ)، وَمِكْيَالِ السَّقْيِ (قَدَرٌ يُمْلَأُ فِي الزَّمَنِ الْمَعْلُومِ)، وَقَدْرُ
الْمَجْرَى (عَرْضًا وَعُمُقًا)، وَحُدُودُ الثَّرْبَةِ (مَا تَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَاءِ وَمَا تَضُرُّهُ). ثُمَّ
تُقَاسُ الْأَرْضُ بِذِرَاعٍ أَوْ قَصَبَةٍ عَلَى سَطُورٍ تُرْسَمُ بِالطِّينِ أَوْ الْحَبْرِ لِيُعْرَفَ مِيلُ

الْأَسْطَحُ. ثُمَّ تُجْرَى التَّجَرُّبَةُ فِي مَوْضِعَيْنِ عَلَى يَدَيْنِ، فَإِنْ تَشَابَهَتِ النَّتِيجَةُ عِلْمٌ أَنَّ الطَّرِيقَةَ صَالِحَةً لِلنَّقْلِ.

ثُمَّ يُفْتَحُ دَفْتَرُ السَّقْيِ فَيُكْتَبُ فِيهِ: الْمَوْضِعُ وَالْيَوْمُ وَقَدْرُ الْمَاءِ وَمُدَّةُ الْفَتْحِ وَحَالُ النَّبَاتِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَسَبْعَةٍ وَخَمْسَةِ عَشَرَ. وَيُلْحَقُ بِهِ سَجَلٌ لِلرَّصْدِ يُثَبَّتُ مَا هَبَّ مِنْ رِيحٍ وَمَا سَقَطَ مِنْ مَطَرٍ وَمَا عَلَا مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ. ثُمَّ تُجْمَعُ الدَّفَاتِرُ فِي مَجْلِسِ السَّقْيِ لِيُقَوِّمَهَا الْفَلَّاحُونَ مَعَ نَاطِرِ الْمَجْرَى، فَيَتَفَقَّهُوا عَلَى مِقْدَارَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ: قَدْرُ التَّسْقِيَةِ لِكُلِّ أَرْضٍ، قَانُونُ الْمِيلِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ التُّرْبَةِ، حُدُودُ الْمَنَعِ عِنْدَ السَّيْلِ، سَاعَاتُ الْمُدَاوَلَةِ بَيْنَ الْحِيرَانِ.

ثُمَّ يُقِيمُ الزَّرَّاعُ تَقْوِيمًا لِلزَّرْعِ وَالْحَصَادِ يُعْتَمَدُ فِيهِ عَلَى الْأَهْلَةِ وَأَنْوَاءِ الرِّيَّاحِ وَشَاهِدِ الرَّصْدِ فِي الدَّفَاتِرِ، فَلَا يَكُونُ الْبَابُ تَقْلِيدًا أَعْمَى بَلْ مَعْرِفَةً مَكْتُوبَةً تَزِيدُ كُلَّ سَنَةٍ. ثُمَّ تُلْزَمُ بِهَا الْعُقُودُ فِي السُّوقِ، فَيُسَمَّى قَدْرُ الْجَوْدَةِ فِي الْحِنْطَةِ وَالْتَمَرِ وَسَائِرِ الْمَحَاصِيلِ، وَيُرَاجَعُ الْقُضَاةُ مَا يَقَعُ فِيهِ النِّزَاعُ عَلَى مِيزَانٍ ظَاهِرٍ.

وَهَكَذَا تَنْشَأُ الطَّرِيقَةُ وَتَكْتَبُرُ: مُشَاهَدَةٌ تُنْتِجُ تَجَرُّبَةً، وَتَجَرُّبَةٌ تُنْتِجُ تَكَرُّرًا، وَتَكَرُّرٌ يُنْتِجُ قَاعِدَةً، وَقَاعِدَةٌ تُنْتِجُ عَدْلًا فِي الْمَاءِ وَالْحَقِّ. وَمَعَ كُلِّ دَوْرَةٍ يَقِلُّ الْهَذَرُ وَتَثَبُّتُ الْقِيَمَةُ وَتَسْتَمِرُّ الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ، فَلَا يَكُونُ النُّمُوُّ فَوْرَةً تَنْقَطِعُ وَلَا سُرْعَةً تُفْضِي إِلَى الْإِخْتِلَالِ بَلْ هُوَ نُمُوٌّ مُوزُونٌ مُسْتَدَامٌ.

وَعِنْدَ هَذَا الْمَفْصِلِ يَدْخُلُ الْإِمَامُ فَيَجْمَعُ أَهْلَ الْحَلَقَاتِ وَأَهْلَ الزَّرَاعَةِ عَلَى مِثَاقٍ تُرْفَعُ فِيهِ أَسْرَارُ الْحَقُولِ إِلَى عِلْمٍ مَكْتُوبٍ، وَيُجْعَلُ الْمِيزَانُ شَاهِدًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَتُسْتَقِيمُ فَنَوَاتُ الرَّيِّ عَلَى قَدَرٍ، وَتَأْمَنُ سُنَّةُ التَّعَاوُضِ بَيْنَ الْجِيرَانِ، وَتَرْتَقِي الزَّرَاعَةُ مِنْ فَنِّ شَخْصِيٍّ إِلَى عِلْمٍ جَمْعِيٍّ يَنْقُلُهُ الدَّفْتَرُ كَمَا تَنْقُلُهُ الْيَدُ. فَإِذَا طَالَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الزَّمَانُ وَامْتَحَنَهَا الصَّيْفُ وَالشِّتَاءُ نَمَتْ مَعَهَا أَدَوَاتٌ أَدَقُّ وَمَقَادِيرُ أَحْكَمُ، وَاسْتَوَى فِي التَّعْلِيمِ مَنْ كَانَ يَسْتَغْلِقُ عَلَيْهِ الْأَمْسُ وَمَنْ كَانَ يُعَدُّ مُتَفَوِّقًا؛ وَذَلِكَ هُوَ سَبِيلُ الزِّيَادَةِ الْمُسْتَدَامَةِ الَّتِي تُخْرِجُ مِنَ الْخَضَبِ عَدْلًا وَمِنْ أَلْمَاءِ قَدْرًا وَمِنْ الزَّرْعِ قِيَمًا تَقُومُ بِهَا الْأَرْضُ وَيَقُومُ بِهَا الْعُمَرَانُ.

الْمَحْوَرُ الْأَوَّلُ: مُغَامَرَةُ الْكَوْنِ

هَذَا الْمَحْوَرُ يَفْتَحُ لَنَا بَابَ التَّعَجُّبِ الْأَوَّلِ: بَابَ النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ كِتَابًا مَبْسُوطًا، تُتْلَى آيَاتُهُ فِي الْأَفْقِ وَفِي الْأَنْفُسِ، وَتُقْرَأُ سُطُورُهُ فِي النُّجُومِ وَالذَّرَّةِ، وَتَتَجَلَّى مَحَابِرُهُ فِي الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَمَجَارِي الرِّيَّاحِ. نُرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ هَذِهِ الْمَغَامَرَةَ بِقَلْبٍ يُسَبِّحُ وَعَقْلٍ يَسْتَفْرِئُ، فَلَا نَفْصِلُ الْمَعْنَى عَنِ الْمِقْدَارِ، وَلَا نَجْعَلُ الْمَقْيَاسَ حِجَابًا عَنِ الدَّلَالَةِ؛ بَلْ نَزِنُ الصُّوَرَ وَالْأَعْدَادَ وَالتَّجَارِبَ بِمِيزَانٍ يَجْمَعُ بَيْنَ حُسْنِ التَّدَبُّرِ وَصِدْقِ الْإِخْتِبَارِ.

سَنَمْضِي فِي هَذَا الْمَسِيرِ مِنْ بَذَرَةٍ لَا تُرَى إِلَى مَجَرَّاتٍ تَلَامِسُ الْخَيَالَ، وَمِنْ قَطْرَةٍ فِي كَفِّ سَحَابَةٍ إِلَى مَدِّ بَحْرِ يَحْمِلُ أَسْرَارَ الْحَيَاةِ، وَمِنْ رَجْفَةِ ذَرَّةٍ إِلَى أَنْتِظَامِ سُنَنِ لَا تَسْتَقْبِلُهَا الْعُقُولُ. كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ لِلتَّسْلِيَةِ بِالْعَجَائِبِ، بَلْ لِتَعْلَمَ كَيْفَ يُولَدُ السُّؤَالُ الصَّحِيحُ، وَكَيْفَ تُبْنَى الْفَرْضِيَّةُ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَكَيْفَ يُمْتَحَنُ الظَّنُّ بِدَلِيلٍ، ثُمَّ كَيْفَ نَرْفَعُ الْحُكْمَ عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَفْرِيطٍ.

وَإِذْ نُسَافِرُ فِي الْكَوْنِ نَرْتَلُّ مَعَهُ مَعَانِي التَّسْيِيحِ وَالْحِكْمَةِ: نَسْأَلُ الْأَشْيَاءَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

عَنْ قَوَانِينِهَا فَتُجِيبُ بِسُنَنِ، وَنَسْأَلُ أَلْسُنَ عَنْ غَايَاتِهَا فَتَدُلُّنَا عَلَى الْعَدْلِ
وَالْقِسْطِ. هُنَا يَتَعَانَقُ التَّدْوُقُ مَعَ التَّحْقِيقِ، فَيَبْقَى التَّعَجُّبُ حَيًّا لَا يَأْكُلُهُ الْإِعْتْيَادُ،
وَتَبْقَى الدَّقَّةُ وَافِقَةً عَلَى بَابِ كُلِّ دَعْوَى حَتَّى تُؤَدِّيَ أَمَانَتَهَا. بِهَذَا نَدْخُلُ «مُغَامَرَةَ
الْكَوْنِ» لِنَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَكُونُ النَّظَرُ عِبَادَةً، وَكَيْفَ تَصِيرُ التَّجَرُّبَةُ سَبِيلًا إِلَى
الْحِكْمَةِ، وَكَيْفَ يُصْبِحُ الْعِلْمُ عَمَلًا يُقِيمُ الْعُمُرَانَ عَلَى هُدًى.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: سِرُّ الْبَدْءِ وَأَنَاشِيدُ النَّظَامِ

يَفْتَحُ هَذَا الْفَصْلُ بَابَ التَّسْأُلِ الْأَعْظَمِ: كَيْفَ انْطَلَقَ الوجودُ مِنْ صَمْتٍ غَامِضٍ إِلَى لُغَةٍ نَابِضَةٍ بِالْقَوَانِينِ؟ وَمَا الَّذِي جَعَلَ الْعَشْوَاءَ يَنْزَاحُ لِيَتَجَلَّى مِنْ وَرَائِهِ نَسِيقٌ مُحْكَمٌ، وَنَعْمٌ بَدِيعٌ يَرْتَلُّهُ الْمَطَرُ وَالنُّجُومُ وَمَدَارَاتُ الذَّرَّةِ؟ هُنَا نَتَحَسَّسُ «سِرَّ الْبَدْءِ» كَمَحْوَرٍ يَجْمَعُ بَيْنَ دَقَائِقِ الْمَادَّةِ وَأَنْفَاسِ الْمَعْنَى، وَنُصْغِي إِلَى «أَنَاشِيدِ النَّظَامِ» وَهِيَ تُرْتَّبُ الْكَثْرَةَ فِي سُلَمٍ مِنَ الْقِيَمِ وَالْقَدْرِ.

سَنَسِيرُ فِي خُطُوطٍ ثَلَاثَةٍ: خَطٌّ يَسْتَقْرِئُ آثَارَ الْبِدَايَةِ فِي الْأَفْقِ، وَخَطٌّ يَقْرَأُ مَخَاطِيطَ النَّظَامِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَخَطٌّ يُزَاجُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ لِيُحْسِنَ السُّؤَالَ وَيُقَوِّمَ الْأَسْتِدْلَالَ. لَا نَبْتَغِي سِيرَةً لِلدَّهْشَةِ فَقَطْ، بَلْ نُرِيدُ مِيزَانًا يَجْمَعُ بَيْنَ حُسْنِ التَّدَبُّرِ وَصَدْقِ الْإِخْتِبَارِ، حَتَّى يَبْقَى الْبَحْثُ عِبَادَةً، وَتَبْقَى الْقِيَمُ رَافِدًا لِالْقَرَارِ الْمَعْرِفِيِّ.

وَفِي الْمَطَافِ، نُحَاوِلُ أَنْ نَفْهَمَ كَيْفَ يَتَخَلَّقُ النَّظَامُ مِنْ أَرْضِ الْإِمْكَانِ، وَكَيْفَ تُولَدُ الْقَاعِدَةُ مِنْ تَكَرُّارٍ مُجَرَّبٍ، ثُمَّ كَيْفَ تُسْنَدُ الْقَاعِدَةُ بِدَلِيلٍ، فَتُصْبِحُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مَعْيَارًا يَهْدِي النَّظَرَ وَيَقْوِمُ الْعَمَلَ. هَكَذَا نَلِجُ سِرَّ الْبَدْءِ، وَنَتَعَلَّمُ اِنْشَادَ النَّظَامِ،
لِنُقِيمَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِقْدَارَهُ، وَلِنَرْبِطَ مَا نَرَاهُ بِمَا نَعْقِلُهُ رَبْطًا يُفْضِي إِلَى الْحِكْمَةِ
وَالْعُمَرَانِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ وَحْدَةِ الْمَرْجِعِ

حَفَّ السُّكُونُ بِالْمَسْجِدِ كَأَنَّهُ رِدَاءٌ مِنْ نُورٍ رَقِيقٍ، ثُمَّ تَفَتَّحَ عَلَى صَوْتِ
الْإِمَامِ يَتْلُو تِلَاوَةً هَادِئَةً عَمِيقَةً، حُرُوفُهَا تَنْسَابُ كَمَا يَنْسَابُ الْمَاءُ فِي الرِّوَاضِ:
«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (الإِخْلَاصُ ١). أَغْمَضَ جَابِرٌ جَفْنَيْهِ الْقَصِيرَتَيْنِ لِحِظَةٍ، وَضَمَّ
دَفْتَرَهُ إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ فَتَحَهُ عَلَى رَاحَتَيْهِ، وَقَلَّمَ الْقَصَبَ يَرْتَجِفُ فِي أَطْرَافِ
أَصَابِعِهِ أَشْتِيَاقًا لِتَقْيِيدِ مَا يَسْمَعُ. تَجَمَّعَ الْفَتِيُّ حَوْلَ الدَّرْسِ:

صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيُّ يُقَلِّبُ سِتَارَةَ مِيزَانٍ خَشَبِيٍّ صَغِيرٍ، وَزَيْنَبُ
بِنْتُ مَعْنٍ تَتَّبَعُ بِطَرْفِهَا ظِلَّ السَّرَاجِ عَلَى الْحَائِطِ، وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يُهْدِي
نَفْسَهُ كَمَنْ يَسْتَقْبِلُ بُشْرَى، وَحَمْزَةُ الْأَنْصَارِيِّ يَفْرُكُ كَفَّيْهِ تَهَيُّبًا، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا
الْمَصْلَحَجِيُّ يَنْظُرُ فِي الْأَرْضِ وَيَنْقُرُ بِإِبْهَامِهِ عَلَى حَبَّةِ تَمْرٍ جَافَةٍ كَأَنَّهُ يَعُدُّ
الدَّقَائِقَ الضَّائِعَةَ مِنْ رُبْحِهِ.

أَمَّا الْإِمَامُ جَسَدُهُ يَسِيرًا، وَحَرَكَ كَفَّهُ كَمَنْ يَضَعُ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي بِنَاءٍ
رَاسِخٍ، وَتَسَرَّبَ إِلَى صَوْتِهِ وَقَارٌ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ مَعْرِفَةٍ: «هَذِهِ الْكَلِمَةُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْوَاحِدَةُ، "أَحَدٌ"، تَجْمَعُ الْمُنْهَجَ كَمَا يَجْمَعُ الْقَلْبُ الدَّمَ فَيُحْيِي الْأَعْضَاءَ. مِنْهَا نَدْخُلُ إِلَى مِيزَانٍ وَاحِدَةٍ الْمَرْجِعِ؛ مِيزَانٍ يُرَدُّ كُلُّ عِلْمٍ وَصْنَعَةٍ وَعُمُرَانٍ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ لَا يَتَنَاقَضُ.

تَلَفَّتْ إِلَى النَّافِذَةِ، وَالْقَمَرُ يَرْسُمُ خَيْطًا رَفِيعًا عَلَى الْبِلَالِ، ثُمَّ أَرْسَلَ صَوْتَهُ يَمْتَدُّ فِي الْمَسْجِدِ بِلَيْنٍ وَحَزْمٍ:

﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان ٢).

خَبَطَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ بِإِصْبَعِهِ عَلَى الْمِيزَانِ الْخَشَبِيِّ خَفَقَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقُ فَهْمٍ جَدِيدٍ، وَتَدَفَّقَ كَلَامُهُ كَمَنْ يَرَى قَاعِدَةً تَنْكَشِفُ: «كَأَنَّهُ يَا سَيِّدِي يُعْلِنُ أَنَّ الْخَلْقَ لَهُ مُقَدَّرٌ وَاحِدٌ، فَتَكُونُ قَوَاعِدُهُ مُتَّسِقَةً، لَا تَعَارِضُ فِيهَا وَلَا أَضْطِرَابَ».

هَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ إِفْرَارًا، وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ فَتَدَفَّقَ النُّطْقُ نَقِيًّا:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء ٢٢).

ثُمَّ مَدَّ كَفَّهُ كَمَنْ يَلْمَسُ خَيْطًا لَا يُرَى: «وَاحِدَةُ الْمُسَبِّبِ سَبِيلُ انْتِظَامِ الْأَثَارِ؛ فَإِذَا اتَّحَدَ الْمَرْجِعُ صَلَحَتِ الْقَوَاعِدُ فِي كُلِّ بَابٍ».

إِنْحَنَّتْ زَيْنَبُ تُقَلِّبُ صَفْحَةً مِنْ قُرْطَاسٍ عَلَيْهَا خُطُوطُهَا الدَّقِيقَةُ، ثُمَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

رَفَعَتْ صَوْنَهَا وَهُوَ يَرِيقُ رِقَّةَ الْحَرْفِ عَلَى حَافَةِ الْقَلَمِ: «أَيُّوحِي هَذَا يَا سَيِّدِي بِأَنَّ
لِكُلِّ فَنٍّ فِي الْحَيَاةِ مِيزَانًا يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْوَحْدَةِ»

أَمَالَ الْإِمَامُ رَأْسَهُ نَحْوَهَا وَفِي نَبْرَتِهِ بَشَاشَةُ الْمُعَلِّمِ الَّذِي يُسَلِّمُ مِفْتَاحًا
لِقَلْبٍ مُسْتَعِدٍّ: «نَظُرِي يَا بِنْتِي كَيْفَ يَجْمَعُ النَّصُّ بَيْنَ التَّعْلِيمِ وَالْخَلْقِ وَحُسْبَانِ
الْكَائِنَاتِ وَالْمِيزَانِ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ؛ هَلُمُّوا نُصْغِ:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ ١-٧).

مَا بَيْنَ الْكِتَابِ وَالْخَلْقِ وَحُسْبَانِ الْكَوَاكِبِ وَمِيزَانِ الْمُعَامَلَاتِ خِيْطٌ
وَاحِدٌ؛ تِلْكَ هِيَ وَحْدَةُ الْمَرْجِعِ.

اسْتَقَامَ صَفْوَانٌ جَالِسًا بَعْدَ أَنْ كَادَ يَمِيلُ طَرَبًا، وَتَأَمَّلَ كَفَّتِيهِ كَأَنَّهُ
يَسْتَشْهَدُهُمَا، ثُمَّ انْفَتَحَ صَوْتُهُ مُتَرَدِّدًا وَمُتَشَوِّقًا فِي أَنْ: «إِذَنْ، إِنْ رَجَعَ التَّاجِرُ
وَالصَّانِعُ وَالْفَلَّاحُ إِلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ، أَطْمَأَنَّتِ الرُّوحُ كَمَا يَطْمَئِنُّ السُّوقُ»

أَشَارَ الْإِمَامُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ نَحْوَ السَّرَاجِ، وَالضُّوْءُ يَرْتَعِشُ فِي زَيْتِهِ
الصَّافِي:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ ٩).

«إِذَا تَعَدَّدَتِ الْمَوَازِينُ تَشَاكَسَتِ الْقُلُوبُ وَاضْطَرَبَتِ الْأَسْعَارُ؛ وَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ، سَكَتَتِ النُّفُوسُ وَأَطْمَأَنَّتِ الْأَكْفُ وَالْجُيُوبُ.»

تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا فِي مَجْلِسِهِ، وَجَذَبَ عِمَامَتَهُ إِلَى الْخَلْفِ قَلِيلًا، وَالتَّمَعَّتْ فِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةُ الْمُنَاوَرَةِ، ثُمَّ أَطْلَقَ حَرْفَهُ مُتَمَاهِيًا مَعَ مَا يُحِبُّ مِنْ رِبْحٍ: «إِنَّمَا يَهْمُنِي يَا سَيِّدِي مَا يَدْخُلُ كَيْسِي. فَلْيَتَّخِذْ كُلُّ قَوْمٍ مِيزَانَهُمْ، وَكُلُّ رَجُلٍ قَانُونَهُ؛ فَالْيُسْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَذِهِ التَّشْدِيدَاتِ.»

انْتَبَهَ الْجَمْعُ، وَانْحَدَرَ ظِلُّ خَفِيِّ عَلَى الْحَاظِطِ كَأَنَّهُ اسْتِنَكَارٌ صَامِتٌ. مَدَّ الْأَمَامُ كَفَّهُ وَقَدْ شَعَّ فِيهَا سُكُونٌ حَازِمٌ، وَخَرَجَ الْحَرْفُ مِنْهُ نَقِيًّا يَشُقُّ الْجَوَّ:

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الْحَدِيدُ ٢٥).

«لَيْسَ الْمِيزَانُ زِينَةً لِلْقَوْلِ بَلْ قَوَامُ الْعَدْلِ؛ مَنْ رَدَّ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى هَوَاهُ أَفْسَدَ، وَمَنْ رَدَّهُ إِلَى الْمَرْجِعِ الْوَاحِدِ أَصْلَحَ وَاسْتَقَامَ.»

تَحَرَّكَ الْهَوَاءُ الْغَشِيمُ فِي الرِّوَاقِ، وَدَارَتْ رَائِحَةُ الزَّيْتِ الدَّافِي، وَقَدَّمَ حَمْرُهُ جَسَدَهُ قَلِيلًا كَمَنْ يَسْتَأْذِنُ الْكَلِمَةَ: «أَيُّدُلُّ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي عَلَى أَنَّ تَذْيِيرَ الْأَشْيَاءِ مِثْلُ خَلْقِهَا يَرْجِعُ إِلَى مَرْجِعٍ وَاحِدٍ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَخَلَّقَ عَلَى وَجْهِ الْإِمَامِ ابْتِسَامٌ يَحْمِلُ طُمَآئِينَةً مَنْ يَرَى سُؤَالَ يَحْتَاجُ
حُجَّتَهُ، وَأَشَارَ بِرَاحَتِهِ كَمَنْ يَرُسُّمُ خَطًّا مُسْتَقِيمًا:

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر ٦٢).

«خَلَقَ وَتَوَكَّلْ؛ أَصْلٌ وَتَدْوِيرٌ؛ وَمِيزَانٌ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، فَلَا تَتَفَرَّقُ الْقَوَاعِدُ
وَلَا تَتَشَاكَسُ الْغَايَاتُ.»

اخْضَرَ وَجْهَهُ جَابِرٌ بِنُورٍ فَهَمَّ يَنْبُتُ، وَأَرْسَلَ كَفَّهُ نَحْوَ دَفْتَرِهِ كَمَنْ يَزْرَعُ
بَذْرَةً فِي تَرَابٍ طَيِّبٍ، ثُمَّ تَرَنَّمَ حَرْفُهُ بِنَبْرَةِ الْمُتَفَقِّهِ الْمُتَسَائِلِ: «هَلْ لِهَذَا الْمِيزَانِ
طَرِيقٌ نَسْلُكُهُ فِي التَّجَرُّبَةِ حَتَّى لَا تَبْقَى الْمَعَارِفُ جُزْرًا مُنْفَصِلَةً»

أَرْخَى الْإِمَامُ جَفْنَيْهِ كَمَنْ يَحْمِلُ سِرًّا إِلَى سِرٍّ، وَدَلَّكَ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ
سَكَبَ حَدِيثَهُ عَلَى الْقُلُوبِ سَكْبًا:

﴿سَرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ ٥٣).

«إِذَا رَبِطْتَ كُلَّ تَجَرُّبَةٍ بِأُخْتِهَا عَلَى مَرْجِعٍ وَاحِدٍ، تَكَاشَفَتِ الْآيَاتُ
بَعْضُهَا بَعْضًا، كَأَنَّكَ تَنْصُبُ خِيَمَةً لَهَا أَوْتَادٌ مُنْتَظِمَةٌ؛ لَا تُزَاحِمُ وَلَا تَتَدَافَعُ.»

اسْتَدَارَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ نَحْوَ الْبَابِ وَخَطَوَاتُ الْمُسْتَمْعِينَ خَارِجَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

السَّاحَةِ تَتَلَاطَمُ كَمَوْجٍ بَعِيدٍ، ثُمَّ أَخَذَ نَفْسًا أَعَمَقَ، وَأَرْسَلَ سُؤَالَ يَطْلُبُ مِفْتَاحًا:
«نُصُوغُ الْحَدِيدِ، فَجَدَّ الصَّلَابَةَ وَاللِّينَ بَيْنَ يَدَيْنَا، فَإِنْ جَعَلْنَا لِكُلِّ خَلِيطٍ قَدْرًا
وَلِكُلِّ نَارٍ مُدَّةً، أَنْكُونُ قَدْ رَدَدْنَا عَمَلَنَا إِلَى هَذَا الْمَرْجِعِ»

تَنَفَّسَ الْإِمَامُ نَفْسًا طَوِيلًا، وَوَجْهُهُ يَشْعُ بِسَكِينَةٍ مَنْ يَضَعُ قُرْآنًا عَلَى
مِيزَانٍ، وَأَلْقَى عَلَى الْمَجْلِسِ حُكْمًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ وَالْمَعْنَى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الْقَمَرُ ٤٩).

«وَلَكِنْ أَحْذَرُوا أَنْ تَجْعَلُوا الْقَدَرَ بَدِيلًا عَنِ الْمَرْجِعِ؛ بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ
الْمَرْجِعِ. فَإِذَا صَحَّ الْأَصْلُ تَرْتَبَتِ الْمَقَادِيرُ عَلَيْهِ بِلا فَوْضَى.»

أَنْحَنَتْ زَيْنَبٌ قَلِيلًا كَمَنْ يَقْطِفُ سُؤَالَ مِنْ غُصْنٍ غَضٍّ، وَتَلَا لَاتٍ
عَيْنَاهَا بِرُوحِ التَّرْبِيَةِ: «وَمَا حَظُّ الْخُلُقِ فِي هَذَا الْمِيزَانِ أَنْقِيسُ كَلِمَاتِنَا وَوُعُودُنَا
كَمَا نَقِيسُ الْحُبُوبَ»

انْفَتَحَتْ كَفُّ الْإِمَامِ نَحْوَ الْقُلُوبِ كَمَنْ يُقَسِّمُ نُورًا بِالتَّسَاوِي:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ ٩٠).

«الْعَدْلُ مِيزَانُ الْمَعَامَلَةِ، وَالْإِحْسَانُ زِينَتُهَا. مَنْ وَحَدَ مَرْجِعُهُ فِي السُّوقِ
وَالْبَيْتِ وَالرُّشَّةِ، صَارَ لِكَلِمَتِهِ وَزَنٌ وَلِعَمَلِهِ قِيَمَةٌ؛ وَمَنْ جَعَلَ لِكُلِّ مَقَامٍ مِيزَانًا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

عَلَى هَوَاهُ، ضَاعَتْ وَزَنَانُهُ وَأَنْقَلَبَ فِي خُسْرَانٍ.»

أَنْتَصَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشُّوقِ عِنْدَ الْبَابِ، وَثَوْبُهُ مَغْبَرٌ مِنْ أَثَرِ الرِّيحِ،
وَرَفَعَ كَفَّهُ كَمَنْ يَسْتَصْرِخُ قَاضِيًا: «تَبَايَعْنَا يَا سَيِّدِي فَاخْتَلَفْتَ الْمَوَازِينَ
وَالْمَكَائِيلَ، فَضَاعَتْ أَمْوَالٌ وَأَزْتَابَتْ الْقُلُوبُ.»

أَلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى الْحَلَقَةِ وَفِي صَوْتِهِ حَزْمٌ أَلْعَادِلِ وَرِقَّةٌ النَّاصِحِ:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام ١٥٢)،

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(هُود ٨٥).

«إِذَا تَرَكَ النَّاسُ مِيزَانَ الْمَرْجِعِ الْوَاحِدِ أَرْتَابُوا فِي بَعْضِهِمْ، وَإِذَا أَقَامُوا
الْمِيزَانَ الْمَعْلُومَ رَجَعَ الْأَمْنُ إِلَى الصُّدُورِ.»

تَحَرَّكَ الضُّوءُ عَلَى وَجْهِ جَابِرٍ كَمَا يَتَحَرَّكُ الْفَجْرُ فِي عَيْنَيْ طِفْلِ، وَمَدَّ
قَلَمَهُ نَحْوَ الصَّفْحَةِ يُثَبِّتُ الْخُلَاصَةَ فِي صُورَةٍ سُؤَالٍ آخَرَ: «أَيُجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ
وَحْدَةَ الْمَقْصِدِ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْمِيزَانِ أَنْ نَرُدَّ مَحْيَانًا وَمَمَاتِنًا إِلَى الْغَايَةِ الْوَاحِدَةِ»

انْفَرَدَ الْإِمَامُ بِنَظَرَةٍ كَأَنَّهُ يَسْتَخْضِرُ نَفْسَهُ لِعَهْدٍ قَدِيمٍ، ثُمَّ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ
النَّصُّ يَتَلَأَلُ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
(الأنعام ١٦٢).

«إِذَا اتَّحَدَتِ الْغَايَةُ سَهْلَ رُءُ الْفُرُوعِ إِلَى أَصْلِ، وَإِذَا تَشَعَّبَتِ الْغَايَاتُ
تَنَاثَرَتِ الْمَوَازِينُ.»

اُسْتَقَامَتِ الْحَلَقَةُ عَلَى سُكُونٍ ثَانٍ، ثُمَّ نَفَضَ الْإِمَامُ ذَاكَ السُّكُونَ بِتِلَاوَةِ
تُذَكِّرُ بِالْمَصِيرِ كَأَنَّهَا جَرَسُ قِيَامَةٍ صَغِيرَةٍ فِي الْقُلُوبِ:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾
(الأنبياء ٤٧).

ثُمَّ مَدَّ نَظْرَهُ فِي الْوُجُوهِ كَأَنَّهُ يُثَبِّتُ شِعَارًا فِي الصُّدُورِ: «مَنْ قَارَبَ مِيزَانَ
الْيَوْمِ مِيزَانَ ذَلِكَ الْيَوْمِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَوَازِينُ.»

مَالَ حَمْزَةً نَحْوَ السَّارِيَةِ وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ، ثُمَّ رَفَعَ كَفَّهُ كَمَنْ يَطْلُبُ تَمَامَ
الْمَعْنَى: «وَكَيْفَ نَجْعَلُ لِكَلِمَاتِنَا مِيزَانًا كَمِيزَانِ سِلْعَتِنَا»

إِنْ حَدَرْتُ مَنْ فَمِ الْإِمَامِ آيَةٌ تَرُصِدُ النَّفْسَ وَالنَّظْرَةَ:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق ١٨).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ أَوَمَّا إِلَى الْأَلْسِنَةِ كَأَنَّهُ يَضَعُ عَلَيْهَا خَاتِمًا مِنْ نُورٍ: «زِنُوا أَلْوَعَدَ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقُوا، وَرُدُّوا الْقَوْلَ إِلَى الْفِعْلِ، فَمَنْ وَحَدَّ مَرْجِعَهُ لَمْ يَعِدْ إِلَّا مَا يُنْجِزُ وَلَمْ يَقُلْ إِلَّا مَا يَسْعُهُ.»

تَحَرَّكَتْ رِيحٌ خَفِيفَةٌ، وَأَهْتَرَّ فِتِيلُ السَّرَاجِ، وَفِي الْإِهْتِرَازِ مَا يُشْبِهُ تَصْدِيقًا لِمَا يُقَالُ. وَقَارَبَ الْإِمَامُ أَنْ يَخْتِمَ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ كَمَنْ يَسْتَفِيزُ هِمَمًا، وَرَسَمَ فِي الْهَوَاءِ بِكَفِّهِ مَسَارًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنَّهَايَةِ:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الْأَعْلَى ٢-٣).

«مَنْ أَلْخَلَ إِلَى التَّسْوِيَةِ، وَمَنْ التَّقْدِيرِ إِلَى الْهِدَايَةِ؛ خِيطٌ وَاحِدٌ، لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا إِذَا قَطَعْتَهُ أَنْتَ عَنْ مَرْجِعِهِ.»

إِفْتَرَبَ جَابِرٌ، وَدَفْتَرُهُ عَلَى صَدْرِهِ كَأَنَّهُ أَمَانَةٌ يُخْرِجُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى الشُّوقِ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَخْطُو:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ ١٩٠).

أَحَسَّ أَنَّ أُولِي الْأَلْبَابِ هُمْ أَوْلُكَ الَّذِينَ يَرُدُّونَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَرْجِعٍ وَاحِدٍ؛ لَا يَتَفَرَّقُونَ، بَلْ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آلِ عِمْرَانَ ١٠٣).

وَفِي اعْتِصَامِ الْعِلْمِ بِحَبْلِ الْمَرْجِعِ الْوَاحِدِ قُوَّةٌ تَحْمِلُهُ فِي الصَّنَاعَاتِ
وَالزَّرَاعَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، حَتَّى إِذَا عَمِلَ أَثْمَرَ، وَإِذَا قَالَ صَدَقَ، وَإِذَا وَزَنَ عَدَلَ.

حَطَا حَبِيبُ الدُّنْيَا خُطْوَةً نَحْوَ الْبَابِ، وَثَوْبُهُ يَصْفُرُ عَلَى حَافَةِ الْأَرْضِ،
ثُمَّ تَوَقَّفَ كَأَنَّ حَجَرًا صَغِيرًا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ، وَاسْتَدَارَ وَفِي نَظَرِهِ شَيْءٌ مِنْ حَيَاءٍ:
«إِنْ أَقَمْنَا يَا سَيِّدِي مِيزَانًا مَعْلُومًا فِي السُّوقِ، وَجَعَلْنَا عَلَيْهِ شَاهِدًا، أَيْكُونُ ذَلِكَ
مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ وَيَصُونُ الْأَمْوَالَ»

انْفَرَجَ وَجْهُ الْإِمَامِ بِنُورِ بُشْرَى، وَمَدَّ كَفَّهُ تَشْيِيتًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ (النِّسَاءُ ١٣٥).

«مَنْ قَامَ بِالْقِسْطِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَفِظَ أَمْوَالَ النَّاسِ وَقُلُوبَهُمْ».

اُقْتَرَبَ حَمْرُهُ بِوَجْهِهِ الصَّادِقِ، وَفِي عَيْنَيْهِ التَّيْمَاعَةُ الرَّاغِبِ فِي التَّشْيِيتِ:
«وَإِذَا التَّبَسَّ عَلَيْنَا الْأَمْرُ»

رَفَعَ الْإِمَامُ سَبَابَتَهُ كَمَنْ يُشِيرُ إِلَى مَعْلَمٍ عَلَى طَرِيقٍ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءُ ٣٦)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يُونُس ٣٦).

«قِفْ حَتَّى يَظْهَرَ الْمَرْجِعُ، وَلَا تُؤَسَّسْ بُنْيَانًا عَلَى شَفَا جُرْفٍ؛

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ﴾ (التَّوْبَةُ ١٠٩).

مَا بُنِيَ عَلَى الْمَرْجِعِ الْوَاحِدِ يَبْقَى، وَمَا سِوَاهُ يَتَهَاوَى.»

حِينَ هَمُّوا بِالْإِنْصِرَافِ، تَنَاوَلَ الْإِمَامُ نَفْسًا طَوِيلًا كَأَنَّهُ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ فِي الْحَدِيثِ، وَتَفَتَّحَتْ شَفَاتُهُ بِدُعَاءٍ يَرِبُّطُ الْأَصْلَ بِالْفَرْعِ، وَالْقَوْلَ بِالْفِعْلِ، وَالْعِلْمَ بِالْعَدْلِ: «اللَّهُمَّ ارْنَا الْآيَاتِ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِنَا حَتَّى يَنْبَيِّنَ لَنَا أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَا تُضِيعْ إِيْمَانَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ فَإِنَّكَ لَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَارْزُقْنَا الْإِعْتِصَامَ بِحَبْلِكَ الْمَتِينِ، وَأَقِمْ فِي قُلُوبِنَا الْمِيزَانَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يَقُومَ بِهِ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.»

خَرَجُوا، وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَبْضَةٌ مِيزَانٍ جَدِيدٍ: صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُرَاجِعُ قَوَاعِدَهُ عَلَى مَرْجِعٍ وَاحِدٍ؛ وَزَيْنَبُ تَزُنُّ كَلِمَاتِهَا قَبْلَ أَنْ تُطْلِقَهَا؛ وَصَفْوَانُ يَضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَيْلًا وَمِيزَانًا مَشْهُودَيْنِ؛ وَحَمْرَةُ يُرَدُّ خَطَطُهُ إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ؛ وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَلْمَسُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَافَةَ مِيزَانٍ صَغِيرٍ، يَتَأَمَّلُ لَعْلَهُ يَثُوبَ عَنِ الْمِيزَانِ الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُهُ مِنْ هَوَاهُ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَقَفَ جَابِرٌ عِنْدَ عَتَبَةِ الْمَسْجِدِ وَأَسْرَجَ فِي صَدْرِهِ سِرَاجًا، ثُمَّ كَتَبَ فِي
أَوَّلِ صَفْحَتِهِ بِحَطٍّ مَشْدُودٍ كَخَيْطِ مِيزَانٍ: «مِيزَانُ وَحْدَةِ الْمَرْجِعِ: أَنْ يَرْجِعَ كُلُّ
قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَعِلْمٍ وَصَنْعَةٍ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، فَيَسْلَمَ النَّسِيجُ، وَتَهْدَأَ الرُّوحُ، وَيَدُومَ
الْعُمْرَانُ.» ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ وَتَمَتَّمَ فِي سِرِّهِ كَمَنْ يُثَبِّتُ الْخِتَامَ عَلَى الْبِدَايَةِ:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الْحَدِيدُ ٣).

وَهُنَاكَ فِي التَّقَاءِ الْآيَةِ بِالْوَاقِعِ كَانَ الْمِيزَانُ يَتَجَسَّدُ طَرِيقًا مَمْهُودًا لِقَلْبٍ
يُرِيدُ وَحْدَةَ الْمَرْجِعِ، وَيُرِيدُ مَعَهَا الْقِسْطَ وَالْإِتْقَانَ وَالسَّكِينَةَ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: الْإِنْسِجَامُ وَسَطُوعُ التَّوَازُنِ

يَسِيلُ الصَّمْتُ فِي الْحَلَقَةِ كَأَنْفَاسِ نَهْرٍ قَدِيمٍ، يَنْحَدِرُ بِلَا ضَجِيجٍ، ثُمَّ
يَصِلُ إِلَى صَخْرَةٍ أَلِدَايَةِ فَيَتَفَتَّحُ صَوْتًا رَقِيقًا. أَلْقِيَابُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ تَرُدُّ أَصْدَاءَ
النَّفْسِ، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضَوْءًا أَصْفَرَ، يَتَرَقَّرُ عَلَى الْوُجُوهِ كَمَا يَتَرَقَّرُ الْقَمَرُ
عَلَى أَلْمَاءِ. يَجْلِسُ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَسَكِينَتُهُ تَسْتَقِيمُ عَلَى هَيْئَةِ مِيزَانٍ مَعْلُوقٍ
فِي مَعْصَمِ الْقَلْبِ. إِلَى يَمِينِهِ جَابِرٌ، يُمَسِّكُ قَلَمَهُ كَأَنَّمَا يُثَبِّتُ نَبْضَ سُؤَالٍ،
وَأِلَى شِمَالِهِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيِّ يَقْلُبُ صَفْحَةً مُشْجَّرَةً بِخُطُوطٍ
وَعَلَامَاتٍ، وَخَلْفَهُمْ عَاصِمُ الصَّنَائِعِ يُجَسِّسُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ذَاكِرَةَ اللَّمَسِ،
وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ يَتَظَاهَرُ بِالْإِنْتِبَاهِ وَعَيْنَاهُ تَتَأَرَّجَحَانِ بَيْنَ السَّقْفِ
وَالْأَرْضِ.

يَرْفَعُ الْإِمَامُ بَصَرَهُ، وَتَرْتَجِفُ شَفَتَاهُ بِرِقَّةٍ، ثُمَّ يَسْتَقِيمُ الصَّوْتُ كَمَا
يَسْتَقِيمُ الْقَوْسُ قَبْلَ الرَّمْيِ. يَتَلَوُّ بِخُشُوعٍ يَسْرِي فِي الْعِظَامِ سَرِيانَ أَلْمَاءٍ فِي
الْعُرُوقِ:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الْمُلْكُ: ٣).

تَتَحَرَّكُ الْحَلَقَةُ مِثْلَ سُنْبُلَةٍ أَصَابَهَا نَسِيمٌ، وَتَخْفِقُ الْقُلُوبُ خَفَقَةً مُوَحَّدَةً. يَمِيلُ الْإِمَامُ بِنَظَرِهِ نَحْوَ الْجِهَةِ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا جَابِرٌ، فَيَرَى فِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةً تَطْلُبُ الْمَعْنَى كَمَا تَطْلُبُ الْجَذْوَةُ الْهَوَاءَ. يَنْحَدِرُ جَابِرٌ بِقَلَمِهِ عَلَى الدَّفْتَرِ، وَيُقَيِّدُ بِخَطِّ مُرْتَعَشٍ: «أَيْنَ الْحَدُّ الَّذِي يَتَجَاوَزُ فِيهِ الشَّاهِدُ مِيزَانَهُ».

يَتَنَحَّنُ حَبِيبُ الدُّنْيَا، وَيُحَرِّكُ خَاتَمَهُ فِي أَصْبُعِهِ حَرَكَةً مَنْ يَسْتَعِجِلُ لِذَاتِهِ لِمَا. يَمِيلُ إِلَى الْأَمَامِ قَلِيلًا، ثُمَّ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِخَفَقَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: «لَا تُشَدُّوا عَلَى النَّاسِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، فَالَّذِينَ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَرَبِّهِ، وَأَمَّا هَذِهِ التَّفَاصِيلُ فَتُتَعَبُ الْعَامَّةُ وَتَصْرِفُهُمْ».

تَلِينُ مُحْيَا الْإِمَامِ ابْتِسَامَةً كَالظِّلِّ فِي فَانِظٍ، ثُمَّ يَمُدُّ بَصَرَهُ نَحْوَ الْحَلَقَةِ كُلِّهَا، وَيَتَنَفَّسُ تَنَفُّسَ مَنْ يَسْقِي الْقُلُوبَ قَبْلَ الْكَلِمَاتِ. يَخْفِضُ صَوْتَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى قَدَرٍ مَا يَحْتَاجُ الْمَعْنَى: «الْتَدَبَّرْ فِي خَلْقِ اللَّهِ يَزِيدُ الْإِيمَانَ، لَا يُنْقِصُهُ. وَالنَّظَرُ إِلَى التَّلَافُفِ الْعَامِّ الْمَمْدُودِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يُثَبِّتُ فِي الصَّدْرِ طُمَآنِينَةً، كَأَنَّهَا السَّكِينَةُ الَّتِي تَظِلُّ الرُّبَانَ فِي مَوْجٍ هَادِيٍّ. أَسْمَعُوا:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَلَيْكَ يَسْبَحُونَ ﴿يَس: ٤٠﴾.

فَيَبْدُو الْكَوْنُ سُبْحَةً مُنْتَظِمَةً، لَا تَتَدَاغُ حَبَائِهَا وَلَا تَنْقَطِعُ خَيْطُهَا، بَلْ
يَسِيرُ كُلُّ فِي نَصِيهِ، وَإِذَا سَلِمَ النَّصِيبُ ظَهَرَ الْجَمَالُ».

يَهْتَفُ جَابِرٌ بِحَذَرٍ، وَيَدُّهُ لَا تَزَالُ عَلَى الدَّفْتَرِ: «أَتَعْنِي، يَا سَيِّدِي، أَنَّ
الْإِنْسَجَامَ هُوَ تَوَازُنُ الْأَجْزَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا كُلِّهَا».

يَمِيلُ الْإِمَامُ نَحْوَهُ، وَيُشِيرُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَمَنْ يَسْتَدِلُّ بِالنُّورِ عَلَى
النُّورِ: «نَعَمْ. وَزِدْ عَلَيْهَا أَنَّهُ تَنَاعُمُ الْغَايَاتِ مَعَ الْأَسْبَابِ؛ فَلَا سَبَبَ يَغْتَصِبُ
غَايَةً، وَلَا غَايَةً تُهْمِلُ سَبَبًا. وَاسْمَعْ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمُحْكَمَةِ:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الْأَعْلَى: ٢-٣).

فَالْتَسْوِيَةُ شَكْلٌ، وَالْهُدَى مَسِيرَةٌ، وَالْإِنْسَجَامُ أَنَّ يَلْتَقِيَ الشَّكْلُ
بِالْمَسِيرَةِ، فَلَا يَبْقَى الْخَلْقُ صُورًا عَاطِلَةً، وَلَا تَضِلُّ الْمَسِيرَةُ عَنْ صُورِهَا».

تَتَحَرَّكُ الْحَلَقَةُ مَرَّةً أُخْرَى كَمَا يَتَحَرَّكُ الْقَمَحُ حِينَ يُمْشُهُ نَفْسُ الصَّبَاحِ.
يَسْتَأْنِفُ الْإِمَامُ، وَصَوْتُهُ يَتَدَرَّجُ مِنْ هَمْسٍ إِلَى بَيَانٍ:

«انْظُرُوا إِلَى الْمَاءِ يَنْزِلُ، لَا يُرَائِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ثُمَّ
يَخْرُجُ الزَّرْعُ بَعْدَهُ أَلْوَانًا. هَذِهِ صُورَةُ الْإِنْسَجَامِ تَسِيرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الرَّؤْمُر: ٢١).

إِنَّهُ نَزَلَ بِمِقْدَارٍ، وَأَنْسِيَابٍ فِي مَجَارٍ، ثُمَّ نُمُوٌّ وَتَحَوُّلٌ، فَإِذَا كَمُلَ الدَّوْرُ عَادَ إِلَى أَصْلِهِ. هَذَا هُوَ سَطْوَعُ التَّوْازُنِ.

يَتَقَدَّمُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ، وَيُدِيرُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ قِطْعَةً خَشَبٍ دَقِيقَةً كَأَنَّهُ يَقِيسُهَا بِالنَّظَرِ: «إِذَنْ، أَيُّهَا السَّيِّدُ، هَلْ لِلْإِنْسِجَامِ عِلَامَاتٌ تُرَى وَتُسْمَعُ».

يَتَأَمَّلُ الْإِمَامُ الصُّفُوفَ، ثُمَّ يَقْبِلُ كَمَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ الْكَلِمَةِ لِيَنْهَضَ: «لَهُ عِلَامَاتٌ، أَدْنَاهَا أَلَّا تَصْطَدِمَ الْأَجْزَاءُ فِي سَيْرِهَا، وَأَعْلَاهَا أَنْ يَخْدِمَ كُلُّ غَايَتِهِ وَغَايَةَ الْكُلِّ مَعًا. أَمَّا سَمِعْتُمْ:

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النَّمْل: ٨٨).

فَالْإِتْقَانُ وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ الْإِنْسِجَامِ. لَا يَبْرُزُ الْإِتْقَانُ إِلَّا إِذَا اعْتَدَلَ الشَّيْءُ فِي مِقْدَارِهِ، ثُمَّ أَنْضَمَ إِلَى أَخِيهِ فِي مَكَانِهِ.

تَتَدَاخَلُ الْأَنْفَاسُ، وَيَرْفَعُ عَاصِمٌ يَدَهُ وَفِيهَا أَثَرُ مَطْرِقَةٍ قَدِيمَةٍ: «أَرَاهُ، وَاللَّهِ، فِي الْوَرِشَةِ، إِذَا أَنْسَابُ الْحَدِيدِ فِي وَقْتِهِ، وَاجْتَمَعَتِ الْقِطْعُ فَلَا تَصْطَكُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَلَا تَتَشَاكَى. وَلَكِنْ كَيْفَ أُثَبِّتُ ذَلِكَ لِغَيْرِي».

يُشِيرُ الْإِمَامُ إِلَى قَلْبِ عَاصِمٍ أَوَّلًا، ثُمَّ إِلَى يَدِهِ: «أَجْمَعَ مَا تَرَى إِلَى مَا تَفْعَلُ. سَمِّ لِلْأَلْوَانِ دَرَجَاتِهَا، وَلِلنَّارِ مَرَاتِبَهَا، وَلِلزَّمَنِ فَوَاصِلَهُ، ثُمَّ أَجْعَلْ ذَلِكَ سَبِيلًا لِمَنْ بَعْدَكَ. وَهَهُنَا تَأْمَلُوا آيَةً تَجْمَعُ بَيْنَ النَّظَرِ وَالْعَمَلِ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آلْ عِمْرَانَ: ١٩٠-١٩١).

فَالذِّكْرُ يُقِيمُ الْقَلْبَ، وَالتَّفَكُّرُ يُقِيمُ الْعَقْلَ، وَالْإِنْسِجَامُ أَنْ يَقُومَا مَعًا».

يَسْتَنْشِقُ الْمَجْلِسُ نَسِيمًا خَفِيًّا كَأَنَّهُ جَاءَ مِنْ بُسْتَانٍ قَرِيبٍ. تَلُوحُ تَحْتَ الْمِشْرِيبَةِ نَحْلَةٌ تَدُورُ حَوْلَ زَهْرَةٍ مُتَفَتِّحَةٍ، فَيَتَّبِعُهَا بَصَرُ الْإِمَامِ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ جَنَاحَيْهَا كِتَابًا:

«أَسْمَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ الْبَهِيَّةَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ بِلسَانِ الْعَمَلِ:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿النَّحْلُ: ٦٨-٦٩﴾.

تَرَوْنَ بُيُوتًا مُنَاسِبَةً لِمَوَاضِعِهَا، وَسُبُلًا مُبَسَّرَةً لِسَالِكِهَا، ثُمَّ نَتِيجَةً تُعَالِجُ
الْبَدَنَ. ذَلِكَ هُوَ الْإِنْسِجَامُ بِلِسَانِ النَّحْلِ.

يَهُمُّ حَبِيبُ الدُّنْيَا بِالْكَلَامِ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ، كَمَنْ رَأَى فِي الْبَاهِتِ لَوْثًا سَاطِعًا
فَاطَالَ التَّحْدِيقُ. يُمِيلُ رَأْسَهُ قَلِيلًا، وَيَقُولُ بِصَوْتِ الطِّفْلِ مِمَّا مَضَى: «وَمَا حَظُّ
السُّوقِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ أَنَا رَجُلٌ أَيْعُ وَأَشْتَرِي، فَأَيْنَ يَظْهَرُ الْإِنْسِجَامُ وَسُطُوعُ
التَّوَازُنِ».

تَلْمَعُ عَيْنَا الْإِمَامِ كَمَا يَلْمَعُ الْمَطَرُ عَلَى حَجَرٍ أَسْوَدَ، وَيَمُدُّ كَفَّهُ كَأَنَّهُ
يَقِيسُ فِي الْهَوَاءِ مِقْدَارًا: «يَظْهَرُ فِي الْقِسْطِ. أَمَا سَمِعْتَ كَلِمَةَ الدَّاعِي الْكَرِيمِ
عَلَى لِسَانِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾
(الْأَعْرَافِ: ٨٥).

فَإِذَا اعْتَدَلَ الْوِزْنُ وَصَفَا الْكِيلُ، وَقَامَ الثَّمَنُ عَلَى مِقْدَارِهِ، ظَهَرَ الْإِنْسِجَامُ
بَيْنَ قُلُوبِ الشُّجَّارِ وَقُلُوبِ الْمُشْتَرِينَ، وَسَطَعَ التَّوَازُنُ فِي الْمَدِينَةِ كُلِّهَا.

يُرْمَجِرُ السُّوقُ فِي خِيَالِ الْحَلَقَةِ: أَصْوَاتُ نَادِينَ، وَوَجْهُ صَبِيَّةٍ يَحْمِلُونَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مَكَابِيلَ صَغِيرَةً، وَشَيْخٌ يَتَأَكَّدُ مِنْ حَدِّ سَكِينِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَ قِطْعَةً قَدْ لَزُبُونِ.
يَسْتَأْنِفُ الْإِمَامُ، وَفِي صَوْتِهِ رَخَاوَةٌ الرَّقَّةِ وَحَزْمُ الْحَقِّ:

«وَفِي النَّفْسِ، قَبْلَ السُّوقِ، يَجِبُ أَنْ يَثْبُتَ التَّوَازُنُ، فَلَا يُشَدِّدُ الْمَرْءُ
عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكْسِرَهَا، وَلَا يُرَخِّبَهَا حَتَّى تُفْلِتَ. وَأَسْمَعُ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٤٣)،

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾
(الْأَسْرَاءُ: ٢٩)،

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (لُقْمَانَ: ١٩).

هَذِهِ مَوَازِينُ الْخُلُقِ قَبْلَ مَوَازِينِ السُّوقِ».

يَتَفَقَّدُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْوَقْتَ، كَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى ظِلٍّ يَتَقَلَّصُ ثُمَّ يَطُولُ،
وَيَقُولُ: «هَلْ يَنْعَقِدُ الْإِنْسِجَامُ مِنْ تَقَابُلٍ هَلْ يَتَحَقَّقُ التَّوَازُنُ بِأَضْدَادٍ تَتَعَاقَبُ وَلَا
تَتَصَادَمُ».

تَلْتَمِعُ الْبِشَارَةُ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ، وَيَرْفَعُ كَفَّهُ لِيَسْتَجْلِبَ الْإِنْصَاتَ: «نَعَمْ.
يَتَرَاوَجُ النَّهَارُ وَاللَّيْلُ فَلَا يَطْغَى أَحَدُهُمَا، وَتَتَعَاقَبُ الْفُصُولُ فَلَا يَنْقُطِعُ زَرْعٌ،
وَتَتَدَاوَلُ الْأَعْمَالُ فِي الْمَدِينَةِ فَلَا تَعْطَلُ حَرْفَةٌ. أَمَا قَرَأْتُمْ:

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

﴿يُعْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الْأَعْرَافِ: ٥٤)،

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٧).

هَذَا تَقَابُلٌ يَخْدِمُ التَّوَازُنَ، لَا يَهْدِمُهُ.

تَمِيلُ الْأَنْظَارُ نَحْوَ السَّاحَةِ الْخَارِجِيَّةِ؛ هُنَاكَ قَطِيعٌ طُيُورٍ يَنْفَضُّ ثُمَّ يَلْتَمِمْ
كَمَا يَنْفَضُّ الْقَلْبُ وَيَلْتَمِمْ فِي وَقْعِ الدُّعَاءِ. يَتَّبِعُهُ الْإِمَامُ بِبَصَرِهِ، ثُمَّ يَسْرُدُ بِصَوْتٍ
يَشُقُّ السَّكِينَةَ شَقًّا رَفِيقًا:

«انْظُرُوا إِلَى طَيْرٍ مَعَ طَيْرٍ؛ لَا يَسْتَطِيلُ قَوِيٌّ عَلَى ضَعِيفٍ، بَلْ تَحْمِلُ
الرَّيْحُ الْكُلَّ عَلَى سَبِيلٍ وَاحِدٍ، وَيَتَقَاسَمُ الْجُمُوعُ الْمَسَافَةَ، فَيَسْتَرِيحُ هَذَا إِذَا
تَقَدَّمَ ذَاكَ. هَكَذَا يَنْبَغِي لِلْمَدِينَةِ: تَتَحَاسَبُ الْأَعْمَالُ وَتَتَنَاوَبُ، فَلَا يَثْقُلُ بَابٌ
وَيَخِفُّ آخَرُ. وَهُنَا تَسْمَعُونَ مِفْتَاحًا:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾
(الْأَنْعَامِ: ٣٨).

فَلْيَكُنْ لَنَا مِنْ أُمَّمِ الطَّيْرِ نَصِيبٌ مِنَ التَّنَاسُقِ وَتَقَاسِمِ الْحِمْلِ.

يُغَيِّرُ الْإِمَامُ جِلْسَتَهُ كَمَا يَفْتَحُ لِلدَّرْسِ مَجْرَى آخَرَ، وَيَمُدُّ كَفَّهُ نَحْوَ

الْأَفْقِ:

«وَفِي السَّيْرِ الْأَعْظَمِ لِلْكَوَاكِبِ وَالْمَجَرَّاتِ تَرَوْنَ سُنَّةَ التَّنَاعُمِ. لَا تَضْطَلِدُمْ، فِي مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَا تَحِيدُوا عَنْ فَلَكِهَا. وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ سِرَّ ذَلِكَ كُلِّهِ:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (يُونُسُ: ٥).

فَالْحَقُّ هُوَ الْمِيزَانُ الْأَكْبَرُ، وَالْحِسَابُ لِسَانُهُ الْمُبِينُ، وَالْإِنْسِجَامُ ضِيَاؤُهُ».

تَرْتَفِعُ أَكْفٌ وَتَخْفُضُ أُخْرَى، وَتَنْبَسِطُ الْوُجُوهُ لِسَمَاعِ الْمَزِيدِ. يَسْتَأْنِفُ الْإِمَامُ مَشْهَدًا مِنَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ لِيُثَبِّتَ الْمَعَانِي فِي الْأَكْفِ قَبْلَ الْأَذْهَانِ: «تَخَيَّلُوا قَنَاءَ صَغِيرَةٍ فِي بُسْتَانٍ، يَجْرِي الْمَاءُ فِيهَا بِقَدَرٍ. إِنْ زِيدَ الْمِيلُ، طَمَّ الْمَاءُ التُّرْبَةَ وَقَشَرَ الْجُدُورَ، وَإِنْ نُقِصَ، رَكَدَ الْمَاءُ وَتَعَفَّنَتِ الْأُصُولُ. فِي كِلَا الطَّرَفَيْنِ فَسَادٌ، وَفِي الْوَسْطِ حَيَاةٌ. وَهَكَذَا النَّفْسُ فِي شَهَوَاتِهَا وَغَضَبِهَا؛ إِنْ أَطْلَقْتَهَا أَنْهَدَمَتْ، وَإِنْ خَنَقْتَهَا أَنْكَسَرَتْ، وَإِنْ قُمْتَ لَهَا بِمِيزَانٍ أَعْتَدَلْتَ».

يُدَوِّنُ جَابِرٌ، وَيُقَرِّبُ دَفْتَرَهُ مِنَ الضُّوءِ لِيَزِيدَ سَوَادَ الْجَبْرِ وَضُوحًا، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ كَمَنْ سَمِعَ خَفَقَ جَنَاحٍ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، هَلْ نَجِدُ آيَةً تُعَلِّمُنَا تَسْلُسُلَ التَّوَازُنِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَى الصَّدْرِ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَفْتَرُ شَفَتَا الْإِمَامِ عَنِ ابْتِسَامَةِ نَاعِمَةٍ، ثُمَّ يَتَلَوُ بِمَا يَزِيدُ الْقَلْبَ يَقِينًا:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾
(الأنعام: ٩٩)،

ثُمَّ يَتَّبِعُهَا بِمِفْتَاحٍ آخَرَ:

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
(الرُّوم: ٥٠).

فَالنَّظَرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، نُزُولٌ وَإِنْبَاتٌ، ثُمَّ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْقَلْبِ، عِبْرَةٌ وَشُكْرٌ، هُوَ سُلْمُ الْإِنْسِجَامِ.

يُحْنِي حَبِيبُ الدُّنْيَا رَأْسَهُ، وَيَتَنَفَّسُ تَنَفَّسَ مَنْ غَلَبَتْهُ الدَّلَائِلُ. يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ كَأَنَّهُ يَتَلَاوَجُ، ثُمَّ يَقُولُ مُتَرَدِّدًا: «أَتَرَى، يَا سَيِّدُ، أَنَّ التَّدَبُّرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَسْعُنِي وَأَنَا رَجُلٌ أَرْتَرِقُ بِالْبَيْعِ».

يُقْبِلُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الظِّلِّ عَلَى الْغُودِ الْيَابِسِ فَيُلَيِّنُهُ: «بَلْ أَنْتَ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَيْهَا، لِأَنَّكَ تَبْنِي الثِّقَّةَ لِلنَّاسِ كَمَا يَبْنِي الرَّاعِي مَرَاعِيَهُ. وَاسْمَعْ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

فَالْعَدْلُ تَوَازُنٌ، وَالْإِحْسَانُ إِنْسَجَامٌ جَمِيلٌ يَزِيدُ أَلْوَنَ بَهَاءٍ.

تَتَحَوَّلُ الْحَلَقَةُ إِلَى مَشْهَدٍ حَيٍّ لِلتَّطْبِيقِ. يَنْهَضُ الْإِمَامُ وَيَنْهَضُونَ،
وَيَمْضُونَ خَارِجَ الْمَسْجِدِ نَحْوَ سَاحَةِ تُطَلُّ عَلَى ضِفَّةِ الْفُرَاتِ. الْمَاءُ يَمِيلُ فِي
مَجْرَاهُ مَيْلًا خَفِيًّا، كَأَنَّهُ مَسْرَى نُورٍ فِي عِزْقِ الْحَجَرِ. يَتَنَاوَلُ الْإِمَامُ غُصْنًا رَقِيقًا،
وَيَغْرِزُهُ فِي طَرَفِ فَنَاءٍ قَرِيبَةٍ:

«هَهُنَا نَلْمُسُ الْإِنْسَجَامَ بِالْأَصَابِعِ. زِدْ يَا صَفْوَانُ مِيلَ الْمَجْرَى شِعْرَةً».

يُطِيعُ صَفْوَانُ، فَيُسْرِعُ الْمَاءُ قَلِيلًا، ثُمَّ يَقُولُ الْإِمَامُ: «أَنْقَضْهُ شِعْرَةً».
فِيهِذَا الْمَاءُ. يَبْتَسِمُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِهِمْ: «هَكَذَا التَّوَازُنُ، زِيَادَةٌ تَفْسُدُ،
وَنَقْصَانٌ يُفْسِدُ، وَوَسْطٌ يُنْضِجُ».

يَعُودُونَ إِلَى الْوَرِشَةِ. يُوقِدُ عَاصِمٌ نَارَهُ، وَتَسْرِي فِي أَلْهَوَاءٍ رَائِحَةُ الْجَمْرِ،
كَأَنَّهَا ذِكْرَى قَدِيمَةٍ. يَرْقُبُ الْإِمَامُ لَوْنَ الْحَدِيدِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ الْحُمْرَةِ
وَالصَّفَرَةِ، أَشَارَ إِلَى عَاصِمٍ أَنْ يَضْرِبَ. يَنْسَابُ الْحَدِيدُ، وَتَتَنَاوَلُ ضَرْبَاتُ
الْمُطْرَقَةِ مَعَ النَّفْسِ. يَوْمِي الْإِمَامُ: «سَمُّوا هَذَا اللَّوْنَ، وَاجْعَلُوا لَهُ اسْمًا، وَاکْتُبُوا مَا
قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ. فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ مُسَمًّى، وَالزَّمَنُ مُقَسَّمًا، اجْتَمَعَتِ الْأَعْمَالُ عَلَى
مِيزَانِهَا».

تَعُودُ الْحَلَقَةُ فِي الْمَسَاءِ إِلَى الْمَسْجِدِ. يُضِيءُ السَّرْجُ نُورًا هَادِئًا،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَتَسْتَقِيمُ الْوُجُوهُ فِي مَوَاقِعِهَا كَأَنَّهَا لَوْثٌ فِي سِلْكٍ. يَرْفَعُ الْإِمَامُ كَفَّهُ، وَيَتْلُو آيَةً
تَجْمَعُ فُرُوعَ الدَّرْسِ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٩).

ثُمَّ يُتَابِعُ كَمَنْ يَسْقِي شَجَرَةً بِمَاءٍ فَصْلٍ مُنَاسِبٍ: «إِنَّمَا يَسْتطِعُ التَّوَازُنُ إِذَا
قَامَ الْقِسْطُ فِي الْقُلُوبِ قَبْلَ الْمَكَايِلِ، وَأَنْعَقَدَ الْإِنْسِجَامُ فِي الْأَعْمَالِ قَبْلَ
الْأَقْوَالِ».

تَرْفَعُ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ صَوْتَهَا وَفِيهِ جِدِّيَّةُ الْبَحْثِ: «سَيِّدِي، ارْأَى
الْأَلْفَاظَ تَتَنَاعَمُ كَمَا يَتَنَاعَمُ الصَّوْتَانِ فِي نَعْمٍ. هَلْ مِنْ مِيزَانٍ لِلْكَلِمَةِ يُطْفِئُ
غُلُوبَهَا وَيُجْرِي مَعَانِيَهَا».

يَمِيلُ الْإِمَامُ نَحْوَهَا مِيلَ الشَّفَقِ عَلَى مَوْجِ أَيْبُضٍ، وَيَقُولُ: «نَعَمْ. لِلْكَلِمَةِ
قَدْرٌ؛ إِنْ جَاوَزَتْهُ صَارَتْ سَبًّا وَبَطْرًا، وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ صَارَتْ عِيًّا وَعَجْزًا. وَهُنَا
تَرَيْنَ مِيزَانًا يَجْمَعُ خُلُقَ اللِّسَانِ:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الْفُرْقَانُ: ٦٣).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَهَذَا هُوَ التَّوَازُنُ فِي الْمَشْيِ وَالْكَلَامِ.

يَسْكُنُ الْمَجْلِسُ سُكُونًا مَنْ تَذَوَّقَ طَعْمًا جَدِيدًا فَأَرَادَ لَهُ سُكْنَى فِي الصَّدْرِ. يَبْسُطُ الْإِمَامُ خَاتِمَةَ كَانْهَا وَشَيْءٌ عَلَى ثَوْبٍ أَكْمَلَتْ غُرُزُهُ:

«إِذَا يَا أَحِبَّةُ، الْإِنْسِجَامُ وَسُطُوعُ التَّوَازُنِ أَنْ تَسِيرَ الْأَجْزَاءُ فِي سَبِيلِهَا دُونَ أَصْطِدَامٍ، وَأَنْ تَخْدِمَ الْأَسْبَابُ غَايَاتِهَا، وَأَنْ يَلْتَقِيَ الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ. وَحِينَئِذٍ فَقَطْ تَرَوْنَ الْجَمَالَ يَظْهَرُ فِي الصَّنْعَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالتَّعْلِيمِ، كَمَا تَرَوْنَهُ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ. وَاسْمَعُوا كَلِمَةً تُثَبِّتُ الْمَعْنَى فِي الرُّوحِ:

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الْحَجَرِ: ٨٥).

فَمَنْ جَعَلَ حَقَّ اللَّهِ مِيزَانًا لِنَفْسِهِ اسْتَقَامَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ، وَسَطَعَ فِي عَيْنَيْهِ التَّوَازُنُ كَنُورٍ يَتَسَّعُ.

تَنْفَضُّ الْحَلَقَةُ عَلَى مَهْلٍ، كَمَنْ يَنْصَرِفُ مِنْ بُسْتَانٍ وَفِي كَفِّهِ بَذْرَةٌ. يَخْرُجُ جَابِرٌ وَدَفْتَرُهُ مَمْلُوءٌ بِعُنْوَانٍ عَرَبِيٍّ: «الْإِنْسِجَامُ وَسُطُوعُ التَّوَازُنِ». يَتَصَوَّرُ، وَهُوَ يَسِيرُ، قَوَائِمَ لِلْأَلْوَانِ، وَسَلْمًا لِدَرَجَاتِ النَّارِ، وَأَزْمَنَةً مُسَمَّاةً لِلتَّسْحِينِ وَالتَّيْرِيدِ.

وَيَخْرُجُ عَاصِمٌ فِي خَيَالِهِ مَثْقَالٌ لِلْمَسَامِيرِ وَمِقْدَارٌ لَطُولِ الْأَضْلَاعِ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

وَيَخْرُجُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ فِي يَدِهِ جَدُولُ أَوْقَاتٍ يَتَنَاعَمُ فِيهِ عَمَلُ الشُّوقِ
وَالْحَقْلِ وَالْوَرَشَةِ لِقَلَّا تَطْغَى سَاعَةٌ عَلَى سَاعَةٍ وَلَا حَاجَةٌ عَلَى حَاجَةٍ.

وَيَمْضِي صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يُحْصِي مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَيَقِيسُ بِطَرْفِ نَظَرِهِ
مَسَافَاتِ الْكَوَاكِبِ كَأَنَّهُ يُقَدِّرُ لِلضُّوءِ مَقْدَارًا كَمَقْدَارِ الْمَاءِ فِي سَاقِيَةٍ.

وَتَمْشِي لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ تُقَلِّبُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا خَيْطًا دَقِيقًا تُسَمِّيهِ شَعْرَةَ
الْمَيْلِ، تَقِيسُ بِهِ مَجْرَى الْمَاءِ كَيْلًا يَطْيِشُ عَنْ وَسْطِهِ.

أَمَّا حَبِيبُ الدُّنْيَا فَيَضُمُّ كَفَّهُ عَلَى دِرْهَمٍ، ثُمَّ يَفْتَحُهَا عَلَى رُقْعَةٍ كَتَبَ
فِيهَا: «الرَّبْحُ الْعَاجِلُ يَفْنَى وَالثَّقَّةُ تَبْقَى»، ثُمَّ يَرْفَعُ الْأَطْرَفَ كَأَنَّهُ يَلْتَمِسُ مِنْ
السَّمَاءِ شَاهِدًا عَلَى مِيزَانٍ جَدِيدٍ فِي قَلْبِهِ.

وَيَقِفُ الْإِمَامُ عَلَى بَابِ الْمَحْرَابِ، يُسَاوِي طَرْفَ السَّجَّادَةِ وَيُسْمِعُ
الْمَسْجِدَ هَمْسًا يَجْرِي مَجْرَى الدُّعَاءِ: «مَنْ وَازَنَ نَفْسَهُ نَجَا، وَمَنْ أَقَامَ لِأَشْيَائِهِ
مَقْدَارًا أَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ نُورَ الْإِتِّسَاقِ».

ثُمَّ تَنْسَابُ الظُّلَالُ عَلَى الْأَسَاطِينِ، وَيَرْتَقِي النُّورُ مِنْ مِثْدَنَةِ قَرِيْبَةٍ
كَخَيْطٍ نَقِيٍّ يَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ، وَتَمْضِي الْقُدُمُ عَلَى الْحَصْبَاءِ كَمَا تَمْضِي
الْأَفْكَارُ فِي الدُّرُوبِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَكُلُّ قَدْ خَبَأَ فِي صَدْرِهِ بَذْرَةً يَرْجُو لَهَا غَدًا سَقِيًّا
وَنُمُوًّا.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: سُنَنُ الْكَوْنِ وَمِيزَانُ النِّظَامِ

كَانَ الْمَسْجِدُ يَتَنَفَّسُ سَكِينَةً قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَالرَّيْحُ تَمُرُّ فِي الرُّوَاقِ كَأَنَّهَا يُسْرَى تُرْتَّبُ مَا أَضْطَرَبَ فِي النُّفُوسِ. الصُّفُوفُ مُدَاوِرَةٌ كَحَلَقَةِ نَهْرٍ حَوْلَ صَخْرَةٍ صَابِرَةٍ، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تُرْتَّبُ أَظْلَلَهُ ذَهَبِيَّةٌ عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهَا مِيزَانُ بَصَرِيٍّ يَقِيسُ نِسْبَةَ النُّورِ إِلَى الظِّلِّ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَجْهُهُ يُشْبِهُ صَفْحَةَ صَبَاحٍ طَرِيٍّ، وَعَيْنَاهُ تُسَافِرَانِ بَيْنَ أَلْوَجْهِهِ كَمَنْ يَزِنُ الْقُلُوبَ بِلَا كِفَّتَيْنِ. إِلَى يَمِينِهِ جَابِرٌ، قَلَمُهُ يَرْتَجِفُ رَغْبَةً كَأَنَّهُ طَرَفُ غُصْنٍ يَنْتَظِرُ نَسْمَةً، وَإِلَى شِمَالِهِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ، جَبِينُهُ أَمِيلٌ إِلَى التَّقْطِيبِ كَمَنْ يَرِبُطُ خُيُوطًا غَيْرَ مَرْتَبَةٍ بَيْنَ الْمُقَدِّمَةِ وَالنَّتِيجَةِ. خَلْفَهُمْ جَلَسَ عَاصِمُ الصَّانِعِ، كَفَّاهُ تَكْتَبَانِ تَارِيخَ الْمِطْرَقَةِ عَلَى جِلْدِ الْحَدِيدِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُقَلِّبُ نَظْرَهُ بَيْنَ السَّقْفِ وَالرَّحَالِ، كَمَنْ يَحْسِبُ الرِّيحَ قَبْلَ الْمِيزَانِ.

أَغْمَضَ الْإِمَامُ عَيْنَيْهِ هُنَيْهَةً كَمَنْ يَسْتَخْضِرُ مَصْدَرَ النُّورِ، ثُمَّ فَتَحَهُمَا وَصَوْتُهُ يَخْرُجُ مُتَدَرِّجًا كَمَاءٍ سَاقِيَةٍ يَبْدَأُ هَادِئًا ثُمَّ يَقْوَى:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
(الأحزاب: ٦٢).

كَأَنَّ الْأَيَّةَ عَمُودُ ضِيَاءٍ نَزَلَ فِي نِصْفِ الْحَلَقَةِ، فَسَكَنَ الْهَمْسُ،
وَأَنْتَبَهَتْ الْأَنْفَاسُ. مَالَ الْإِمَامُ بِنِصْفِ جِسْمِهِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَاتَّبَعَ:

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
(فاطر: ٤٣).

ثُمَّ ارْتَفَعَ بِنَبْرَةٍ أَرْسَى فِيهَا أَلْمَعْنَى عَلَى مِحْمَلٍ وَاضِحٍ: «هَذِهِ كَلِمَةُ
الْبَدْءِ لِمِيزَانِ النَّظَامِ، فَمَا قَامَ الْكَوْنُ عَلَى الْعَرْضِ الْمُتَقَلِّبِ، وَلَا عَلَى الصُّدْفَةِ
الْعَمِيَاءِ، بَلْ عَلَى سُنَنِ مُسْتَقِيمَةٍ، إِذَا عُرِفَتْ، أَنْكَشَفَتْ لِلْعَيْنِ طَرِيقَةَ الْعَمَلِ،
وَأَتَّصَحَّ لِلْيَدِ مِقْدَارُ الْفِعْلِ».

أُنْحَنَى صَاحِبُ الْقِيَاسِ قَلِيلًا، وَقَالَ وَهُوَ يُفَكِّكُ الْكَلِمَةَ فِي ذَهْنِهِ قِطْعَةً
قِطْعَةً: «إِذَنْ، تَلْزَمُ النَّبِيْجَةُ إِذَا اسْتَوَتْ الْمُقَدِّمَاتُ، فَالْقَاعِدَةُ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ».

الْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ تَلْفَةً رِضًا، ثُمَّ نَقَلَ بَصَرَهُ إِلَى جَابِرٍ.

كَانَ جَابِرٌ قَدْ قَرَّبَ دَفْتَرَهُ، وَالْقَلَمُ عَلَى شَفَةِ الصَّفْحَةِ كَمَنْ يَسْتَعِدُّ
لِلْوُثُوبِ. قَالَ جَابِرٌ وَحَرَارَةُ الدِّرَاكِ تَلُوحُ فِي صَوْتِهِ: «يَا سَيِّدِي، لَقَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

التَّجَرُّبَةُ الْيَوْمَ هِيَ نَفْسُهَا التَّجَرُّبَةُ غَدًا إِذَا اسْتَقَامَ الْقَدَرُ وَالشَّرْطُ، فَلَا تُفَاجِئُنَا
النَّتِيجَةُ».

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ، ثُمَّ أَوْمَأَ وَقَالَ بِبَرَةٍ تُثَبِّتُ الْعُقُولَ: «يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَقِيمَ
الشَّاهِدُ عَلَى مِيزَانِهِ، فَالْحَقُّ لَا يَنْقَلِبُ، وَالْمِيزَانُ لَا يَخُونُ».

تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا كَخْطَى عَلَى رَمْلٍ يَطْمَعُ فِي الطَّبَعِ، وَقَالَ وَهُوَ
يُحَاوِلُ أَنْ يَبْتَسِمَ ابْتِسَامَةَ الْمُقْنِعِ: «لَا تُشَدُّوا عَلَى النَّاسِ، فَالَّذِينَ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَرَبِّهِ، وَأَمَّا هَذِهِ التَّفْصِيلَاتُ فِي الصَّنْعَةِ وَالْكَيْلِ فَتُتْعَبُ الْعَامَّةُ».

انْقَلَبَ الْهَمْسُ فِي الْحَلَقَةِ نَفْسًا طَوِيلًا. رَفَعَ الْإِمَامُ كَفَّهُ كَمَنْ يَهْدِي
نَهْرًا قَلِيلًا، وَقَالَ بِرَفَقٍ يَأْخُذُ بِيَدِ الْقَلْبِ: «أَيُّهَا الْأَخُّ، التَّدَبُّرُ فِي خَلْقِ اللَّهِ يَزِيدُ
الْإِيمَانَ، وَيَرْفَعُ عَنِ النَّاسِ عَتَا الْجَهْلِ. أَسْمَعْ:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

﴿فَمَنْ نَظَرَ وَسَمَّى وَقَيَّدَ الْقَدَرَ، نَفَعَ النَّاسَ وَنَفَعْتَهُ الْيَوْمَ﴾.

مَالَ الْإِمَامُ إِلَى الْقِبْلَةِ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَلَا وَصُوتُهُ يَحْمِلُ التَّوَازُنَ كَأَنَّهُ
مِيزَانٌ مِنْ صَوْتٍ:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس: ٤٠).

ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُشِيرُ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فَوْقَ كَأَنَّهُ يَرَسُمُ الْفَلَكَ فِي الْهَوَاءِ: «هَذِهِ صُورَةُ الْإِنْسِجَامِ وَسَطُوعِ التَّوَازُنِ. مَا مِنْ جِسْمٍ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَهُوَ عَلَى سَبِيلِهِ، لَا يَزِيدُ عَنْهُ وَلَا يَعْدِلُ إِلَيْ غَيْرِهِ. فَإِذَا عَرَفْنَا سُنْنَ السَّمَاءِ، سَهَّلَ عَلَيْنَا أَنْ نُقِيمَ سُنْنَ الْأَرْضِ فِي السُّوقِ وَالْحَقْلِ وَالْوَرِشَةِ».

الْتَفَتَ إِلَى الْحَلَقَةِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى السَّاحَةِ بَيْنَ الْأَعْمَدَةِ، وَقَالَ: «تَعَالَوْا نَخَاطِبِ الْوَاقِعَ». قَامُوا مَعَهُ، وَالْفَتِيَّةُ يَتَأَبَّطُونَ دَوَاتِ الْحَبْرِ وَصَحَائِفَ الْوَرَقِ. خَرَجُوا إِلَى السَّاحَةِ، وَالذُّكُوكُ تَصْدَحُ بِأَصْوَاتِ الْبَاعَةِ فِي السُّوقِ الْمُجَاوِرِ. تَوَقَّفَ الْإِمَامُ عِنْدَ مِيزَانٍ تَاجِرٍ يُعَلِّقُ الْكِفَّتَيْنِ كَأَنَّهُمَا قَلْبَانِ. وَقَالَ لِلتَّاجِرِ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ: «هَلْ تَرْضَى أَنْ تَتَفَاوَتَ الْكِفَّتَانِ» قَالَ التَّاجِرُ: «لَا أَرْضَى». فَقَالَ الْإِمَامُ: «إِذَنْ سَمِّ لِكُلِّ مِكْيَالٍ حَدَّهُ، وَأَقِمِّ لِكُلِّ سِلْعَةٍ سِعْرًا يَقُومُ عَلَى الْعَدْلِ، فَإِنَّ التَّفَاوَتَ فِي الْمِيزَانِ يُفْسِدُ الثَّقَّةَ، وَإِذَا فَسَدَتِ الثَّقَّةُ تَهْدَمَ السُّوقُ». ثُمَّ تَلَا وَهُوَ يَرْفَعُ الصَّوْتَ قَلِيلًا:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١-٣).

ارْتَعَدَتْ أَصَابِعُ حَبِيبِ الدُّنْيَا قَلِيلًا، ثُمَّ خَفَضَ رَأْسَهُ. هَمَسَ جَابِرٌ لِنَفْسِهِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

وَهُوَ يَكْتُبُ: «الْقِيَاسُ فِي الشُّوقِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ».

سَمِعَهُ الْإِمَامُ فَأَبْتَسَمَ، ثُمَّ قَالَ بِنَبَرَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْبَصِيرَةِ وَالتَّطْبِيقِ: «سُنُّنُ اللَّهِ تَجْرِي فِي الْأَرْضِ كَمَا تَجْرِي فِي السَّمَاءِ. وَالشُّوقُ إِذَا أَعْتَدَلَ مِيزَانُهُ، أَعْتَدَلَ قَلْبُ الْمُدِينَةِ».

سَارُوا حَتَّى بَلَغُوا حَاقَّةَ حَقْلٍ قَرِيبٍ، وَالْهُدُوءُ يَنْسُجُ عَلَى سَطْحِ التُّرْبَةِ خَيْطًا مِنْ ذَهَبٍ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى السَّاقِيَةِ، ثُمَّ جَثَا وَعَزَزَ عُودًا رَفِيعًا فِي التُّرَابِ كَمَنْ يَغْرِسُ مُؤَشِّرًا فِي قَلْبِ الْمَادَّةِ. قَالَ لَصَفْوَانَ: «أَمِلِ الْمَجْرَى شَيْئًا». تَسَارَعَ الْمَاءُ. قَالَ: «أَرُدُّهُ شَيْئًا». سَكَنَ الْمَاءُ. ثُمَّ رَفَعَ نَظْرَهُ وَتَلَا:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وَقَالَ: «هَذَا مِيزَانُ النَّظَامِ فِي الرَّيِّ. فَلَأَصُلُّ أَنْ يَجْرِيَ الْمَاءُ عَلَى قَدَرٍ، لَا طُغْيَانَ فَيُفْسِدَ التُّرْبَةَ، وَلَا تَفْرِيطَ فَيَرْكُدَ وَتَخُنُقَ الْجُدُورُ».

نَهَضَ عَاصِمٌ وَالْحِرْفَةُ تَتَكَلَّمُ فِي صَوْتِهِ: «هَلْ لِمِيزَانِ النَّظَامِ نَصِيبٌ فِي الْحَدِيدِ وَالنَّارِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ كَمَنْ يَرَى الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ: «نَعَمْ. إِذَا سَمَّيْتَ لِلنَّارِ دَرَجَاتَهَا، وَلِلْحَدِيدِ لَوْنَهُ الَّذِي يَلِينُ فِيهِ، وَلِلطَّرِيقِ مَوَاقِفَتَهُ، ثَبَّتَتْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

النَّيِّجَةُ. وَاسْمَعُ:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥).

«فَإِذَا أَعْتَدَلِ الْقُدْرُ فِي الْبَأْسِ وَالْمَنْفَعَةِ، خَرَجَ السَّيْفُ صَبْئًا، وَالْمِسْمَارُ أَمِينًا، وَالْقُدْرُ حَمَلًا لِلنَّارِ لَا يَحُونُ».

رَفَعَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ صَوْتَهُ بِحَذَرٍ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، إِذَا كَانَتِ السُّنَنُ ثَابِتَةً، فَهَلْ مِنْ سُنَّةٍ تَحْكُمُ التَّغْيِيرَ فِي حَالِ الْقَوْمِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْفَعُ كَفَّهُ بِطُمَأْنِينَةٍ: «نَعَمْ».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

«فَمَنْ رَتَّبَ أَسْبَابَهُ عَلَى مِيزَانٍ، غَيَّرَ اللَّهُ لَهُ حَالَهُ عَلَى مِيزَانٍ. وَمَنْ أَفْسَدَ الْمِيزَانَ فِي نَفْسِهِ، فَقَدْ هَدَمَ أَصْلَ التَّغْيِيرِ».

تَقَدَّمَ جَابِرُ خُطْوَةً، وَالْحُرُوفُ تَسِيلُ مِنْ قَلَمِهِ كَنَهْرٍ صَغِيرٍ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ، أَرَى أَنَّ مِيزَانَ النِّظَامِ يَطْلُبُ التَّوَثُّيقَ. فَهَلْ نَجْعَلُ لِكُلِّ صَنْعَةٍ دَفْتَرًا نَكْتُبُ فِيهِ الشُّرُوطَ وَالْأَقْدَارَ وَمَوَاقِيتَ الْعَمَلِ»

قَالَ الْإِمَامُ وَالنُّورُ يَصْعَدُ فِي وَجْهِهِ: «هَذَا هُوَ الْبَابُ الَّذِي تُفْتَحُ مِنْهُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

دِرَاسَةُ الصَّنْعَةِ.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤).

﴿فَالْقَلَمُ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ، وَيَحْمِلُ الْخَبْرَةَ مِنْ صَدْرٍ إِلَى صَدْرٍ، وَيَجْعَلُ
التَّجَرُّبَةَ حَقًّا مُسْتَقَرًّا﴾.

سَكَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ مَالَ بِصَوْتِهِ إِلَى مَقَامٍ آخَرَ: «وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ سُنَّةُ
التَّدْرِجِ».

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

﴿فَالْبِنَاءُ يُؤْخَذُ قِطْعَةً قِطْعَةً، وَالصَّنْعَةُ تُتَقَنُّ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَالْقَلْبُ
يُرَبَّى عَلَى الْمِيزَانِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ﴾.

أَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا بِصَوْتٍ يَجْمَعُ الرُّوْنَاقَ إِلَى الْحُجَّةِ:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (يس: ٣٨).

﴿فَلِكُلِّ شَيْءٍ مُسْتَقَرٌّ وَحَدٌّ، لَا يَتَقَدَّمُ قَبْلَ أَوَانِهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ. وَهَكَذَا
يَكُونُ الْعَمَلُ: مَوْعِدٌ لِّلْبِدَايَةِ، وَمَوْعِدٌ لِّلْأَنْتِهَاءِ، وَقَدَرٌ لِّكُلِّ خُطْوَةٍ﴾.

قَالَ حَمْرَةُ الْأَنْصَارِيِّ وَفِي صَوْتِهِ شَوْقُ الزَّرِيعِ: «هَلْ يُفِيدُنَا هَذَا فِي

الْمَوَاسِمُ

قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (يونس: ٥).

﴿فَإِذَا رَ بَطُثْتُمْ مَنَازِلَ الْقَمَرِ بِأَوْقَاتِ الزَّرْعِ وَالرَّيِّ وَالْحَصَادِ، سَهْلَ عَلَيْكُمْ التَّدْبِيرُ، وَأَنْقَادَتِ الْأَرْضُ لِمَعْوَلِكُمْ﴾.

أَلْتَفَتَ بِوَجْهِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَشَارَ إِلَى السُّوقِ الْبَعِيدِ، ثُمَّ قَالَ: «وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ سُنَّةُ الْعَدْلِ فِي التَّعَامُلِ.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

﴿فَمَنْ أَقَامَهَا، أَقَامَ الثَّقَةَ، وَمَنْ هَدَمَهَا، هَدَمَ جِسْرَ الرِّزْقِ بَيْنَ النَّفُوسِ﴾. وَأَتْبَعَهَا بَايَةً تَرَبُّطُ الْبَابِ بِقَلْبِهِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥).

﴿فَمَا كَانَ الْخَلْقُ بِالْحَقِّ لِيُرْضِيَ بِالْبَاطِلِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ﴾.

غَاصَتْ عَيْنَا حَبِيبِ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ بِصَدْقٍ لَمْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَعْتَدُهُ: «أَرَأَيْتَ تَجْمَعُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: الْمِيزَانُ. فَهَلْ لِي فِي هَذَا نَصِيبٌ وَأَنَا لَا أَحِيدُ إِلَّا الْمُسَاوَمَةَ»

قَالَ الْإِمَامُ وَوَجْهُهُ يُطْمَئِنُّ: «نَعَمْ. إِذَا زِدْتَ فِي الْقِسْطِ، وَنَقَصْتَ مِنَ الْجَشَعِ، وَأَقَمْتَ الْوَزْنَ فِي قَوْلِكَ قَبْلَ مِيزَانِكَ، ثَبَتَتْ تِجَارَتُكَ فِي عُيُونِ النَّاسِ وَفِي سِجِلِّ الْحَقِّ».

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَفِي الصُّدُورِ صَدَى يَرْتَجِعُ كَأَنَّهُ نَبْرَةٌ مِيزَانٍ مَخْفِيٍّ. جَلَسُوا فِي مَجْلِسِهِمُ الْأَوَّلِ، فَمَالَ الْإِمَامُ بِجَسَدِهِ قَلِيلًا نَحْوَ جَابِرٍ وَقَالَ كَمَنْ يُسَلِّمُ لَهُ مِفْتَاحًا: «أُرِيدُكَ أَنْ تَصْنَعَ أَمْرًا يُظْهِرُ سُنَّةَ الْإِسْتِقْرَارِ فِي الْوَقْتِ. خُذْ قِنِينَةً، وَاجْعَلْ لِفَمِهَا ثَقْبًا رَقِيقًا، وَامْلَأْهَا مَاءً، ثُمَّ دَعْهَا تَقْطُرُ فِي إِنَاءٍ مَعْلُومِ السَّعَةِ، وَعُدَّ الْقَطْرَاتِ وَقِسِ الزَّمْنَ. سَتَرَى أَنَّ الثَّابِتَ فِي الشَّرْطِ يُنْتِجُ ثَبَاتًا فِي النَّتِيجَةِ». ثُمَّ تَلَا وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾
(الأنعام: ٩٩).

«فَالْمَاءُ سَبَبٌ، وَالزَّمَنُ وَعَاءٌ، وَالْقَدَرُ مِيزَانٌ يَحْمِلُ النَّتِيجَةَ».

سَأَلَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ وَفِي صَوْتِهَا دِقَّةُ الْمُدْرَسَةِ: «هَلْ يَحِبُّ أَنْ نُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ لِيَسْتَقِيمَ عَلَى الْمِيزَانِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَقَالَ الْإِمَامُ: «التَّسْمِيَةُ صِفٌ لِلْمَعْرِفَةِ، وَهِيَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي تَعْلِيمِ الْإِنْسَانِ.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١).

«فَإِذَا تَسَامَتِ الْأَسْمَاءُ، سَهَلَ الْقِيَاسُ، وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَسْمَاءُ اضْطَرَبَ الْمِيزَانُ».

تَنْفَسَ الْمَجْلِسُ نَفْسًا طَوِيلًا كَأَنَّهُ اسْتَرَاحَ عَلَى عَتَبَةِ مَعْنَى جَدِيدٍ. ثُمَّ رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ بِخِتَامٍ يَجْمَعُ أَلْبَابَ كُلِّهِ فِي جُمْلَةٍ: «سُنَنُ اللَّهِ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُحَوَّلُ، وَمِيزَانُ النَّظَامِ مِفْتَاحُ أَلْفْهِمْ وَسَبِيلُ الصَّنْعَةِ. فَمَنْ أَخَذَ بِالسَّبَبِ عَلَى قَدْرِهِ، وَسَمَّى الشَّرْطَ عَلَى حَدِّهِ، وَأَقَامَ الْعَدْلَ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، جَرَتْ مَعَهُ الْأَيَّامُ عَلَى نَهْجٍ يُشَبِّهُ جَرَيَانَ الشَّمْسِ فِي فَلَكِهَا». ثُمَّ تَلَا خَاتِمَةً تُثَبِّتُ الرُّوحَ عَلَى الطَّرِيقِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

«فَأَحْسِنُوا الْقِيَاسَ كَمَا تُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ مِيزَانٌ يَسْتَوِي عَلَيْهِ مَا بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْيَدِ».

ثُمَّ تَفَرَّقَ الْحَاضِرُونَ عَلَى مَوَاعِيدَ مِنَ التَّطْيِيقِ: جَابِرٌ يَسْتَعِدُّ لَتَجَرُّبَةِ الْمَاءِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَالزَّمَنِ، وَعَاصِمٌ يَسْمُ دَرَجَاتِ النَّارِ فِي دَفْتَرٍ جَدِيدٍ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْسُمُ
جَدْوَلًا يُوَازِنُ بَيْنَ أَوْقَاتِ الْعَمَلِ وَأُجُورِ الرِّجَالِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُفَكِّرُ فِي كَيْفِ
يَزِيدُ الْقِسْطَ فِي مِيزَانِهِ لِيَرْبَحَ رِبْحَيْنِ: رِضَا النَّاسِ وَرِضَا الْحَقِّ. وَكَانَ صَدَى
الْآيَاتِ يَزْتَجُّ فِي الشَّوَارِعِ كَأَنَّهُ الْندَاءُ الْأَوَّلُ لِعِمَارَةِ جَدِيدَةٍ تَقُومُ عَلَى سُنَنِ لَا
تُبَدَّلُ وَلَا تُحَوَّلُ، وَعَلَى مِيزَانٍ إِذَا أَعْتَدَلَ أَعْتَدَلَتْ مَعَهُ الْحَيَاةُ.

الفصل الثاني: سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ وَالْغَايَاتِ

- الْمَوَازِينُ الْمُتَحَقِّقَةُ:
 - السَّبَبِيَّةُ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر: 22).
 - الْغَايَةُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: 115).
 - الْأَسْتِدَامَةُ: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: 77).
- الشَّخْصِيَّاتُ وَالْمَشْهَدُ: يَسْتَأْنِفُ الْإِمَامُ بِحَدِيثٍ عَنِ السَّبَبِيَّةِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ. تَعْرِضُ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ مُشْكِلَةً فِي تَدْيِيرِ الرَّيِّ، فَيُوجَّهُهَا الْإِمَامُ إِلَى مِيزَانِ الْغَايَةِ وَالْإِسْتِدَامَةِ. يَقُولُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: "يَلْزَمُ أَنْ يَعْمَلَ السَّبَبُ لِعَايَةِ نَافِعَةٍ". يَفْتَرِحُ حَبِيبُ الدُّنْيَا حَلًّا يُؤَلِّدُ رِبْحًا سَرِيعًا وَلَكِنَّهُ يُفْسِدُ الْأَرْضَ، فَيُوجَّهُ جَابِرٌ بِسُؤَالٍ: "أَيُّنَ الْغَايَةُ مِنَ الْفَسَادِ" فَيَذَرُكُ الْجَمِيعُ أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ مُكْتَمِلًا إِلَّا بِالْغَايَةِ النَّبِيلَةِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ السَّبَبِيَّةِ

حَفَّ السُّكُونُ الرَّقِيقُ أَعْمَدَةَ الْمَسْجِدِ فُبَيْلَ الْعَصْرِ، وَتَرَجَّرَ ضَوْءُ سُرُجِ
الزَّيْتِ عَلَى جُدْرَانٍ مَغْسُولَةٍ بِالْقِرَاءَةِ وَالزُّهْدِ. تَوَسَّطَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ، جَالِسًا عَلَى
حَصِيرٍ قَدِيمٍ تَحْفُهُ وَجْهَاتٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالطَّلَبِ وَاللَّهْفَةِ. إِلَى يَمِينِهِ جَلَسَ جَابِرٌ يَضُمُّ
دَفْتَرًا غَلِيظَ الْوَرَقِ كَمَنْ يَقْبِضُ نَبْضَ سُؤَالٍ، وَقُبَالَتَهُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيُّ
يُقَلِّبُ قِطْعَةً مِنْ قِرْطَاسٍ عَلَيْهَا خُطُوطٌ وَمَقْدَارَاتٌ. وَإِلَى الْجَانِبِ، وَعَاصِمٌ
الصَّانِعُ يَفْرُكُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ كَمَنْ يَتَفَقَّدُ حِسَّ الطَّرِيقِ وَالْقَبْضِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا
الْمُصْلَحُجِيُّ يُمَالِحُ الْجَمِيعَ بِابْتِسَامَةٍ مَكْنُونَةٍ تَتَلَوَّنُ لَوَقْتِ الرِّيحِ. وَعِنْدَ أَسَاسِ
سَارِيَةِ قَرِيبَةٍ، خَطَّتْ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ خُطُوطَ هَادِيَّةٍ، وَفِي يَدِهَا لَوْحَةٌ رَسَمَ لِقِنَاةٍ
رِيٍّ أَشْكَلَ عَلَيْهَا مِثْلَهَا وَجَرَيَانُهَا.

اسْتَوَى صَوْتُ الْإِمَامِ فِي الْمَكَانِ كَمَا عَيْنٌ يَنْفُذُ فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ ارْتَقَى
فِي مَدِّ خَاشِعٍ:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

أَطَالَ الْوُقُوفَةَ قَلِيلًا حَتَّى تَسْتَقِرَّ الْآيَةُ فِي الْأَنْفُسِ، ثُمَّ مَالَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْجَمَاعَةِ وَبِالْبَشَاشَةِ نَفْسَهَا قَالَ: «هُنَا يَبْدَأُ الْبَحْثُ: سَبَبٌ يَجْرُ سَبَبًا، وَسُنَّةٌ تَلِي سُنَّةً؛ رِيَّاحٌ تُلْفِحُ، فَسُحْبٌ تَثْقُلُ، فَمَاءٌ يَنْهَمِرُ، فَنَبَاتٌ يَنْبُتُ، فَرِزْقٌ يَظْهَرُ. هَذَا مِيزَانُ السَّبَبِيَّةِ يَنْسُجُ خَيْطَ الْغَيْثِ مِنْ نَفْخَةِ رِيحٍ إِلَى سُرُورِ الثَّمَرِ».

تَقَدَّمَتْ لُبْنَى وَوَضَعَتْ لَوْحَتَهَا قُدَّامَ الْحَلَقَةِ، ثُمَّ أَشَارَتْ بِقَلَمٍ فَحَمَّ إِلَى خَطٍّ يَمِيلُ قَلِيلًا: «هَذِهِ قَنَاءُ الرَّيِّ يَا سَيِّدِي، مِثْلُهَا يَحُولُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْبُسْتَانِ. إِنَّ زَيْدَ الْمَيْلِ أَنْهَارَ الْجَانِبِ، وَإِنْ نُقِصَ رَكَدَ الْمَاءُ».

لَا حَ فِي عَيْنِي إِلَّا مَامَ نُقْطَةُ الرِّضَا، ثُمَّ لَمَسَ حَافَةَ اللَّوْحَةِ بِأَصْبَعِهِ كَمَنْ يَسْتَخْرِجُ الْقَدْرَ مِنَ التَّصْوِيرِ: «سَمِّي شُرُوطُكَ وَاكْتُبِي قَدْرَ الْمَيْلِ شَبْرًا شَبْرًا، ثُمَّ زَيْدِي قَدْرَ شِعْرَةٍ وَنَاقِصِي قَدْرَ شِعْرَةٍ، حَتَّى يَقُومَ الْمَاءُ فِي الطَّرِيقِ قِيَامًا حَسَنًا. إِذَا اسْتَقَامَ السَّبَبُ قَامَتْ مَعَهُ النَّتِيجَةُ».

أَمَالَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ رَأْسَهُ وَتَمَعَّنَ فِي اللَّوْحَةِ، ثُمَّ أَعَادَ النَّظَرَ إِلَى الْإِمَامِ وَفِي نَبْرَتِهِ حِرْصُ الْمَحَاجَّةِ: «إِذَنْ يَلْزَمُ أَنْ تُضَبِّطَ الْأَسْبَابَ لِتَلْزَمَ النَّتَائِجُ». هَزَّ الْإِمَامُ كَفَّهُ الْيُمْنَى كَمَنْ يَثْبُتُ سَطْرًا فِي الصِّدْرِ، ثُمَّ أَطْلَقَ صَوْتًا هَادِئًا:

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» (الأعراف: ٥٧).

تَنَقَّلَتْ عَيْنَاهُ بَيْنَ أَلْوَجُوهِ وَهِيَ تُطِيلُ التَّأَمُّلَ: «مَا بَشَارَةُ هَذِهِ الرِّيَّاحِ إِلَّا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

سَبَبٌ مُسَمًّى لِنَزْلِ الرَّحْمَةِ. فَمَنْ قَاسَ أَسْبَابَهُ قَادَ نَتَائِجَهُ.

إِنْحَنَى عَاصِمُ الصَّانِعِ قَلِيلًا، وَفِي عَيْنَيْهِ ضَوْءُ تَجَرُّبَةٍ قَدِيمَةٍ: «يَا سَيِّدِي،
أَجِدُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيدِ؛ أَسْخَنَهُ حَتَّى يَبْلُغَ لَوْنًا بَيْنَ الصُّفْرِ وَالْحُمْرَةِ، فَيَلِينُ
لِلْمِطْرَقَةِ، فَإِذَا زِدْتُ التَّسْحِينَ تَقْصَفَ، وَإِذَا قَلَلْتُ لَمْ يَلِنْ».

مَالَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ فِي مَوَدَّةٍ، ثُمَّ شَبَّكَ أَصَابِعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ: «اُكْتُبْ هَذَا
الْحَدَّ فِي دَفْتَرِكَ، وَسَمِّ الْأَوْنَ وَالزَّمْنَ، لِأَنَّ

كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (الرعد: ٨).

ثُمَّ طَافَ بِنَظَرِهِ عَلَى الْحَلَقَةِ: «الْمِقْدَارُ اسْمٌ لِحَدٍّ يَحْمِلُ الْفِعْلَ عَلَى
الصَّوَابِ».

فِي الرُّكْنِ، حَرَكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا كَفَّهُ كَمَنْ يَقْنُصُ فُرْصَةً: «أَلَا نَقْطَعُ
أَشْجَارًا عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ لِنَتَسَّعَ الْمَجْرَى فَيَسْرِعَ الْمَاءُ سَيَعُظُمَ الرَّبْحُ وَيَقْرُبُ
الْحَصَادُ».

فَبَضَّتْ بُنَى قَلَمَهَا، ثُمَّ رَسَمَتْ حَافَةً مُتَكَسِّرَةً عَلَى اللَّوْحَةِ: «سَيَأْكُلُ
النَّهْرُ التُّرْبَةَ وَتَصِيرُ الْأَرْضُ سَبْخَةً، وَيَهْرُبُ الْمَاءُ فِي شُقُوقٍ لَا تُدْرِكُ. سُرْعَةً
لِسَاعَةٍ، وَخَسَارَةً لِسِنِينَ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

تَنْفَسَ الْإِمَامُ نَفْسًا طَوِيلًا، ثُمَّ عَقَدَ كَفَّهُ عَلَى كَفِّهِ كَمَنْ يَجْمَعُ الْكَلِمَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).

أَطَالَ النَّظَرَ فِي وَجْهِ حَبِيبٍ، ثُمَّ لَطَفَ الْعِتَابَ: «إِنْ زِدْنَا عَلَى الْقَدْرِ طَغِينَا، وَإِنْ نَقَصْنَا عَنْهُ خَذَلْنَا الْفِعْلَ؛ وَالسَّبَبُ الْمُتَزِنُ يَلِيدُ نَتِيجَةً مُتَزِنَةً».

أَرْتَفَعَ الْهَمْسُ فِي الْحَلَقَةِ كَنَبْضِ حُبُوبٍ فِي الْأَكْفِ، ثُمَّ سَكَنَ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى الْبَابِ: «قُومُوا إِلَى الْحَقْلِ، فَالسَّبَبُ لَا يُعْرِفُ إِلَّا فِي مِيدَانِهِ».

خَرَجُوا، وَعَلَى خُدُودِ السَّمَاءِ سِتَارُ الْعَصْرِ. مَضُوا حَتَّى بَلَغُوا شَفِيرَ سَاقِيَةٍ تَدَاعِبُهَا الرِّيحُ. غَرَزَ الْإِمَامُ عُودًا رَفِيعًا فِي الثَّرْبَةِ، ثُمَّ مَالَ إِلَى لُبْنَى: «ارْفَعِي الْمِيلَ قَدْرَ شِعْرَةٍ. تَزْحَرْ الْمَاءُ فِي لَيْنٍ، فَانْسَابَتْ خُشُونَةُ الطِّينِ. «انْقِصِيهِ الْآنَ شِعْرَةً». انْحَدَرَ الْجَرَيَانُ إِلَى هِينَةٍ تَثْبُتُ السَّاقِيَةَ وَلَا تُتْعَبُ جَانِبَيْهَا. ابْتَسَمَ الْإِمَامُ: «هَذَا قَدْرٌ يَحْمِلُ الرِّزْقَ وَلَا يَحْمِلُ الْفُسَادَ».

قَرُبَ جَابِرٌ مِنَ الْمَاءِ، ثُمَّ لَمَسَ الْمَوْجَ الصَّغِيرَ بِظُفْرِهِ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ مُسَاءِلَةٌ: «سَيِّدِي، أَحْسَبُ أَنَّ الرِّيَّاحَ تُلْقِحُ النَّبَاتَ كَمَا تُهَيِّئُ الشُّحْبَ، فَهَلْ نَرُصُّدُ لَهَا مَوَاسِمَ وَاتِّجَاهَاتٍ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى سَعَفٍ نَخْلٍ يَهْتَرُ: «اِكْتُبْ مَا تَرَى، وَاِكْتُبْ مَا تَسْمَعُ مِنْ أَهْلِ الْحَقْلِ، ثُمَّ أَرْجِعْ إِلَى الْآيَةِ فَتَجِدِ الْقَاعِدَةَ:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢).

لِلرِّيَّاحِ عَادَاتٌ، وَلِلْمَوَاسِمِ مِقَادِيرُ، فَاجْمَعْهَا فِي دَفْتَرِكَ، فَالْمَعْرِفَةُ تَصِيرُ عِلْمًا إِذَا سُمِّيَتْ حُدُودَهَا».

تَحَوَّلَ الْمَشْهَدُ إِلَى «وَرِشَةٍ» عَاصِمٍ. أَوْقَدَ نَارَهُ، وَتَرَاقَصَ الْجَمْرُ كَزَرْقَةٍ قَلْبٍ فِي الظَّلَامِ. نَشَرَ عَاصِمٌ قِطْعَةً حَدِيدٍ عَلَى الْمِنْفَخِ، ثُمَّ أَنْتَظَرَ حَتَّى بَلَغَ اللَّوْنُ دَرَجَةً مَعْرُوفَةً فِي خِبْرَتِهِ. لَمَّا لَاحَ الْمَعْنَى، أَوْمَأَ الْإِمَامُ، فَأَمْسَكَ عَاصِمٌ الْمِطْرَقَةَ وَأَنْزَلَهَا فِي إِيقَاعٍ مَوْزُونٍ. لَانَ الْحَدِيدُ كَأَنَّهُ عَجِينٌ مُتَمَاسِكٌ. تَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَخَاطَبَ الْجَمِيعَ: «سَمُّوا الدَّرَجَةَ، وَسَمُّوا الزَّمَنَ، وَاِكْتُبُوا عَدَدَ الضَّرَبَاتِ، فَإِنَّ التَّسْمِيَةَ تَشْدُدُ الْمَعْنَى، وَالْكِتَابَةُ تَنْقُلُ الْخَبَرَ إِلَى مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْمَشْهَدَ».

عِنْدَ السُّوقِ، رَأَوْا كِفَّتِي مِيزَانٍ قَدْ مَالَتَا، وَتَاجِرًا يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً مُرَّةً. تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَمَدَّ يَدَهُ لِيَضْبَطَ وَزْنَ لِرُبُونٍ عَجُولٍ.

نَادَاهُ الْإِمَامُ بِنَبَرَةٍ تَحْمِلُ نَصْحًا وَوَقَارًا: «زِدْ حَبَّةً فِي الْكِفَّةِ وَأَنْقِصْ مِنَ السَّعْرِ قَدْرَ نَفْسِكَ، فَإِنَّ الْقِسْطَ يُنْبِتُ ثِقَةً تَعُودُ عَلَيْكَ رِبْحًا».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

تَلَاوَحَ حَبِيبٌ بَيْنَ التَّرَدُّدِ وَالرِّضَا، ثُمَّ فَعَلَ.

أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى الْمِيزَانِ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَسْتَدْعِي الْقَاعِدَةَ:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: 152)؛

ثُمَّ زَادَ يُثَبِّتُ الْمَعْنَى أَلْعَامَ: «مَنْ وَازَنَ السَّبَبَ سَلِمَتْ غَايَتُهُ».

حِينَ أَقْبَلَ الْمَسَاءَ، عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَعَلَى الْأَرِيكََةِ الْقَدِيمَةِ جَلَسُوا.
فَتَحَّ الْإِمَامُ الْحَدِيثَ كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا عَلَى نَهْرٍ: «اُكْتُبُوا فِي دَفَاتِرِكُمْ «الْأَسْبَابَ
وَالشُّرُوطَ»: مَا الَّذِي بَدَأَ الْأَمْرَ مَا الَّذِي يُتِمُّهُ مَا أَحَدُ الَّذِي إِذَا زِيدَ فَسَدَ وَمَا
أَحَدُ الَّذِي إِذَا نُقِصَ ضَاعَ» ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ فِي تَلَاوَةٍ تُثَبِّتُ أَصْلَ الْقَانُونِ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

انْسَابَتِ الْجُمْلَةُ فِي الْقُلُوبِ كَسِلْسِلَةٍ مَاءٍ عَلَى حِجَارَةٍ مَلْمُوسَةٍ.

مَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ إِلَى الْأَمَامِ قَلِيلًا، ثُمَّ أَسْنَدَ كَفَّهُ إِلَى الْأَرْضِ كَمَنْ
يُرِيدُ أَنْ يُثَبِّتَ جُمْلَةً فِي الْعَمَلِ: «إِنْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ لَهَا حُدُودٌ وَمِقْدَارَاتٌ، فَهَلْ
تُثَبِّتُ النَّتِيجَةُ ثُبُوتًا لَا يَتَخَلَّفُ»

تَلَطَّفَ الْإِمَامُ وَأَرْزَسَمَ عَلَى فَمِهِ طَرَفَ ابْتِسَامَةٍ: «النَّتِيجَةُ ثَمَرَةٌ سَبَبٍ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

صَحِيحٌ وَشَرِطٌ تَامٌّ؛ فَإِذَا كَمَلَا وَقَعَتْ كَمَا يُرْتَقَبُ، وَإِنْ اخْتَلَّ أَحَدُهُمَا انْصَرَفَتْ
النَّتِيجَةُ عَنْ وَجْهِهَا. فَارْصُدِ الشُّرُوطَ، وَنَبِّتِ الْأَزْمَنَةَ، وَسَمِّ الْمَعَالِمَ، ثُمَّ لَا تَدَعْ
شَيْئًا دُونَ اسْمٍ».

ثَنَى جَابِرٌ صَفْحَةَ دَفْتَرِهِ، وَكَتَبَ بِحِطٍّ مُمْتَدِّ: «مَوَاسِمُ الرِّيَّاحِ: شَرْقِيَّةٌ
تُنْبِتُ سَحَابًا خَفِيفًا، وَغَرْبِيَّةٌ تَحْمِلُ رُطُوبَةً، وَجَنُوبِيَّةٌ تَلِينُ لِلْبُسْتَانِ، وَشِمَالِيَّةٌ
تَنْفُخُ فِي الْهَوَاءِ صَفْوًا».

تَفَقَّدَهُ الْإِمَامُ بِنَظَرَةٍ رِضًا: «هَكَذَا يَكْبُرُ الْعِلْمُ: أَسْمَاءُ تُنْقَدُ مِنْ فَوْضَى
الْعَادَةِ، وَفِيؤدُّ تَقِيْمُ مِيزَانِ الْمُرَاقَبَةِ».

دَارَ اللَّيْلُ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي الْمَسْجِدِ بَقِيَ ضِيَاءٌ يَتَلَأَلُ. أَطْفَأَ الْإِمَامُ
صَوْتَهُ إِلَى هُدُوءٍ، ثُمَّ أَطْلَقَ تَلَاوَةً تَخْتِمُ الدَّرْسَ وَتَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابًا:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ﴾ (الحجر: ٢٢)،

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الأعراف: ٥٧)،

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨)،

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣)».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ جَمَعَ الْخِيَاطَ كَمَنْ يُفَيِّ عَلَى ثَوْبٍ فَآخِرٍ: «مَنْ جَمَعَ هَذِهِ آيَاتٍ فِي عَمَلِهِ، رَأَى السَّبَبَ يُنْشِئُ النَّتِيجَةَ عَلَى قَدَرٍ، وَرَأَى الرَّحْمَةَ تَنْصَبُ فِي الْحُقُولِ وَالْقُلُوبِ».

انْفَضَّ الْمَجْلِسُ وَلَمْ يَنْفَضْ الدَّرْسُ مِنَ الصُّدُورِ. خَرَجَتِ الْحَلَقَةُ وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَرَارَةٌ مَعْنَى:

لُبْنَى تَسِيرُ وَهِيَ تُرَاجِعُ قَدْرَ الْمِيلِ وَمَوَاقِيتَ الْفَتْحِ وَالْعَلْقِ،

وَعَاصِمٌ يُرْتَّبُ فِي ذَهْنِهِ أَسْمَاءَ الْأَلْوَانِ وَدَرَجَاتِ النَّارِ،

وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَضَعُ جَدُولًا لِلْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُحَاوِلُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ رِبْحٍ يَدُومُ وَمِيزَانٍ لَا يَخُونُ،

وَجَابِرٌ يَحْمِلُ فِي دَفْتَرِهِ بُدُورَ أَسْمَاءِ جَدِيدَةٍ سَيَزْرَعُهَا فِي الْوَرَشَةِ وَالْحَقْلِ.

وَفِي اللَّيْلِ، حِينَ سَكَنَ الْحَيُّ وَهَمَسَ الْهَوَاءُ فِي سَعْفِ النَّخْلِ، عَادَ صَدَى الْآيَةِ يَجُوبُ الصُّدُورَ:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

بَدَا كَأَنَّ رِيحًا خَفِيَّةً تَهْزُ عُقُولَهُمْ، تُلْقِحُهَا بِبُذُورِ الْأَسْمَاءِ وَالْقَدَرِ
وَالْمِيزَانِ، لِتَنْبُتَ غَدًا فِي دَفَاتِرِ مَفْتُوحَةٍ وَمَعَامِلِ مُوزُونَةٍ وَحُقُولِ ثُمَرٍ عَلَى قَدَرٍ.

هَكَذَا اكْتَمَلَتْ مَسِيرَةُ «مِيزَانِ السَّبَبِيَّةِ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: قِرَاءَةٌ تُفْتَحُ بِهَا
الْقُلُوبُ، وَمَشَاهِدُ حَيَّةٌ تَجْعَلُ الْآيَاتِ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَأَسْمَاءٌ تُسَمَّى
الْمَجَاهِيلَ حَتَّى تَصِيرَ قَوَاعِدَ. وَمَنْ أَمْسَكَ بِهَذَا الْمِيزَانِ رَأَى الرِّيحَ وَالْمَطَرَ
وَالْحَدِيدَ وَالسُّوقَ وَالْقَلْبَ تَلْتَمِشُ عَلَى قَاعِدَةٍ وَاحِدَةٍ: سَبَبُ مَوْسُومٍ، وَقَدَرُ
مَحْدُودٍ، وَنَتِيجَةُ تَقَابُلِ صِدْقِ الْعَمَلِ. وَاللَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْغَايَةِ

حَفَّ السُّكُونُ الرَّقِيقُ أَعْمَدَةَ الْمَسْجِدِ عِشَاءً، وَتَمَوَّجَ ضَوْءُ سُرُجِ الزَّيْتِ
عَلَى الْجُدْرَانِ كَأَنَّهُ أَكْفٌ صَابِرَةٌ تَمْسَحُ غُبَارَ النَّهَارِ. تَوَسَّطَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ عَلَى
حَصِيرٍ قَدِيمٍ، مُسْتَقِرًّا كَمِيزَانٍ لَا يَمِيلُ، وَجَابِرٌ إِلَى يَمِينِهِ يُمَسِّكُ دَفْطَرًا غَلِيظَ
الْوَرَقِ كَمَنْ يُقْبِضُ نَبْضَ فِكْرَةٍ تُولَدُ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ قِرْطَاسًا عَلَيْهِ
خُطُوطٌ وَتَحْدِيدَاتٌ، وَعَاصِمُ الصَّانِعِ يَفْرُكُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ تَفْقُّدًا لِحِسِّ الطَّرْقِ
وَالْقَبْضِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ يَتَصَنَّعُ الْإِهْتِمَامَ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمَعَانُ رِبْحٍ
مُسْتَعْجَلٍ، وَلُبْنَى الْمُهَنْدِسَةِ تَقِفُ قُدَّامَ لَوْحَةٍ رَسَمٍ لِقَنَاةِ رَيٍّ، وَفِي نَبْرَتِهَا قَلْقُ
الْغَايَةِ قَبْلَ صَوْنِ السَّبَبِ.

أَنْسَابَ صَوْتِ الْإِمَامِ خَاشِعًا كَمَا عَيْنٍ يَنْفُذُ فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ أَرْتَقَى فِي
مَدٍّ مُحْكَمٍ:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥).

سَكَتَ هُنَيْهَةً، وَمَدَّ بَصَرَهُ فِي الْوُجُوهِ كَمَنْ يَرِنُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْكَلِمَاتِ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ تَكَلَّمَ بِرِفْقٍ يَحْمِلُ حَزْمًا: «الْفِعْلُ مِنْ غَيْرِ مَقْصِدٍ رَمِيَهُ سَهْمٌ فِي ظُلْمَةٍ؛ يَصِيبُ مَرَّةً وَيُخْطِئُ مَرَارًا، ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا صَوْتُ الرِّيحِ. وَهَذِهِ آيَةٌ تَجْمَعُ الْمِيزَانَ فِي كَلِمَةٍ: لَا عَبَثَ فِي الْخَلْقِ، فَلَا عَبَثَ فِي الْعَمَلِ».

أَفْتَرَبْتُ لُبْنَى خُطُوَةً، وَأَشَارَتْ بِقَلَمٍ فَحَمَّ إِلَى خَطٍّ يَمِيلُ فِي أَعْلَى اللَّوْحَةِ: «قَدْ صَلَحَ الْمِيلُ كَمَا عَلَّمْتَنَا يَا سَيِّدِي، وَلَكِنْ لِمَنْ نُجْرِي الْمَاءَ الْحَقْلُ يُسْرِفُ فِي التَّبَذِيرِ، أَمْ لِحَقُولِ تَطْعُمِ الْقَرْيَةِ وَتَرْفَعِ الضُّعْفَ عَنِ الْأَيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ»

لَا حَ فِي عَيْنِي الْإِمَامِ نُورُ الرِّضَا، ثُمَّ نَهَضْتُ عَلَى شَفَتَيْهِ أَبْتِسَامَةً تَحْمِلُ بَشَارَةَ الْجَوَابِ: «قَدْ مَسَسَتْ أَصْلَ الدَّرْسِ يَا بُنَيَّةُ. السَّبَبُ بِغَيْرِ غَايَةٍ سَعْيٍ أَعْمَى، وَالْغَايَةُ بِغَيْرِ قِيَاسٍ هَوَى يَتَقَلَّبُ».

مَدَّ صَاحِبُ الْقِيَاسِ كَفَّهُ إِلَى اللَّوْحَةِ كَمَنْ يَطْلُبُ شَرْعَنَةَ الْكَلِمَةِ، وَقَالَ نَبْرَتُهُ تُقَطِّرُ تَأْمُلًا: «يَلْزُمُ أَنْ يَعْمَلَ السَّبَبُ لِمَا نَافِعَةٍ عَلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَتَجْتَمِعُ الصُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا».

هَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ إِفْرَارًا، ثُمَّ اتَّبَعَ الْكَلِمَةَ بِنُصُوصٍ تُثَبِّتُ الْمِيزَانَ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذَّارِيَاتُ: ٥٦)،

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

(الْمُلْكُ: ٢).

ثُمَّ شَرَحَ وَصَوْنُهُ يَخْفِقُ كَقَلْبٍ فَوَّارٍ: «هَذِهِ أَلْغَايَةُ أَلْعُلْيَا تَحْمِلُ مِيزَانَ كُلِّ غَايَةٍ دُونَهَا؛ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ فِي كُلِّ فِعْلٍ سَائِلًا: لِمَنْ أَعْمَلُ وَلِمَاذَا أَعْمَلُ وَكَيْفَ أَرِنُ النَّتِيجَةَ بِحَقٍّ»

فِي الرَّكْنِ، لَمَعَتْ عَيْنَا حَبِيبِ الدُّنْيَا كَمَنْ رَأَى فُرْصَةً تَرْفُصُ عَلَى طَرَفِ أَلْيَدٍ، فَتَقْدَمُ خُطْوَةً وَفِي صَوْتِهِ عَجَلَةُ الرِّيحِ: «نُؤَجِّرُ أَلْمَاءَ لِمَرْعَةٍ قَصَبٍ جَارَةٍ، رِيحٌ سَرِيعٌ يُصْلِحُ أَمْرَ أَلْقَنَاةٍ وَيُدِيرُ عَلَى أَلْقَرِيَةِ دَرَاهِمَ».

تَقَاطَعَ صَوْتُ جَابِرٍ مَعَ أَلْكَلِمَةِ بِحَدَّةٍ لَطِيفَةٍ تَحْمِلُ أَلرَّفَقَ فِي جَوْفِهَا: «وَأَيْنَ أَلْغَايَةُ مِنْ أَلْفَسَادِ إِذَا جَاعَ أَلْقُرْبَةُ وَصَارَ أَلْحَقْلُ سَبْخَةً، وَأَسْتَأْثَرَ أَلْمَاءُ بِزَاوِيَةٍ وَحَرِمَتْ سَائِرُ أَلْمَسَاحَاتِ»

مَا لَ الْإِمَامُ بِوَجْهِهِ إِلَى حَبِيبٍ كَمَنْ يَجْمَعُ بَيْنَ أَلرَّفَقِ وَأَلْحَزَمِ، ثُمَّ أَطْلَقَ آيَةً تُنِيرُ طَرِيقَ أَلْقَلْبِ:

﴿وَلَا تَبْغِ أَلْفَسَادَ فِي أَلْأَرْضِ﴾ (أَلْقَصَصُ: ٧٧).

وَزَادَ يَضَعُ أَلْغَايَةَ فِي مَوْضِعِهَا: «وَمِمَّا يُشِثُ أَلْأَصْلَ:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لَهُ ﴿الْأَنْعَامُ: ١٦٢-١٦٣﴾.

فَمَنْ جَعَلَ غَايَتَهُ وَجْهَ اللَّهِ رَفَعَ الْفِعْلَ لِمَوْضِعِهِ، وَمَنْ طَلَبَ الرِّبْحَ الْعَاجِلَ عَلَى حِسَابِ الْحَقِّ سَقَطَ مِيزَانُهُ وَلَوْ تَكَاثَّرَتْ دَرَاهِمُهُ».

أَقْتَرَبَ عَاصِمٌ وَيَدَاهُ عَلَيْهِمَا أَثَرُ الْحَدِيدِ، وَفِي نَبْرَتِهِ صِدْقٌ مَنْ عَرَكَتُهُ التَّجَارِبُ: «يَا سَيِّدِي، أَصْلِحِ الْأَدَوَاتِ وَاتَّقِنِ الْمِطْرَقَةَ وَالسَّنَانَ، فَلَايَّ شَيْءٍ أَجْعَلْ هَذَا الْإِثْقَانَ الْكَثْرَةَ أَلْبَيْعَ فَقَطْ»

أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى قَلْبِهِ ثُمَّ إِلَى الْبَابِ: «أَجْعَلْهُ لِحَقِّ يُقْوِي الْأَيْدِيَ وَيَرْفَعُ الْمَعَاشِشَ، وَيَكْفُ الظُّلْمَ عَنِ الضُّعَفَاءِ. وَأَسْمَعْ مَعِيَ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الْحَدِيدُ: ٢٥).

هَذِهِ غَايَةُ تَقْيِيمِ الْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ صَنَعَ عَلَيْهَا أَثْمَرَ صَنِيعُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

تَلَفَّتْ جَابِرٌ وَفِي يَدِهِ أَلْقَلَمٌ كَمَنْ يَسْتَعِدُّ لِقَيْدٍ مِثَاقٍ، وَسَأَلَ: «كَيْفَ نَزِنَ الْغَايَةَ فِي أَعْمَالِنَا زِنَةً لَا تَمِيلُ»

إِنْحَنَى الْإِمَامُ إِلَى الْحَصِيرِ وَرَسَمَ عَلَيْهِ بِالْأَصْبُعِ ثَلَاثَ دَوَائِرَ تَتَدَاخَلُ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«أَوَّلَاهَا مَنْ تَنْتَفِعُ وَثَانِيَّتُهَا مَاذَا تُثْمِرُ وَثَالِثُهَا بِأَيِّ طَرِيقٍ تُنَالُ فَإِنْ كَانَ الْمُنْتَفِعُ عَامَّةَ النَّاسِ، وَكَانَ الثَّمَرُ قُوتًا أَوْ عِلْمًا أَوْ عَدْلًا، وَكَانَ الطَّرِيقُ حَقًّا لَا ظُلْمَ فِيهِ وَلَا فَسَادَ، تَسَاقَطَتِ الرِّيبُ وَقَامَ الْمِيزَانُ». ثُمَّ تَلَا وَصُوتُهُ يَجْمَعُ الْمَعْنَى:

﴿وَأَبْنَعُ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

هَذِهِ آيَةٌ تَعَلَّمُكَ جَمَعَ الْوُجْهَيْنِ: غَايَةُ تَعْطِي الْآخِرَةَ حَقَّهَا، وَتَحْفَظُ
لِلدُّنْيَا قِسْطَهَا، مَعَ إِحْسَانٍ يَصُدُّ الْفَسَادَ.

الْتَمَعْتَ عَيْنًا لُبْنَى وَهِيَ تَنْقُلُ النَّظَرَ بَيْنَ اللَّوْحَةِ وَوُجُوهِ الْحُلَقَاءِ: «أُعِيدُ
خُطَّةَ الرِّيِّ عَلَى هَذَا الْمِيزَانِ؛ تَقْدِّمُ حُقُولَ الْقَمْحِ قُوتًا لِلْقَرْيَةِ، وَيُتْرَكُ لِلْقَصَبِ
قَدْرٌ لَا يُفْسِدُ الثَّرْبَةَ وَلَا يَحْرِمُ الْمَسَاكِينَ».

هَزَّ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ رَأْسَهُ كَمَنْ وَجَدَ الْقَاعِدَةَ فِي التَّطْبِيقِ: «هَذِهِ غَايَةُ
تَرْفَعِ السَّبَبَ وَتَحْمِلُهُ عَلَى الْقِسْطِ».

وَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا عَلَى طَرَفِ الْحَلَقَةِ، وَفِي وَجْهِهِ تَرَدُّدٌ تُمَازِجُهُ بَقَايَا
الْحِسَابِ: «فَإِنْ نَقَصَ رِبْحِي الْيَوْمَ، مَاذَا أَجِدُ غَدًا»

مَدَّ الْإِمَامُ يَدَهُ كَمَنْ يَضَعُ حَجَرًا فِي الْقَوْسِ لِيَسْتَقِيمَ: «تَجِدُ ثِقَةً

تَكْسِبُكَ رَبِّحًا يَدُومُ، وَاسْمَعْ:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦).

لِكُلِّ رِبْحٍ عَاجِلٍ ظِلٌّ يَذْهَبُ، وَلِكُلِّ قَصْدٍ صَادِقٍ نُورٌ يَبْقَى». ثُمَّ أَضَافَ
يُقَرِّبُ الْمَعْنَى إِلَى الشُّوْقِ: «وَمَنْ جَعَلَ غَايَتَهُ الثَّقَّةَ وَالْعَدْلَ رَجَعَ الْمُشْتَرِي عَلَيْهِ
وَإِنْ غَابَ الدَّلَالُ، وَزَادَ الرَّبْحُ وَإِنْ قَلَّ السَّعْرُ».

هُنَا نَهَضَ الْإِمَامُ وَتَحَرَّكَ الْمَجْلِسُ مَعَهُ كَأَنَّهُ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَأَشَارَ إِلَى
الْبَابِ: «نَخْرُجُ إِلَى الْحَقْلِ نَرَى الْغَايَةَ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ».

سَارُوا فِي ضَوْءِ قَمَرٍ أَوَّلٍ، وَالنَّسِيمُ يَمَسُّحُ الْحُقُولَ مَسْحًا. بَلَّغُوا شَفِيرَ
السَّاقِيَةِ، فَأَشَارَتْ لِبْنَى إِلَى مَوْضِعٍ يَتَفَلَّتُ فِيهِ الطِّينُ: «هُنَا كُنَّا نَفَكِّرُ فِي شَقِّ قَنَاةٍ
سَرِيعَةٍ إِلَى مَزْرَعَةِ الْقَصَبِ».

وَضَعَ الْإِمَامُ عُودًا رَفِيعًا فِي التُّرْبَةِ وَقَالَ: «وَهُنَا نَضَعُ غَايَةَ الْقُوتِ قَبْلَ
غَايَةِ الرَّبْحِ الْعَاجِلِ، ثُمَّ نُعْطِي لِلْقَصَبِ نَصِيبَهُ الَّذِي لَا يُفْسِدُ». ثُمَّ تَلَا يُثْبِتُ بِهِ
الْقَلْبُ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠).

فَالْعَدْلُ يَقْسِمُ الْمَاءَ، وَالْإِحْسَانُ يُهْدِبُ الرَّبْحَ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

أَنْدَفَعَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ إِلَى شَاطِئِ السَّاقِيَةِ وَأَخَذَ يُدَوِّنُ عَلَى قِرْطَاسِهِ:
«خُدُودُ الْمَاءِ لِحُقُولِ الْقَمْحِ، وَحَدُّ التَّصْرِيفِ لِلْقَصَبِ، وَأَوْقَاتُ الْقَطْعِ
وَالْوَصْلِ». وَقَالَ لِلْبُنَى: «نُسَمِّي الْمَقَاصِدَ، ثُمَّ نُوَافِقُ بَيْنَهَا عَلَى الْقَدْرِ الْمَعْلُومِ».

هَزَّتْ لُبْنَى رَأْسَهَا وَفِي صَوْتِهَا طُمَآنِينَةٌ مَنْ وَجَدَ الطَّرِيقَ: «سَاضِعٌ لِلْقَنَاقَةِ
كِتَابًا يُبَيِّنُ لِمَاذَا نَفْعُ، وَلِمَنْ نَفْعُ، وَكَيْفَ نَزْنُ النَّتِيجَةِ بِحَقٍّ».

أَنْتَقَلَوْا إِلَى السُّوقِ قُبَيْلَ الظُّهْرِ مِنَ الْغَدِ، وَالْأَصَوَاتُ تَتَرَاكَّبُ كَخُيُوطِ
نَسِيجٍ مُحْكَمٍ. عِنْدَ بَابِ دُكَانٍ صَغِيرٍ، قَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا قُفَّةَ تَمَرٍ جَيِّدٍ بِسِعْرِ
مُنْصِفٍ، وَقَالَ لِلزُّبُونِ وَفِي صَوْتِهِ أَثَرُ دَرَسِ الْأَمْسِ: «غَايَتِي الْيَوْمَ ثَقَّتْكَ بِي غَدًا».

أَبْتَسَمَ الزُّبُونُ وَقَالَ: «إِذْنِ أَرْجِعْ إِلَيْكَ وَإِنْ بَعْدَ الطَّرِيقِ».

نَظَرَ عَاصِمٌ إِلَى الْمَشْهَدِ وَقَالَ لِجَابِرٍ: «طَرَفَةُ الْقَلْبِ عَلَى مِيزَانِ الْغَايَةِ
كَطَرَفَةِ الْمِطْرَفَةِ عَلَى الْحَدِيدِ؛ تُقْوِي الْعَمَلَ وَتُشْبِثُهُ».

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَجَلَسُوا حَوْلَ الْإِمَامِ، وَفِي الْقُلُوبِ بَقَايَا مَشَاهِدَ
تَتَلَاؤًا. رَفَعَ الْإِمَامُ كَفَّهُ، وَجَمَعَ الْكَلِمَةَ كَمَنْ يَضَعُ خَاتِمًا عَلَى كِتَابٍ: «الْغَايَةُ
مِيزَانٌ يَقِفُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ؛ إِنْ ارْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى الْحَقِّ ثَبَتَتْ، وَإِنْ أَسْقَطَتْهُ إِلَى
الْهَوَى هَانَ. وَهَا هُوَ الْقُرْآنُ يَضَعُ لَكُمْ الْمِيزَانَ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥)،

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذَّارِيَاتُ: ٥٦)،

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾
(الْمُلْكُ: ٢)،

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الْحَجَرُ: ٨٥)».

ثُمَّ أَضَافَ يَرْسُمُ لَهُمْ طَرِيقَ الْعَمَلِ: «نَكْتُبُ الْيَوْمَ «مِثَاقَ الْمَقَاصِدِ»
لِكُلِّ عَمَلٍ: لِمَاذَا نَفَعْلُ، وَلِمَنْ نَفَعْلُ، وَكَيْفَ نَزِنُ النَّتِيجَةَ بِحَقٍّ».

أَخَذَ جَابِرٌ فِرَاشَ قَلَمِهِ، وَقَالَ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ: «أَبْدَأُ بِ«قِصَّةِ الْمَاءِ»؛ نَكْتُبُ
فِيهَا الْغَايَةَ: قُوَّةُ الْقَرْيَةِ وَصَوْنُ الثَّرْبَةِ وَعَدْلُ الْقِسْمَةِ. ثُمَّ نَضْعُ الْأَسْبَابَ
الْمُسَاعِدَةَ: الْأَوْقَاتُ وَالْمِيَالَةُ وَخُدُودُ التَّصْرِيفِ. ثُمَّ نَضْعُ وَجْهَ الْقِيَاسِ: مَنْ
أَنْتَفَعَ، وَكَمْ أَنْتَفَعَ، وَهَلْ بَقِيَ الْمِيزَانُ قَائِمًا».

تَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «وَنَضْعُ فِي أَعْلَى الصَّفْحَةِ شِعَارًا تَحْمِلُهُ الْقُلُوبُ قَبْلَ
الْأَيْدِي:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الْمُلْكُ: ٢).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَحُسْنُ الْعَمَلِ مِيزَانُ الْعَايَةِ، لَا كَثْرَةُ الْعَمَلِ».

عَرَّجَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ بِالْكَلَامِ إِلَى جَانِبٍ يُثَبِّتُ الْفَرْقَ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالرُّوحِ: «قَدْ يَتَشَابَهُ الْفِعْلَانِ فِي الصُّورَةِ، وَتَخْتَلِفُ الْغَايَتَانِ فَيَتَبَايَنُ الْحُكْمُ؛ يُطْعِمُ هَذَا رِيَاءً، وَيُطْعِمُ ذَاكَ إِخْلَاصًا، فَأَيْنَ يَقَعُ الْمِيزَانُ»

رَفَعَ الْإِمَامُ بَصَرَهُ وَقَالَ وَفِي صَوْتِهِ نَبْضُ تَرْبِيَةٍ: «الْمِيزَانُ يَقَعُ فِي مَوْضِعَيْنِ: نِيَّةٌ تُوجِّهُ، وَآثَرٌ يَظْهَرُ. فَإِنْ اسْتَقَامَتِ النِّيَّةُ عَلَى الْحَقِّ، وَخَرَجَ الْآثَرُ مُنْصِبًا إِلَى نَفْعٍ وَعَدْلٍ، قَامَ الْعَمَلُ عَلَى غَايَتِهِ. وَاسْمَعُوا:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فَاطِرٌ: ١٠).

كَلِمَةٌ صَادِقَةٌ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ، تِلْكَ غَايَةُ تَرْفَعُ الْفِعْلَ».

نَهَضَتْ لُبْنَى وَقَدْ أَثْمَرَ فِي صَوْتِهَا بَشَاشَةٌ مِّنْ شَهَدَتِ التَّوَازُنَ يَقُومُ: «أَعْرِضْ عَلَيْكُمْ مِثَاقَ الْمَقَاصِدِ لِلْقَنَاقَةِ: أَوَّلُهُ بَيَانُ الْعَايَةِ، ثُمَّ تَقْدِيمُ الْحَاجَةِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ حِفْظُ الثَّرْبَةِ مِنَ التَّخْسِيرِ، ثُمَّ قِسْمَةُ الْمَاءِ عَلَى قَدَرٍ، ثُمَّ مُرَاقَبَةُ الْآثَرِ فِي الشَّمْرِ وَالْقُلُوبِ».

صَفَّقَ عَاصِمٌ بِكَفِّهِ عَلَى كَفِّ وَقَالَ: «وَأَنَا أَضْعُ لِلوَرَشَةِ مِثَاقًا يُشَبِّهُهُ: لِمَاذَا نَصْنَعُ وَلِمَنْ نُصْلِحُ وَهَلْ يَخْرُجُ مِنْ أَيْدِينَا مَا يَزِيدُ الْعَدْلَ وَيَقْصُرُ الظُّلْمَ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَقَدَّمَ حَيْبُ الدُّنْيَا خُطُوَةً، وَفِي صَوْتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْخُشُوعِ: «أُقَدِّمُ فِي دُكَّانِي سِلْعَةً مُتَقَنَةً بِسِعْرِ مُنْصِفٍ، وَأَجْعَلُ غَايَتِي ثِقَةَ النَّاسِ وَقُوْتَ الْفُقَرَاءِ مِنْ رِبْحِي».

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «إِذَنْ سَيَزِدَادُ رِبْحُكَ وَإِنْ قَلَّ السَّعْرُ، فَإِنَّ الْغَايَةَ الصَّالِحَةَ تَسْتَدْعِي أَرْزَاقًا لَا تَرَاهَا الْحِسَابَاتُ الْعَاجِلَةُ».

وَقَفَ الْإِمَامُ يَجْمَعُ النَّهَايَاتِ فِي بَدْءِ جَدِيدٍ، وَتَلَا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الطَّمَأْنِينَةَ:

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٩١).

ثُمَّ قَالَ: «مَنْ جَعَلَ اللَّهَ غَايَتَهُ، وَقَاسَ أَعْمَالَهُ عَلَى مِيزَانِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، لَمْ يَضِعْ سَعْيُهُ وَلَوْ بَطَوُ الرَّبْحُ. وَاسْمَعُوا خِتَامًا:»

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الْكَهْفُ: ٣٠).

فَالْإِحْسَانُ غَايَةٌ، وَهُوَ مِيزَانٌ، وَهُوَ طَرِيقٌ».

إِنْفَضَّ الْمَجْلِسُ وَفِي الصُّدُورِ مِثَاقٌ يَكْبُرُ. كَانَ جَابِرٌ يَخْطُ عَلَى صَفْحَةٍ كِبَارًا: «مِثَاقُ الْمَقَاصِدِ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَكَانَتْ لُبْنَى تُرَاجِعُ قَدَرَ الْمَاءِ فِي الْحُقُولِ وَتُقِيمُ عَلَيْهِ رُقَابَةً تُحْسِنُ
الْقِسْمَةَ.

وَعَاصِمٌ يَضَعُ لِكُلِّ أَدَاةٍ غَايَتَهَا: مَطْرَقَةٌ تُقْوِي وَتَحْمِي، لَا تُؤْذِي وَلَا
تَخُونُ.

وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُنْقِي قَلْبَهُ مِنْ رِبْحٍ مُسْتَعَجَلٍ لِرِبْحٍ يَدُومُ.

وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَجْمَعُ الْأَسْئَلَةَ فِي جَدُولٍ يَقُومُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ وَالْعَمَلُ.

وَحِينَ سَكَتَ الْحَيُّ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، عَادَتْ آيَةُ تَدُقُّ عَلَى أَبْوَابِ
الْقُلُوبِ كَدْفٍ بَعِيدٍ:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥).

فَبَانَ لَهُمْ أَنَّ مِنْهَجَ الْغَايَةِ لَيْسَ كَلَامًا يُقَالُ، بَلْ هُوَ رُوحٌ تَسْرِي فِي
السُّوقِ وَالْحَقْلِ وَالْوَرَشَةِ، وَمِيزَانٌ يُقِيمُ الْأَعْمَالَ عَلَى أَوْجُهِهَا، وَمِثَاقٌ يُكْتَبُ
فِيحْمِلُهُ الْغَائِبُ كَمَا يَحْمِلُهُ الشَّاهِدُ.

ثُمَّ جَمَعُوا فِي الصَّبَاحِ مَا كَتَبُوهُ، فَجَاءَتْ الصَّفَحَاتُ كَأَنَّهَا سَنَابِلُ
نَضِيجَةٍ. فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى: «نَصُّ الْغَايَةِ». فِي الثَّانِيَةِ: «تَقْدِيمُ الْحَاجَةِ الْعَامَّةِ». فِي
الثَّالِثَةِ: «حِفْظُ الْأَرْضِ وَكَفُّ الْفَسَادِ». فِي الرَّابِعَةِ: «قِسْمَةُ الْمَاءِ وَالرِّزْقِ عَلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

قَدَرِ». فِي الْخَامِسَةِ: «مُرَاقَبَةُ الْأَثَرِ وَتَثْبِيْتُ الْعِبَرَةِ». وَفِي أَعْلَى الصَّفَحَاتِ جَمِيعًا تَتَلَاؤُ الْأَيَّاتِ الْمَوْجَّهَةُ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذَّارِيَّاتُ: ٥٦)،

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾
(الْمُلْكُ: ٢)،

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الْحَجَرُ: ٨٥)،

﴿وَلَا تَبْغِ أَفْسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

هَكَذَا تَثَبَّتْ «مِيزَانُ الْغَايَةِ» فِي الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ: لَيْسَ فِيهِ عَبَثٌ، وَلَا فِيهِ هَوًى يَعْصِفُ، وَلَكِنْ فِيهِ قَصْدٌ يَهْدِي، وَعَدْلٌ يَفْسِمُ، وَإِحْسَانٌ يَرْفَعُ، وَأَيَّاتٌ تُضِيءُ الطَّرِيقَ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ إِلَى آخِرِ الْحَقْلِ وَأَقْصَى الدُّكَانِ. وَمَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْمِيزَانِ رَأَى كُلَّ سَبَبٍ يَلْتَمِسُ مَقْصِدَهُ، وَكُلَّ مَقْصِدٍ يَطْلُبُ سَبَبَهُ، حَتَّى يَقُومَ الْعَمَلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى قِسْطٍ، وَتَرْفَعَ فِي الْآخِرَةِ الصَّفْحَةُ بِ«أَحْسَنِ عَمَلًا».

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: مِيزَانُ الْإِسْتِدَامَةِ

تَمَوَّجَ نَفْسُ الْعَشِيِّ عَلَى حَافَةِ السَّاقِيَةِ، وَالْمَاءُ يَنْسَابُ عَلَى قَدَرٍ وَثِيدٍ
كَأَنَّهُ يَتَعَلَّمُ الرِّفْقَ مِنْ كَفِّ رَبَّةٍ بَيْتٍ تُهْدِي صَبِيًّا مُعْتَمًّا. تَحْتَ ظِلِّ نَخْلَتَيْنِ تَتَدَلَّى
سَعَفَاتُهُمَا كَأَهْدَابِ جَارِيَةٍ مُسْتَحْيِيَةٍ، جَلَسَ الْإِمَامُ وَحَوْلَهُ الْحَلَقَةُ يَلْتَمِسُونَ مِنْ
صَمْتِهِ الْمُشْرِفِ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ إِلَى مِيزَانٍ يَدُومُ. كَانَ جَابِرٌ يُدَاعِبُ قَلَمًا مُشْرَبًا
بِالْحَبْرِ كَأَنَّهُ يَتَحَسَّسُ نَبْضَ مَعْنَى قَادِمٍ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيِّ يَقْلِبُ
قِرْطَاسًا قَدْ خَطَّ فِيهِ أَيَّامًا وَلَيَالِي وَقَدَرًا لِكُلِّ بَابٍ فِي الْقِنَاةِ، وَعَاصِمُ الصَّانِعِ
يَمْسَحُ أَثَرَ الْفَحْمِ عَنْ كَفِّهِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْمَجْرَى كَمَنْ يَقْرَأُ فِيهِ وَصَفَ كِيرِهِ،
وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ يَغْدُو فِي صَدْرِهِ رَبْحًا قَرِيبًا كَمَنْ يُطَارِدُ طَيْفًا لَا يَنْبُتُ،
وَأُبْنَى الْمُهَنْدِسَةِ تُثَبِّتُ لَوْحَةً مِنْ خَشَبٍ عَلَيْهَا رَسْمُ الْقِنَاةِ وَمَنَازِلُ الْأَبْوَابِ وَقَدَرُ
الْمِيلِ.

إِنْسَابَ صَوْتِ الْإِمَامِ فِي الْهَوَاءِ كَمَاءٍ نَقِيٍّ فِي جَرَّةٍ طَاهِرَةٍ، وَالْخُشُوعُ
يُلْفُ حُرُوفَهُ كَحَرِيرٍ يَمْسَحُ صَدْرًا مَكْدُورًا:

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

سَكَنَ الْمَوْجُ الدَّاخِلِيُّ فِي الصُّدُورِ، وَتَلَقَّفَتِ الْعُيُونُ الْآيَةَ كَمَنْ يَلْتَقِطُ مِفْتَاحًا أَضَاعَهُ طَوِيلًا. مَالَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَاءِ فَتَلَفَّتْ، وَفِي لَمَحَتِهِ تَأْدِيبٌ وَتَبَشِيرٌ: «إِذَا قَامَ الْأَصْلُ عَلَى الْمَقْصِدِ دَامَ الْأَثَرُ، وَإِذَا رُفِعَ الْمِيزَانُ عَنِ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ظَهَرَ الْفُسَادُ، فَهُنَا يَجِيءُ مِيزَانُ الْإِسْتِدَامَةِ لِيَحْفَظَ النِّعْمَةَ وَيَمْنَعَ التَّبَذِيرَ».

دَنَتْ لُبْنَى مِنَ اللَّوْحَةِ، وَأَشَارَتْ بِعُودٍ رَفِيعٍ إِلَى مَوْضِعٍ فِي رَأْسِ الْقِنَاقَةِ، وَفِي صَوْتِهَا نَفْسٌ مَنْ يَرْنُ الْخُطْوَةَ قَبْلَ الْخُطْوَةِ: «أَقْمْنَا الْمِيلَ عَلَى قَدَرٍ وَاسْتَقَامَ جَرَيَانُ الْمَاءِ، وَقَدْ رَتَبْنَا مَوَاقِيتَ الْفَتْحِ وَالْإِغْلَاقِ، وَلَكِنَّ أَقْوَالَ قَامَتْ تُرِيدُ زِيَادَةَ السَّحْبِ لِرِبْحٍ يُسْرِعُ».

قَطَعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا سُكُونَ الْمَكَانِ كَمَنْ يُدْخِلُ صَوْتَ سُوقٍ فِي رُبْعٍ هَادِيٍّ، وَرَفَعَ خَاتِمَهُ ثُمَّ أَهْبَطَهُ عَلَى الْهَوَاءِ: «إِنْ أَخَذْنَا الْيَوْمَ أَكْثَرَ زَادِ الزَّرْعِ وَارْتَفَعَ الرِّبْحُ قَبْلَ مَوْسِمِ الْبَيْعِ».

الْتَفَتَ جَابِرٌ إِلَيْهِ الْتِفَاتٍ مَنْ يُنْقِذُ الْكَلِمَةَ قَبْلَ أَنْ تَغْرَقَ فِي الْعَجَلَةِ، وَفِي نَبْرَتِهِ لَيَانٌ نَاصِحٌ يُحِبُّ الْفَائِدَةَ وَلَا يَفْهَرُ الْقُلُوبَ: «وَكَيْفَ تَرْبِحُ إِذَا يَسَّ الْمَجْرَى بَعْدَ عَامِنٍ إِنْ زَا حَمَ الْيَوْمُ غَدَهُ فَسَدَ الْإِثْنَيْنِ».

هُنَا بَسَطَ الْإِمَامُ كَفَّهُ نَحْوَ الْمَاءِ كَمَنْ يَدْعُوهُ شَاهِدًا لَا يَكْذِبُ، وَتَلَا عَلَى مَهْلٍ يَدْخُلُ بَيْنَ الْأَضْلُعِ دُخُولَ النُّورِ مِنْ شَقِّ رَفِيعٍ:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٥٦).

ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَفْصِلُ الْمَعْنَى حَتَّى يُصْبِحَ مَلْمُوسًا: «كُلُّ سَحَبٍ لَهُ حَدٌّ، وَكُلُّ نَفَقٍ لَهُ قَدَرٌ، وَكُلُّ مَخْلَقَةٍ لَهَا تَذْيِيرٌ، لِتُدْوَماً النِّعْمَةِ وَلَا تُسْتَنْزَفَ الْأَرْضُ».

اِقْتَرَبَتْ لُبْنَى مِنْ فَمِ الْقَنَاقَةِ، وَأَقَامَتْ لَوْحَةً كَبِيرَةً تُوَاجِهُ الْمَاءَ وَمَنْ يَمُرُّ، ثُمَّ خَطَّتْ بِقَلَمٍ ثَقِيلٍ سَطُورًا تَتَاخَى: الْيَوْمُ، السَّاعَةُ، قَدْرُ الْفَتْحِ، مِقْدَارُ السَّحَبِ، قَدْرُ التَّعْوِيزِ.

مَدَّ صَاحِبُ الْقِيَاسِ قَلَمَهُ كَسْهُمْ يُشِيرُ إِلَى أَصْلٍ وَاضِحٍ، وَهَزَّ رَأْسَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ رِضًا يَرْتَاحُ لِلنِّظَامِ: «نَجْعَلُ لِكُلِّ بَابٍ يَوْمًا يَسْتَرِيحُ فِيهِ، فَتَرْجِعُ التُّرْبَةُ إِلَى قُوَّتِهَا وَيَسْتَقِيمُ الْحِسَابُ».

أَضَافَ جَابِرٌ وَهُوَ يَتَتَبَعُ الْأَعْمِدَةَ بِعَيْنٍ تُحِبُّ التَّسْمِيَةَ: «وُنُثِبَتْ مَا يَنْزِلُ مِنْ غَيْثٍ وَمَا يَنْبُعُ مِنْ عَيْنٍ، فَإِذَا كَثُرَ الْوَارِدُ وَسَعُنَا الْأَخَذَ، وَإِذَا قَلَّ صَيَّقْنَا حَتَّى يَبْقَى الْمِيزَانُ قَائِمًا». وَكَأَنَّ الْكَلِمَةَ تُتَوَجَّعُ بِآيَةٍ تَشْهَدُ لَهَا، فَتَلَا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدُ: ٨).

تَحَوَّلَ الْمَكَانُ إِلَى مَعْمَلٍ حَيَاةٍ يَتَحَرَّكُ عَلَى قَدَرٍ. فِي الْوَرِثَةِ أُوقِدَ عَاصِمٌ كَبِيرُهُ، وَالنَّارُ تُرَاجِعُ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا تَتَعَلَّمُ الْفُصْدَ. قَرَبَ قِطْعَةَ حَدِيدٍ وَقَالَ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ مَن وَجَدَ لِلْفَنِّ قَانُونًا يَحْمِلُهُ: «سَمَّيْتُ دَرَجَاتِ السُّخُونَةِ بِالْأَلْوَانِ حَتَّى لَا يَبْقَى الْأَمْرُ ذَوْقًا يَمُوتُ بِمَوْتِ صَاحِبِهِ. أَوَّلَاهَا حُمْرَةٌ خَفِيفَةٌ، ثُمَّ حُمْرَةٌ بَيْنَ الصُّفْرِ وَالْبَيَاضِ، ثُمَّ لَوْنُ الصَّبَاحِ عِنْدَ الشُّرُوقِ. لِكُلِّ دَرَجَةٍ قَدْرٌ مِّنَ الْحَطَبِ لَا يُجَاوِزُ، فَقَلَّ الْهَدَرُ وَثَبَتَ الْإِتْقَانُ». جَمَعَ بَقَايَا الْحَدِيدِ فِي وَعَاءٍ صَغِيرٍ وَنَفَضَ عَنْهَا غُبَارَ الْكَبِيرِ: «هَذِهِ مَخْلَفَاتُ نَعِيدُ سَبْكِهَا، فَتُصَبِّحُ مَسَامِيرَ وَحَلَقًا، لَا نُلْقِيهَا فِي الْأَرْضِ فَتُؤْذِي الْمَجْرَى».

تَلَقَّفَ الْإِمَامُ الْمَشْهَدَ بَايَةً تُسَدِّدُ النَّفْسَ وَتُقَوِّمُ الرَّغْبَةَ:

﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٢٧)،

ثُمَّ اتَّبَعَهَا بِمِيزَانٍ يَعْمُ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا:

﴿وَأَوْفُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩).

انْتَقَلَ النَّفْسُ إِلَى السُّوقِ، وَخُطُوطُ النَّاسِ تَتَدَافَعُ كَأَمْوَاجِ سَعْفٍ فِي رِيحٍ لَيِّنَةٍ. وَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا أَمَامَ مِيزَانٍ كَبِيرٍ، وَوَضَعَ قَفَّةَ تَمْرٍ عَلَى كِفَّةٍ، وَقَبَّلَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَآةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

بَصَرُهُ كِفَّةً أُخْرَى يَضَعُ فِيهَا الْأَوْزَانَ. رَفَعَ صَبِيَّ قَرَوِيٍّ عَيْنَيْهِ وَفِي سُؤَالِهِ بَسَاطَةً حَقٌّ يَطْلُبُ قِسْمَهُ: «إِذَا قَصُرَ الْمِيزَانُ أَتَزِيدُنَا حَبَّاتٍ مِنْ عِنْدِكَ» إِنْحَنَى حَبِيبٌ وَفِي صَدْرِهِ صَدَى يُرَدِّدُ مَا سَمِعَ مِنْ آيَاتٍ: «أَزِيدُكَ حَبَّاتٍ وَأَبْتِسَامَةً»، ثُمَّ سَرَّ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ يَشْدُ مِيزَانَهُ:

﴿وَأَوْفُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩).

وَفِي رُكْنٍ مِنَ الدُّكَّانِ جَمَعَ قَوَارِيرَ فَارِغَةً وَقَصَبًا مُسْتَعْمَلًا وَقِرَاطِيسَ مُمَزَّقَةً لِيُعِيدَ الْأَسْتِعْمَالَ، كَأَنَّهُ يُرِيحُ عَنِ الْأَرْضِ حِمْلًا ثَقِيلًا مِنْ مُخَلَّفَاتٍ تُثْقِلُ الطَّرِيقَ.

رَجَعَ الْمَشْهُدُ إِلَى السَّاقِيَةِ، وَالشَّمْسُ تَتَرَجَّعُ بِرِفْقٍ حَتَّى تَقِفَ خَلْفَ النَّحْلَتَيْنِ. رَفَعَ رَاكِبٌ غُبَارًا صَغِيرًا وَهُوَ يَدْنُو، فَحَيًّا وَأَخْبَرَ عَنْ سَنَةِ نَحِيفَةٍ تَلُوحُ فِي فَلَاةٍ بَعِيدَةٍ، وَعَنْ رِيَّاحٍ قَلِيلَةٍ وَغَيْثٍ مُتَأَخِّرٍ. اِنْشَدَّتِ الْعُقُولُ كَأَوْتَارِ عُودٍ، وَتَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي نَبْرَتِهِ بَقَايَا عَجَلَةٍ تُفَكِّرُ فِي سَاعَتِهَا: «نَسْحَبُ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَشَحَّ الْمَاءُ».

رَفَعَ الْإِمَامُ كَفَّهُ وَالْأَرْضُ تَلِينَ تَحْتَ إِشَارَتِهِ، وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى الْأَصْلِ كَمَنْ يُعِيدُ الرَّاكِبَ إِلَى طَرِيقٍ أَمْنَعِ:

﴿وَلَا تَبْغِ أَلْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

نُقَلِّصُ الصَّرْفَ وَنُقَدِّمُ الْقُوْتَ، وَنَجْمَعُ مَاءَ السَّيْلِ فِي حُفَرٍ تُحْكِمُهَا
الْحِجَارَةُ، وَنَغْرِسُ عَلَى الضَّفَّتَيْنِ أَثْلًا وَسِدْرًا يُمَسِّكُ الطِّينَ وَيَحْفَظُ الْمَجْرَى».

أَفْتَرَبْتُ لُبْنَى وَفِي صَوْتِهَا فَرْحُ الْحَلِّ الَّذِي يَتَفَتَّحُ كَزَهْرَةٍ بَعْدَ قَيْظٍ:
«وَنُقِيمُ مَوْقِفًا لِلرَّفْعِ فِي رَأْسِ الْقَنَاةِ يَرْفَعُ الْمَاءَ فِي سَاعَاتِ الضَّعْفِ، ثُمَّ نُخَفِّضُ
عِنْدَ الْقُوَّةِ عَلَى قَدَرٍ».

وَأَتَّبَعَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ يُثَبِّتُ فِي السَّجَلِ بَدَائِلَ لِمَا يَنْقُصُ: «إِذَا قَلَّ
الْمَاءُ قَدَمْنَا نَبَاتًا يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ وَقَلَّصْنَا مَسَاحَةَ الْمُسْرِفِ».

ارْتَفَعَ الْقَمَرُ شِقَّةً بَيْنَ التَّخْلَتَيْنِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ وَفِي الْإِشَارَةِ دَرْسٌ
يَمْشِي عَلَى السَّمَاءِ:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (يُونُسُ: ٥).

نُوتَانِي الزَّمَنَ عَلَى قَدَرِهِ، فِي سِنِينَ الْفِلَّةِ نَقْتَصِدُ وَنُقَدِّمُ الْقُوْتَ، وَفِي
سِنِينَ الزِّيَادَةِ نُوسِّعُ مَعَ حِفْظِ الْحُدُودِ». ثُمَّ جَمَعَ الْمَعْنَى فِي آيَتَيْنِ تُطَوِّقَانِ الْعَقْلَ
وَالْيَدَ بِسَوَارٍ مِنْ حَقٍّ:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٣١)،

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الْحَجَرُ: ٨٥).

سَارُوا إِلَى الْحُقُولِ كَأَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ مَعَ الْخُطُواتِ نَبْضَ آيَاتٍ. كَانَتْ لُبْنَى تُقَدِّرُ مَوَاضِعَ الْأَشْجَارِ عَلَى الصُّفْتَيْنِ، وَعَاصِمٌ يَحْفَرُ فِي الطِّينِ بِفَأْسٍ تَحْمِلُ الْتَأْنِي فِي حَدِّهَا، وَجَابِرٌ يُسَمِّي الْخُطُواتِ وَيَكْتُبُ الْمَوَاقِيتَ كَمَنْ يَجْمَعُ رُوحَ التَّجَرُّبَةِ فِي سَطُورٍ، وَصَاحِبُ الْقِيَّاسِ يَقْدِرُ قَدَرَ الْمَاءِ لِكُلِّ بَابٍ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَحْمِلُ قُرْبَةَ مَاءٍ لِعَرْسَةِ أُولَى وَفِي عَيْنَيْهِ لَيْنٌ جَدِيدٌ كَأَنَّهُ تَعَلَّمَ أَنَّ يَرَى الرِّيحَ فِي الدَّوَامِ لَا فِي الْعَاجِلِ. حِينَ أَظْلَمَ الْمَسَاءُ أَحَاطُوا بِعَرْسَةِ الْأَثَلِ وَتَلَّوْا سَائِلِينَ الثَّبَاتَ:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٥٦)،

كَأَنَّهَا حَارِسَةٌ مِنْ حَرْفٍ يَقِظُ.

عَادُوا فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَجُدْرَانُهُ تُرَدِّدُ أَصْدَاءَ قَدَمٍ تَسِيرُ بِرَفْقٍ. جَلَسُوا حَوْلَ الْإِمَامِ عَلَى حَصِيرٍ يَشُمُّ رَائِحَةَ قَدَمٍ قَدِيمَةٍ أَحَبَّتِ الْمَكَانَ. رَفَعَ بَصَرَهُ وَسَكِينَةُ تُضِيءُ جَبِينَهُ، وَسَأَلَ مَا يُشْبِهُ الْحِصَادَ: «مَاذَا جَمَعْنَا»

قَالَتْ لُبْنَى وَثِقَةُ التَّحْقِيقِ تَلْمَعُ فِي الْحُرُوفِ: «قَلَّ الْهَدْرُ فِي الْمَاءِ وَبَقِيَ الْمَجْرَى رَطْبًا فِي آخِرِ الْقَيْظِ، وَثَبَّتَ أَنَّ يَوْمَ الرِّاحَةِ أَصْلَحَ الثَّرْبَةُ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

قَالَ عَاصِمٌ: «وَنَقَّصَ الْوَقُودَ وَثَبَّتَ الصَّبِيْعُ، وَصَارَ الرَّمَادُ سِمَادًا».

وَابْتَسَمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا كَمَنْ يَجِدُ لِلرَّبِّحِ وَجُوهًا لَمْ يَرَهَا مِنْ قَبْلُ: «وَزَادَ الرِّبْحُ وَإِنْ أَفْتَصَدْنَا لِأَنَّ النَّاسَ رَجَعُوا بِثِقَةٍ، وَصَارَ لِلدُّكَانِ ذِكْرٌ يُثْمِرُ».

وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «مَا أَخْطَأْنَا فِيهِ الْيَوْمَ فَيَدْنَاهُ لِنُصِيبَهُ عَدَا، فَبِالْمُرَاقَبَةِ يَدُومُ الْمِيزَانُ».

أَطْرَقَ الْإِمَامُ قَلِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ شُكْرٍ يَقُولُ مَا لَا تَقُولُهُ
الْأَلْفَاظُ، وَأَطْلَقَ دُعَاءَ يَحْمِلُهُ الْهَوَاءُ كَرَائِحَةِ خُبْزٍ قَدِيدٍ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَعْمَالَنَا
مُوزُونَةً، وَقُلُوبَنَا مَصُونَةً، وَأَرْزَاقَنَا مَسْئُولَةً لَا مُسْرِفَةَ، عَلَى قَوْلِكَ الْمُحْكَمِ:

﴿وَأَوْفُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩)،

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٣١)،

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٥٦)».

أَمَّتِ الْحَلَقَةُ وَكَانَ السَّاقِيَةُ تُوَافِقُهُمْ بِخَفَقَةِ مَاءٍ تُصَفِّقُ لِلْقِسْطِ. خَرَجُوا
كُلٌّ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ نَفْسًا يَدُومُ كَنَفْسِ الْمَاءِ فِي الْمَجْرَى، نَفْسًا يَقُولُ لِكُلِّ
طَمَعٍ مُسْرِفٍ إِنَّ لَكَ حَدًّا، وَلِكُلِّ رَغْبَةٍ مُتَعَجِّلَةٍ إِنَّ لَكَ قَدْرًا، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مُعْرِضَةٍ
لِلتَّبَذِيرِ إِنَّ لَكَ حِفْظًا. وَبَيْنَمَا يَسِيرُونَ كَانَ جَابِرٌ يُقَيِّدُ فِي دَفْتَرِهِ جُمْلَةً تَلْمَعُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

كَسَكِينٍ حَادٍّ فِي يَدِ طَبَّاخٍ حَكِيمٍ: «مِيزَانُ الْأَسْتِدَامَةِ قِيَاسُ يَصُونُ، وَقَدْرُ يَمْنَعُ، وَمُرَاقِبَةُ تُصَحِّحُ».

وَكَانَتْ لُبْنَى تَرْفَعُ طَرْفَهَا إِلَى غُرَسَاتِ الْأَثَلِ الصَّغِيرَةِ فَتَرَى فِيهَا غَدًا
يَكْبُرُ عَلَى مَهَلٍ، وَعَاصِمٌ يَجْمَعُ قِطْعَ الْحَدِيدِ لِيُعِيدَ سَبْكَهَا، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا
يَتَنَفَّسُ نَفْسًا طَوِيلًا كَمَنْ أَخْرَجَ مِنْ صَدْرِهِ حَصَاةَ طَمَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ
يَلْمُسُ مِيزَانَهُ كَمَنْ يُجَدِّدُ الْبَيْعَةَ: «إِنَّهَا تِجَارَةٌ لَا تَبُورُ».

تَمَّ الْمَسَاءُ وَقَدْ بَقِيَ فِي الصُّدُورِ صَدَى آيَةِ تَسْقِي الْقَلْبِ كَمَا يَسْقِي
الْمَطَرُ زَرْعًا مُتَعَبًا:

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

فَعَلِمُوا أَنَّ الْأَسْتِدَامَةَ لَيْسَتْ شِعَارًا يُرْفَعُ إِذَا اجْتَمَعُوا، وَلَا دَرَسًا يُتَلَّى ثُمَّ
يُطَوَّى، بَلْ هِيَ نَفْسٌ يُرَبَّى عَلَى الْقِسْطِ وَالْقَدْرِ، وَخُطَى تَقَاسُ فِي الْمَاءِ وَالسُّوقِ
وَالْقَلْبِ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ، مِيزَانٍ إِذَا قَامَ أَنْقَادَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَإِذَا أَنْكَسَرَ ظَهَرَ
الْفُسَادُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. هَكَذَا خَلَصُوا إِلَى سَكِينَةٍ تَشْفُ كَخَيْطِ قَمَرٍ، وَهُمْ
يَسْمَعُونَ فِي دَوَاحِلِهِمْ هَمْسًا لَطِيفًا يُجَدِّدُ الْعَهْدَ: الْحَقُّ مِيزَانٌ، وَالْقِسْطُ مِيزَانٌ،
وَالْأَسْتِدَامَةُ مِيزَانٌ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الفصل الثالث: موازين الوجود والمعرفة

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْإِنْسِجَامِ

كَانَ الصَّمْتُ يَنْسَابُ فِي الْحَلَقَةِ كَمَاءٍ نَهْرٍ هَادِيٍّ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ شَلَالَهُ.
الْقَبَابُ تُرَدَّدُ أَصْدَاءُ الْهَمْسِ، وَشُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضَوْءًا أَصْفَرَ يَلْمَعُ عَلَى
الْوُجُوهِ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ هَادِيًّا، وَلَكِنَّ حُضُورَهُ كَانَ يَهْزُ كُلَّ شَيْءٍ. وَإِلَى
يَمِينِهِ جَابِرٌ يَقْبِضُ قَلَمَهُ كَأَنَّهُ يُمَسِكُ بِنَبْضِ سُؤَالٍ، وَإِلَى شِمَالِهِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ
الْبُرْهَانِيِّ يُقَلِّبُ صَفْحَةً مَرْسُومًا عَلَيْهَا خُطُوطٌ وَأَعْمَدَةٌ، وَخَلْفَهُمْ عَاصِمُ الصَّانِعِ
يَلْمَسُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ كَمَنْ يَتَفَقَّدُ حِسَّ اللَّمْسِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ
يَتَظَاهَرُ بِالْإِهْتِمَامِ وَعَيْنَاهُ تَجُوسَانِ فِي السَّقْفِ.

أَرْتَفَعَ صَوْتُ الْإِمَامِ رَقِيقًا ثُمَّ أَمْتَلَأَ قُوَّةً:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (ق):

.(٣٨)

أَنْسَدَلَ سُكُونٌ خَفِيفٌ كَأَنَّهُ سَتْرٌ مِنْ رِقٍّ شَفَافٍ. قَالَ: «هَذِهِ كَلِمَةُ
الْبَدْءِ. لَيْسَ فِي الْكَوْنِ شَيْءٌ أَنْفَلَتْ مِنَ الْقَدْرِ، لَا نَجْمٌ وَلَا قَطْرَةٌ مَاءٍ وَلَا حَبَّةٌ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

قَمَحٍ. الْقَدْرُ هُوَ الْحَدُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، فَإِذَا زَادَ عَنْهُ انْقَلَبَ، وَإِذَا نَقَصَ عَنْهُ اُنْهَارَ».

رَفَعَ جَابِرٌ يَدَهُ، وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةُ التَّوَقُّ: «يَا سَيِّدِي، أَتَعْنِي أَنَّنَا نَجْعَلُ لِكُلِّ عَمَلٍ مِقْدَارًا مَعْلُومًا كَمَا لِلْمَعْدِنِ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ»

قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ. أَرَأَيْتَ الْخَبَازَ إِذَا أَكْثَرَ الْمَاءَ فِي الْعَجِينِ سَالَتْ الرُّغْفَةُ وَضَعُفَتْ وَإِذَا قَلَّ الْمَاءُ تَفَتَّتَ الْخُبْزُ ذَاكَ مِثَالٌ لِقَدْرِ إِذَا اُعْتَدِيَ عَلَيْهِ فَسَدَ الصُّنْعُ».

تَدَخَّلَ عَاصِمٌ وَالْأَثَرُ بَيِّنٌ فِي صَوْتِهِ: «أَشْعُرُ بِهَذَا فِي الْوَرِشَةِ. أَسَخِّنِ الْحَدِيدَ، فَإِذَا بَلَغَ لَوْنًا مُعَيَّنًا انْقَادَ لِلْمِطْرَقَةِ، وَإِذَا جَاوَزْتَ ذَلِكَ اللَّوْنَ تَقَصَّفَ، وَإِذَا نَقَصْتُ لَمْ يَلِنْ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَحْسِبُهُ ذَوْقًا وَخَبْرَةً فَقَطْ».

قَالَ الْإِمَامُ: «اُكْتُبْ يَا جَابِرُ: الْخَبْرَةُ تُصْبِحُ عِلْمًا إِذَا سُمِّيَ قَدْرُهَا وَثُبَّتْ مِيزَانُهَا».

اَلْتَفَتَ الْإِمَامُ فَتَلَا:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الْقَمَرُ: ٤٩).

ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ تَرْجِعُ بِكُمْ مِنَ الْعُمُومِ إِلَى التَّطْيِيقِ. اَنْظُرُوا إِلَى السَّاقِيَةِ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

فِي السَّهْلِ، لَهَا مِيلٌ، فَإِنْ زِيدَ انْهَدَمَ الْجَانِبُ، وَإِنْ نُقِصَ وَقَفَ الْمَاءُ، وَكَلَا
الطَّرَفَيْنِ فَسَادٌ. كَذَلِكَ الْبُيُوعُ، وَالْأُجُورُ، وَأَوْقَاتُ الْعَمَلِ».

هُنَا أَنْحَنَى صَاحِبُ الْقِيَّاسِ إِلَى أَمَامٍ وَقَالَ: «أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَسْأَلَ إِذَا كَانَ
كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، فَمَا الْأَصْلُ الَّذِي تَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَقْدَارُ»
فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَتَرَسَّلُ: «أَسْمَعُوا لِهَذَا:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٩).

الْمِيزَانُ هُنَا لَيْسَ صَفَائِحَ حَدِيدٍ فَقَطْ، بَلْ قَاعِدَةٌ تُقِيمُ التَّسَاوِيَّ وَتَمْنَعُ
الطَّغْيَانَ. تَرَوْنَهُ فِي الْحَقُوقِ كَمَا تَرَوْنَهُ فِي السَّلْعِ».

أَخْضَرَ وَجْهَ الشُّوقِ فِي خَيَالِ الْجَمَاعَةِ، فَتَذَكَّرُوا الْمِيزَانَ وَالصَّاعَ
وَصِيَاحَ الدَّلَالِينَ.

قَالَ الْإِمَامُ: «مَنْ عَشَّ فِي الزَّانَةِ هَدَمَ مِنْ جِسْرِ الثَّقَةِ حَجَرًا، فَإِذَا هَدَمَ
النَّاسُ بِمِثْلِهِ انْقَطَعَ الْمَرْبُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَضَاعَ الرَّزْقُ». تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَالَ
مُتَخَفِفًا: «وَلَكِنَّ النَّاسَ تَتَبَايُنُ أَذْوَاقُهَا، وَقَدْ يَرْبَحُ التَّاجِرُ بِمَا يَسْتَطِيعُ. هَلْ فِي
الْمِيزَانِ مُتَسَعٌّ لِلدَّهَاءِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً رَفِيقٍ وَحَزَمَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل: 90)،

و﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: 152).

لَا يَرْتَقِي قَوْمٌ يَدُوسُونَ الْحَقَّ فِي الْمِيزَانِ ثُمَّ يَطْلُبُونَ خَيْرَ الْأَرْضِ. الْعَدْلُ قَبْلَ الرِّيحِ، فَإِذَا قَامَ الْعَدْلُ جَاءَ الرِّيحُ».

قَالَ جَابِرٌ: «أُرِيدُ مِثَالًا يَصْحَبُنِي إِلَى الْوَرِشَةِ».

قَالَ الْإِمَامُ: «خُذْ هَذِهِ الْآيَةَ تَعْمَلْ مَعَكَ:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون: 189).

إِذَا كَانَ الْمَطَرُ يَنْزِلُ بِحِسَابٍ، فَالْقَدَرُ وَالْكَيْلُ أَوَّلَى أَنْ يُدَارَا بِحِسَابٍ. فَاجْعَلِ لِلنَّارِ دَرَجَاتٍ تُسَمِّيْهَا، وَلِلْمَاءِ مِقْيَاسًا تُشَبِّهُهُ، وَلِلْخَلِيطِ نِسْبًا تَكْتُبُهَا، ثُمَّ لَا تَتْرُكْ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ، بَلْ دَوِّنْهُ حَتَّى يَتَعَلَّمَ غَدًا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ».

وَجَهَّ الْإِمَامُ الْحَدِيثَ إِلَى الْحَلْفَةِ: «وَلَكِنِّي تَعَلَّمُوا كَيْفَ يَجْتَمِعُ الزَّمَنُ وَالْعَمَلُ تَحْتَ مِيزَانٍ وَاحِدٍ، أَسْمَعُوا:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ ﴿يونس: 5﴾.

مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْوَقْتِ مَوَاقِيتُ ثَابِتَةٌ. فِي الزَّرَاعَةِ تُنْظَرُونَ إِلَى
مَنَازِلِ الْقَمَرِ وَمَسِيرِ الشَّمْسِ فَتَزْرَعُونَ فَتُصَيَّبُونَ، وَفِي الصَّنْعَةِ تُجْرُونَ التَّسْخِينَ
وَالْتَّبْرِيدَ عَلَى وَقْتٍ مُّحَدَّدٍ فَتُتَقَنُونَ.

رَفَعَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ صَوْتَهُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، هَلْ يَنْفَعُنَا ذَلِكَ فِي الرَّيِّ»

قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ. أَنْظُرْ إِلَى قَنَاةٍ صَغِيرَةٍ تُسْقِي بُسْتَانًا. إِنْ جَعَلْتَ مِيزَانًا
بِقَدْرِ سَارِ الْمَاءِ فِي هَيْئَةٍ وَوَصَلَ إِلَى آخِرِ الْحَقْلِ، وَإِنْ زِدْتَ الْمِيزَانَ نَهَشَ الْمَاءُ
الطَّيْنَ وَأَهْدَرْتَ التُّرْبَةَ، وَإِنْ نَقَصْتَهُ بَقِيَ الْمَاءُ يَرْكُدُ وَتَتَعَفَّنُ الْجُذُورُ. هَذَا الْقَدْرُ
مِيزَانٌ».

ثُمَّ قَالَ:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (الأنعام: 59).

إِنَّهَا لَيْسَتْ فِي الْعَابَاتِ فَقَطْ، بَلْ فِي الْحِسَابِ أَيْضًا. إِذَا كَانَ الرَّبُّ
يَعْلَمُهَا فِي زَمَانِهَا وَمَكَانِهَا، فَلَنَتَعَلَّمَ نَحْنُ أَسْبَابَهَا بِقَدْرِ طَافِتِنَا، نَضْعُ الْمُرَاقَبَاتِ
فَنَعْرِفُ مَوَاسِمَ الْجَدْبِ وَالْخِصْبِ، وَنُخَطِّطُ لِلْمَخَازِنِ وَالْبُذُورِ. ثُمَّ اسْتَطَرَدَ:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ (الملك: 3).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لَا تَفَاوَتْ فِي أُصُولِ الْخَلْقِ، وَعَلَى الصَّانِعِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي صُنْعَتِهِ. أَرَأَيْتُمْ قَوْسًا يُبْنَى مِنْ لِبْنَاتٍ إِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَحْجَامُ سَقَطَ الْقَوْسُ، وَإِنْ اتَّحَدَتْ الْمَقَائِيسُ قَامَ فَوْقَ الْمَدِينَةِ كَأَنَّهُ كَتِفَانِ عَظِيمَانِ». ثُمَّ تَلَا:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

ثُمَّ قَالَ مُبْتَسِمًا لِعَاصِمٍ: «الْحَدِيدُ سِلَاحٌ وَأَدَاةٌ. إِذَا وَازَنْتَ مِقْدَارَهُ وَحَرَارَتَهُ وَطَرَفَهُ، أَعْطَاكَ سَيْفًا لَا يَنْكَسِرُ وَمِسْمَارًا لَا يَخُونُ وَمَقْلَعًا يَحْتَمِلُ الصُّخُورَ. وَإِذَا خَالَفْتَ الْمِيزَانَ كَانَ فِيهِ بَأْسٌ عَلَيْكَ». ثُمَّ قَالَ:

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر: 19).

تَسْمَعُونَ "مَوْزُونٍ" لَيْسَتْ بُلْغَةٌ شِعْرٍ، بَلْ حُكْمًا فِي الزَّرْعِ وَالْغِذَاءِ وَالطَّبِّ. مِقْدَارُ الْمَاءِ لِلنَّبْتَةِ، وَقَدْرُ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، وَمَقْيَاسُ الدَّوَاءِ لِلْمَرِيضِ. فَإِذَا زَادَ الدَّوَاءُ أَهْلَكَ، وَإِذَا نَقَصَ لَمْ يَنْفَع. هَذَا هُوَ الْمِيزَانُ يَمْتَدُّ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى الْمَطْبَخِ وَالْبُسْتَانِ وَالْمَشْفَى».

رَفَعَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ صَوْتَهَا، وَفِيهِ دِقَّةٌ التَّمْيِيزِ: «أَفَهُوَ مِيزَانٌ فِي الْكَلَامِ أَيْضًا نُسَمَّى الْأَلْفَاظَ وَنَقْيُسُهَا»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ. الْكَلِمَةُ إِذَا أَفْرَطَتْ صَارَتْ سَبًّا، وَإِذَا نَقَصَتْ لَمْ تُبَلِّغِ الْمَعْنَى. تَرَوْنَ ذَلِكَ فِي الشَّعْرِ وَالْقَضَاءِ وَالتَّعْلِيمِ. فَاجْعَلُوا لِلْأَفَاطِكُمْ مِيزَانًا، لِئَلَّا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ فِي الْقَضَاةِ وَالْبُيُوتِ».

ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَجْمَعُ النُّقْطَ إِلَى أَصْلِ:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1).

هَذِهِ كَلِمَةُ الْوَحْدَةِ. الْوَحْدَةُ أَصْلُ التَّنَاسُقِ، فَلَوْ اخْتَلَفَ الْمَرْجِعُ لَا خْتَلَفَ الْقِيَاسُ. وَتَأَمَّلُوا مَعِيَ:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: 22).

لَوْ كَانَ لِكُلِّ صَنْعَةٍ أَصْلٌ يَخْتَلِفُ عَنْ أَصْلِ أُخْتِهَا مَا اجْتَمَعَتِ الْأَعْمَالُ، كَمَا لَوْ كَانَ لِكُلِّ سُوقٍ مِيزَانٌ يَخْتَلِفُ عَنْ مِيزَانِ الْآخَرِ مَا احْتَمَلَ النَّاسُ التَّجَارَةَ».

هُنَا قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «أُرِيدُ أَنْ أُجَرِّبَ هَذِهِ الْوَحْدَةَ فِي الْوَقْتِ. إِنْ جَعَلْنَا لِلْوَرُشَةِ أَوْقَاتًا مَقْيَسَةً لِلتَّسْحِينِ وَالتَّيْرِيدِ، وَلِلْأُجُورِ مَقْدَارًا عَدْلًا، وَلِلْأَوْزَانِ مُوَافَقَاتٍ، أَيْسَتَقِيمُ الْأُمُورُ»

قَالَ الْإِمَامُ: «ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ. وَاسْمَعْ هَذِهِ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 3).

فَلَا تُحْمَلُوا الرِّجَالَ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنَ الْحَدِيدِ مَا لَيْسَ فِيهِ.
كُلُّ عَلَى قَدْرِهِ، وَبِهِ يَسْتَقِيمُ النَّظَامُ.

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ مُوصِّلًا الْكَلَامَ فِي الرِّزْقِ:

﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾
(الحجر: 21).

إِذَا عَلِمْتُمْ هَذَا لَمْ تُسْرِفُوا فِي الْمَاءِ وَلَا فِي الْحَبِّ وَلَا فِي الرِّبِّتِ.
الْإِسْرَافُ خُسْرَانُ الْمِيزَانِ.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: 31).

فِي الْمَطَابِخِ وَفِي الْحُقُولِ وَفِي الْمَصَانِعِ، الْقَدْرُ يَحْفَظُ النِّعْمَةَ.
وَأَسْتَأْذِنُ جَابِرًا: «أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ آيَةً تَرْبُطُ بَيْنَ التَّفَكُّرِ وَالْعَمَلِ».

فَقَالَ الْإِمَامُ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

خَلَقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٩٠-١٩١﴾ (آل عمران: 190-191).

التَّفَكُّرُ هُنَا لَيْسَ فِرَارًا إِلَى الْخَيَالِ، بَلْ نَظَرٌ يُثْمِرُ عَمَلًا: تَرَاقُبٌ، فَتَسْمِيٌّ، فَتَقْدِيرٌ، فَتَبْنِيٌّ. هَكَذَا تَسِيرُ الْحَرْفَةُ مِنَ التَّجَرُّبَةِ إِلَى الْعِلْمِ.

وَقَالَ حَمْزَةُ الْأَنْصَارِيِّ: «إِذَنْ هَلْ نَجْعَلُ لِكُلِّ حَرْفَةٍ دَفْتَرًا تُثَبِّتُ فِيهِ الْمَقَادِيرَ وَالْأَوْقَاتِ وَالْمُرَاقِبَاتِ»

قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا عَيْنُ مَا نُرِيدُ. فَإِذَا مَاتَ الصَّانِعُ لَمْ يَمُتْ عِلْمُهُ. وَفِي كُلِّ دَفْتَرٍ حَيَاةٌ تُسَلِّمُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ». وَقَفَّ الْإِمَامُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَمْسَحُ بَصَرَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ: «سَتَرُونَ مَعِيَ هَذَا الْمِيزَانَ فِي الْمَجَالِ كُلِّهَا. فِي السُّوقِ: الْوَزْنُ وَالصَّنَاعَةُ وَالثِّقَّةُ. فِي الزَّرَاعَةِ: الْمَاءُ وَالزَّمَانُ وَالتُّرْبَةُ. فِي الْبِنَاءِ: الْأُسُسُ وَالْقِيَاسُ وَمُرَاقَبَةُ التَّفَاوُتِ. فِي التَّعْلِيمِ: تَدْرُجُ الْمَعْرِفَةِ وَتَثْبِيتُ الْأُصُولِ. وَفِي الْقَلْبِ: الْعَدْلُ وَالْأَمَانَةُ».

وَقَالَ مُتَمِّمًا الْبَيَانَ بِآيَةٍ تَشْدُدُ الْمَعْنَى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الحجر: 85).

فَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ بِالْحَقِّ، فَلِلْعَمَلِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِالْحَقِّ. وَالْحَقُّ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا عَلَى مِيزَانٍ يَمْنَعُ الظُّلْمَ وَالْإِسْرَافَ وَالْغِشَّ.

أَنْتَقَلَ الْمَجْلِسُ بِلُطْفٍ إِلَى مَشَاهِدَ تَطْبِيقٍ. خَرَجُوا مَعَ الْإِمَامِ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي الْعِشِيِّ، وَالْفَرَاتُ يَلْمَعُ كَسَيْفٍ رَابِضٍ. وَقَفُوا عِنْدَ سَاقِيَةٍ، فَأَخَذَ الْإِمَامُ عَوْدًا رَفِيعًا وَغَرَزَهُ فِي التُّرْبَةِ، ثُمَّ قَالَ لِصَفْوَانَ: «زِدْ مِيلَ الْمَجْرَى شِعْرَةً». تَحَرَّكَ الْمَاءُ أَسْرَعَ، ثُمَّ قَالَ: «أَنْقُصْهُ شِعْرَةً». سَكَنَ الْمَاءُ قَلِيلًا. قَالَ: «هَذَا هُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يَحْمِلُ الرِّيحَ وَيَمْنَعُ الْفَسَادَ». ثُمَّ تَلَا:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: 18).

ثُمَّ سَارُوا إِلَى وَرَشَةِ عَاصِمٍ. أَوْقَدَ نَارَهُ، فَقَالَ الْإِمَامُ: «انْظُرُوا إِلَى لَوْنِ الْجَمْرِ». لَمَّا بَلَغَ حُمْرَةً بَيْنَ الصَّفْرَةِ وَالْبَيَاضِ قَالَ: «أَضْرِبْ». فَأَنْقَادَ الْحَدِيدُ، وَأَنْسَابَ تَحْتَ الْمِطْرَقَةِ كَعَجِينٍ قَوِيٍّ. قَالَ الْإِمَامُ: «سَمُّوا هَذِهِ الدَّرَجَةَ، وَاكْتُبُوا مَا يَلِيهَا وَمَا قَبْلَهَا، ثُمَّ لَا تَتْرَكُوا شَيْئًا دُونَ اسْمٍ». وَتَلَا:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: 8).

عَادُوا إِلَى الشُّوقِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُجَادِلُ دَلَالًا فِي سِغْرِ التَّمْرِ. تَقَدَّمَ الْإِمَامُ وَقَالَ بِسَكِينَةٍ: «زِدْ فِي الْمِيزَانِ حَبَّةً، وَأَنْقِصْ مِنَ الثَّمَنِ شَيْئًا، فَإِنَّ الْقِسْطَ يُثْمَرُ». تَوَقَّفَ حَبِيبٌ وَظَلَّ وَجْهُهُ بَيْنَ الرِّضَا وَالتَّرَدُّدِ، ثُمَّ فَعَلَ. فَأَبْتَسَمَ الْمُشْتَرِي، وَأَنْصَرَفَ يَدْعُو لَهُ. قَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا يُصْلِحُ الْمِيزَانُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْمَكَائِلِ».

وَفِي اللَّيْلِ، صَعِدُوا سَطْحَ أَلْبَيْتِ وَالنُّجُومُ تَمْتَدُّ كَسَنَبُلٍ مِنْ ضَوْءٍ. قَالَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

الْإِمَامُ لِجَابِرٍ: «عُدَّ مَنَازِلَ الْقَمَرِ هَذَا الشَّهْرَ، وَارْبَطْهَا بِمَوَاسِمِ الزَّرْعِ وَأَوْقَاتِ الرِّيِّ، وَانْظُرْ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ لَكَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ الْحَدُّ، أَقَمْتَ لِلزَّرْعِ مَوَاعِيدَ تَسْلَمُ لَهَا الْإِنْتِاجَةُ». وَتَلَا:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (يونس: 5).

فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، جَمَعَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ مِنْ جَدِيدٍ. قَالَ وَهُوَ يُثَبِّتُ الْخِتَامَ: «أَجْمَعُوا مَا طَالَعْتُمْ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: الْمِيزَانُ أَصْلٌ يُرَدُّ كُلُّ مُتَفَرِّقٍ إِلَى قَاعِدَةٍ وَاحِدَةٍ؛ قَدَرٌ فِي الزَّمَانِ وَقَدَرٌ فِي الْمَكَانِ وَقَدَرٌ فِي الْفِعْلِ. وَإِذَا اجْتَمَعَ الْقَدَرُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وُلِدَ الْإِتْقَانُ». ثُمَّ قَالَ: «سَتُفْتَحُ مَعَكُمْ أَبْوَابُ أُخْرَى: فِي الطَّبِّ وَفِي الْكَيْلِ وَفِي الْعَدِّ وَفِي الرَّصْدِ. وَكُلُّهَا تُرَدُّ إِلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ».

رَفَعَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ، وَقَالَ بِحَرَارَةٍ: «سَأُسَمِّي لِلنَّارِ دَرَجَاتِهَا، وَلِلْمَاءِ مَقَادِيرَهُ، وَلِلْخَلِيطِ نِسَبَهَا، وَسَأَجْرُبُ وَأُعِيدُ وَأُقَيَّدُ. فَإِذَا أَخْطَأْتُ كَتَبْتُ خَطِيئِي كَمَا أَكْتُبُ صَوَابِي، لِكَيْلَا يَتَكَرَّرَ الْعَثْرُ».

قَالَ الْإِمَامُ وَجْهَهُ يُضِيءُ: «هَكَذَا يَنْتَقِلُ التَّجَرُّبَةُ إِلَى الْعِلْمِ، وَهَكَذَا تَصِيرُ الصَّنْعَةُ رِوَايَةً مَكْتُوبَةً لَا سِرًّا يَمُوتُ بِمَوْتِ صَاحِبِهِ».

وَسَأَلَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ مُتَطَمِّئًا: «هَلْ نَجْعَلُ لِكُلِّ مِهْنَةٍ "مِقْدَارًا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مُسْتَقَرًّا "نَرْجِعُ إِلَيْهِ"

قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ، عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَقْدَارُ مَفْتُوحًا لِلتَّصْحِيحِ بِرِصْدٍ وَتَجَرُّبَةٍ. فَالْكِتَابَةُ لَيْسَتْ قَيْدًا، بَلْ جِسْرًا يَحْمِلُكُمْ مِنْ خَطَا إِلَى صَوَابٍ».

وَأَقْبَلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا بِوَجْهِهِ أَرْقَى: «إِذَنْ، أَرْبَحُ إِذَا أَقَمْتُ الْمِيزَانَ»

قَالَ الْإِمَامُ: «تَرْبَحُ فِي عُيُونِ النَّاسِ وَفِي سَجِلِّ الْحَقِّ. وَالرَّيْحَانُ إِذَا اجْتَمَعَ ثَبَتَتِ التَّجَارَةُ».

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ الْمَجْلِسُ تَلَا الْإِمَامُ خَاتِمَةً ثُبَّتْ قَلْبُ الدَّرْسِ:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد: 3).

فَاجْعَلُوا أَعْمَالَكُمْ مُتَّصِلَةً مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ؛ لِئَلَّا تَتَفَرَّقَ الْأَجْزَاءُ وَتَنْقَطِعَ الثَّمَارُ».

خَرَجُوا، وَفِي الصُّدُورِ نَبْضَةٌ تَكْبِيرُ: آيَاتٌ فَسَّرَتْ بِأَمْثَلَةٍ، وَأَمْثَلَةٌ سَارَتْ فِي الشَّارِعِ مَعَ النَّاسِ. كَانَ جَابِرٌ يَتَصَوَّرُ دَفَاتِرَ مَمْلُوءَةٍ بِدَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ وَأَسْمَاءِ الْأَلْوَانِ وَمَوَاقِيتِ التَّسْخِينِ وَالتَّثْرِيدِ، وَعَاصِمٌ يَتَخَيَّلُ قَوْسًا يَقُومُ لِأَنَّ الْأَحْجَارَ تَسَاوَتْ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْسُمُ جَدُولًا لِلْأَوْقَاتِ وَالْأَجُورِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَعُدُّ حَبَّاتٍ صَغِيرَةً يُتَمُّ بِهَا الْوِزْنُ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَفِي اللَّيْلِ، حِينَ هَذَا الْمَدِينَةُ وَأَنْسَحَبَ الضَّوْءُ إِلَى النُّجُومِ، كَانَ صَوْتُ
الْإِمَامِ يَرْتَدُّ فِي الْقُلُوبِ: «لَا صَنْعَةَ بِلَا مِيزَانٍ، وَلَا مِيزَانَ بِلَا قِسْطٍ، وَلَا قِسْطَ بِلَا
قُلُوبٍ تُنْصِتُ لِنُورِ الْآيَاتِ».

هَكَذَا بَدَأَتْ رِحْلَةُ الْمِيزَانِ: آيَاتُ تُفَسَّرُ فِي السُّوقِ وَالْحَقْلِ وَالْوَرِشَةِ،
وَعُلُومٌ تَخْرُجُ مِنَ الصُّدُورِ إِلَى الدَّفَافِرِ، وَحَيَاةٌ تَتَّخِذُ لَهَا مِيزَانًا، فَيَسْتَقِيمُ الْقَلْبُ مَعَ
الْيَدِ، وَيَسِيرُ الْكَوْنُ فِي عُيُونِهِمْ عَلَى قَاعِدَةٍ وَاحِدَةٍ: «الْحَقُّ مِيزَانٌ، وَالْمِقْدَارُ
مِيزَانٌ، وَالْقِسْطُ مِيزَانٌ».

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّنَاغُمِ وَالْإِتْسَاقِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْمَغْرِبِ يَتَنَفَّسُ هُدُوءًا رَقِيقًا، وَسُرْجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضِيَاءً خَفِيفًا يَتَرَقُّقُ عَلَى الْحَصَى، وَتَتَهَامَسُ الْقُلُوبُ كَأَنَّهَا تَسْتَعِدُّ لِنِعْمَةٍ طَوِيلَةٍ لَا تَنْقُطِعُ. تَوَسَّطَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ، وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى السَّارِيَةِ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى فَتْحَةِ الْقُبَّةِ وَهُوَ يَسْتَجْمِعُ النَّفْسَ، فَسَرَى صَوْتُهُ عَلَى مَهَلٍ كَمَا يَسْرِي الْمَاءُ فِي جَدُولٍ دَافِيٍّ:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يَس: ٤٠).

انْطَوَى الْمَكَانُ عَلَى سُكُونٍ شَفَافٍ، وَتَلَقَّتِ الْأَذَانُ آيَةَ كَأَنَّهَا نَفْسٌ كَوَكَبٌ يَمْشِي عَلَى قَدَرٍ لَا يَزِيغُ.

مَالَ الْإِمَامُ بِنَظَرِهِ إِلَى الْحَلَقَةِ، وَأَبْتَسَامَةً دَافِئَةً تَعْبُرُ شَفَتَيْهِ، ثُمَّ أَسْنَدَ كَفَّهُ إِلَى فَخْذِهِ كَمَنْ يَثْبُتُ نَقْرَةَ الْبَيَانِ فِي الصُّدُورِ، وَقَالَ بِنَبَرَةٍ تَمَزْجُ التَّعْجِيبَ بِالتَّعْلِيمِ: «هَذَا الْخَبَرُ الْعَظِيمُ لَيْسَ مَجْرَدَ صَفْحَةٍ فِي السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ مِيزَانٌ يَجْرِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فِي كُلِّ شَيْءٍ. لَيْسَ الْأَمْرُ غِيَابَ التَّنَافُضِ فَقَطْ، بَلْ حُضُورُ الْأَتْسَاقِ وَالتَّنَاقُصِ؛
أَجْزَاءُ تَعْمَلُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ عَلَى نَسَقٍ لَا يَصْطَلِمُ وَلَا يَضْطَرِبُ.»

أُنَحْنِي جَابِرٌ عَلَى دَفْرِهِ، وَقَلَمُهُ يَرْتَعِشُ كَمَا تَرْتَعِشُ زَهْرَةٌ فِي نَسِيمِ
سَحَرٍ، وَهُوَ يَقِيدُ جُمْلَةً تَلْمَعُ فِي رَأْسِهِ: «كَيْفَ يَتَحَوَّلُ النَّظْمُ السَّمَائِيُّ إِلَى
طَرِيقَةِ عَمَلٍ فِي الْأَرْضِ»

وَفِي الطَّرَفِ الْآخِرِ قَرَبَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ كَفَّهُ مِنْ ضَوْءِ السَّرَاجِ،
وَتَلَمَّسَ بِإِصْبَعِهِ خَطًّا رَسَمَهُ عَلَى قِطْعَةٍ جِلْدٍ يَصِفُ فِيهَا مَدَارَ كَوْكَبٍ، ثُمَّ رَفَعَ
رَأْسَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ مَنْ رَأَى الْمِثَالَ فِي الْعِيَانِ: «أَرَى الْكَوَاكِبَ تَمْضِي، فَلَا
تَصْدُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا أَحْتَاجَ كَوْكَبٌ إِلَى مُجَاوَرَةٍ أَنْزَلَهُ الْآخَرُ فِي فَلَكِهِ، فَلَا
فَوْضَى وَلَا عَثْرَةَ. هَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ الَّتِي أَبْتَغِيهَا فِي تَدْيِيرِ الدَّوَالِبِ وَدَوَارَاتِ
السَّاقِيَةِ لِكَيْ تَتَحَرَّكَ بِلَا صَدْمٍ وَلَا صَرِيرٍ.»

أَمَّا صَاحِبُ الْقِيَّاسِ اللَّوْحِ الَّذِي بِيَدِهِ، وَرَسَمَ بِحَافَةِ الْقَلَمِ سُلَّمًا يَرْفَى
فِيهِ سَهْمٌ مِنْ مَقْطَعٍ إِلَى مَقْطَعٍ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَيْهِ كَمَنْ يَقُودُ بَصْرًا إِلَى خَطِّ مُنْظَمٍ:
«إِذَا أَبْتَدَأْنَا بِأَصْلِ مُتَسِقٍ، وَجَعَلْنَا كُلَّ دَرَجَةٍ تَأْخُذُ يَدَ الَّتِي قَبْلَهَا، وَقَسَمْنَا الْبَيَانَ
خُطُوتًا، خَرَجَ الْفِكْرُ عَلَى نَسَقٍ، وَالْأَصَاغُ فِي التَّشْتِيتِ. هَكَذَا أَفْهَمُ قَوْلَكُمْ:

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يَسْ: ٤٠)؛

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فِي الْفِكْرِ كَمَا فِي السَّمَاءِ، يَسْبَحُ كُلُّ فِي مَسَارِهِ، لَا يَتَعَوَّلُ عَلَى حَقٍّ
غَيْرِهِ.»

حَرَكَ حَيْبُ الدُّنْيَا خَاتَمَهُ ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلَى الْإِمَامِ بِنَظَرَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ
الْأُسْتِعْجَالِ: «إِذَنْ، هَلْ فِي هَذَا التَّنَاقُحِ رِيحٌ يُمَسِّكُ السُّوقَ أَمْ هُوَ حَدِيثٌ
يَسْتَأْنِسُ بِهِ الْقُلُوبُ»

فَانْفَتَحَ وَجْهُ الْإِمَامِ بِابْتِسَامَةٍ تُهْدِي الْحِدَّةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ الْمِيزَانِ
الْمَوْضُوعِ بِجَانِبِ السَّارِيَةِ، وَأَخَذَ كِفْتَيْهِ بِرِفْقٍ حَتَّى سَكَنَتَا: «إِذَا تَنَاقَحَتِ الْأَجْزَاءُ
سَهَلَتِ الْحَرْفَةُ وَقَلَّ الْهَذَرُ وَثَبَتَتِ الثَّقَةُ. وَالسُّوقُ لَا يَقُومُ عَلَى ضَجِيجٍ، بَلْ عَلَى
نِعْمَةٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ عَدَلٍ وَإِتْقَانٍ.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٥٢)،

فَإِذَا قَامَ الْقِسْطُ جَاءَ الرَّبْحُ عَلَى مَهَلٍ، وَلَا يَنْقَطِعُ.

اِنْتَفَتَحَ الْإِمَامُ إِلَى النَّافِذَةِ الصَّغِيرَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْأُفُقِ: «اتَّبِعُونِي إِلَى
الْفَضَاءِ؛ فَهُنَاكَ يَصِيرُ الْقَوْلُ شَاهِدًا.»

خَرَجُوا، وَالرَّيْحُ تَلْمِسُ الْوُجُوهَ مَسًّا لَطِيفًا، وَالسَّمَاءُ تَنْفُضُ عَنْهَا بَقَايَا
الضُّحَى. وَقَفُوا فِي الْفِنَاءِ، وَاسْتَنَارَتِ الْحُرُوفُ فِي الْقُلُوبِ وَهِيَ تَرَى الشَّمْسَ

تَدْنُو إِلَى الْغُرُوبِ، وَهَلَا لَا خَفِيًّا يَتَهَاوَى فِي الطَّرَفِ الْبَعِيدِ.

مَدَّ صَفْوَانُ ذِرَاعَهُ كَمَنْ يَقِيسُ بِالظِّلِّ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُحَاذِي بَيْنَ الْمَنْظَرَيْنِ: «أَنْظُرُوا كَيْفَ لَا تُدْرِكُ الشَّمْسُ الْقَمَرَ، فَلَا يَطْغَى النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ، وَلَا يَسْبِقُ اللَّيْلُ النَّهَارَ. هَذَا الْفَصْلُ الدَّقِيقُ بَيْنَ الْحُدُودِ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي نَحْتَاجُهُ فِي تَرْكِيبِ الدَّوَالِبِ؛ فَلِكُلِّ دَوَّارَةٍ وَقْتُهَا وَمَسَاحَتُهَا، لَا تَتَفَحَّمُ عَلَى أُخْتِهَا فَتَكْسِرُهَا.»

أَمَّا لُبْنَى، فَقَدْ رَفَعَتْ نَظَرَهَا إِلَى الْهَلَالِ الرَّقِيقِ، ثُمَّ أَدَارَتْ كَفَّهَا فَوْقَ الْهَوَاءِ كَأَنَّهَا تَرْسُمُ مَجَارِيَ الْمَاءِ: «أَتَرَى، أَيُّهَا السَّيِّدُ، إِذَا جَعَلْنَا لِلْسَّاقِيَةِ دَوَّارَاتٍ تَتَنَاوَبُ وَلَا يَتَهَا عَلَى الْمَاءِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ فِي دَوْرِهَا، أَلَا يَكُونُ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى التَّنَاعُمِ وَأَبْعَدَ عَنِ الصَّدْمَةِ»

فَاشْتَهَرَ الرِّضَا فِي عَيْنِي الْإِمَامِ، وَقَالَ وَهُوَ يُوَمِّئُ إِلَيْهَا: «هَكَذَا تُتَرْجَمُ الْآيَةُ عَمَلًا. لِكُلِّ عَضْوٍ مِنَ النَّظَامِ دَوْرٌ، وَمَنْ خَالَفَ دَوْرَهُ أَفْسَدَ النَّظَامَ كُلَّهُ.»

تَقَدَّمَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ خُطْوَةً، وَمَسَحَ جَبِينَهُ كَمَنْ يَجْمَعُ خُطُوطَ الْفِكْرِ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِنَبَرَةٍ تَتَرَقَّى عَلَى سُلَّمٍ وَاضِحٍ: «أَبْدَأُ مِنْ أَصْلِ: إِنَّ الْكَوْنَ لَا يَحْتَمِلُ الْفَوْضَى، ثُمَّ أَرْتَقِي: كُلُّ جُزْءٍ فِيهِ لَهُ حَدٌّ وَوَقْتُ، ثُمَّ أَلْحَقُ: إِذَا أَلْتَزَمَ كُلُّ بَحْدِهِ سَلِمَ الْمَجْمُوعُ، فَإِذَا وَقَعَ تَغَوُّلٌ ظَهَرَ الْخَلَلُ. هَذَا هُوَ التَّتَابُعُ الَّذِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَصْنَعُ الْإِتْسَاقَ فِي الْفِكْرِ.

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى قَلْبِهِ، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الْأَعْلَى: ٢-٣)،

ثُمَّ قَالَ: «فِي كُلِّ خُطْوَةٍ هِدَايَةٌ، وَفِي كُلِّ قَدَرٍ سَبِيلٌ، وَبِالْهُدَى يَتِمُّ التَّنَاقُصُ».

وَبَيْنَمَا الْحَدِيثُ يَجْرِي كَجَدُولٍ مُسْتَقِيمٍ، إِذْ تَمَلَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَهُوَ يَقْبِضُ كَفَّهُ كَمَنْ يَحْسِبُ الرِّبْحَ عَلَى أَصَابِعِهِ: «إِنْ كَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدٌّ وَدَوْرٌ، فَهَلْ يَتَعَطَّلُ الرِّبْحُ إِذَا أَنْتَظَرْنَا دَوْرَنَا»

فَضَحِكَتْ عُيُونُ الْحَلَقَةِ رِفْقًا، وَقَرَّبَ الْإِمَامُ مِنْهُ حَتَّى لَمَسَ ظِلُّهُ ظِلَّهُ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَضَعُ كَفَّهُ قُرْبَ كِفْتَيْ الْمِيزَانِ: «أَنْظُرْ، إِذَا أَثْقَلَتْ كِفَّةٌ بِلَا حَقٍّ انْكَسَرَ الْمِيزَانُ، وَإِذَا أُعْطِيَتْ كُلُّ كِفَّةٍ قَدَرُهَا اسْتَقَامَ الزَّمَانُ وَجَرَى الرِّبْحُ عَلَى مَهَلٍ وَلَا يَنْقَطِعُ».

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدِ: ٨).

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَقَدْ سَدَلَ الشَّفَقُ غِشَاءَهُ وَأَوْقَدَ النُّجُومَ فِي سَمَاءِ الْقُبَّةِ. جَلَسُوا، وَالْإِمَامُ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنَ الْوُجُوهِ كَمَنْ يَعُدُّ نَبْضًا مُشْتَرَكًا، ثُمَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَمَالَكَ صَوْتُهُ عَلَى نَعْمَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَسَّعُ لِلْمَعَانِي: «أَسْمَعُوا خَاتِمَةَ الْبَيَانِ: لَيْسَ التَّنَاغُمُ أَنْ لَا تَضْطَرَّ الْأَشْيَاءُ فَحَسْبُ، بَلْ أَنْ تَتَزَاحَفَ فِي الطَّرِيقِ نَفْسُهُ كَمَا يَتَزَاحَفُ النَّعْمُ فِي اللَّحْنِ؛ يَلِي الْأَوَّلَ الثَّانِي بِلَا فَجْوَةٍ، وَيَسْنُدُ الثَّانِي الثَّلَاثَ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. هَذَا هُوَ مِيزَانُ التَّنَاغُمِ وَالْإِتِّسَاقِ.»

مَدَّ عَاصِمٌ يَدَهُ فِي الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ يَطْرُقُ عَلَى حَدِيدٍ غَيْرِ مَرِيٍّ، ثُمَّ هَمَسَ وَالْحَمَاسُ يُلُوحُ فِي جَبِينِهِ: «سَارَتْ ضَرْبَاتُ الْمَطْرِ عَلَى مِقْدَارٍ، لِكَيْ لَا تُسَابِقَ ضَرْبَةُ أُخْتِهَا فَتُفْسِدَ الصَّنْعَةَ.»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ رَضًى، ثُمَّ اتَّبَعَ الرِّضَا بِآيَاتٍ تَجْلُو الْقَلْبَ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٩).

ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ هَذَا الْمِيزَانَ سَمِعَ النَّشِيدَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فِي الْوَقْتِ وَفِي الْكَلِمَةِ وَفِي الرِّزْقِ.»

وَقَفَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ وَنَبْرَةُ التَّمْيِيزِ فِي شَفَتَيْهَا: «أَيَا سَيِّدِي، هَلْ يَسْعُنَا أَنْ نَجْعَلَ لِلتَّعْلِيمِ نَعْمًا كَنَعْمِ الْفَلَكَ يَبْدَأُ بِمُقَدِّمَةِ لَيْتَنِي، ثُمَّ يَرْتَقِي فِي التَّدَرُّجِ، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ فِي خَاتِمَةٍ تُدْرِكُ بِالْقَلْبِ قَبْلَ اللِّسَانِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَهَـزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ إِيْجَابًا، وَأَصَافَ بِلَطَافَةٍ تَثْبُتُ الْمَعْنَى: «وَهَكَذَا
الْقَضَاءُ، وَهَكَذَا التَّجَارَةُ؛ يَبْدَأَانِ مِنْ أَصْلٍ وَاضِحٍ، ثُمَّ يَتَنَاسَقَانِ فِي الْخُطُوبِ
حَتَّى يَبْلُغَا الْقَصْدَ بِغَيْرِ صَخَبٍ».

إِنْ سَابَ الْحِثَامُ عَلَى لِسَانِ الْإِمَامِ كَمَا يَنْسَابُ الضَّوْءُ فِي خَيْطِ فَجْرِ:
«الْكُونُ نَشِيدٌ، وَمِيزَانُهُ يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نُؤَلِّفُ بَيْنَ أَصْوَاتِهِ وَلَا نَجْعَلُهَا ضَجِيجًا. فَمَنْ
سَمِعَ النِّعْمَةَ فِي السَّمَاءِ سَمِعَهَا فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ أَقَامَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدَّهُ سَمِعَ قَلْبُهُ
قَبْلَ أُذُنِهِ.» ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتَ مَنْ أَلْقَى نَوَاءً طَيِّبَةً فِي تَرَابٍ مُبَارَكٍ، فَانْصَرَفَ
الْقَوْمُ وَفِي صُدُورِهِمْ نِعْمَةٌ دَافِقَةٌ تَدُلُّهُمْ مِنْ غَدٍ كَيْفَ تَتَنَاعَمُ أَعْمَالُهُمْ عَلَى مِيزَانٍ
لَا يَخُونُ، كَمَا يَسْبَحُ كُلُّ فِي فَلَكِهِ لَا يَرْبُغُ.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: مِيزَانُ التَّرَايُطِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَأَنَّقُ بِسُكُونٍ طَيِّبٍ، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضِيَاءً لَطِيفًا يَنْسَابُ عَلَى الْحَصَى كَخَيْطِ نَهَرٍ رَقِيقٍ. تَوَسَّطَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ، وَجَابِرٌ إِلَى يَمِينِهِ يُقَلِّبُ دَفْتَرَهُ كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا لِأَسْرَارِ قَرِيْبَةٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ بَرِيقٌ مَنْ رَأَى أَلْفَلَكَ فِي ثَقَلْبَاتِهِ، وَعَاصِمُ الصَّانِعِ يَفْرُكُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ كَمَنْ يَقِيسُ حَرَارَةَ الْحَدِيدِ بِالْمَسِّ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحِيُّ يَتَطَلَّعُ إِلَى السَّقْفِ نَظْرَةً مَنْ يَسْأَلُ عَنِ الرَّبِّ قَبْلَ الْبَيَانِ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ رَفَقًا، فَجَرَى كَمَا يَجْرِي الْمَطَرُ عَلَى تَرَابٍ مُشْتَتِهِ لِلْحَيَاةِ:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الْحَجَرِ:

(٢٢).

ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتًا يَتَسَعُّ لِلتَّفَكُّرِ، كَأَنَّهُ يُفْسِحُ لِلْقُلُوبِ مَجَالًا لِتَرَى الْآيَةَ وَهِيَ تَتَحَوَّلُ مِنْ حُرُوفٍ إِلَى مَشَاهِدٍ.

أَمَالَ كَفَّهُ نَحْوَ الْأَفُقِ وَهُوَ يَقُولُ بِنَبَرَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ التَّعْجِيبِ وَالتَّعْلِيمِ:

«لَيْسَتْ الرِّيحُ هَوَاءً يَمُرُّ وَيَنْفَضِي، وَلَا الْمَطَرُ قَطَرَاتٍ تُبَلِّلُ ثَوْبًا وَتَنْصَرِفُ. هُنَا مِيزَانٌ يُظْهِرُ كَيْفَ تَتَعَاقَبُ الْأَسْبَابُ وَتَتَمَاسِكُ الْحَلَقَاتُ: رِيحٌ تُثِيرُ السَّحَابَ، فَسُحُبٌ تَلْتَمِمْ وَتُدَافِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَعُيُومٌ تُسَاقُ، فَمَاءٌ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِقَدَرٍ، فَحَيَاةٌ تَشُورُ فِي الْأَرْضِ». ثُمَّ أَتْبَعَ الْبَيَانَ بِشَاهِدٍ آخَرَ يُبَيِّنُ الطَّرِيقَ:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِيَلْدَ مِيتًا فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾
(الْأَعْرَافِ: ٥٧).

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى صُدُورِهِمْ: «انْظُرُوا كَيْفَ تَرْتَبِطُ الرَّحْمَةُ بِالسَّبَبِ، فَلَا رَحْمَةً مَسْكُوبَةً فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى مِيزَانٍ تَرَابُطٍ بَيْنَ رِيحٍ وَسُحُبٍ وَمَوَاقِيتٍ أَلْقَدَرَةٍ.»

دَنَا جَابِرٌ مِنَ الْإِمَامِ قَلِيلًا، وَحَاجِبَاهُ يَرْتَجِفَانِ كَمَنْ يَرَى الْمَعْنَى يَتَجَسَّدُ أَمَامَهُ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَمَزِجُ الشَّعْفَ بِالْأَحْتِشَامِ: «أَرَى يَا سَيِّدِي أَنَّ الرِّيحَ تَتَبَدَّلُ مَجَارِيهَا بِحَسَبِ الْفُصُولِ، فَتَحْمِلُ الْبُذُورَ وَتَلْقَحُ الزُّهُورَ، فَيَكْثُرُ الْحَصَادُ أَوْ يَقِلُّ. أَفَهَذَا مِنْ مِيزَانِ التَّرَابُطِ»

فَتَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَمْسُ حَافَةَ دَفْتَرِهِ: «نَعَمْ، وَزِدْ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴿النُّور: ٤٣﴾.

فِيهَا تَعَاقُبُ خُطُوبَاتٍ، وَكُلُّ خُطُوبَةٍ تَسْتَنِدُّ إِلَى أُخْتِهَا، فَلَا وَدَقَ بِلَا تَأْلِيفٍ، وَلَا تَأْلِيفَ بِلَا إِزْجَاءٍ. هَذَا هُوَ التَّرَابُطُ كَمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ.»

تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَيَدَاهُ تَلَمَعَانِ مِنْ حِرْصٍ لَا يَخْتَفِي، وَقَالَ وَهُوَ يَتَلَفَّتُ إِلَى الْأَبْوَابِ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ طَرِيقٍ أَقْصَرَ: «وَمَا حَاجَّتُنَا إِلَى هَذَا التَّفْصِيلِ وَالتَّرَاكُوبِ إِذَا أَرَدْنَا الْمَاءَ سَحَبْنَاهُ، وَإِذَا أَرَدْنَا الرِّيحَ عَجَلْنَاهُ. أَلَيْسَ الْأَمْرُ أَيْسَرَ مِنْ هَذِهِ التَّعَارِيفِ»

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً تَجْمَعُ الرِّقَّةَ وَالْجَزَمَ، ثُمَّ قَرَّبَ مِنْهُ كَأَنَّهُ يُسَمِّعُهُ أَلْمَعْنَى مِنْ قُرْبٍ: «إِنَّ مَا تَسْتَهِينُ بِهِ مِنْ حَلَقَاتٍ إِذَا قَطَعَتْهَا سَقَطَ السَّلْسِلُ كُلُّهُ. وَأَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾
(الْحِجْرِ: ٢١).

فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْقَدَرَ فِي الْحَلَقَاتِ لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ نَفْعٌ وَلَا دَامَ لَهُ رِبْحٌ.»

وَهُنَا أَشَارَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ إِلَى قِطْعَةٍ حَدِيدٍ صَغِيرَةٍ أَخْرَجَهَا مِنْ جَبِيهِ، يَبْدُو عَلَيْهَا أَثَرُ طَرَقٍ قَدِيمٍ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَدُورُ بِهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ: «إِذَا سَرَعَتْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

بِالْمِطْرَقَةِ عَلَى حَدِيدٍ لَمْ يَبْلُغْ حَدَّ اللَّيُونَةِ تَكَسَّرَ وَتَنَازَرَ شَرُّهُ وَلَمْ يَنْفَعْنِي. وَإِذَا أَبْطَأَتْ عَنْهُ وَهُوَ فِي أَوْجِ السَّخَانَةِ فَاتَنِي الْحَدُّ، فَبَرَدَ قَبْلَ أَنْ أُقِيمَ لَهُ شَكْلًا. لَا بُدَّ مِنْ تَرَابُطٍ بَيْنَ سُرْعَةِ الضَّرْبِ وَحَالِ الْمَعْدِنِ، وَإِلَّا ضَاعَ الْعَمَلُ. هَذَا نَفْسُهُ مِيزَانُ التَّرَابُطِ وَلَكِنْ فِي الْوَرِشَةِ.»

فَهَزَّ الْأِمَامُ رَأْسَهُ رِضَى، وَأَضَافَ شَاهِدًا يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْقُلُوبِ:

«وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ثُمَّ يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» (الرُّومُ: ٤٨).

خُطُوبَاتٌ مُتَرَابِطَةٌ، لَا تَسْتَغْنِي وَاحِدَةٌ مِنْهَا عَنْ أُخْتِهَا.»

قَالَ جَابِرٌ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ عَلَى مِقْيَاسٍ وَاضِحٍ: «سَأُنِيبُ فِي دَفْتَرِي رُصْدَ الرِّيَّاحِ وَمَوَاقِيتِهَا، وَأَرْبِطُهَا بِمَوَاسِمِ الزَّرْعِ وَجَوْدَةِ الْحَصَادِ، لِأَرَى كَيْفَ تَرْتَقِي الْأَسْبَابُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.»

فَأَجَابَهُ الْأِمَامُ وَيْدُهُ تُومِئُ بِالْقَبُولِ: «هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ. وَاسْمَعْ مَعَهُ قَوْلَهُ

تَعَالَى:

«وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ» (الْمُؤْمِنُونَ: ١٨).

فَلِلْمَاءِ قَدْرُهُ، وَلِلْأَرْضِ حَقُّهَا، وَلِلزَّمَنِ مِقْدَارُهُ، وَمَا مِنْ خَلْقَةٍ إِلَّا وَتَشُدُّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

أُخْتُهَا.»

وَفِي الطَّرَفِ، رَفَعْتُ لُبْنَى لَوْحَةً صَغِيرَةً عَلَيْهَا رَسْمُ قَنَاةٍ تَتَشَعَّبُ مِنْهَا
مَجَارٍ دَقِيقَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى نُقْطَةِ الْإِلْتِقَاءِ: «إِذَا أَسْرَعْنَا فِي السَّحْبِ مِنَ
النَّهْرِ ضَعُفَ جَرَيَانُ الْفَرْعِ الْبَعِيدِ، وَإِذَا قَطَعْنَا الشُّعْبَ الصَّغِيرَةَ جَاعَتِ الْحُقُولُ
فِي الْأَطْرَافِ. فَكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ حَقِّ الْمَصَبِّ وَحَقِّ الْفُرُوعِ»

فَاقْتَرَبَ الْإِمَامُ وَوَضَعَ إصْبَعَهُ عَلَى مَوْضِعِ الْإِشْكَالِ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَقْرَأُ
عَلَيْهِمْ:

﴿وَأَوْفُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنِ: ٩).

لَا يَسْتَقِيمُ التَّرَابُطُ إِلَّا بِالْقِسْطِ؛ تُعْطَى هَذَا بِقَدَرٍ وَذَاكَ بِقَدَرٍ، فَيَسْلَمُ
الْأَصْلُ وَتَدُومُ الشَّمْرَةُ.»

وَإِذْ انْفَتَحَ الْبَابُ لِلْمَشَاهِدِ، قَالَ عَاصِمُ الصَّانِعِ وَفِي صَوْتِهِ أَثَرُ نَارٍ لَا
تَنْطَفِئُ: «إِذَا أَطْفَأْنَا الْكَبِيرَ قَبْلَ أَوَانِهِ بَطُلَ التَّطْرِيقُ، وَإِذَا تَرَكَنَاهُ يَأْكُلُ الْفَحْمَ
أَحْتَرَقَ الْحَدِيدُ وَتَقَصَّفَ. مَا أَرَاهُ يَا سَيِّدِي هُوَ أَنَّ «الْوَقْتَ» وَ«الْحَرَارَةَ» وَ«سُرْعَةَ
الضَّرْبِ» ثَلَاثَةٌ أَشْقَاءٌ؛ إِنْ افْتَرَقُوا فَسَدَ الْبَيْتُ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا قَامَ الصَّنْعُ عَلَى
قَدَمَيْهِ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ يَسْتَطِرِدُّ بِآيَةٍ تَضَعُ خَاتِمَةً عَلَى مَعْنَى مُحْكَمٍ:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ (الْمُلْكُ: ٣).

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ تَفَاوُتٌ فِي الْأُصُولِ فَلْيَكُنْ عَمَلُنَا عَلَى نَسْقِهَا؛ حَلَقَاتٌ مُتَرَابِطَةٌ، لَا تُفَارِقُ إِحْدَاهَا أُخْتَهَا.

تَمَلَّعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا مَرَّةً أُخْرَى، وَقَالَ وَفِي صَوْتِهِ بَقَايَا عَجَلَةٍ: «إِنَّمَا أُرِيدُ حَلًّا سَرِيعًا. نَسَحَبُ مَاءً أَكْثَرَ فَتَزْرَعُ أَكْثَرَ فَتَرْبُحُ أَكْثَرَ.» فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى أَسْفَلِ الْوَادِي حَيْثُ تَتَرَاكُمُ الْأَحْجَارُ صَافَةً كَصُحُفٍ مَطْوِيَةٍ، وَقَالَ بِنَبَرَةٍ تَسْتَدْعِي التَّصْوِيرَ: «إِذَا زِدْتَ السَّحْبَ ضَعْفَ الْمَجْرَى وَنَحَرْتَ ضِفَافَهُ، فَأَصْبَحَ الْمَاءُ الَّذِي تَطْلُبُهُ سَبَبُ الْهَدْمِ وَالْجَذْبِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافِ: ٥٦).

فَالْتَرَابُطُ يَحْفَظُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَمَنْ قَطَعَ حَلْقَةً أَفْسَدَ السَّلْسِلَ كُلَّهُ.

وَحِينَ لَا حَتَّ فِي الْأَفْقِ غَيْمَةٌ رَقِيقَةٌ تُسَوِّفُهَا نَسْمَةٌ حَلِيمَةٌ، قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَتَلَوُّ وَيُشِيرُ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٩).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَهْتَرَا زُهَا وَرُبُّوْهَا لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِتَرَابُطٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ؛ مَاءٌ وَتُرْبَةٌ وَبَذْرَةٌ وَزَمَنٌ،
وَكُلٌّ يَأْخُذُ بِيَدِ أَخِيهِ حَتَّى تَظْهَرَ الثَّمَرَةُ.»

ثُمَّ رَفَعَ كَفَّهُ كَمَنْ يَجْمَعُ الْخُيُوطَ فِي قُرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَجْرِي
عَلَى نَعْمَةٍ وَاحِدَةٍ: «أَعْلَمُوا أَنَّ «مِيزَانَ التَّرَابُطِ» لَيْسَ نَظَرًا مُجَرَّدًا، بَلْ طَرِيقَةٌ
عَمَلٍ. إِذَا قُمْتُمْ فِي الصُّبْحِ فَسَمُّوا الشُّرُوطَ وَسَلَسِلَ الْأَثَرِ: هَذَا يُؤَدِّي إِلَى ذَاكَ،
وَذَاكَ يَفْتَحُ هَذَا، لِكِنِّي لَا تَنْقَطِعُ حَلَقَةٌ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. وَتَبَتُّوا مَا تَرَوْنَ فِي
دِفَاتِرٍ: «رِيَّاحٌ وَقَطْرٌ وَجَرِيَّانٌ وَإِنْبَاتٌ»، وَأَرَبَطُوا بَيْنَ الْأَبَابِ وَالْأَبَابِ رَبْطًا مُسَمًّى.
فَبِالْتَّسْمِيَةِ يَظْهَرُ التَّرَابُطُ، وَبِالْتَّرَابُطِ تَسْتَقِيمُ الصَّنْعَةُ.»

تَقَدَّمَ جَابِرٌ وَعَلَى وَجْهِهِ لَمْعَةٌ مِنْ عَقَدِ الْعَزَمِ، وَقَالَ وَهُوَ يَرْفَعُ دِفْطَرَهُ:
«سَأَكْتُبُ فِي صَدْرِ الدَّفْطَرِ: «سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ»؛ فَأُثَبِّتُ الرِّيَّاحَ ثُمَّ
السَّحَابَ ثُمَّ الْوَدْقَ ثُمَّ الْجَرِيَّانَ ثُمَّ الْإِنْبَاتَ، وَأَذْكُرُ فِي كُلِّ حَلَقَةٍ قَدْرَهَا وَمَوْقِعَهَا
وَأَيَّتَهَا.»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى قَلْبِهِ وَتَلَا خَاتِمَةً تُثَبِّتُ الطَّرِيقَ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدِ: ٨)،

ثُمَّ قَالَ: «إِذَا ثَبَتَ الْمِقْدَارُ فِي كُلِّ حَلَقَةٍ، انْكَشَفَ التَّرَابُطُ كُلُّهُ.»

سَكَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ عَادَ بِنَبْرَةٍ تَحْمِلُ بُرْهَانًا وَدُفْعًا: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ التَّرَابُطَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ وَالْمَاءِ فَقَطْ، بَلْ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْأَلْسِنَةِ. كَلِمَةٌ تَجُورُ تُفْسِدُ ثِقَةً بُنِيَتْ فِي سِنِينَ، وَوزَنَةٌ تُخْسِرُ تَقِيْمٌ حَاجِزًا بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي. فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَارْبُطُوا الرِّبْحَ بِالْقِسْطِ، تَجِدُوا أَنَّ الرِّزْقَ يَأْتِي عَلَى نَسَقٍ لَا يَنْقَطِعُ.» ثُمَّ أَغْلَقَ الْبَابَ بِكَلِمَةٍ جَامِعَةٍ تَسْتَقِرُّ فِي الصُّدُورِ كَالنَّوَاةِ الطَّيِّبَةِ: «الْعِلْمُ هُوَ كَشَفُ الْحُجُبِ عَنِ التَّرَابُطِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فَمَنْ رَأَاهُ فِي الْآيَةِ، رَأَاهُ فِي الْحَقْلِ وَالسُّوقِ وَالْوَرَشَةِ، وَأَقَامَ لِكُلِّ حَلَقَةٍ قَدْرَهَا، فَتَنَاعَمَتِ الْأَعْمَالُ كَمَا تَتَنَاعَمُ السَّمَاءُ فِي سَبْحِهَا.»

وَخَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالنُّورُ يَمْتَدُّ فِي الْأَرْقَةِ كَأَنَّهُ خَيْطُ مَاءٍ، وَفِي كُلِّ قَلْبٍ سِلْسِلَةٌ تَلْتَفُّ عَلَى ذَاكِرَةٍ جَدِيدَةٍ: رِيَّاحٌ، فَسَحَابٌ، فَمَطَرٌ، فَجَرَيَانٌ، فَرِزْقٌ، وَعَلَى الْحَافَةِ، وَقَفَ حَيْبُ الدُّنْيَا يَنْظُرُ إِلَى السَّاقِيَةِ وَهِيَ تَغْنِي بِنِعْمَةٍ هَادِيَةٍ، ثُمَّ هَمَسَ بِمَا يَشْبَهُ الْإِعْتِرَافَ: «إِذَا، لَا رِبْحَ يَدُومُ بِلا سِلْسِلَةٍ تَحْفَظُ بَعْضَهَا بَعْضًا.» فَابْتَسَمَ جَابِرٌ وَقَالَ وَهُوَ يُثَبِّتُ فِي دَفْتَرِهِ آخِرَ سَطْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: «مَنْ أَحْتَرَمَ الرِّبَاطَ بَيْنَ الْأُمُورِ، أَمِنَ الْفُسَادَ فِي الْأَطْرَافِ، وَرَجَعَ كُلُّهُ إِلَى نَصِيهِهِ بِمِقْدَارٍ عَدْلٍ.» ثُمَّ أَطْبَقَ الدَّفْتَرَ، وَفِي الْهَوَاءِ بَقِيَ صَدَى الْآيَةِ يَدُلُّ السَّائِرِينَ:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنُكُمُوهُ﴾ (الْحَجَرِ:

الدَّرْسُ الرَّابِعُ: مِيزَانُ الْكَلِمَةِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَلَطَّفُ بِسَكِينَةٍ تَسْرِي كَمَا يَسْرِي الظُّلُّ عَلَى الصُّفُوفِ، وَسُرُوجُ الزَّيْتِ تُنْصَبُ خُيُوطًا مِنْ ضِيَاءٍ تَتَرَاوَعُ وَتَتَقَدَّمُ عَلَى الْجُدْرَانِ كَأَنَّهَا أَمْوَاجُ نَهْرٍ خَفِيٍّ. تَوَسَّطَ الْأَمَامُ الْحَلَقَةَ، وَجَارِبٌ إِلَى يَمِينِهِ يُقَلِّبُ دَفْتَرَهُ بِأَصَابِعِ مَشُوقَةٍ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُثَبِّتُ نَظْرَهُ فِي فَرَاغٍ بَيْنَ الْأَكْفِ كَأَنَّهُ يَرَى فِيهِ سُلَمًا مِنْ حُجَجٍ يَتَرَقَّاهَا، وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَمْسَحُ بِحَاجِبِهِ أَثَرُ غُبَارِ الطُّرُقِ، وَعَاصِمُ الصَّنَاعِ يَفْرُكُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ كَمَنْ يَقِيسُ بِالْمَسِّ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ، وَلُبْنَى تَضُمُّ لَوْحَةً صَغِيرَةً عَلَيْهَا رَسْمُ قَنَاةٍ وَفُرُوعِهَا، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ يَتَطَلَّعُ إِلَى السَّقْفِ نَظْرَةً مَنْ يَتَحَسَّسُ مَوْضِعَ الرِّبْحِ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ الْحُجَّةَ.

أَمَالَ الْأَمَامُ كَفَّهُ خَفِيفًا، وَأُنْحَدَرَ صَوْتُهُ هَادِنًا ثُمَّ امْتَلَأَ وَقَارًا حِينَ تَلَا:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الْقَمَرِ: ٤٩).

كَانَتْ الْآيَةُ تَجْرِي فِي الْمَكَانِ كَمَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ الْأَوَّلَ فِي قَوْسٍ

عَظِيمٍ، فَيَنْحَدِرُ بَعْدَهُ كُلُّ حَجَرٍ إِلَى مَوْضِعِهِ. ثُمَّ شَاقَ السُّكُونُ بِنَبَرَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ
الْتَّعْجِيبِ وَالتَّفَرِيرِ: «هَذَا هُوَ مِيزَانُ الْكُلِّيَّةِ، بِهِ تَلْتَمِمْ مَوَازِينَ مَا تَقَدَّمَ: الْأَنْسِجَامُ
وَالْتَّنَاغُمُ وَالتَّرَابُطُ. كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ وَقَدَرٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّ "كُلَّ شَيْءٍ"
مَشْمُولٌ وَمَبْنِيٌّ عَلَى قَدَرٍ عَامٍّ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ وَيَمْنَعُ عَنِ الْعَقْلِ أَنْ يَضِلَّ فِي جُزْءٍ
فَيَنْقَطِعَ عَنِ الْكُلِّ».

مَالَتْ لُبْنَى بِجَسَدِهَا قَلِيلًا نَحْوَ الْحَلَقَةِ، وَأُورِقَ فِي عَيْنَيْهَا سُؤَالٌ عَمَلِيٌّ:
«أَيُّجِدِي أَنْ نُصْلِحَ مِثْلَ فَنَاءٍ هُنَا وَنُنْظِمَ السَّحْبَ وَالتَّعْوِيضَ هُنَاكَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ
لِكُلِّ ذَلِكَ قَدَرٌ عَامٌّ يَرَعَى حَقَّ الْبُسْتَانِ وَالْقَرْيَةِ مَعًا»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى صَدْرِهِ كَمَنْ يَرِبُطُ خَيْطًا بِخَيْطٍ: «السُّؤَالُ هُنَا يَأْخُذُنَا
إِلَى مَفَاتِحِ الْغَيْبِ. أَسْمَعِي:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا
تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا
يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩).

فَإِذَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مَحْفُوظًا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، فَالْشُّمُولِيَّةُ أَنْ تَرَى الْأَجْزَاءَ
فِي إِطَارٍ يَحْفَظُهَا كُلُّهَا، لَا أَنْ تُصْلِحِي فَرَعًا وَتَهْدِمِي أَصْلًا.»

وَهَمَسَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَرْسُمُ فِي الْهَوَاءِ خُطُوطًا تَلْتَقِي: «إِذَنْ فَهُوَ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

قَدَرُ عَامٍّ، تَدْخُلُ فِيهِ الْقَوَاعِدُ كُلُّهَا، فَيَسْتَقِيمُ دَلِيلُ الْعَقْلِ وَلَا يَتَنَاقَضُ.»

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ وَفِي صَوْتِهِ نَفْسُ تَثْبِيتٍ: «نَعَمْ، وَهُوَ مَا تَشْهَدُ لَهُ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ (الْمُلْكِ: ٣)،

و﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسْبَحُونَ﴾ (يَس: ٤٠).

فَالشُّمُولِيَّةُ لَيْسَتْ جَمْعًا لِأَشْيَاءٍ مُتَنَازِعَةٍ، بَلْ رُؤْيَا الْكُلِّ عَلَى نَسَقٍ
وَاحِدٍ، كَمَا تَرَى السَّاعَةَ الْعَظِيمَةَ لَا تَضِلُّ فِيهَا عَجَلَةٌ عَنْ أُخْتِهَا.»

تَقَدَّمَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ خُطْوَةً، وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ مِنْ رَاقِبِ مَسِيرِ
الْكَوَاكِبِ لِيَالِي طَوَالًا: «كُنْتُ أَعُدُّ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، فَأَجِدُهَا عَلَى وَتِيرَةٍ لَا تَخُونُ،
وَأَرَى الْفَجَرَ يَأْتِي بَعْدَ اللَّيْلِ وَلَا يُخْطِئُ مَوْعِدَهُ. هَلْ هَذِهِ هِيَ الشُّمُولِيَّةُ يَا سَيِّدِي»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يُتَابِعُ التَّلَاوَةَ:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (يُونُس: ٥).

فَقَدْ جُعِلَ الْحِسَابُ لِلْكَلِّ، لَا لِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، وَهَذَا هُوَ مِيزَانُ الْكُلِّيَّةِ فِي الزَّمَنِ.»

وَأَمَّا عَاصِمُ الصَّانِعِ فَقَدْ أَخْرَجَ شَرِيحَةَ حَدِيدٍ صَغِيرَةً، وَقَالَ وَهُوَ يُحَرِّكُهَا بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ كَمَنْ يَسْتَحْضِرُ ذِكْرَى الْكَبِيرِ وَأَنْفَاسَهُ: «كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْوَرِشَةِ قَائِمٌ عَلَى التَّجَرُّبَةِ وَحْدَهَا، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ «مِيزَانَ اللَّوْنِ» فِي الْحَدِيدِ يُلْحِقُ شُعْلَةَ النَّارِ بِأَوَانِ الطَّرْقِ؛ فَكُلَّمَا بَلَغَ الْحَدِيدُ حُدُودًا مَعْلُومَةً مِنْ حُمْرَةٍ وَلَيُونَةٍ نَفَعَ الضَّرْبُ، وَإِلَّا فَسَدَ. فَهَلْ هَذَا أَيْضًا مِنَ الشُّمُولِيَّةِ»

فَاطَرَقَ الْإِمَامُ رَأْسَهُ ثُمَّ رَفَعَهُ وَعَلَى وَجْهِهِ بَشَاشَةُ التَّقْرِيرِ: «نَعَمْ، لِأَنَّ الشُّمُولِيَّةَ تُخْرِجُ أَقَاعِدَةً مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى الْوَرِشَةِ، وَمِنَ السَّمَاءِ إِلَى السُّوقِ، فَتَرَى الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ. وَهَذَا يَشْهَدُ لَنَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٩).

فَمَنْ أَقَامَ الْمِيزَانَ فِي كُلِّ أَبْوَابِهَا، فَقَدْ أَتَى الشُّمُولَ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ.»

عِنْدَهَا تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا بِوَجْهِ قَدْ لَانَتْ فِيهِ حِدَّةُ الْعَجَلَةِ، وَقَالَ وَهُوَ يَسْتَفْهِمُ كَأَنَّهُ يَكْشِفُ الْمَعْنَى بَعْدَ تَرَدُّدٍ: «أَكُلُّ هَذَا لِأَجْلِ صَنْعِ سَيْفٍ وَسَقْيِ أَرْضٍ أَلَا يَكْفِينَا أَنْ نُحْسِنَ الضَّرْبَ وَالسَّقْيَ فَتَرْبَحَ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَتَقَدَّمَ الْإِمَامُ خُطْوَةً، وَأَلْقَى بَصَرَهُ عَلَى الْوُجُوهِ جَمِيعًا كَمَنْ يَجْمَعُهَا فِي عَقْدٍ وَاحِدٍ: «إِنَّمَا نَحْنُ نَصْنَعُ سَيِّفًا عَلَى مِيزَانٍ، وَنَسْقِي أَرْضًا عَلَى مِيزَانٍ، لِأَنَّ الْأَصْلَ هُوَ هَذَا: «الْوَحْدَةُ» الَّتِي لَا تَتَنَاقَضُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢)،

وَقَالَ:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الْإِخْلَاصُ: ١).

فَلَوْ اخْتَلَفَ الْمَرْجِعُ لاختَلَّ الْقِيَاسُ، وَلَوْ تَعَدَّدَتِ الْقَوَاعِدُ الْأُولَى لَمَا التَّامَّتِ الصَّنَاعَاتُ وَلَا الْأَسْوَاقُ وَلَا الْحُقُولُ. الشُّمُولِيَّةُ هِيَ مِيزَانُ الْأُصُولِ: أَنْ تَرْجِعَ الْجُزْئِيَّاتُ إِلَى أَصْلِ يَحْمِلُهَا، فَيَسْلَمَ لَكَ الْعَقْلُ فِي حُجَّتِهِ، وَالْيَدُ فِي عَمَلِهَا.

وَكَانَ «جَابِرًا» سَمِعَ فِي الْكَلِمَاتِ نَقَرَ قَلْبِهِ، فَقَرَّبَ دَفْتَرَهُ وَخَطَّ فِي أَعْلَاهُ: «الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ بَحْثٌ عَنِ الْقَوَاعِدِ الشَّامِلَةِ الَّتِي تَضُمُّ التَّفَاصِيلَ فَلَا تَتَبَدَّدُ». ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي صَوْتِهِ لَهْفَةٌ الْمُتَعَلِّمِ: «أَتَعِدُّنَا يَا سَيِّدِي أَنْ نَبْلُغَ مِنْ هَذِهِ الشُّمُولِيَّةِ قَدْرًا نَعْرِفُ بِهِ أَيْنَ نَضْعُ كُلَّ شَيْءٍ»

فَأَوْمَأَ الْإِمَامُ وَيَدُهُ تَتَسَمُّ بِرَفْقٍ يُثَبِّتُ الْعَزَمَ: «إِذَا أَقَمْتُمْ الْأُمُورَ عَلَى قَدْرِهَا

عَمَّ الْحُسْنُ. وَأَسْمَعُوا خَاتِمَةً تَشْدُقُ قَلْبَ الدَّرْسِ:

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رُؤْسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٌ﴾
(الْحَجَرِ: ١٩).

«كُلُّ شَيْءٍ مَّوْزُونٌ» هُنَا تَشْهَدُ لِلشُّمُولِ؛ لِأَنَّ الْمِيزَانَ إِذَا عَمَّ الْأَصْلَ،
انْقَادَتْ لَهُ الْفُرُوعُ فِي الْحَقْلِ وَالسُّوقِ وَالْوَرْشَةِ.

وَبَيْنَمَا الْأَنْفَاسُ تَخْفُ وَالْأَبْصَارُ تَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْوُجْهِ الْوَاقِفِ وَالْأَمْثَلَةِ
الْمُتَنَازِرَةِ، جَمَعَ الْإِمَامُ كُلَّ مَا مَضَى فِي قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَنْ يَشْدُ خِيوطَ ثَوْبٍ
عَلَى مِغْزَلٍ: «أَلَا تَرَوْنَ السَّاقِيَةَ حِينَ قَسْنَا مِيْلَهَا، وَالْحَدِيدَ حِينَ سَمَيْنَا لَهُ لَوْنًا،
وَالرِّيَّاحَ حِينَ رَبَطْنَاهَا بِالْغَيْوَمِ، وَالْقَمَرَ حِينَ عَدَدْنَا مَنَازِلَهُ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَجْرِي
عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ يَحْمِلُهَا جَمِيعًا. فَلَا يَكْتَفِي الْعَقْلُ أَنْ يَصِفَ جُزْءًا، حَتَّى يَرَاهُ فِي
مَكَانِهِ مِنَ الْكُلِّ. وَذَلِكَ هُوَ مِيزَانُ الْكُلِّيَّةِ».

ثُمَّ جَرَى صَوْنُهُ فِي الْمَكَانِ كَمَا يَجْرِي النَّسِيمُ فِي حُقُولِ الزَّرْعِ: «وَلَا
تَحْسَبُوا الشُّمُولَ قَوْلًا يُتَلَّى ثُمَّ يُطْوَى. بَلْ هُوَ عَهْدٌ: أَنْ تَكْتُبُوا «صَحَائِفَ
الشُّمُولِ» لِلْحَقْلِ وَالسُّوقِ وَالْوَرْشَةِ؛ جَدَاوِلَ تُثَبِّتُ الْأَوْزَانَ وَالْكَيْلَ وَالْمَوَاقِيتَ
عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ، لَا يُهْمَلُ فِيهَا طَرَفٌ وَلَا يُقْصَى فِيهَا حَقٌّ. وَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ
الْجُزْئِيَّاتِ فَارْجِعُوا إِلَى الْأَصْلِ، فَإِنَّ الْأَصْلَ يَجْمَعُهَا عَلَى سَبِيلٍ وَاحِدٍ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَكَأَنَّهُ يُسَدِّلُ السُّتَارَةَ بِرَفْقٍ، تَلَا خِتَامًا يُثَبِّتُ الْبَدْءَ:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الْحَدِيدِ: ٣)،

ثُمَّ اتَّبَعَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النَّحْلِ: ٩٠).

ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَمْسُحُ بَصَرَهُ عَلَى الْحَلَقَةِ كَمَنْ يَقْطُرُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ:
«الْعَدْلُ قَلْبُ الشُّمُولِ، فَإِذَا قُمْنَا بِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، الظَّاهِرِ
وَالْبَاطِنِ، قَامَ الْكَوْنُ فِي أَعْيُنِنَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَهْلٌ عَلَى الْعَقْلِ أَنْ يُقِيمَ
حُجَّتَهُ بِدُونِ تَنَاقُضٍ.»

عِنْدَ الْمَخْرَجِ كَانَ الضُّوءُ يَتَمَدَّدُ فِي الْأَزْفَةِ كَأَنَّهُ نَهْرٌ مِنْ ذَهَبٍ صَافٍ.
لُبْنَى تُدَوِّنُ عَلَى لَوْحَتِهَا «قَدْرُ السَّحْبِ وَقَدْرُ التَّعْوِيضِ» لِتَسْلِمَ الْقَرْيَةَ كُلَّهَا،
وَعَاصِمُ يَعُدُّ لِلْحَدِيدِ أَلْوَانَهُ وَأَوَانَهُ لِكَيْ لَا يَخُونَهُ مِسْمَارٌ وَلَا تَنْكَسِرَ سَيْفٌ،
وَصَفْوَانُ يَرْفَعُ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ يُتَابِعُ مَنَازِلَ الْقَمَرِ عَلَى مِيزَانٍ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ
يَجْمَعُ حُجَجَهُ فِي سِلْسِلَةٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَضْعُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ كَأَنَّهُ
يَسْمَعُ دَقَّةَ جَدِيدَةٍ، ثُمَّ يَهْمِسُ بِصَدَى مُقَرَّرٍ: «إِذَا، كُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ، وَمَا أُرِيدُهُ
مِنْ رِيحٍ لَا يَدُومُ إِلَّا إِذَا دَخَلَ فِي قَدَرِ الْكُلِّ، كُلُّ شَيْءٍ.»

وَتَرَكَ الْإِمَامُ خَلْفَهُ كَلِمَةً تَمْشِي مَعَهُمْ فِي الطُّرُقَاتِ كَأَنَّهَا نَفْسٌ رَبِيعٌ لَا يَنْفَطِعُ: «إِذَا جَمَعْتُمْ الْأَشْيَاءَ عَلَى قَدَرِ الْكُلِّ، بَانَ لَكُمْ الطَّرِيقُ فِي كُلِّ فَرْعٍ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْكُلَّ عَلَى مِيزَانٍ، صَلَحَتِ الْجُزْئِيَّاتُ بِلا كَلْفٍ. هَذَا هُوَ مِيزَانُ الْكُلِّيَّةِ؛ أَصْلُ الْمَوَازِينِ، وَعَقْدُهَا الَّذِي لَا يَنْفَصِمُ.»

المَحْوَرُ الثَّانِي: صَيْدُ الْحَقِيقَةِ

يَفْتَحُ هَذَا الْمَحْوَرُ رِحْلَةَ الْعَقْلِ فِي طَلَبِ الصَّوَابِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ السُّؤَالُ إِلَى شَبَكَةٍ، وَالْمُلاحَظَةُ إِلَى سَهْمٍ، وَالْإِخْتِبَارُ إِلَى مِيزَانٍ، فَتَعَقُّبُ أَثَارِ الْحَقِّ فِي الْأَشْيَاءِ كَمَا يَتَعَقَّبُ الصَّيَّادُ أَثَرَ الْفَرَسَةِ. لَا نَبْتَغِي مَعْرِفَةً تَسْتَسْلِمُ لِالْظُّنُونِ، وَلَا يَقِينًا يَغْلُقُ أَبْوَابَ التَّصَدِيقِ وَالتَّصْوِيبِ؛ بَلْ نَطْلُبُ حَقِيقَةً تَتَأَكَّدُ بِتَعَاوُضِ الْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ، وَتَتَقَوَّى بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّجَرُّبَةِ، وَتَنْقَادُ لِمِيزَانِ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ وَالنَّظَرِ.

سَنَرَسُمُ خُطُوطَ الصَّيْدِ فِي خَمْسِ آيَاتٍ: سُؤَالٌ مُبْصِرٌ يُحَدِّدُ الْغَايَةَ، وَمُلاحَظَةٌ أَمِينَةٌ تَجْمَعُ الْأَثَارَ، وَفَرْضٌ مُحْكَمٌ يُنْظِمُ الْمَعَانِي، وَإِخْتِبَارٌ قَاطِعٌ يُمَيِّزُ بَيْنَ الثَّابِتِ وَالزَّائِلِ، ثُمَّ بَيَانٌ صَادِقٌ يُؤَدِّي الْمَعْرِفَةَ حَقَّهَا فِي التَّحْقِيقِ وَالْإِبْلَاجِ. وَفِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ نُقِيمُ لِاخْتِلَافِ الطَّلَبِ مَقَامَهَا: الْأَمَانَةُ فِي الْجَمْعِ، وَالتَّحَرُّرُ مِنَ الْهَوَى، وَالتَّوَاضُّعُ لِلْحَقِّ إِنْ تَبَيَّنَ، وَالشَّجَاعَةُ عَلَى الْمُرَاجَعَةِ إِنْ ظَهَرَ الْخَلَلُ.

هُنَا نَزَاوِجُ بَيْنَ «مَوَازِينِ الْكَلَامِ» الَّتِي تُقَوِّمُ الدَّلَالََةَ وَتَضْبِطُ الْإِحْتِجَاجَ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

و«مَوَازِينَ التَّجَرُّبَةِ» الَّتِي تُفَرِّزُ الصَّحِيحَ مِنَ الْفَاسِدِ فِي الْوَاقِعِ، لِنَبْيٍ طَرِيقًا يَرْبِطُ
مَا نَقُولُهُ بِمَا نَرَاهُ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ نُورِ الْفِطْرَةِ وَحُجَّةِ الْعَقْلِ، حَتَّى نَبْلُغَ، بِإِذْنِ اللَّهِ،
مَا تُطْمَئِنُّ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَتَقُومُ بِهِ الْحَضَارَةُ عَلَى قِسْطٍ وَبَصِيرَةٍ.

الفصل الأول: قلعة البرهان والأطمئنان

تَفْتَحُ هَذِهِ الْقَلْعَةُ أَبْوَابَهَا لِمَنْ يَطْلُبُ صِدْقَ الدَّعْوَى بِصِدْقِ الدَّلِيلِ، فَلَا مَقَامَ فِيهَا لِلتَّخْمِينِ وَلَا مَنْزِلَ لِلتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى. هُنَا نَسْمَعُ نِدَاءَ الْكِتَابِ:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)،

فَنَجْعَلُ «الْبُرْهَانَ» مِيزَانًا يَفْصِلُ بَيْنَ الدَّعْوَى وَالْحَقِّ، وَنَتَأَدَّبُ بِحَدِّ الْحَقِّ الْمُحْكَمِ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الأنعام: ٣٦)،

فَلَا نَتَّبِعْ أَثَرًا بِلا بَيِّنَةٍ، وَلَا نُثَبِّتُ حُكْمًا بِلا شَهَادَةٍ.

وَبَيْنَ يَدَيِ الْبُرْهَانِ تَقُومُ حَاجَةُ الْقَلْبِ إِلَى الطَّمَأْنِينَةِ، فَنُسْتَهْدِي كَلِمَةَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لِنَعْلَمَ أَنَّ كَمَالَ الْمَعْرِفَةِ أَنْ تَجْتَمَعَ فِيهَا بَصِيرَةُ الْعَقْلِ وَسُكُونُ الْقَلْبِ. فَهَذَا الْفَصْلُ يَضَعُ «الْمَوَازِينَ» الَّتِي تَحْرُسُ الدَّلَالََةَ وَتُقِيمُ الْحُجَّةَ: مِيزَانُ التَّصَوُّرِ لِتَحْدِيدِ الْمَعَانِي، وَمِيزَانُ التَّصَدِيقِ لِتَمْيِيزِ الثَّابِتِ مِنَ الزَّائِلِ، وَمِيزَانُ الْإِخْتِبَارِ لِتَصَدِيقِ الدَّعَاوَى فِي الْوَاقِعِ، ثُمَّ مِيزَانُ الْبَيَانِ لِإِدَاءِ الْحَقِّ كَمَا هُوَ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَسَنَمْضِي، فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ، عَلَى خُطُوبَاتِ أَرْبَعٍ: دَعَايُ تُصَاغُ بِالْوُضُوحِ، فَيَبِينَةُ تُقَامُ بِالْأَمَانَةِ، فَإِخْتِبَارُ يُنْصَفُ وَلَا يَتَعَسَّفُ، ثُمَّ طُمَأْنِينَةُ تُوَافِقُ الْعَقْلَ وَالْفِطْرَةَ. وَبِهَذِهِ الْمَوَازِينِ يَصِيرُ «الْبُرْهَانُ» حِصْنًا، وَ«الْإِطْمِئْنَانُ» ثَمَرَةً، فَنَخْرُجُ مِنْهَا بِعِلْمٍ صَافٍ، وَقَلْبٍ سَاكِنٍ، وَحُكْمٍ يَقُومُ عَلَى الْقِسْطِ وَالْبَصِيرَةِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: الْإِدْعَاءُ وَطَلَبُ الْبُرْهَانِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَنَفَّسُ سَكِينَةً كَأَنَّهُ صَدْرٌ وَاذِ تُظِلُّهُ سَحَابَةٌ رَاحِلَةٌ، وَتَدَلَّى مِنَ الرِّوَاقِ أَظْلَةٌ رَقِيقَةٌ تُنْضِجُهَا سُرُوجُ الزَّيْتِ بِنُورٍ خَفِيفٍ يَلْتَمِعُ عَلَى الْأَعْمَدَةِ كَأَنَّهُ خَيْطُ فَجَرٍ مَبْسُوطٌ. الْحَلَقَةُ مُسْتَدِيرَةٌ كَسِوَارٍ مِنْ إِنْصَاتٍ، وَالْوُجُوهُ مُقْبِلَةٌ كَأَنَّهَُا حَبَابٌ تَسْتَعِدُّ لِعَقْدٍ جَدِيدٍ. تَحَرَّكَ الْإِمَامُ حَرَكَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ صَوْتَهُ عَلَى مَهَلٍ، فَانْسَابَتِ الْآيَةُ كَالْمَاءِ عَلَى صَفْحَةِ الصَّخْرِ:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١١١).

سَكَتَ سُكُوتَ مَنْ يُمَهِّلُ الْقُلُوبَ لِتَشْرَبَ، ثُمَّ مَالَ بِوَجْهِهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ مِيلَةً رَفِيقًا، وَقَالَ وَنَبَرْتُهُ تَحْمِلُ وَقَارَ التَّكْلِيفِ: «هَذِهِ كَلِمَةُ الْبَابِ. لَا يَقُومُ قَوْلٌ فِي الْحَقِّ إِلَّا عَلَى بَيِّنَةٍ، وَلَا يَثْبُتُ دَعْوَى فِي الْعَمَلِ إِلَّا عَلَى دَلِيلٍ. فَمَنْ طَلَبَ الصَّدَقَ بِغَيْرِ بُرْهَانٍ، كَمَنْ يَقِيسُ بِمِيزَانٍ مَائِلٍ وَيَرْجُو الْقِسْطَ.»

أُنْحَنَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ نَحْوَ الْمَجْلِسِ، وَثَبَّتَ فِي عَيْنَيْهَا بَرِيقُ الْبَاحِثِ الَّذِي لَا يُسَلِّمُ إِلَّا بِنَصٍّ أَوْ بَيِّنَةٍ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ صَوْتَهَا مُهَنْدَسًا كَسَهْمٍ لَطِيفٍ: «أَيُّهَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

السَّيِّدُ، قَدْ اخْتَلَفَ الْقَوْمُ فِي دَعْوَى طَرَحَهَا بَعْضُ التُّجَّارِ، يَقُولُونَ: يَصْلُحُ أَنْ نُقَدِّمَ الرِّبِّيَّ لِحَقْلِ مِنَ الْقَصَبِ لِرِبْحٍ قَرِيبٍ، وَنَدَعَ حُقُولَ الْقَمْحِ إِلَى بَعْدٍ. فَمَا الْبُرْهَانُ وَبِمَاذَا نَحْكُمُ؟

تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ فِي مَجْلِسِهِ كَمَنْ يَسْتَعْجِلُ الثَّمَرَةَ قَبْلَ أَوَانِهَا، وَنَفَضَ كَفَّهُ أَلْيَمْنَى وَفِي الْأُخْرَى حِسَابٌ سَرِيعٌ: «أَدْعُوا التَّفْصِيلَ لِأَهْلِهِ، الْأَذْوَاقُ تَحْكُمُ، وَالرِّبْحُ إِذَا حَصَلَ شَهِدَ لِنَفْسِهِ. مَا لَنَا وَهَذَا الْبُرْهَانُ الْعَسِيرُ؟»

يَخْفِقُ الْهَوَاءُ بَيْنَ الْقُبَّةِ وَالْأَعْمَدَةِ، وَتَمُدُّ «الرَّيْنَبُ» طَرَفَ النَّظَرِ نَحْوَ حَبِيبٍ كَمَنْ يَسْتَعْلِمُ لَا كَمَنْ يَجْهَرُ، ثُمَّ تَرْجِعُ بِالْوَجْهِ إِلَى الْإِمَامِ. وَهُنَاكَ يَرْتَفِعُ صَوْتُ الْإِمَامِ رَقِيقًا ثُمَّ يَمْتَلِئُ قُوَّةً، وَهُوَ يَتْلُو:

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

ثُمَّ يُتَابِعُ بِصَوْتٍ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَدَرٍ: «اللَّهُ يَطْلُبُ الْبَيِّنَةَ لِلدَّعْوَى، وَيَنْهَى عَنِ الْمَجَازَفَةِ فِي الْحُكْمِ. أَمَا تَسْمَعُونَ؟»

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الأنعام: ٣٦)،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَالْتَبَيَّنُ حِرْفَةُ الْقَلْبِ الَّذِي يُرِيدُ الْحَقَّ، وَالْبُرْهَانَ مِيزَانُ الدَّعْوَى.»

فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الْحَلْفَةِ، كَانَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُفْرِدُ رَقِيمًا دَقِيقَ
الْخُطُوطِ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَفِي الْجَبِينِ خُطُوطٌ تَفْكِيرٍ: «إِذَا نَزَّتْ أَلَمْرُ عَلَى
سُلَمٍ، يَتَقَدَّمُهُ الدَّعْوَى، وَيَتَّبِعُهُ الدَّلِيلُ، ثُمَّ تُسْتَنْتَجُ النَّتِيجَةُ. فَإِنْ سَقَطَ الدَّلِيلُ
سَقَطَ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ. وَمَنْ دَعَا بِغَيْرِ بُرْهَانٍ، فَقَدْ أَحَالَ الْعَقْلَ إِلَى الْخَرَصِ.»

تَلَمُّعُ عَيْنَا جَابِرٍ كَمَنْ وَجَدَ طَرِيقًا وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ جِسْرًا لِلْعَمَلِ، فَيَمِيلُ
بِحِسْمِهِ قَلِيلًا نَحْوَ الْإِمَامِ، وَيُنْطِقُ الْحَرْفَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الْحَزْمِ وَالتَّوَقُّعِ: «وَكَيْفَ
نُقِيمُ الْبُرْهَانَ فِي الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ، يَا سَيِّدِي أَنْسَمِّي الْخُطُوبَاتِ، ثُمَّ نُعِيدُهَا، فَإِذَا
تَكَرَّرَتِ النَّتِيجَةُ ثَبَتَ الدَّلِيلُ»

تَمُرُّ فِي الْمَجْلِسِ هَزَّةٌ رِضًا، وَيَوْمِي الْإِمَامُ إِيْمَاءً مَنْ يُثْبِتُ الْأَصْلَ:
«هَكَذَا. لِلْبُرْهَانِ أَبْوَابٌ: نَصٌّ صَرِيحٌ، وَعَقْلٌ صَرِيحٌ، وَتَجَرُّبَةٌ تُعَاوَنُهُمَا. أَلَا
تَسْمَعُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾

(الْقَصَصِ: ٤٩)،

وَقَوْلَهُ:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ (الأنبياء: ٢٤).

فَالطَّلَبُ مُسْتَمِرٌّ، وَالْبَيِّنَةُ شَرْطٌ، وَالِدَّعْوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ كَصَوْتٍ يَخْتَلِسُهُ الرِّيحُ.

وَكَأَنَّ الْحَلَقَةَ تَحَوَّلَتْ إِلَى مَسَرَحٍ صَغِيرٍ يَدُورُ فِيهِ الْقَوْلُ مَعَ الْفِعْلِ؛ فَقَدْ نَهَضَ الْإِمَامُ، وَأَشَارَ إِلَى الْبَابِ، وَاتَّبَعَهُ الْقَوْمُ. عِنْدَ السَّاقِيَةِ، أَوْمًا لَزِينَبَ أَنْ تَرْسُمَ فِي التُّرْبَةِ خَطًّا يَدُلُّ عَلَى مِيلٍ قَلِيلٍ، ثُمَّ مَالَ نَحْوَ حَيِّبٍ وَفِي الْعَيْنِ مُبْتَسِمٌ لَا يَنْقُصُهُ الْحَزْمُ: «تَدَّعِي أَنَّ الزِّيَادَةَ لَا تُفْسِدُ هَلُمَّ نَبْتَلِي». أَمَرَ بِزِيَادَةِ الْمِيلِ قَدْرَ شِعْرَةٍ، فَانْدَفَعَ الْمَاءُ أَسْرَعَ، ثُمَّ رَأَى الْجَانِبَ يَتَنَاهَشُهُ الْمَوْجُ وَيَقْضِمُ مِنْهُ طِينًا. يَرْفَعُ الْإِمَامُ كَفَّهُ: «هَذِهِ بَيِّنَةٌ لِلْمِيلِ الَّذِي يُفْسِدُ. وَالْحُكْمُ يَقَامُ عَلَى مَا شَهِدْنَا، لَا عَلَى مَا نَتَمَنَّى». ثُمَّ أَشَارَ أَنْ يُرْجَعَ الْمِيلُ إِلَى قَدْرِهِ الْأَوَّلِ، فَهَذَا الْمَجْرَى وَاسْتِقَامَ الْعُودُ الْمَغْرُورُ عَلَى الْحَافَةِ.

مِنْ هُنَالِكَ انْتَقَلُوا إِلَى السُّوقِ، وَأَصْوَاتُ الدَّلَالِينَ تَمُوجُ بَيْنَ الدُّكَّانِينَ. تَقْدَّمَ الْإِمَامُ إِلَى مِيزَانٍ مَالَتْ كِفَّتَاهُ، وَنَظَرَ إِلَى صَاحِبِهِ نَظْرَةً فِيهَا رِفْقٌ وَعَدْلٌ، ثُمَّ نَاقَلَهُ حَبَّاتٍ قَلِيلَةً وَقَالَ بِنَبَرَةٍ تُشَبِّهُ لَمَسَ الْإِثْرَةِ: «زِدْ فِي الْمِيزَانِ قَدْرَ مَا نَقَصْتَ بِغَيْرِ عِلْمٍ». فَلَمَّا اسْتَوَتْ الْكِفَّتَانِ، أَلْتَفَتَ إِلَى الْحَلَقَةِ: «هَكَذَا يَظْهَرُ الْبُرْهَانُ فِي الْمُعَامَلَةِ: رُؤْيَا تَصْلِحُ وَقَدْرٌ يَعْدِلُ، ثُمَّ حُكْمٌ يَنْطِقُ». وَتَلَا وَهُوَ يُثَبِّتُ الْمَعْنَى

مِيزَانُ الْيَمِينِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنِ

فِي السُّوقِ كَمَا ثَبَتَهُ فِي السَّاقِيَةِ:

﴿وَأَوْفُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَقَدْ أَنْكَشَفَتْ لِرَيْنَبِ صُورَةِ الدَّعْوَى تَسِيرٌ إِلَى
مِيزَانِهَا كَمَا يَسِيرُ الْمَاءُ إِلَى مَجْرَاهُ. مَالَتْ بِقَلَمِهَا عَلَى الدَّفْتَرِ وَسَطَّرَتْ: «الدَّعْوَى
تُطَالَبُ بِالذَّلِيلِ، وَالذَّلِيلُ يُطَالَبُ بِالتَّيْبِينِ، وَالتَّيْبِينُ يُطَالَبُ بِإِعَادَةِ تَرْفَعِ الظَّنِّ إِلَى
يَقِينٍ».

وَفِي الطَّرَفِ يَهْمِسُ جَابِرٌ لِنَفْسِهِ كَمَنْ يَزْرَعُ بَذْرًا فِي تُرْبَةٍ رَطْبَةٍ:
«سُنْسَمِي الْخُطُواتِ، وَنَقِيدُ الْمَوَاقِيتِ، وَنَسْجُلُ مَا نَرَى، فَإِذَا تَكَرَّرَتِ النَّتِيجَةُ
ثَبَتَ الْبُرْهَانُ».

هُنَا يَسْتَأْذِنُ حَبِيبُ الدُّنْيَا، وَفِي النَّبَرَةِ بَقَايَا عَجَلَةٍ تَلِينُ: «أَفَلَا يَكْفِينَا
الظَّنُّ الْغَالِبُ فَقَدْ نَرَى الرَّبَّ يَقُومُ بِأَقْلٍ مِنْ هَذَا التَّدْقِيقِ». فَيَمُدُّ الْإِمَامُ الْكَلِمَةَ
كَمَنْ يَضَعُ يَدًا عَلَى كَتِفٍ: «الظَّنُّ مَنْزِلَةٌ فِي الطَّرِيقِ لَا غَايَةَ. مَنْ وَقَفَ عِنْدَهُ
ضَاعَ فِي مَفَازَةٍ، وَمَنْ جَعَلَهُ جِسْرًا إِلَى الْبَيِّنَةِ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلَا تَسْمَعُ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَرِ: ٩).

فَالْعِلْمُ شَرَفُ الْقَوْلِ، وَالْبُرْهَانُ مُفْتَاخُهُ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

تَشْدُ زَيْنَبُ الْخَيْطَ إِلَى مَوْضِعِهَا، وَتُشِيرُ بِقَلَمِهَا إِلَى مُسَآلَةٍ طَبِيبَةٍ دَارَ فِيهَا الْخِلَافُ: «هَذَا دَوَاءٌ يَدَّعِي صَاحِبُهُ أَنَّهُ يَشْفِي الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا. فَمَا الْبُرْهَانُ»

يَفْتَحُ الْإِمَامُ لَهَا بَابَ التَّجَرُّبَةِ عَلَى قَدَرٍ: «تُسَمَّى الْجَرَاعَاتُ، وَتُحْفَظُ الْأَوْقَاتُ، وَتُرَاعَى الْمَقَادِيرُ، ثُمَّ تُقَابَلُ النَّتَائِجُ كَمَا تُقَابَلُ الْكِفَتَانِ. فَإِنْ تَشَابَهَتِ الْخُرُوجَاتُ عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ، قُرْبُ الْحُكْمِ وَصَحَّ الدَّلِيلُ، وَإِلَّا فَالِدَعْوَى أَحَقُّ بِالرَّفْضِ».

وَيَلْتَفِتُ إِلَى الْحَلَقَةِ كُلِّهَا، وَيَبْسُطُ كَفَّهُ كَأَنَّهُ يَضَعُ خُرْطُوشَةَ مِيزَانٍ: «أَجْعَلُوا لِدَعَاوِيكُمْ صَحَائِفَ: تُكْتَبُ فِيهَا الدَّلَائِلُ، وَتُثَبَّتُ الشُّرُوطُ، وَتُذَكَّرُ مَوَاقِعُ النَّظَرِ وَمَوَاقِفُ الشَّهَادَةِ. فَإِذَا سُئِلْتُمْ قُلْتُمْ: هَذَا بُرْهَانُنَا. وَاذْكُرُوا مَعِيَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ إِنَّمَا الْبَيِّنَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٠٩)،

وَنَحْنُ نَطْلُبُهَا بِمَا آتَانَا مِنْ عَقْلِ وَتَجَرُّبَةٍ وَأَمَانَةٍ».

تَخْتِمُ الْحَلَقَةَ عَلَى هَيْبَةٍ خَاتِمَةٍ تُشَبِّهُ سُكُونَ الرِّيحِ بَعْدَ مَطَرٍ نَافِعٍ. يَرْفَعُ الْإِمَامُ صَوْتَهُ آخِرَ الْكَلَامِ وَفِي نَبَرَتِهِ نُصْجُ التَّقْرِيرِ: «الْبُرْهَانُ لَيْسَ زِينَةً لِلْقَوْلِ، بَلْ هُوَ شَرْطُ التَّعَقُّلِ وَمِيزَانُ الصِّدْقِ. مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدَّعْوَى بِصَوْتِهَا، بَلْ سَأَلَ: أَيْنَ دَلِيلُهَا وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْأَقْوَالُ رَجَعَ إِلَى الْمِيزَانِ

اللَّذِي لَا يَخُونُ. وَالشَّعَارُ الْبَاقِي فَوْقَ رُءُوسِنَا:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)،

و﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

فَمَنْ أَمْتَثَلَ هَذَا الْأَمْرَ، أَقَامَ لِقَوْلِهِ شَرْفًا، وَلِعَمَلِهِ إِتْقَانًا، وَلِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا قِسْطًا يَسْعُهُمَا كِلَيْهِمَا.

تَنْفَضُّ الْحَلَقَةُ، وَفِي الصُّدُورِ صَدَى يَكْبُرُ كُلَّمَا عَادَتِ الْعَيْنُ تَقْرَأُ مَا كَتَبَ: «صَحَائِفُ الْبُرْهَانِ» تَتَكَوَّنُ، وَمَوَاقِيتُ التَّجَرُّبَةِ تُسَمَّى، وَأَوْزَانُ الدَّلِيلِ تُقَاسُ كَمَا تُقَاسُ الْحَبَّةُ فِي الْمِيزَانِ. وَجَابِرٌ يَضُمُّ دَفْتَرَهُ مُبْتَسِمًا: «سَاجِرٌ وَأُعِيدُ وَأُفِيدُ، فَإِذَا صَحَّ الْخُرُجُ شَهِدَ لِلنَّيِّجَةِ، وَإِلَّا سَقَطَتِ الدَّعْوَى.» وَزَيْنَبُ تَسْطُرُ فَوْقَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى: «لَا قَبُولَ لِقَوْلٍ بَغَيْرِ بُرْهَانٍ، وَلَا عَمَلَ بِغَيْرِ تَبَيِّنٍ، وَلَا قِسْطَ بِغَيْرِ مِيزَانٍ.» وَفِي طَرَفِ الْمَشْهَدِ، يَمْضِي حَبِيبُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ وَجْهًا، كَأَنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَهَا تَرْنُ خُطُواتِهِ فِي الشُّوقِ: «سَأَطْلُبُ الرَّبْحَ عَلَى بَيِّنَةٍ، لِأَلَّا يَكُونَ الرَّبْحُ خُسْرَانًا مُسْتَتِرًا.»

وَهَكَذَا يُخْتَمُ الدَّنَسُ عَلَى قَاعِدَةٍ جَامِعَةٍ: الْأَدْعَاءُ يَسْتَدْعِي الْبُرْهَانَ، وَالْبُرْهَانُ شَرْطُ التَّعَقُّلِ، وَالْأَقْلَبُ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَقَّ يَعْرِفُ طَرِيقَهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْفِتَاحِيَّةِ الَّتِي تَبْقَى عَلَى بَابِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مَنْطِقُ الدَّلِيلِ وَخَطَرُ الظَّنِّ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَلَطَّفُ بِسُكُونٍ يَسِيرٍ، كَأَنَّ الْهَوَاءَ يُمَشِّطُ
جَبِينَ الْحَجَرِ بِأَصَابِعِهِ الرِّفِيقَةِ، وَتَحْتَ الْقَبَابِ كَانَ ضَوْءُ سُورِجِ الزَّيْتِ يَتَرَاوَجُ
وَيَتَقَدَّمُ كَنَفْسٍ مُنْتَظِمٍ. انْعَقَدَتِ الْحَلَقَةُ عَلَى هَيْئَةٍ قَلْبٍ يَخْفِقُ، وَتَنَازَرَتِ أُلُجُوهُ
حَوْلَ الْإِمَامِ كَنُجُومٍ صَغِيرَةٍ تُصْغِي. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ رَفْعًا يَسْتَفْتِحُ الْبَصِيرَةَ، فَتَلَا
بِخُشُوعٍ يَنْسَابُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْمَاءِ عَلَى رَمْلِ رَطْبٍ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الْأَسْرَاءُ: ٣٦).

ثُمَّ أَسْدَلَ سُكُوتًا قَصِيرًا كَسِتَرٍ شَفَافٍ، وَمَالَ بِوَجْهِهِ مَيْلَةً رَفِيقًا نَحْوَ
الْقَوْمِ، وَقَالَ بِنَبَرَةٍ تَحْمِلُ وَقَارَ التَّكْلِيفِ: «مَنْهَجُ الْحَقِّ إِلَّا نَتَّبِعَ خُطَى لَا نُبْصِرُ
أَثَرَهَا، وَلَا نَأْخُذُ قَوْلًا لَا نَسْمَعُ بُرْهَانَهُ، فَالظَّنُّ رِيحٌ تُرْعِزُ الْبِنَاءَ إِذَا لَمْ يَشْدَهُ
الدَّلِيلُ.»

تَحَرَّكَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ فِي مَجْلِسِهِ، وَأَخْرَجَ رَقِيمًا دَقِيقَ الْخُطُوطِ، ثُمَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَسَنَدَهُ إِلَى رُكْبَتِهِ كَمَنْ يُقَارِبُ مِيزَانًا، وَقَالَ وَجِيبُهُ يَلْمَعُ بِسَكِينَةِ التَّرْتِيبِ: «إِنَّمَا يَتِمُّ الْيَقِينُ بِسُلْمٍ يَرْقَى فِيهِ الْعَقْلُ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ: مُقَدِّمَاتٌ صَادِقَةٌ، ثُمَّ رِبْطٌ مُحْكَمٌ، ثُمَّ نَتِيجَةٌ تَجِدُ مَوْضِعَهَا عَلَى الْقَلْبِ كَمَا تَجِدُ الْحَبَّةُ مَوْضِعَهَا فِي الْمِيزَانِ. فَإِنْ تَغَلَّبَ الظَّنُّ عَلَى أَحَدِ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ ارْتَجَحَ السُّلْمُ كُلُّهُ.» ثُمَّ لَمَسَ بِقَلَمِهِ طَرَفَ الرَّقِيمِ وَأَضَافَ مُحَذِّرًا: «وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يُونُسُ: ٣٦).

فَالظَّنُّ فِي مَوْضِعِ الدَّلِيلِ كَخَيْطٍ أَعْمَى يَقُودُ جَمَلًا مُبْصِرًا.»

وَعِنْدَ طَرَفِ الْحَلَقَةِ كَانَ جَابِرٌ يَمِيلُ بِقَلَمِهِ عَلَى دَفْتَرِهِ كَمَنْ يُثَبِّتُ وَتَدًا فِي تَرْبَةٍ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ، وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ لِمَعَةِ التَّجَرُّبَةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَرَى بِأَنَامِلِهَا كَمَا تَرَى بِعَيْنَيْهَا، وَقَالَ بِلَهْفَةٍ الْمُتَعَلِّمِ الْمُتَمَتِّحِينَ: «إِذَنْ، نُسَمِّي الشُّرُوطَ وَنَضْعُهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ نَعِيدُ الْفِعْلَ بِذَاتِ الْقَدْرِ، فَإِذَا تَشَابَهَتِ الْخُرُوجَاتُ عَلِمْنَا أَنَّ الدَّلِيلَ قَدْ ثَبَتَ إِنِّي أَرَى أَنَّ الْأَظْمِنَانَ لَا يَنْبُتُ فِي الرَّأْسِ وَحْدَهُ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى تَرْبَةٍ مِنْ عَمَلٍ وَرَصْدٍ.»

وَفِي الْجَانِبِ الْآخِرِ تَمَلَّلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا كَمَنْ يَتَصَايَقُ مِنْ طُولِ التَّرَدُّدِ، وَأَرْسَلَ كَفَّهُ فِي الْهَوَاءِ مَوْجَةً تَسْتَعِجِلُ الْحُسَمَ: «أَيُّهَا الْقَوْمُ، لَوْ أَنْتَظَرْنَا الْيَقِينَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمُطْلَقَ لَمْ نَبِعْ وَلَمْ نَشْتَرِ! إِنَّمَا تَقُومُ التِّجَارَةُ عَلَى ظَنِّ رَاجِحٍ، وَالْمُخَاطَرَةُ تُنْتِجُ رِبْحًا. فَمَا بِالْكُمِّ تُشَدَّدُونَ الطَّرِيقَ بِالْدَّلَائِلِ وَالْفُيُودِ»

أَرْتَفَعَتْ عُيُونُ الْحَلَقَةِ إِلَى الْإِمَامِ، فَمَالَ بَصَرُهُ عَلَى حَبِيبٍ مِثْلَهُ رَفِيعٍ لَا تَنْقُصُهَا الْحَزْمُ، وَقَالَ: «لَيْسَ الْمَطْلُوبُ يَقِينًا يَسُدُّ الْأَبْوَابَ، بَلْ دَلِيلًا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَّبِعَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. فَالْمُخَاطَرَةُ عَلَى بَيْنَةِ عَقْلٍ، وَالْمُخَاطَرَةُ عَلَى هَوَى غُرُورٍ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)،

وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الْحُجُرَاتِ: ٦).

فَالْتَبَيَّنْ حِرَاسَةً لِلرَّبْحِ كَمَا هُوَ حِرَاسَةٌ لِلدِّينِ.»

وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الْكَلَامَ، دَخَلَ فَتَى مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ يَتَنَفَّسُ عَجَلَةً، وَفِي يَدِهِ قِنِينَةٌ صَغِيرَةٌ تَتَلَأَلُ فِيهَا سَائِلَةٌ كَالْعَسَلِ. وَقَالَ وَهُوَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ: «يَا سَادَةُ، قَدْ ائْتَشَرَ فِي الشُّوقِ خَبَرٌ دَوَاءٍ يَدْعِي صَاحِبَهُ أَنَّهُ يَشْفِي الْأَوْجَاعَ كُلَّهَا، وَيَزِيدُ الْقُوَّةَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. آأَأْخُذْهُ لِأَبِي»

تَبَادَلَتِ الْعُيُونُ النَّظَرَ، وَغَمَزَ حَبِيبٌ مُتَبَسِّمًا: «هَذَا هُوَ الظَّنُّ الرَّاجِحُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الَّذِي يُدِرُّ الْفَلَسَ وَالْدَّرَهَمَ! دَعُونَا نَجْرِبَ.»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ أَنْ هَلُمُّوْا إِلَى السَّاحَةِ الْوُسْطَى، وَقَالَ وَهُوَ يَأْخُذُ الْقِنِينَةَ بِأَدَبٍ: «سَنَجْعَلُ لِهَذِهِ الدَّعْوَى مِيزَانًا.»

وَضَعُوا ثَلَاثَ فَنَاطِيرَ صَغِيرَةٍ مِنَ الْمَاءِ، وَسَمُّوا كُلَّ وَاحِدَةٍ بِاسْمٍ، وَجَعَلُوا فِي إِحْدَاهَا فَطْرَاتٍ مَعْدُودَةً مِنَ الدَّوَاءِ، وَتَرَكُوا الْأُخْرَيَيْنِ عَلَى حَالِهِمَا. ثُمَّ كَتَبَ جَابِرُ الْمَوَاقِيتِ، وَقَاسَ الطُّلُوعَ وَالنُّزُولَ فِي قُوَّةِ يَدِ رَجُلَيْنِ ابْتِلَا بِضَعْفٍ خَفِيِّ، وَثَبَّتَ كُلَّ مَا يَقَعُ كَمَا تُثَبِّتُ الْحَبَّةُ فِي الْمِيزَانِ. مَضَتْ سَاعَةٌ، ثُمَّ سَاعَةٌ، وَالْقَوْمُ يَرْقُبُونَ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمْ طَيْرًا. ثُمَّ عَادَ جَابِرٌ يُتْلِي مَا كَتَبَ: «لَا فَرْقَ يُذَكِّرُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ فِي قُوَّةٍ وَلَا نَفْسٍ وَلَا نَبْضٍ. وَالِدَّوَاءِ لَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ عَلَى الْقَدْرِ الْمَذْكُورِ.»

أَنَحْنَى الْإِمَامُ عَلَى الْفَتَى وَرَدَّ إِلَيْهِ قِنِينَتَهُ، وَقَالَ بِحُنُوٍّ يَحْمِلُ نَصِيحَةً صَافِيَةً: «لَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. أَطْلُبْ لِأَيِّكَ دَلِيلًا يَشْهَدُ بِهِ الْعَاقِلُ وَالتَّجَرُّبَةُ.» ثُمَّ أُلْتَفَتَ إِلَى الْحَلَقَةِ وَتَلَا وَجْهَهُ يُضِيءُ:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١١٦).

هَكَذَا يَكُونُ الظَّنُّ إِذَا تَرَيْنَ: يَرْفَعُ صَوْتَهُ وَلَا بُرْهَانَ مَعَهُ.»

وَعَادَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْسُمُ سُلَّمًا آخَرَ فِي آلِهَوَاءِ بَقْلَمِهِ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَجْمَعُ الْخَيْطَ إِلَى الْأَصْلِ: «نُقَرِّرُ الْيَوْمَ قَاعِدَتَيْنِ: أَوَّلُهُمَا أَنْ لَا نَقْضِيَ لِدَعْوَى إِلَّا بِحُجَّةٍ، وَثَانِيَتُهُمَا أَنْ نَرُدَّ الظَّنَّ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَهُوَ رَائِحَةٌ تُنْبِئُهُ عَلَى مَطْلُوبٍ وَلَيْسَ هُوَ الْمَطْلُوبُ نَفْسُهُ». وَأَوْمَأَ إِلَى جَابِرٍ فَقَالَ هَذَا: «وَأَنَّ التَّجَرُّبَةَ تُصَحِّبُ الْعَقْلَ لِكَيْ لَا يَتَوَسَّعَ التَّخَيُّلُ فِي أَرْضٍ بِلَا حُدُودٍ».

وَقَالَ جَابِرٌ وَفِي صَوْتِهِ شُعْلَةُ الْعَامِلِ الَّذِي لَا يَرْضَى بِصِفَةٍ دُونَ مُسَمًّى: «نُثَبِّتُ لِلصَّنْعَةِ دَفَاتِرَ لِلدَّلِيلِ: نُسَمِّي فِيهَا الْأَدَوَاتِ وَالْمَقَادِيرَ وَالْأَوْقَاتِ، وَنَذْكُرُ مَا نَرَى، فَإِذَا عَادَ الْفِعْلُ عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ عَادَ الْحُكْمُ مَعَهُ».

فَهَزَّ الْأِمَامُ رَأْسَهُ رِضًا، وَقَالَ: «هَكَذَا يُصَادِقُ الْعَقْلُ الْعَمَلَ، فَيَهْرُبُ آلِهَوَى وَيَنْحَسِرُ الظَّنُّ». ثُمَّ مَشَى الْأِمَامُ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةً فِي الصَّحْنِ، وَتَوَقَّفَ حَيْثُ يَبْلُغُ الظِّلُّ أَطْرَافَ الْحَصْبَاءِ، وَقَالَ وَهُوَ يُسْمِعُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْأَذَانِ: «أَعْلَمُوا أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ أَمَانَاتٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَشْهَدَهَا عَلَيْكُمْ:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾
(الْإِسْرَاءِ: ٣٦).

فَلَا تَجْعَلُوا السَّمْعَ مَطِيَّةَ شَائِعَةٍ بِلَا تَبَيُّنٍ، وَلَا الْبَصَرَ شَاهِدًا يُقَرُّ مَا لَا يَرَى، وَلَا الْفُؤَادَ حَكَمًا يَقْضِي وَهُوَ مَشْغُولٌ بِهَوَى.

وَأَقْتَرَبَ مِنْهُمْ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ لَأَنْتَ نَبْرَتُهُ: «أَفَلِي فِي السُّوقِ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا»

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً تُشَبِّهُ قِطْعَةً ضَوْءٍ عَلَى مَاءٍ، وَقَالَ: «نَعَمْ، وَأَعْظَمُهُ. أَقْبَلَ الْخَبَرَ مَعَ شَاهِدٍ، وَزِنِ الدَّعْوَى بِالْحِسَابِ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ صَفْقَةٍ مِيزَانًا مِنْ دَلِيلٍ. وَأَذْكُرْ مَعِيَ:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾
(الْمَائِدَةِ: ٨).

فَلَا يَدْفَعَنَّكَ حُبُّ أَوْ بُغْضُ إِلَىٰ تَرْكِ الدَّلِيلِ.»

تَسَاقَطَ الضَّوُّ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ كَنَفَاطٍ مِنْ حِنْطَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، وَأَنْصَرَفُوا إِلَىٰ أَعْمَالِهِمْ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصُّدُورِ شِعَارٌ يَهْدِي الْخُطُواتِ: «لَا نَتَّبِعُ مَا لَيْسَ لَنَا بِهِ عِلْمٌ». وَعِنْدَ الْمَسَاءِ جَمَعَ جَابِرٌ أَوْرَاقَهُ وَخَطَّ فِي أَوَّلِهَا: «دَفَعْتُ الدَّلِيلَ». وَكَتَبَ تَحْتَهُ: «نَصُّ صَرِيحٍ نُثْبِتُهُ، وَعَقْلٌ صَرِيحٌ نَرْبِطُهُ، وَتَجَرِبَةٌ مُسَمَّاةٌ نُعِيدُهَا، فَيُؤَلِّدُ مِنْ الثَّلَاثَةِ يَقِينٌ يَمْنَعُنَا مِنْ اتِّبَاعِ الظَّنِّ.»

وَبَيْنَمَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَانَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُرْتَبِّ سُلْمًا قَصِيرًا مِنْ أُمُورٍ جَلِيلَةٍ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَسْطُرُ: «لَا تَلِدُ النَّتِيجَةُ إِلَّا مِنْ أُمَّ صَادِقَةٍ وَأَبٍ صَادِقٍ: مُقَدِّمَتَانِ عَلَىٰ قَدَرٍ، وَرَبْطٌ لَا خَلَلَ فِيهِ. فَإِنْ دَخَلَ الظَّنُّ بَيْنَهُمَا وَلَدَتِ الْعِبَارَةُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

مَوْلُودًا مَشُوهًا.»

وَأَمَّا حَبِيبُ الدُّنْيَا فَقَدْ سَارَ فِي الشُّوقِ وَيَدُهُ عَلَى مِيزَانِهِ، وَكُلَّمَا رَأَى
خَبْرًا يَطِيرُ بِلَا جَنَاحٍ قَالَ فِي نَفْسِهِ: «أَيْنَ دَلِيلُهُ» فَإِنْ وَجَدَ شَاهِدًا قَبْلَ، وَإِلَّا رَدَّ
الشَّيْءَ إِلَى صَاحِبِهِ بِأَدَبٍ. وَكَانَ التُّجَّارُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ مُبْتَسِمِينَ، فَالثِّقَةُ إِذَا
أَقْرَنْتَ بِالْذَّلِيلِ أَنْبَتَتْ رِبْحًا طَيِّبًا.

وَهَكَذَا أَنْقَضَى الدَّرْسُ وَقَدْ أَنْبَسَطَ عَلَى الْقُلُوبِ كَخَيْطٍ مُبِيرٍ: أَلْعَلُّ
مِيزَانَ يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَّبِعَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ حَقٌّ، وَالْأَطْمِئْنَانُ لَا يَنْبُتُ إِلَّا فِي أَرْضٍ
طَيِّبَةٍ تُسْقَى بِنَصٍّ وَعَقْلٍ وَتَجَرُّبَةٍ، وَتُحْرَسُ مِنْ رِيَّاحِ الظَّنِّ وَنَزَوَاتِ الْهَوَى. ثُمَّ
خَتَمَ الْإِمَامُ الْكَلَامَ، وَصَوْتُهُ يُسَاوِي بَيْنَ الْقُلُوبِ كَمَا يُسَاوِي الْمِيزَانَ بَيْنَ
الْكَفَّتَيْنِ: «أَذْكُرُوا:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءِ: ٣٦)،

﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يُونُسَ: ٣٦)،

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ (ص: ٢٦).

فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَيَّاتِ فِي قَلْبِهِ، وَأَقَامَ لَهَا صَحَائِفَ فِي عَمَلِهِ،
خَرَجَ مِنْ سِجْنِ الظَّنِّ إِلَى فَسْحَةِ الْحَقِّ، وَصَارَ قَوْلُهُ مُؤْزُونًا وَعَمَلُهُ مَصُونًا.»

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: قَلْعَةُ الطَّمَانِينَةِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْمَغْرِبِ يَتَنَفَّسُ سُكُونًا كَأَنَّ الْهَوَاءَ يَتَلَطَّفُ لِيُهْدِيَ
صَدَى الْقُلُوبِ، وَتَتَأَرَّجُ أَلْسِنَةُ النُّخْلِ هَوْنًا فِي الْفَنَاءِ، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ
ضِيَاءً رَقِيقًا يَسْقُطُ عَلَى أَلْوَجُوهِ كَأَنَّهُ غِشَاءٌ مِنْ نُورٍ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي أَلْوَسَطِ
كَمَنْ يُسْنَدُ بِنَاءً خَفِيفًا لِلْأَرْوَاحِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِهِ جَابِرٌ يُقَلِّبُ قَلَمًا صَغِيرًا كَأَنَّهُ
يُلَامِسُ بِنَصَابِهِ نَبْضَ الْكَلِمَةِ، وَإِلَى الْجَانِبِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُسَوِّي صَفْحَةً فِي
كُرَاسِهِ وَيَرْسُمُ فِي الْهَامِشِ سُلَمًا مِنْ أَدِلَّةٍ، وَوَرَاءَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَمْسَحُ
بِكَفِّهِ أَثَرَ كَبِيرِ الْوَرْشَةِ، وَلُبْنَى بِنْتُ مَعْنٍ تَحْمِلُ لَوْحَةً رَسَمَ لِقِنَاةِ رِيٍّ، أَمَّا حَبِيبُ
الدُّنْيَا فَقَدْ أَرْخَى جَفْنَيْهِ وَهُوَ يَتَصَنَّعُ الْأَسْتِرْخَاءَ، وَالْحِسَابُ يُدَاوِمُ الدَّوْرَانَ فِي
رَأْسِهِ.

أَمَالَ الْإِمَامُ جِدْعَهُ قَلِيلًا كَمَنْ يَسْتَدْعِي الْإِنْصَاتَ، ثُمَّ تَلَا بِصَوْتٍ
يَحْمِلُ مَاءً وَمَرَجًا:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ^{ظَلَّ} أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(الرَّعْدُ: ٢٨).

وَقَدْ أَطَالَ الْمَدَّ فِي «تَطْمِئِنُّ» كَأَنَّهُ يُوسِّعُ لِلْقُلُوبِ مَجْرَى تَسْكُنُ فِيهِ. ثُمَّ مَالَ بِكَفِّهِ عَلَى حَافَةِ السَّجَادِ وَهُوَ يُفْصِحُ بِنَبْرَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ: «لَيْسَتْ الطُّمَائِنَةُ نِهَآيَةً تُؤْخَذُ صُدْفَةً، وَلَا زِينَةً تُعْلَقُ عَلَى صَدْرِ الْكَلَامِ، بَلْ هِيَ مَسِيرَةٌ يُشِيدُهَا الدَّلِيلُ وَتُحْرُسُهَا الْعَمَلِيَّةُ الْمُسَمَّاءُ، وَيَنْفُخُ فِيهَا الذِّكْرُ رُوحَهَا. مَنْ طَلَبَهَا بِغَيْرِ بُرْهَانٍ تَعَثَّرَ، وَمَنْ طَلَبَهَا بِغَيْرِ صُنْعٍ تَبَدَّدَ، وَمَنْ طَلَبَهَا دُونَ ذِكْرِ جَفَّتْ فِي يَدَيْهِ.»

أَنَحْنِي جَابِرٌ عَلَى دَفْتَرِهِ كَأَنَّهُ يُقْبَلُ صَفْحَةً عَرِيزَةً، وَتَحَرَّكَ قَلَمُهُ حَرَكَهَ مَاءٍ عَلَى رَمْلِ نَدِيٍّ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقُ الْإِحْتِرَاقِ لِلْفَهْمِ، فَهَمَسَ وَهُوَ يُقَلِّبُ الْأَلْفَاظَ بِلِسَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ: «يَا سَيِّدِي، بِمِ نَسْمِي الطَّرِيقَ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ الدَّلِيلُ وَالتَّجَرُّبَةُ وَالذِّكْرُ حَتَّى تَتَوَلَّدَ الطُّمَائِنَةُ أَأَقُولُ: قَاعِدَةٌ أَمْ أَقُولُ: مِيزَانٌ»

فَلَانَ وَجْهُ الْإِمَامِ وَأَشَاحَ كَفَّهُ فَوْقَ الْهَوَاءِ كَمَنْ يَرْسُمُ قَلْعَةً، ثُمَّ قَالَ بِلُطْفٍ يُمَسِّكُ بِيَدِ التَّلْمِيزِ: «اُكْتُبْ: قَلْعَةُ الطُّمَائِنَةِ تُشِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ: نَصٌّ يُهْدِي، وَمَقْدَارٌ يُحْكِمُ، وَصَنِيعٌ يُثَبِّتُ. فَإِذَا اجْتَمَعَتْ سَكَنْتِ النَّفْسُ وَاسْتَقَامَتِ أَلْيَدُ.»

تَنْحَنَحَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يُسَوِّي قِطْعَةً فَحَمٍ صَغِيرَةً عَلَى طَرَفِ الصَّفْحَةِ، ثُمَّ أَمَالَ الصَّفْحَةَ نَحْوَ الْإِمَامِ كَمَنْ يَسْتَفْتِيهِ فِي خَرِيطَةٍ، وَتَكَلَّمَ بِنَبْرَةٍ

خَفَّتْ فِيهَا حِدَّةُ الْمُنَاطَرَةِ: «إِنِّي أَرَى أَنَّ الدَّلِيلَ إِذَا لَمْ يُنْتَجِ سَكُونًا فِي الصَّدْرِ فَقَدْ نَقَصَهُ شَيْءٌ، وَأَنَّ التَّرْتِيبَ فِي الْحَجَجِ يُشَبِّهُ تَرْتِيبَ الْحِجَارَةِ فِي قَوْسٍ: إِنْ أَخْتَلَّ حَجَرٌ سَقَطَ الْقَوْسُ. فَهَلْ نَقُولُ: الطُّمَأْنِينَةُ شَهَادَةُ الْقَلْبِ عَلَى صِحَّةِ التَّرْتِيبِ»

فَسَكَنَ الْإِمَامُ طَرْفَةً، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ كَمَنْ يُسَمِّي شَيْئًا فِيهِ، وَهَفَّتْ عَلَى صَوْتِهِ رِيحَةُ مَطَرٍ: «نَعَمْ، بَلْ هِيَ شَهَادَةُ تَصْدِيقِهَا الْآيَاتِ وَتَوْثِيقِهَا الْأَعْمَالِ. أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾
(الْفَتْحُ: ٤)

فَالسَّكِينَةُ نُورٌ يُصِيبُ الصَّدَرَ حِينَ يَقُومُ الدَّلِيلُ وَيَتَأَكَّدُ الصَّبْرُ.»

وَفِي الرُّكْنِ الْبَعِيدِ حَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا خَاتَمَهُ فَأَصْدَرَ صَوْتًا خَفِيًّا، ثُمَّ رَفَعَ حَاجِبِيهِ وَمَالَ بِجِسْمِهِ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْكَلَامَ فِي خِدْمَةِ الْمَنْفَعَةِ: «إِنْ كَانَتِ الطُّمَأْنِينَةُ قُلْعَةً، فَأَنَا أُرِيدُ بِأَبْهَا الَّذِي يُدْخِلُ الزُّبْنَ، كَيْفَ نَبْنِيهَا فِي السُّوقِ»

فَارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَةِ الْإِمَامِ ابْتِسَامَةٌ تُخْفِي فِيهَا وَعْيًا قَدِيمًا، وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ الْمِيزَانِ الْمَوْضُوعِ عِنْدَ الْعُمُودِ: «إِذَا قُسَّتْ بِالْقِسْطِ، وَأَوْفِيَتْ الْكِيلَ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَسَمَّيْتَ الْأَسْعَارَ تَسْمِيَةً تُعْلِنُهَا وَلَا تُخْفِيهَا، وَدَوَنْتَ مَا تَبِيعُ وَمَا تَشْتَرِي، سَكَنَ قَلْبُ النَّاسِ إِلَيْكَ. هَكَذَا تُفْتَحُ بَابُ الْقَلْعَةِ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩)

تَحَرَّكَتْ بُنَى خُطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ، وَرَفَعَتْ لَوْحَةَ الرَّسْمِ الَّتِي فِيهَا السَّاقِيَةُ وَمِثْلُهَا، وَفِي عَيْنَيْهَا لَمْعَةُ الْمُهَنْدِسِ الَّذِي يَرَى الْمَعْنَى يَسِيرُ فِي التُّرْبَةِ كَمَا يَسِيرُ الْمَاءُ: «أَتَرَى أَنَّ الطُّمَأْنِينَةَ فِي الرَّيِّ تُبْنَى عَلَى مَقْدَارٍ مُسَمًّى»

فَأَشَارَ الْأَمَامَ إِلَى مِثْلِ دَقِيقٍ رَسَمْتُهُ: «إِذَا سَمَّيْتَ الْمِيلَ، وَضَبَطْتَ السَّحْبَ، وَأَقَمْتَ مُرَاقَبَةً تُسَجِّلُ النِّقْصَ وَالزِّيَادَةَ، سَكَنَ الْحَقْلُ، وَلَا يَهْتَزُّ قَلْبُ الْأَفْلَاحِ مَعَ كُلِّ شَائِعَةٍ عَنِ الْجَدْبِ.»

وَمَا كَادَ يَتِمُّ الْكَلَامُ حَتَّى دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ مُسْرِعًا كَمَنْ يَتَدَاوَعُ مَعَ رِيحٍ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ دُغْرِ، فَهَتَفَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ: «قِيلَ إِنَّ الْمَاءَ فِي السَّاقِيَةِ مُلَوَّثٌ! النَّاسُ تَرَكَضُ إِلَى الْبُئْرِ الْقَدِيمَةِ!»

أَرْتَجَفَ الْمَجْلِسُ أَرْتِجَافَةً حَقْلٍ تَهْبُ فِيهِ رِيحُ فَجَاءَةٍ، وَتَبَادَلَ النَّاسُ النَّظَرَ، وَوَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ أَتَسَّعَتْ عَيْنَاهُ: «إِنْ صَحَّ هَذَا هَلَكَ الشُّوقُ!» فَمَدَّ الْأَمَامُ يَدَهُ كَمَنْ يَضَعُ صَخْرَةً عَلَى فَمِ سَيْلٍ، وَهَذَا صَوْتُهُ وَهُوَ يُثَبِّتُ الْأَرْجُلَ عَلَى الْأَرْضِ: «نَزَّ الْخَبَرُ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١١١).

مَنْ نَقَلَ كَيْفَ تَحَقَّقَ «ثُمَّ أَلْتَمَتَ إِلَى لُبْنَى: «خُذِي عَيْنَاتٍ، وَسَمِّي الْخُطُوتِ، وَاجْعَلِي لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ وَقْتًا وَقَدْرًا. وَأَنْتَ يَا صَفْوَانُ هَبِّي أَدَاةَ نَقِيسٍ بِهَا صَفَاءَ الْمَاءِ». وَأَشَارَ إِلَى الْقَوْمِ كُلِّهِمْ: «لَا تُشِيعُوا قَوْلًا قَبْلَ تَحْقِيقٍ؛

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النِّسَاءُ: ٨٣).

انْفَضَّتْ طَائِفَةٌ صَغِيرَةٌ مَعَ لُبْنَى وَصَفْوَانَ، وَبَقِيَ جَابِرٌ يُتَبَّتٌ فِي دَفْتَرِهِ خُطُوطَ الْخُطَّةِ كَأَنَّهُ يَرْسُمُ لِلْخَوْفِ سُورًا. عُدُودُ السَّاعَةِ رَجَعُوا، وَفِي يَدِ لُبْنَى قَنَادِيلُ صَغِيرَةٌ فِيهَا مَاءٌ، وَفِي عَيْنَيْهَا سُرْعَةُ الْمُخْبِرِ وَثِقَةُ الْمُتَأَنِّي: «قَدْ سَمِينَا الْخُطُوتِ، وَقَسْنَا الصَّفَاءَ عَلَى قَدَرٍ مُّعَيَّنٍ، فَلَمْ نَجِدْ مَا يَدْعُو إِلَى الْفَزَعِ». فَانْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فِي الصُّدُورِ كَأَنَّهَا كُرَةٌ خَيْطٌ تُفَلَّتُ مِنْ يَدِ الْفَلَقِ. وَأَطَالَ الْإِمَامُ نَظْرَهُ ثُمَّ قَرَأَ بِنَبَرَةٍ فِيهَا شُكْرٌ هَادِيٌّ:

﴿وَلَا تَفُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٣٦).

هَكَذَا تُبْنَى قُلُوعُ الطُّمَائِنَةِ: تَشْيِيتُ قَبْلِ الْإِذَاعَةِ، وَقَدَرُ قَبْلِ الْحُكْمِ.

وَحِينَ هَذَا الْقَلْبُ الْجَمَاعِيُّ، دَعَا الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ إِلَى الْخَارِجِ. الْفِضَاءُ

فِي الْعُرُوبِ يَتَلَوْنَ كَتُوبٍ يُطَوَى عَلَى مَهْلٍ، وَصَوْتُ الْفَرَاتِ يُرْتَلُّ آيَةُ السَّكِينَةِ. وَقَفَ عِنْدَ السَّاقِيَةِ، ثُمَّ غَمَسَ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ فِي الْمَاءِ، وَرَفَعَهَا قَطْرَاتٍ تَلْمَعُ عَلَى النُّورِ، وَتَكَلَّمَ وَكَأَنَّهُ يُسْمِعُ الْمَاءَ كَمَا يُسْمِعُ الْجَمَاعَةَ: «سَتَبْقَى الطُّمَأْنِينَةُ نَظَرًا مَا لَمْ نُسَمِّ الْخُطُوءَاتِ. سَمُّوا لِلْمَاءِ قَدْرَهُ، وَلِلسَّحْبِ حَدَّهُ، وَلِلصَّيَانَةِ مَوَاعِيدَهَا، ثُمَّ اجْعَلُوا ذِكْرَ اللَّهِ رُوحَ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّهُ الَّذِي يُنْزِلُ السَّكِينَةَ فِي الْقُلُوبِ». ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ نَحْوَ الْأَفُقِ كَمَنْ يَسْتَدْعِي شَاهِدًا ضَوْئِيًّا، وَتَلَا:

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ: ٥٣).

فَمَنْ جَمَعَ شَاهِدَ الْأَفَاقِ إِلَى شَاهِدِ النَّفْسِ وُلِدَتْ لَهُ الطُّمَأْنِينَةُ.

أَنْسَدَلَتْ النُّجُومُ فِي اللَّيْلِ كَحَبِّ مُنْثُورٍ عَلَى رَحْمَةِ السَّمَاءِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ. مَدَّ صَفْوَانُ يَدَهُ إِلَى الْفَضَاءِ كَمَنْ يُدِيرُ عَجَلَةً، ثُمَّ تَكَلَّمَ وَفِي صَوْتِهِ دَفْءُ الصَّنَاعَةِ: «حِينَ أُسَمِّي لِلنَّارِ لَوْنَهَا، وَلِلْحَدِيدِ دَرَجَتُهُ، وَأَصِلُ ذَلِكَ بِسَاعَةٍ وَمِيزَانٍ، أَجِدُ فِي صَدْرِي سَكِينَةً كَأَنَّ السَّيْفَ يَخْرُجُ مِنْ بَابِ مُسَمًى، لَا يَرِيبُ عَنْهُ.»

فَأَوْمَأَ الْإِمَامُ يُثَبِّتُ وَيَسْتَدْرِكُ: «تِلْكَ سَكِينَةٌ يَغْذُوهَا التَّسْمِيَةُ وَالتَّوْقِيتُ، فَإِذَا الْحَقُّ بِهَا ذُكِّرَ صَارَتْ طُمَأْنِينَةً تُفَارِقُهَا الرِّيَاحُ وَلَا تُزَعِرُهَا الْأَخْبَارُ.» وَقَرَأَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَسْتَجْلِبُ لِلْقُلُوبِ رُوحًا:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطَّلَاقِ: ٣).

وَحِينَ عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، جَلَسَ صَاحِبُ الْفَيَاسِ قُرْبَ الْعِمَادِ، ثُمَّ بَسَطَ صَفْحَتَهُ وَرَسَمَ قَوْسًا وَأَسْفَلَهُ كَلِمَاتٍ: نَصٌّ وَمَقْدَارٌ وَصَنِيعٌ وَذِكْرٌ. لَمْ يَقُلْ شَيْئًا أَوَّلَ الْأَمْرِ، بَلْ جَعَلَ الْقَلَمَ يَضْرِبُ الطَّرِيقَ كَمَنْ يَقْدِرُ خُطُواتِ الرَّكِبِ. ثُمَّ أَلْتَفَتَ فَإِذَا الْأَنْفَاسُ مُنْصَتَةٌ: «إِنْ شِئْتُمْ طَرِيقًا لَا تَضِلُّونَ فِيهِ، فَاجْعَلُوا لِكُلِّ حُكْمٍ شَاهِدَيْنِ: شَاهِدًا مِنَ الْكِتَابِ، وَشَاهِدًا مِنَ الْعَمَلِ، وَأَضِيفُوا إِلَيْهِمَا رُوحَ الذِّكْرِ. هُنَاكَ يَهْدَى الصَّدْرُ وَتَطْيِبُ النَّفْسُ.» فَاسْتَقَامَتْ كَلِمَاتُهُ فِي الْقُلُوبِ كَأَنَّهَا لِبَنَاتٍ تَأْخُذُ مَوَاضِعَهَا.

أَقْتَرَبَ حَبِيبُ الدُّنْيَا هَذِهِ الْمَرَّةَ بِوَجْهِ أَرْقٍ، وَبَصَوْتٍ يَحْمِلُ الْأَسْتِعْطَافَ: «أَرَى النَّاسَ إِذَا أَمِنُوا أَشْتَرَوْا، وَإِذَا خَافُوا كَفُّوا. فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى كَلِمَةٍ أَجْعَلُهَا مِثَاقًا فِي دُكَّانِي» فَوَضَعَ الْإِمَامُ كَفَّهُ عَلَى كَتِفِهِ مَسَّةَ إِخْوَةٍ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ يَغْزِلُ مِنَ الْآيَةِ عَهْدًا:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الْأَنْعَامِ: ١٥٢).

اَكْتَتَبَهَا فَوْقَ مِيزَانِكَ، وَسَمَّ الْمَرَاحِلَ وَأَثَبَتْ الْأَسْعَارَ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ بَيْعٍ دَفْتَرًا تُقَيِّدُ فِيهِ تَارِيخَهُ وَوزَنَهُ. هُنَاكَ يَسْكُنُ قَلْبُكَ وَقَلْبُ مَنْ يَبِيعُ لَكَ وَيَشْتَرِي

مِنْكَ.»

وَكَمَا يَسْتَخْلِي الْقَلْبُ التَّطَابُقَ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، دَعَا الْإِمَامُ إِلَى مَشْهَدٍ آخَرَ يُشَبِّهُ الْإِخْتِبَارَ الرَّحِيمَ. أَخَذُوا إِلَى الْوَرِثَةِ قِطْعَةً حَدِيدٍ، فَأَوْقَدَ صَفْوَانُ الْكَبِيرِ، وَأَرْفَعَ اللَّهُبُ أَلْسِنَتَهُ كَمَنْ يُعْنِي لِلنُّورِ فِي أُذُنِ الْمَعْدِنِ. تَقَدَّمَ جَابِرٌ وَقَدْ أَعَدَّ جَدُولًا لِلْأَلْوَانِ وَالزَّمَنِ وَرِنَةِ الطَّرْقِ، وَسَمَّوْا دَرَجَاتِ التَّسْخِينِ وَأَوْقَاتِ التَّبْرِيدِ. تَمَرَّدَ الْمَعْدِنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ، ثُمَّ أَطَاعَ حِينَ اسْتَقَامَ الْقَدْرُ، وَوُلِدَتْ قِطْعَةُ صُلْبَةٍ كَانَتْهَا شَاهِدٌ يَتَكَلَّمُ: هَكَذَا تُذَكُّ أَلِيدٌ مَعَ الْعَقْلِ طَرِيقَ الطَّمَانِينَةِ.

وَفِي خِتَامِ اللَّيْلِ، لَمَّا سَكَتَتِ الْأَصْوَاتُ وَبَقِيَتِ النُّجُومُ تَرْمِشُ كَأَعْيُنٍ تَحْرُسُ السَّكِينَةَ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْقَوْمَ فِي حَلَقَةٍ أَضْيَقَ، وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْعِمَادِ، ثُمَّ أَنْشَدَ لِلْقُلُوبِ خِتَامًا يَحْفَظُهُ الصَّدَى: «أَعْلَمُوا أَنَّ الْبُرْهَانَ وَالطَّمَانِينَةَ لَيْسَا غَايَةً فِي ذَاتِهِمَا، بَلْ هُمَا جِسْرٌ يَعْبُرُهُ الْعَقْلُ لِيَصِلَ إِلَى سَعَةِ السَّكِينَةِ. فَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْكِتَابِ مِصْبَاحًا، وَمَنِ الْفِيَّاسِ مِيزَانًا، وَمَنِ الصَّنِيعِ تَسْمِيَةً وَتَكَرَّرًا، وَمَنِ الذِّكْرِ رُوحًا، بَنَى لِنَفْسِهِ قَلْعَةً لَا تَدْخُلُهَا الرِّيَّاحُ إِلَّا زُورًا، وَلَا يَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا الْوَهْمُ إِلَّا لِيَخْرُجَ مُخَذُولًا.» ثُمَّ قَرَأَ وَصُوتُهُ يَسْتَجْمِعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْ نُورٍ:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الْحَدِيدِ: ٣).

فَاجْعَلُوا أَعْمَالَكُمْ مُتَّصِلَةً مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، عَلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

مِيزَانٍ وَاحِدٍ؛ هُنَاكَ تُوَلَّدُ الطَّمَأْنِينَةُ كَمَا يُوَلَّدُ النَّهَارُ مِنْ رَحِمِ اللَّيْلِ.

وَإِذَا بِجَاوِبٍ يُغْلِقُ ذَفْتَرَهُ عَلَى صَوْتِ الْآيَاتِ، ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَى صَدْرِهِ كَمَنْ يُسْنِدُ قَلْعَتَهُ إِلَى كَتِفَيْهِ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُطْفِئُ فَحْمَتَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ هُدُوءٌ مَنْ وَجَدَ لِلْحُجَّةِ سَكَنًا، وَلُبْنَى تَضُمُّ لَوْحَتَهَا كَمَنْ يَحْمِلُ بَابًا صَغِيرًا إِلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ، وَصَفْوَانٌ يَتَفَقَّدُ كَفَيْهِ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْهِمَا سِيرَةَ الطُّرُقِ وَالْمَطَارِقِ، أَمَّا حَبِيبُ الدُّنْيَا فَقَدْ لَانَ صَوْتُ عُرُوقِ الرِّيحِ فِي صَدْرِهِ، وَتَرَكَ عَلَى شَفَتَيْهِ كَلِمَةً صَادِقَةً: «لَقَدْ وَجَدْتُ الرِّيحَ فِي سُكُونِ النَّاسِ أَعْظَمَ مِمَّا وَجَدْتُهُ فِي الْأَرْقَامِ».

وَهَكَذَا أَنْفَضَ الْمَجْلِسُ، لَيْسَ أَنْفِضَاصَ الرِّيحِ عَنِ الرَّمْلِ، بَلْ أَنْصِرَافَ مَاءِ الْعَيْنِ إِلَى جَوْفِهَا، قَدْ شَرِبَتْ الصُّدُورُ مِمَّا قِيلَ، وَوَضَعَ كُلُّ مِنْهُمْ مِفْتَاحًا عَلَى بَابٍ فِي قَلْعَتِهِ. وَفِي الطَّرِيقِ الْمُنْفِضِي إِلَى الْبُيُوتِ، كَانَتْ النُّجُومُ تَمْشِي عَلَى مَهَلٍ، وَالشُّهُبُ تُشِيرُ مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهُا تَقُولُ: هَكَذَا يُبْنَى الطَّمَأْنِينَةُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، بَيْنَ الْمِيزَانِ وَالِدُّعَاءِ، بَيْنَ الْبُرْهَانِ وَسُكُونِ الصَّدْرِ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التَّغَابُنُ: ١٦)،

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الْفُرْقَانُ: ٥٨)،

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ (التَّوْبَةُ: ٢٦).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

هُنَاكَ، حَيْثُ يَسْكُنُ الْقَلْبُ عَلَى قَدَرٍ، وَتَقُومُ الْيَدُ عَلَى قِسْطٍ، وَيُزْفَعُ
الصَّوْتُ بِذِكْرٍ، تُشَيِّدُ قَلْعَةُ الطُّمَأْنِينَةِ.

الفصل الثاني: مفاتيح الغيب والكشوفات

- المَوَازِينُ:
 - التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: 17).
 - مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: 59).
 - الْكُشُوفَاتُ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 5).
- الشَّخْصِيَّاتُ الْمُحَوَّلَةُ: تُقَدِّمُ مَرْيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ سَوْالاً حَوْلَ الْغَيْبِ. يُعْرَضُ جَابِرُ تَجَرُّبَتِهِ فِي الْاِكْتِشَافِ، بَيْنَمَا يُبَيِّنُ الْإِمَامُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَسْرَارِ الْكُونِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ. يُوضِّحُ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ أَنَّ الْبَحْثَ فِي "غَيْبِ الطَّبِيعَةِ" هُوَ عَمَلٌ مُشْرُوعٌ، وَأَنَّهُ يُكْشَفُ بِالنَّظَرِ لَا بِالْخُرَافَةِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: الْغَيْبُ الْمُحْجُوبُ وَالْغَيْبُ الْمَشْهُودُ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَلَطَّفُ هَوَاؤُهُ كَمَا تَتَلَطَّفُ كَلِمَةُ قُرْآنِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَسْكُنَ فِي الصَّدْرِ، وَتَتَدَلَّى مِنَ الرِّوَاغِ أَصْدَاءُ خُطَى خَفِيفَةٍ كَانَتْهَا تَطْلُبُ مَجْلِسًا مِنْ سَكِينَةٍ. سُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضِيَاءً رَقِيقًا يَتَحَرَّكُ عَلَى الْجُدْرَانِ كَأَنَّهُ نَبْضُ نَهْرٍ دَاخِلِ الْحِجَارَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ وَوَجْهُهُ يُشْبِهُ صَفْحَةَ مَاءٍ هَادِيٍّ، وَإِلَى جَانِبِهِ جَابِرٌ يُقَلِّبُ قَلَمًا نَحِيلًا كَأَنَّهُ يَقِيسُ بِهِ مَسَافَاتِ الْمَعَانِي، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُهَيِّئُ صَفْحَةً قَدْ رَسَمَ فِيهَا مَشْيَهَا سُلَمًا لِلْحُجَجِ، وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَمْسَحُ بِكَفِّهِ أَثَرَ سُخُونَةٍ خَلَقَتْهَا الْوَرِشَةُ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَتَنَقَّلُ بِنَظَرِهِ بَيْنَ الْوُجُوهِ كَمَنْ يَتَفَقَّدُ أَرْبَاحًا مُحْتَمَلَةً فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، ثُمَّ دَخَلَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ وَقَدْ ضَمَّتْ إِلَى صَدْرِهَا لَوْحَةً رَسَمَ صَغِيرَةً تَعْلُوهَا خُطُوطٌ لِقَبَابٍ وَسَمَاءٍ.

تَنْفَسُ الْإِمَامُ نَفْسًا طَوِيلًا كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا لِلنُّورِ، ثُمَّ أَطَالَ النَّظَرَ إِلَى الْحَلَقَةِ وَتَلَا بِصَوْتٍ يَسْرِي فِي الْقُلُوبِ كَمَا نَهْرٌ:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا
يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩).

أَطْلَقَ الْكَلِمَاتِ يَتَرَفَّصُ فِيهَا الْإِيمَانُ كَأَنَّهُ ضَوْءٌ عَلَى مَاءٍ، ثُمَّ سَكَنَ
وَفِي السُّكُونِ مَجَالٌ لِلسُّؤَالِ.

تَقَدَّمَتْ مَرَبِّمُ خُطْوَةٍ، وَحَرَّكَتْ أَطْرَافَ لَوْحَتِهَا كَمَنْ يَسْتَدْعِي جَوَابًا مِنْ
بَيْنِ الرِّسَمِ، وَقَالَتْ وَفِي صَوْتِهَا خَفَقَةُ حَيَرَةٍ كَرِيمَةٍ: «يَا سَيِّدِي، أَيُّ غَيْبٍ هُوَ
الَّذِي يَحْجُبُهُ اللَّهُ عَنَّا فَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ، وَأَيُّ غَيْبٍ هُوَ الَّذِي لَا يَحْجُبُ اللَّهُ سُنَنَهُ
لِمَنْ نَظَرَ وَتَدَبَّرَ أَفِي السَّمَاءِ أَشْيَاءَ حُرِّمَتْ عَلَى الْعَقْلِ، أَمْ إِنَّمَا حُرِّمَ التَّجَاوُزُ وَسُوءُ
الْأَدَبِ»

تَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَمِيلُ إِلَيْهَا مِيلَ الْمُعَلِّمِ الَّذِي يُرِيدُ لِلسُّؤَالِ أَنْ يَكْبُرَ
قَلِيلًا قَبْلَ الْجَوَابِ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ عَلَى الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ يُقَسِّمُ الْفَضَاءَ قِسْمَتَيْنِ،
وَنَبَسَ: «الْغَيْبُ يَا بِنْتِي عَلَى صَرِيحَيْنِ: مُحْجُوبٌ اخْتَصَّ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، لَا يَبْلُغُهُ نَظَرٌ
وَلَا تَحْقِيقٌ، كَمِيقَاتِ السَّاعَةِ وَمَصَائِرِ الْأَرْوَاحِ وَقَدَرِ كُلِّ نَفْسٍ؛ وَمَشْهُودٌ فَتَحَ اللَّهُ
أَبْوَابَهُ لِلنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْإِحْصَاءِ، فَإِذَا سَلَكَنَا سُنَنَهُ ظَهَرَتْ أَسْرَارُ كَانَتْ عَنَّا
مُسْتَتِرَةً.»

تَحَرَّكَ الْهَوَاءُ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنَّهُ يَأْخُذُ نَفْسًا مَعَ الْكَلِمَاتِ، وَتَسَاءَلَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

صَاحِبُ الْقِيَاسِ بَعِيْنَيْنِ تَلَمَعَانِ كَالْمِرَآةِ عِنْدَ الصَّبَاحِ: «أَيُّ بَيْنَةٍ تَفْصِلُ بَيْنَ الصَّرِيْنَيْنِ»

فَرَفَعَ الْإِمَامُ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ كَمَنْ يَقْرَأُ فِيهِ سَطْرًا، ثُمَّ تَلَا وَصُوْتُهُ يَمْشِي عَلَى مَهْلٍ لِيَسْتَقِرَّ:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النَّمْلُ: ٦٥)،

وَإِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿لُقْمَانَ: ٣٤﴾.

فَهَذِهِ مَفَاتِيْحُ أَمْسَكْهَا اللَّهُ، لَا يُنَازِعُ فِيهَا مُنَازِعٌ. وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ، فَقَدْ نُودِيَنا نِدَاءً عَامًّا:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يُونُسُ: ١٠١)،

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الْغَاشِيَةِ: ١٧-٢٠)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (الْعَنْكَبُوتِ: ٢٠)

فَبَيَّنَ مَحْجُوبٌ لِلرَّبِّ خَالِصٍ، وَمَفْتُوحٌ لِلنَّظَرِ وَالشَّهَادَةِ وَالصَّنِيعِ، تَجْرِي
الرَّحْلَةُ.

فِي الرُّكْنِ قُرْبَ الْعِمَادِ أَمَالَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ، وَخَطَّ فِيهِ سُؤَالَ يَلْمَعُ مِثْلَ
سَيْفٍ صَغِيرٍ: «هَلِ الْغَيْبُ الْمَشْهُودُ هُوَ مَا نُسَمِّيهِ الْآنَ «مَا سَيَكُونُ» إِذَا أَخَذْنَا
بِأَسْبَابِهِ»

وَقَبْلَ أَنْ يَرْتَفِعَ صَوْتُهُ بِالسُّؤَالِ، كَانَ الْإِمَامُ قَدْ أَنْحَى نَحْوَ الْمِيزَانِ
الْمَوْضُوعِ عِنْدَ الْعُمُودِ، وَرَّ بَأَصْبَعِهِ عَلَى كِفَّتَيْهِ كَمَنْ يَسْتَدْرِجُ تَشْبِيهًا: «إِذَا
سَمَّيْنَا الْأَسْبَابَ وَرَتَّبْنَاهَا، أَصْبَحَ بَعْضُ مَا كَانَ غَيْبًا كَالشَّمْسِ قَبْلَ الصُّبْحِ؛ يَظْهَرُ
مِقْدَارُهُ وَإِنْ بَقِيَ التَّفَاصِيلُ فِي يَدِ اللَّهِ. نَعْرِفُ أَنَّ الْحَبَّ إِذَا زُرِعَ وَسْقِيَ وَحُفِظَ
وُقْتُ حَصَادِهِ، وَلَكِنْ لَا نُحِيطُ بِكُلِّ سُنْبُلَةٍ كَمْ تَحْمِلُ حَبَّةً. هُنَا تَلْمَعُ الْآيَةُ:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (الْأَنْعَامِ: ٥٩).

أَهْتَرَّتْ مَرِيَمُ بِأَطْمِئْنَانٍ خَفِيٍّ، ثُمَّ قَدَّمَتْ لَوْحَتَهَا نَحْوَ الْحَلَقَةِ، وَفِيهَا
رَسْمُ فَنَاءِ رِيٍّ تَنْحَدِرُ مِنْ ضِفَّةِ الْفُرَاتِ: «إِنَّ الْمَاءَ يَأْتِي أحيانًا مُتَشَاوِلًا، ثُمَّ يَفِيرُ
فِي أُخْرِيَاتِ اللَّيْلِ كَأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِنِدَاءٍ لَا نَسْمَعُهُ. أَهُوَ مِنَ الْغَيْبِ الْمَشْهُودِ أَمْ
مِنْ الْمَحْجُوبِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النُّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَأَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى رَسْمِ الْمَمِيلِ وَمَجَارِي الطِّينِ: «إِذَا رُصِدَتِ الرِّيَاحُ وَتَغَيَّرَ
الْقَمَرُ وَحَالَ السَّحَابُ، وَسُمِّيَ لِكُلِّ حَالٍ قَدَرُهَا، تَبَيَّنَ لَكَ مِنَ الْغَيْبِ مَا يَدْخُلُ
فِي الْمَعْرِفَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَبَقِيَ الَّذِي أَصْطَفَاهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ عِبَادَةً وَتَوْكِيلًا. هَكَذَا يَلْتَقِي
الْمَحْجُوبُ وَالْمَشْهُودُ عَلَى بَابِ التَّقْوَى».

تَنَاوَلَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ كِسْرَةَ فَحْمٍ وَرَسَمَ دَائِرَةً كَبِيرَةً فِي الطَّرْفِ، ثُمَّ
دَائِرَةً أَصْغَرَ فِيهَا، وَأَشَارَ إِلَيْهِمَا لِيَرْتَبُوا الْحَرَكَةَ: «هَذِهِ كَأَنَّهَا نُمُودَجٌ لِمَا نَسْتَطِيعُ،
وَتِلْكَ لِمَا لَا نَسْتَطِيعُ. إِنْ سَرْنَا فِي الدَّائِرَةِ الْأُولَى عَلَى قَاعِدَةٍ وَقَدَرٍ، تَكْشَفَتْ لَنَا
أَسْرَارٌ كَانَتْ غَيْبًا عَنَّا، كَمَا يَتَكَشَّفُ نَهْرٌ وَرَاءَ سِتْرِ مِنْ قَصَبٍ، وَلَكِنَّ الدَّائِرَةَ
الْأُخْرَى تَبْقَى لِصَاحِبِهَا؛ لَا يُنَالُ بَاطِنُهَا إِلَّا بِإِذْنٍ،

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾
(الْجِنِّ: ٢٦-٢٧).

وَبَيْنَمَا الْكَلِمَاتُ تَنْسَابُ، تَسَلَّلَ إِلَى الْمَسْجِدِ هَمْسٌ مِنَ السُّوقِ: رَجُلٌ
يُشِيعُ أَنَّ صَاعًا مِنَ التَّمْرِ فِيهِ عَيْبٌ خَفِيٌّ لَا يُرَى. الْهَمْسُ يَكْبُرُ كَمَا يَكْبُرُ صَدَى
فِي جَبَلٍ، وَتَلْتَفَتُ الْعُيُونُ إِلَى حَبِيبِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ أَقْرَبُهُمْ إِلَى السَّعْرِ وَأَقْوَاهُمْ شَمًّا
لِلرَّبِّحِ.

اُنْتَبَهَ حَبِيبُ النَّظَرَاتِ، فَهَزَّ كَتِفَيْهِ وَأَنْدَفَعَ كَمَنْ يُرِيدُ الْإِنْتِصَافَ

لِلسُّوقِ: «إِنْ صَحَّ الْغَيْبُ خَسِرْنَا الثَّقَةَ، وَإِنْ كَانَ وَهْمًا خَسِرْنَا الْبَيْعَ. مَا أَلْعَاجُ»

رَفَعَ الْإِمَامُ يَدَهُ فَسَكَنَ الْهَمْسُ، ثُمَّ قَرَأَ بِصَوْتٍ يُقِيمُ لِلْكَلِمَةِ مِيزَانًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الْحُجُرَاتِ: ٦)

نَزَنَ الْقَوْلَ وَلَا نَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَنَا بِهِ عِلْمٌ،

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءِ: ٣٦).

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى جَابِرٍ وَصَاحِبِ الْقِيَاسِ: «ضَعَا خُطَّةَ التَّيْسِ: تَسْمِيَةُ الْخُطُوتِ، وَمِيعَادُ، وَمِيزَانُ لِلْعَيْنَاتِ، وَسَجَلٌ لِلنَّاتِجِ. هَكَذَا يَمُوتُ الْوَهْمُ فِي سَوَادِ الْحَقِّ.»

خَرَجَ الْقَوْمُ إِلَى السُّوقِ يُشِيعُهُمُ الْمَسَاءُ بِلَوْنِهِ الذَّهَبِيِّ، فَإِذَا النَّاسُ حَوْلَ الْحُكْمِ كَسَوَارٍ يَتَسَّعُ. أَخَذُوا مِنَ الثَّمَرِ عَيْنَاتٍ وَوَضَعُوهَا عَلَى صَفَائِحِ رُجَاجٍ، وَقَاسُوا رَطُوبَتَهَا بِوزْنِ قَبْلِ الشَّمْسِ وَبَعْدَهَا، وَرَاقَبُوا الْحَبَّةَ فِي الظِّلِّ وَفِي النُّورِ، وَسَجَّلُوا فِي دِفَاتِرِهِمْ كُلِّ مَا يَرَوْنَ. وَبَيْنَمَا الْأَصَابِعُ تَعْمَلُ وَالْعُيُونُ تُدَوِّنُ، كَانَ حَبِيبٌ يَنْظُرُ إِلَى الزَّبَائِنِ وَيَرَى فِي وُجُوهِهِمْ نَبْضًا مِنْ فَلَقٍ يَخْفُتُ كُلَّمَا رَأَوْا مِيزَانًا يُرْفَعُ أَوْ دَفْتَرًا يُفْتَحُ. قَلِيلًا وَقَدْ رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى سَكِينَتِهِ: لَا غَيْبُ فِي الصَّاعِ، وَإِنَّمَا تَدَاخَلَ وَهُمْ حِينَ تَغَيَّرَ الْهَوَاءُ بَعْدَ مَطَرٍ. عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَفِي الْخُطَى سُرُورٌ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مَنْ أَطْفَأَ نَارًا بِمَاءٍ بَارِدٍ.

لَمَّا اجْتَمَعُوا، أَقَامَ الْإِمَامُ كَلِمَةً تُوَحِّدُ مَا تَفَرَّقَ: «هَكَذَا نَفْهَمُ الْفَضْلَ بَيْنَ الْمَحْجُوبِ وَالْمَشْهُودِ: فِي الْأَوَّلِ عِبَادَةٌ وَتَوْقِيفٌ وَتَسْلِيمٌ، وَفِي الثَّانِي نَظَرٌ وَتَسْمِيَةٌ وَمِيزَانٌ. وَكِلَاهُمَا يَرْجِعَانِ إِلَى رَبِّ وَاحِدٍ:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾
(الْمُلْكُ: ٢).

فِي اللَّيْلِ خَرَجُوا إِلَى السَّطْحِ، وَالْجُومُ تَنْثُرُ حَبًّا مِنْ نُورٍ عَلَى سَمَاءٍ صَافِيَةٍ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى الْفَلَكَ وَهُوَ يَدُورُ فِي سَكُونٍ عَظِيمٍ، وَقَرَأَ يَسْتَحْضِرُ شَهَادَةَ النَّظَامِ:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

ثُمَّ أَعْمَضَ طَرَفَهُ كَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى نَشِيدٍ لَا يُسْمَعُ إِلَّا بِالْقَلْبِ: «هُنَا مِثَالٌ لِعَيْبٍ كَانَ اسْتِسْلَامًا لِلْحَيَرَةِ عِنْدَ الْقُدَمَاءِ، ثُمَّ فُتِحَ لِلنَّظَرِ بِسُنَنِ وَقِيَّاسٍ، فَصَارَ مِمَّا نُدُونُهُ فِي الدَّفَاتِرِ وَنَجْعَلُهُ مَقْيَاسًا لِلْأَزْمِنَةِ وَالْمَوَاسِمِ. هَذَا مِنَ الْمَشْهُودِ الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ بِالتَّفَكُّرِ فِيهِ،

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠).

تَقَدَّمَتْ مَرِيَمُ وَقَدْ أَشْرَقَ فِي وَجْهِهَا نُورُ الْفَهْمِ، وَسَأَلَتْ بِخَفَقَانٍ مِنْ حُسْنِ الْإِنْتِبَاهِ: «وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (لُقْمَانَ: ٣٤)

أَمْعُلُومَاتٌ قَدْ يَبْلُغُهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ زَوَايَا ظَاهِرَةٍ، أَمْ سِرٌّ يَبْقَى لِلَّهِ»

فَمَالَ الْإِمَامُ وَقَرَأَ آيَةَ كَامِلَةً ثُمَّ شَرَحَ وَجْهَهُ يَسْتَضِيءُ بِالتَّفْرِيقِ: «مَا فِي الْأَرْحَامِ لَيْسَ صُورَةً الْخَلْقِ فَقَطُّ، بَلْ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْأَجَلِ وَالرِّزْقِ وَالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَقِسْمَتِهِ فِي الْحَيَاةِ؛ هَذَا مُحَجَّبٌ لِلَّهِ. أَمَّا مَا يَقَعُ تَحْتَ سُلْطَانِ النَّظَرِ مِنْ أَثَرِ الْغِذَاءِ وَعَوَارِضِ الصَّحَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِسُنَنِ التَّكُونِ، فَهَذَا مِمَّا يُكْشَفُ لِمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ بِأَدَبٍ.»

عَادُوا إِلَى الْحَلَقَةِ، وَالْقَمَرُ يَتَرَقَّبُ الْكَلِمَاتِ مِنْ فَوْقِ الْقَبَابِ. فِي هَذِهِ السَّاعَةِ تَحْرَكَ صَفْوَانٌ بِدَفٍّ الصَّنَاعَةِ فِي صَوْتِهِ: «أَجِدْ فِي الْحَدِيدِ غَيْبًا يَبْقَى حَتَّى أُسَمِّيَ لِلنَّارِ لَوْنَهَا، وَلِلزَّمَنِ مِقْدَارُهُ. فَإِذَا سَمَّيْتُ، كَانَ الْغَيْبُ يَتَحَوَّلُ شَهَادَةً، وَتُولَدُ الطُّمَآنِينَةُ فِي الْيَدِ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَوْمَاءُ الْإِمَامِ وَقَرَأَ يَجْمَعُ التَّشْبِيهَ إِلَى الْآيَةِ:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الْحَدِيدِ: ٢٥).

هَكَذَا يُصْبِحُ بَعْضُ مَا كَانَ غَيْبًا مَعْرِفَةً إِذَا أُقِيمَ لَهُ مِيزَانٌ.

وَتَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يُسَاوِمُ الْهَمْسَ فِي صَدْرِهِ بِكَلِمَةٍ تُرْضِي الْمَنْفَعَةَ
وَالْحَقَّ مَعًا: «إِذَا، أَجْعَلْ لِدُكَانِي سَجَلًا لِكُلِّ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ، وَأُعْلِنَ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ
حَالِ الْبِضَاعَةِ، وَأَرُدُّ مَا يَشْتَبِيهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ. أَهَذَا مِنْ الْغَيْبِ الْمَشْهُودِ الَّذِي تُحِبُّهُ
الْقُلُوبُ»

فَانْشَرَحَ وَجْهُ الْإِمَامِ وَهُوَ يُثَبِّتُ لَهُ الطَّرِيقَ: «إِذَا عَمِلْتَ بِهَذَا تَحَوَّلَ وَهُمْ
الزُّبُونُ عَنْ غَيْبٍ مَا لَا يَرَى إِلَى ثِقَةٍ بِمَا تُظْهَرُ. هَذَا هُوَ الْمُرَادُ».

وَلَمَّا مَضَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، انْتَقَلَ الْمَجْلِسُ كَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَابٍ إِلَى
بَابٍ. سَارُوا عَلَى صِفَةِ الْفُرَاتِ وَالْمَاءِ يُرَاجِعُ ضَوْءُ الْقَمَرِ كَأَنَّهُ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ.
وَقَفَ الْإِمَامُ قُرْبَ سَاقِيَةٍ، ثُمَّ غَمَسَ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ فِي الْمَاءِ وَرَفَعَهَا قَطْرَاتٍ
تَلْمَعُ، وَتَكَلَّمَ وَصَوْتُهُ يَخْتَلِجُ بِمَعْنَى قَرِيبٍ: «نَحْنُ نَذْرُكُ مِنَ الْغَيْبِ بِقَدْرِ مَا نُقِيمُ
مِنْ مِيزَانٍ وَنَحْفَظُ مِنْ أَدَبٍ. فَإِنْ بَغَيْنَا مَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ لِدَاتِهِ، أَضَعْنَا الْأَدَبَ
وَالْعَقْلَ مَعًا. وَإِنْ قَصَرْنَا فِيمَا فُتِحَ لَنَا، ضَيَعْنَا مَا أُقِيمَ عَلَيْنَا مِنْ حُجَّةٍ». ثُمَّ قَرَأَ
وَالنَّفْسُ يَتَسَّعُ مَعَ الْكَلِمَةِ:

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ: ٥٣).

عِنْدَ رُجُوعِهِمْ مِنَ النَّهْرِ، أَشَارَتْ مَرِيَمُ إِلَى سَحَابَةٍ صَغِيرَةٍ مُنْفَرِدَةٍ فِي الْأُفُقِ، وَقَالَتْ: «أَرَاهَا خَفِيفَةً ثُمَّ تُمَطِّرُ فَرَى بَعِيدَةً؛ أَفْهَذَا مِمَّا يُكْشَفُ بِالرَّصْدِ» فَبَادَرَ طَلَّابُ الْحَلَقَةِ بِالْجَوَابِ قَبْلَ الْإِمَامِ: «نَعَمْ، إِذَا اقْتَرَنَ النَّظَرُ بِالتَّسْمِيَةِ وَالْقِيَاسِ.» ثُمَّ زَادَهُمُ الْإِمَامُ تَأْصِيلًا فَقَالَ: «وَمَعَ ذَلِكَ يَبْقَى زَمَنُ ابْتِدَاءِ قَطْرِهَا وَانْقِطَاعِهِ عَلَى التَّحْدِيدِ مِمَّا يَسْتَأْثِرُ اللَّهُ بِتَصْرِيفِهِ؛ نَقِفْ عِنْدَ الْحَدِّ فَلَا نَتَجَاوِزْهُ.»

وَقَبْلَ الْخِتَامِ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ فِي الْمَسْجِدِ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَعَادَ الْقِرَاءَةَ فِي صَوْتٍ مُتَزِنٍ كَأَنَّهُ يَضَعُ الْحِجَارَةَ الْأَخِيرَةَ فِي قَوْسٍ:

﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءِ: ٨٥).

لَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا تَكْشِفُونَ عَلَى الْخِيَلَاءِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا حُجِبَ عَنْكُمْ عَلَى الْيَأْسِ. خُذُوا بِالْمَفْتُوحِ بِحَقِّ وَأَدَبٍ، وَقِفُوا عِنْدَ الْمَحْجُوبِ بِتَوْقِيرٍ وَتَسْلِيمٍ. تِلْكَ سُنَّةُ الْمَعْرِفَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ..

إِهْتَرَّ الْقَلْبُ الْجَمَاعِيُّ لِهَذَا الْخِتَامِ كَمَا تَهْتَرُّ سَعْفَةٌ فِي نَسِيمٍ، ثُمَّ تَقَدَّمَ جَابِرٌ حَامِلًا دَفْتَرَهُ: «سَأَسْمِي مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ سُنَنِ الْمَاءِ وَالْحَرَارَةِ وَالزَّمَنِ، ثُمَّ أَجْعَلُ عَلَى كُلِّ قِسْمٍ مِيزَانًا وَمِيعَادًا. وَإِذَا وَقَفْتُ عِنْدَ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، صَلَّيْتُ

لِرَبِّي وَسَأَلْتُهُ الرِّضَا.»

أَشَارَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَطْوِي صَفْحَتَهُ أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ بَانَ مَعَالِمُهُ:
«مِنَ الْمُحْجُوبِ نَسْتَمِدُّ أَدَبَ الْوُقُوفِ، وَمِنَ الْمَشْهُودِ نَسْتَمِدُّ فَرَحَ الْاِكْتِشَافِ.»
أَمَّا حَبِيبُ الدُّنْيَا فَقَدْ لَانَتْ مَلَامِحُهُ وَقَالَ يَسْتَأْنِسُ بِمِيزَانٍ جَدِيدٍ: «سَاعَمَلُ فِي
الشُّوقِ عَلَى مَا بَانَ، وَأَدْعُ مَا خَفِيَ لِلَّهِ. لَعَلَّ الرِّيحَ يَكُونُ فِي سَكِينَةِ النَّاسِ قَبْلَ أَنْ
يَكُونَ فِي كَثْرَةِ الصَّفَقَاتِ.»

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ الْمَجْلِسُ، رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ وَهُوَ يَخْتِمُ كَمَنْ يَضَعُ
خَاتَمًا عَلَى كِتَابٍ: «لَا تَطْلُبُوا مَا غَيَّبَ اللَّهُ عَنْكُمْ، بَلِ ابْحَثُوا عَمَّا فَتَحَهُ لَكُمْ.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يُونُسُ: ١٠١)،

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُفُ: ٧٦).

الْجَعْلُوا بَيْنَ الْمُحْجَبِ وَالْمَشْهُودِ جِسْرًا مِنْ أَدَبٍ: هُنَا تَقِفُونَ
فَتَسْلُمُونَ، وَهُنَاكَ تَسِيرُونَ فَتَسْمُونَ وَتَقْيِسُونَ وَتَكْتُبُونَ. هَكَذَا تُصْلِحُ الْمَعْرِفَةُ
الْأَرْضَ وَتَرْفَعُ الْقُلُوبَ.»

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَفِي الصُّدُورِ نَبْضَةٌ جَدِيدَةٌ: نَبْضَةٌ مِنْ عَرَفَ أَيْنَ
يَقِفُ وَإِلَى أَيْنَ يَسِيرُ. كَانَ اللَّوْنُ الْأَرْجَوَانِيُّ يَتَحَاوَرُ مَعَ الذَّهَبِيِّ عَلَى الْأَفْقِ،

وَصَوْتُ الْأَفْرَاتِ يُتَقِنُ نَشِيدَهُ بِغَيْرِ خَلَلٍ. مَرِيَمُ تَضُمُّ لَوْحَتَهَا وَفِي عَيْنَيْهَا مَسَارِبُ
مِنْ ضَوْءٍ، جَابِرٌ يُثَبِّتُ قَلَمَهُ فَوْقَ صَفْحَةٍ نَقِيَّةٍ لِأَنَّهُ يَكْتُبُ مَا سِيرَى، صَاحِبُ
الْقِيَاسِ يَرَسُمُ دَائِرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ لِيُكْمَلَ التَّمْثِيلُ، صَفْوَانُ يَتَحَسَّسُ كَفِّهِ يَبْتَغِي
فِيهِمَا سَكِينَةَ الصَّنْعَةِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَعُدُّ فِي رَأْسِهِ أَرْبَاحًا جَدِيدَةً مَرَّاجُهَا الثَّقَةُ
وَالْتَّيْنُ.

وَإِذَا بِاللَّيْلِ يَسْتَدْرِجُ الْمَدِينَةَ إِلَى نَوْمِهَا، كَانَ صَوْتُ الْإِمَامِ يَرْتَدُّ كَصَدَى
طَيِّبٍ فِي الْقُلُوبِ: «أَقْرَأُوا آيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ، وَأَقْفُوا حَيْثُ يَقِفُ
الْأَدَبُ، وَسِيرُوا حَيْثُ يَسِيرُ الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ وَالْكِتَابَةِ. هُنَالِكَ يَكْبُرُ الْإِيمَانُ، وَتَنْفَشُ
حَيْرَةٌ كَانَتْ تُسَمَّى «غَيْبًا» فَصَارَتْ «عِلْمًا»، وَيَبْقَى لِلَّهِ مَا اخْتَصَّ بِهِ نَفْسُهُ جَلًّا
جَلَالُهُ.»

الدَّرْسُ الثَّانِي: الْكُشُوفَاتُ وَنُورُ الْعِلْمِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَفَتَّحُ عَلَى سَكِينَةٍ نَدِيَّةٍ، كَأَنَّ الْهَوَاءَ نَفْسٌ طَوِيلٌ يَخْرُجُ مِنْ صَدْرِ الزَّمَانِ لِيُهْدِيَ قُلُوبَ الْحَاضِرِينَ. سُجَّ الزَّيْتُ تَمُدُّ فِي الْحِجَارَةِ خُيُوطًا مِنْ ذَهَبٍ هَادِيٍّ، وَالْقِيَابُ تُرَدِّدُ أَصْدَاءَ الْهَمْسِ كَأَنَّهَا بُحَيْرَاتٌ صَغِيرَةٌ تَلْتَقِطُ حَبَّاتِ مَطَرٍ خَفِيِّ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ وَمَعَهُ جَمَاعَتُهُ: جَابِرٌ يَلْفُ قَلَمَهُ بِأَصَابِعِهِ كَمَنْ يَسْتَدْعِي مَوْلُودًا مِنْ مَعْنَى، صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَنْشُرُ صَفْحَةً فِيهَا سُلَمٌ لِلْأَفْكَارِ، صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَلْمَسُ أَثَرَ النَّارِ فِي كَفِّهِ كَمَنْ يَقْرَأُ حَظَّ الْحِدَادَةِ عَلَى جِلْدٍ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَتَفَقَّدُ بِالْعَيْنِ الْمَكَاسِبَ الْمُحْتَمَلَةَ فِي كُلِّ قَوْلٍ. وَمِنْ بَابِ الصَّحْنِ دَخَلَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ وَقَدْ عَلَا وَجْهُهُ وَقَارُ مَنْ يُشَارِكُ بِنُصْحٍ لَا يَطْلُبُ ثَمَنًا.

أَطَالَ الْإِمَامُ النَّظَرَ إِلَى الْحَلَقَةِ، ثُمَّ تَلَا وَصُوتُهُ يَسِيلُ كَالْمَاءِ عَلَى حَجَرٍ أَمْلَسَ:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الْعَلَقِ: ٥).

تَفَتَّحَتِ الْكَلِمَةُ فِي الصُّدُورِ كَزَهْرَةٍ تُفَاجِئُ الْبَسَاتِينَ قُبَيْلَ الصَّبَاحِ، ثُمَّ
اتَّبَعَهَا بِقِرَاءَةٍ تُثَبِّتُ الْقَاعِدَةَ وَتَفْتَحُ الطَّلَبَ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)،

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَر: ٩).

ثُمَّ سَكَنَ لِيَتَنَفَّسَ الْمَعْنَى فِي الْقُلُوبِ.

مَا لَ الْإِمَامُ قَلِيلًا إِلَى أَمَامٍ، وَصَوْتُهُ يَتَدَرَّجُ مِنَ الْهَمْسِ إِلَى الْبَيَانِ كَمَنْ
يَصْنَعُ قَوْسًا مِنْ نُورٍ: «الْكُشُوفَاتُ يَا أَصْحَابِي لَيْسَتْ صُدْفًا عَمِيَاءَ، وَلَا مَوَاهِبَ
مُفْرَدَةً تُولَدُ وَتَمُوتُ بِغَيْرِ نَظْمٍ، بَلْ هِيَ مِنْ «تَعْلِيمِ اللَّهِ» لِلْإِنْسَانِ إِذَا أَحْسَنَ الطَّرِيقَ
وَصَبَرَ عَلَى الْمِحْنَةِ. نَتَلَقَّى الضُّوءَ، ثُمَّ نَصْنَعُ لَهُ مِرَاةً صَافِيَةً مِنْ قَلْبٍ وَعَقْلٍ
وَعَمَلٍ، فَيَنْعَكِسُ عَلَى الْأَرْضِ هُدًى وَسَعَادَةً.»

انْتَقَلَ النَّظَرُ إِلَى جَابِرٍ، فَانْتَعَشَ وَقَامَ كَمَنْ يَسْتَعِدُّ لِرِوَايَةِ يَحْمِلُهَا مِنْدُ
أَيَّامٍ، وَقَالَ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةٌ مَنْ رَأَى الْبَيَاضَ يَخْرُجُ مِنْ سَوَادٍ: «يَا سَيِّدِي، كُنْتُ
فِي حَقْلِ الْقُرْبَةِ أَرْقُبُ الْمَاءَ فِي السَّاقِيَةِ، فَإِذَا هُوَ يُسْرِعُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَيَتَثَاقَلُ
عِنْدَ الْعِشِيِّ. ظَنَنْتُهُ بَدَأَ تَوْهُمًا، ثُمَّ وَضَعْتُ لِلرَّصْدِ دَفْتَرًا، وَسَمَّيْتُ لِكُلِّ سَاعَةٍ
عَلَامَةً، وَلِكُلِّ رِيحٍ اسْمًا، وَلِكُلِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْمَاءِ مِقْدَارًا. وَلَمَّا تَكَرَّرَتْ
الْمَلَا حِظَّةُ ظَهَرَتْ لِي حَالَةٌ: إِنْ زِيدَ الْمِيلُ شُعْرَةً أَنْشَقَّ الطِّينُ وَضَاعَ الْمَاءُ، وَإِنْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

نُقِصَ الْأَمِيلُ تَرَاجَعَ الْجَرَيَانُ وَرَكَدَتِ الْجُذُورُ، وَإِذَا سَاوَيْتُ بَيْنَ الْمَقْدَارَيْنِ
وَزَعْتُ الشُّفْيَا عَلَى مَوَاعِيدَ مَعْلُومَةٍ، أَتَمَّرَ الْحَقْلُ وَسَلِمَتِ الْأَرْضُ. هُنَالِكَ عَلِمْتُ
أَنَّ الْكُشْفَ لَيْسَ الْمَصَادِفَةَ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ الْعَمَلِ الْمُنَظَّمِ.

أُنَحْنِي الْإِمَامَ بِالْبِشْرِ، وَرَفَعَ كَفَّهُ كَمَنْ يُثَبِّتُ شَاهِدًا عَلَى عَقْدٍ، وَقَرَأَ
يُوجِهُ الْقُلُوبَ بِدَلِيلِهَا:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الْعَلَقِ: ٥).

«هَكَذَا نَرَى آيَةَ فِي الْحَقْلِ كَمَا نَسْمَعُهَا فِي الْمِحْرَابِ. وَهَنَا يَسْتَقِيمُ
الْقَوْلُ مَعَ الْعَمَلِ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠-١٩١).

الْتَفَكَّرْ هُنَا عَمَلٌ يَقُودُ إِلَى تَسْمِيَةِ وَقِيَّاسٍ، لَا هَوَى وَلَا خُرَافَةٍ.

تَحَرَّكَ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ وَأَنْشَدَ صَوْتَهُ وَفِيهِ صَرَاخَةٌ مَنْ يَنْصَحُ أَهْلَ بَيْتِهِ:
«رُبُّ قَائِلٍ يَقُولُ: نَكْتَفِي بِمَا تُحَدِّثُنَا بِهِ الْمَصَادِفَاتُ وَحِكَايَاتُ الشُّوقِ. وَأَنَا
أَقُولُ: مَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ الْخُرَافَةِ غَرِقَ فِي الْمَجْهُولِ. اللَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَنْظُرَ وَنَزِنَ

وَنَتَبَّيَّنَ،

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْأَسْرَاءِ: ٣٦)،

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النَّحْلِ: ٤٣).

فَالْبَحْثُ فِي أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ عَمَلٌ مُبَارَكٌ إِذَا أُقِيمَ عَلَى أَدَبٍ وَدَلِيلٍ.

أَلْتَفَتَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي عَيْنِهِ شُعْلَةُ الْحِسَابِ: «إِنْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي يُفْضِي إِلَى رِنَحٍ مَصُونٍ وَثِقَةٍ دَائِمَةٍ فِي السُّوقِ، فَهَاتُوا لَنَا مِثَالًا نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا.»

تَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَنَهَضَ بِلُطْفٍ، وَتَبِعَتْهُ الْحَلَقَةُ إِلَى الصَّحْنِ ثُمَّ إِلَى زُقَاقٍ يَنْفُذُ عَلَى الْحُقُولِ. كَانَ الْأَفْرَاتُ يُرْتَّبُ أَنْفَاسُهُ عَلَى الرِّيحِ، وَهُنَالِكَ قَنَاءٌ جَدِيدَةٌ نَحْتَتُهَا لُبْنَى فِي دُرُوبِ الطِّينِ.

وَقَفَ جَابِرٌ بِقُرْبِ صَخْرَةٍ صَغِيرَةٍ، وَوَضَعَ عَلَى ضِفَّةِ الْمَجْرَى عِلَامَةً مِنْ حَشَبٍ، ثُمَّ نَادَى الْقَوْمَ: «انْظُرُوا، هُنَا نَزِيدُ الْمَيْلِ قَدْرَ شِعْرَةٍ، وَهُنَاكَ نُنْقِصُهُ شِعْرَةً، ثُمَّ نَقْرَأُ وَجْهَ الْمَاءِ.»

تَقَدَّمَ صَفْوَانٌ وَغَمَسَ يَدَهُ فِي الْمَاءِ، فَقَالَ وَهُوَ يَلْمَسُ الْجَرَيَانَ لَمَسَ صَانِعٍ يُفْسِرُ بِأَصْبُعِهِ: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ هَذَا الْحَدَّ أَحْسَسْتُ بِالْقُوَّةِ تَسْوِقُهُ، وَإِذَا

تَجَاوَزَ الْمِقْدَارَ قَلْبَ الطَّيْنِ فَافْسَدَ..»

هَزَّ حَبِيبَ رَأْسِهِ وَقَالَ بِالرِّضَا: «إِذَنْ نَكْتُبُ الْمِقْدَارَ وَنَضَعُ لَهُ مَوَاعِيدَ،
فَتَبْقَى الْأَرْضُ تُنتِجُ وَتَبْقَى نَرْبَحُ بَعِيرٍ غِشٍّ.»

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالْغُرُوبِ يُشَكِّلُ قَوْسًا مِنْ نَارٍ لَيِّنَةٍ فَوْقَ الْقِبَابِ. قَبَسَ
الْإِمَامُ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ مَعْنَى وَأَدْخَلَهُ فِي الْكَلِمَةِ: «الْعِلْمُ نُورٌ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَفِيرُ فِي
قَلْبٍ مُسْتَهْتَرٍ وَلَا فِي عَيْنٍ تَسْتَعْجِلُ،

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

نَصِيبٌ مِنْ هَذَا النُّورِ يُجْعَلُ فِي قَلْبٍ مَنْ أَبْغَى وَسَعَى، فَيَهْتَدِي إِلَى
كَشْفِ يَصْلُحُ الْأَرْضَ وَالنَّاسَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ كَاشِفًا يَزْعُمُ أَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي أُوجِدَ،
فَقُولُوا لَهُ: «عَلَّمَكَ رَبُّكَ طَرِيقَكَ، فَلَا تَكْفُرْ بِالْمُعَلِّمِ...»

رَفَعَ خَالِدٌ كَفَّهُ مُمَايَلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْإِشْرَادِ: «أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، يَخْتَلِطُ فِي
الشُّوقِ صَوْتُ الْمُجَرَّبِ وَهَمْسُ الْمُتَنَجِّمِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ لِمَنْ عَقَلَ الدَّلِيلَ: هَذَا
يُسَمَّى الْخُطُوبَاتِ وَيَكْتُبُ الزَّمَنَ وَيَقِيسُ، وَذَاكَ يَسْتَنْصِتُ ظِلًّا عَلَى جِدَارٍ وَيَبْنِي
عَلَيْهِ قَاعِدَةً. قَدْ قِيلَ:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

(الْعَنْكَبُوتُ: ٤٣).

فَلَنَكُنْ مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَغْفِلُونَ الْإِثْمَ وَيَجْعَلُونَهُ طَرِيقًا، لَا مِنَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَهُ حُرَافَةً يبيعونها في الْأَرْزَاقِ.

أَقْتَرَبَ جَابِرٌ مِنْ خَالِدٍ كَمَنْ يَسْتَمِدُّ مِنْ قَوْلِهِ قُوَّةَ تَشْيِيتٍ، ثُمَّ انْشَى نَحْوَ الْإِمَامِ: «يَا سَيِّدِي، أَجِدُ فِي نَفْسِي فَرْحًا كَبِيرًا حِينَ تَنْجَحُ التَّجَرُّبَةُ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَى قَلْبِي مِنْ بَطَرٍ خَفِيِّ. بِمَاذَا أَسْتَدْفِعُهُ»

تَنْفَسَ الْإِمَامُ نَفْسًا رَقِيقًا وَقَرَأَ وَعَيْنَاهُ تُمَطِّرَانِ رَفَقًا:

﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)،

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (الْمُجَادَلَةُ: ١١).

إِذَا ذَكَرْتَ قِلَّتَكَ فِي مَجْرَى الْمَعْرِفَةِ وَعَظَمَةِ مَنِّ اللَّهِ عَلَيْكَ، زَالَ الْبَطَرُ وَثَبَّتَ الشُّكْرُ، وَاسْتَبْقَيْتَ فَرَحَ الْكَشْفِ نَفِيًّا مِنْ عُجْبٍ.

وَكَأَنَّ الْكَلِمَةَ تَطْلُبُ مَشْهَدًا يُثَبِّتُهَا فِي الْعَيْنِ، فَاقْتَرَحَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ أَنْ يَمْضُوا إِلَى الْوَرِشَةِ. تَقَدَّمُوا فَإِذَا النَّارُ تَسْتَضِيءُ فِي الْمِصْهَرِ وَالْحَدِيدُ يَتَلَوَّنُ بَيْنَ الصُّفْرِ وَالْحُمْرَةِ. أَشَارَ صَفْوَانُ إِلَى قِطْعَةِ حَدِيدٍ وَقَالَ وَهُوَ يَضْبُطُ نَفْسَهُ عَلَى

وَقَعَ الْمِطْرَقَةُ: «هُنَا يَكُونُ الْكُشْفُ أَيْضًا. إِذَا بَلَغَ اللَّوْنُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ انْقَادَ الْحَدِيدُ، وَإِذَا تَعَجَّلْتُ قَبْلَهَا تَكْسَرَ وَخَانَ. كُنَّا قَبْلًا نَسْتَدِلُّ بِالظَّنِّ، فَجَعَلْنَا لِلْأَلْوَانِ أَسْمَاءً، وَلِلزَّمَنِ سَاعَاتٍ، فَصَارَ الْعَمَلُ مِيزَانًا يَلِدُ الْإِتْقَانَ.»

وَزَادَ الْإِمَامُ الْمَعْنَى قُوَّةً بِشَاهِدٍ مِنَ الْكِتَابِ:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الْحَدِيدُ: ٢٥).

هَكَذَا تَتَرَوُجُ الْآيَةُ بِالتَّجْرِئَةِ فَيُؤَلِّدُ الْكُشْفُ صَادِقًا.

مِنْ طَرَفِ الْوَرُشَةِ سَمِعُوا ضَحْكَةً صَبِيٍّ تُشَبِّهُ رَنَّةَ فِضَّةٍ صَغِيرَةٍ، فَانْفَتَحُوا إِذَا هُوَ «غُلَامٌ صَفْوَانٌ» يَلْعَبُ بِقِطْعَةِ خَشَبٍ تُدِيرُ عَجَلَةً صَغِيرَةً. نَادَاهُ الْإِمَامُ بِرَفْقٍ وَسَأَلَهُ: «كَيْفَ تَدُورُ» قَالَ الصَّبِيُّ وَفِي صَوْتِهِ بَهْجَةٌ الْاِكْتِشَافِ الْأَوَّلِ: «إِذَا دَفَعْتُ هَهُنَا دَارَتْ هُنَاكَ.» تَبَسَّمَ الْإِمَامُ وَقَالَ لِلْحَلَقَةِ: «هَذِهِ بَذْرَةُ الْعِلْمِ فِي قَلْبِ طِفْلِ: مَلَمَسٌ وَسُؤَالٌ وَتَسْمِيَةٌ ثُمَّ تَكَرَّرَ. إِنْ صِينَا هَذِهِ الْبَذْرَةَ كَبُرَتْ شَجَرَةٌ تُظِلُّ السُّوقَ وَالْحَقْلَ وَالْوَرُشَةَ.»

عَادُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَفِي الطَّرِيقِ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ «جَابِرًا» عَنِ الدَّفْتَرِ الَّذِي يَحْمِلُهُ. قَالَ لَهُمْ وَهُوَ يُرِيهِمْ صَفَحَاتٍ فِيهَا رُسُومٌ وَأَوْقَاتٌ وَالْوَلَوَانُ: «هُنَا يَكْمُنُ سِرُّ الْكُشْفِ: أَنْ تَكْتُبَ مَا تَرَى، ثُمَّ تُجَرِّبَ فَتُصِيبَ أَوْ تُخْطِئَ، ثُمَّ تَكْتُبَ الْإِصَابَةَ وَالْخَطَأَ مَعًا لِكَيْ لَا يُعِيدَ الزَّمَانُ خَطَأَهُ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَسَمِعُوا الْإِمَامَ يُتِمُّ الْمَعْنَى بِآيَةِ تُرَبِّي الطَّلَبِ فِي الصُّدُورِ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

لَا يَغْفُ الطَّالِبُ عِنْدَ حَدٍّ، بَلْ يَسْتَزِيدُ مِنَ النُّورِ كُلَّمَا بَلَغَ دَرَجَةً.

وَحِينَ هَذَا الْمَجْلِسُ سَأَلَتْهُمْ السَّمَاءُ بِجُومِهَا سُؤَالَ صَامِتًا، فَأَقْتَرَحَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ أَنْ يَقْرُؤُوا الْكُونَ لَيْلًا كَمَا قَرَأُوهُ نَهَارًا.

صَعِدُوا السَّطْحَ، وَالنَّجْمُ فَوْقَهُمْ يَنْسُجُ نَسِيجًا مِنْ نُقْطٍ لَامِعَةٍ يَرِبُطُهَا وَتَرٌ دَقِيقٌ لَا يُرَى. أَشَارَ صَفْوَانٌ إِلَى النُّجُومِ الْمُتَصَافَةِ كَأَنَّهَا جُنُودٌ فِي صَفٍّ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ خُبْرَةَ الرَّصْدِ: «لَوْ تَصَادَمَتْ لَفَسَدَ الْكُونُ، وَلَكِنَّهَا تَسْبُحُ عَلَى قَدَرٍ. هَكَذَا نَصْطَنِعُ آلَةً فِي الْوَرُشَةِ: نَجْعَلُ لِكُلِّ عَجَلَةٍ مَوْضِعًا وَلِكُلِّ سِنَّ قَدْرًا، فَتَعْمَلُ آلَاةٌ بِلَا ضَجِيجٍ.»

وَوَضَعَ الْإِمَامُ كَلِمَتَهُ فِي الْمَشْهَدِ كَوَتِدٍ يُثَبَّتُ الْخِيَمَةَ:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

هُنَا يَتَضَحَّى أَنَّ الْكُشْفَ فِي الْفَلَكَ أَيْضًا تَعْلِيمٌ يُفِيضُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ صَبَرَ وَنَظَرَ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَمِنْ فَوْقِ السَّطْحِ عَادَ الْحَدِيثُ إِلَى الْقُلُوبِ. قَالَ خَالِدٌ وَيَدُهُ عَلَى صَدْرِهِ: «إِنِّي أَخْشَى عَلَى بَعْضِنَا أَنْ يَتَّخِذَ الْكُشْفَ سَبِيلًا إِلَى التَّطَاوُلِ عَلَى الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَيَزْعُمَ أَنَّهُ يُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ. وَالْحَقُّ أَنَّنَا نَقِفُ عِنْدَ مَا فُتِحَ، وَنُسَلِّمُ فِيمَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ،

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾
(النمل: ٦٥).

فَأَجَابَهُ الْإِمَامُ وَجْهَهُ يَلْمَعُ بِالتَّوَازُنِ: «صَدَقْتَ. نَجْمُعُ بَيْنَ الْأَدَبِ وَالطَّلَبِ. نَعْظُمُ الْمُحْكَمَ وَنُجَرِّبُ فِي الْمَفْتُوحِ، فَلَا نَقَعُ فِي شَرِكِ الْخُرَافَةِ وَلَا فِي كِبَرِ الدَّعْوَى».

تَسَلَّلَ النَّعَاسُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَكِنَّ الْحَلَقَةَ مَا زَالَتْ تَمُوجُ فِي قُلُوبِهَا الْكَلِمَاتُ. جَلَسُوا عَلَى الْحَصِيرِ، فَقَالَ جَابِرٌ وَفِي صَوْتِهِ عَزْمُ التَّسْجِيلِ: «سَأَجْعَلُ لِكُلِّ كَشْفٍ صَفْحَةً: مَوْضِعُهُ وَزَمَانُهُ وَآلَتُهُ وَتَجَرُّبَتُهُ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ مِنْ نَفْعٍ لِلنَّاسِ. فَإِنْ صَلَحَ كَانَ طَرِيقًا لِعَيْرِي، وَإِنْ فَسَدَ كَانَ حِزْرًا مِنْ أَنْ يُعِيدَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي الْخَطَأَ».

هُنَا تَعَالَى صَوْتُ الْإِمَامِ كَخَاتِمَةِ تَرْزِينِ كِتَابًا: «وَلَيْكِي لَا يَضِلَّ سَعْيُكُمْ عَنْ مِيزَانِ الْحَقِّ، فَاسْمَعُوا شَاهِدًا يَرْفَعُ الْعِلْمَ وَأَهْلَهُ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَرُ: ٩).

وَأَسْمَعُوا مَا يَحْمِي قُلُوبَكُمْ مِنَ الرِّيَغِ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْأَسْرَاءُ: ٣٦).

تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا بِوَجْهِ لَانتَ فِيهِ زَوَايَا الْمُنْفَعَةِ حَتَّى صَارَ أَزَقَّ: «أَشْهَدُ أَنَّ الْمِيزَانَ فِي الشُّهُودِ يُثْمِرُ رِبْحًا نَقِيًّا. سَأَضَعُ لِمَتَجَرِّحِي دَفْطَرًا أَقْبَدُ فِيهِ الْخَبْرَةَ، وَإِذَا اكْتَشَفْتُ طَرِيقًا يُصْلِحُ الْبَيْعَ أَعْلَنْتُهُ لِلنَّاسِ، لَعَلَّ الثَّقَةَ تُصْبِحُ رَأْسَ مَالٍ أَكْبَرَ مِنْ أَلَدِّهِمْ».

أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ بِرِضًا وَقَالَ: «هَكَذَا يَكُونُ الْعِلْمُ نُورًا فِي السُّوقِ كَمَا هُوَ نُورٌ فِي الْمَسْجِدِ».

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (الْمَائِدَةُ: ٢)،

فَإِذَا تَعَاوَنَ الصَّانِعُ وَالزَّارِعُ وَالتَّاجِرُ عَلَى مَا يَكْشِفُهُ اللَّهُ لَهُمْ، اتَّسَقَتِ الْحَيَاةُ وَانْقَطَعَتِ أَسْبَابُ الشَّقَاقِ».

وَقَبِلَ أَنْ يُطْفَأَ النُّورُ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْخُيُوطَ فِي كَلِمَةٍ تَسْتَفِرُّ فِي الصُّدُورِ كَحَبَّةِ قَمْحٍ تُدْفَنُ لِتُثْمَرَ: «لَا تَقُولُوا إِنَّ الْعِلْمَ نَتِيجَةُ عَمَلِ الْإِنْسَانِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ نُورٌ يُلْقِيهِ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَبْحَثُ بِجِدٍّ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ كَشْفًا فَابْتَدُّوا بِالشُّكْرِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لِمُعَلِّمِهِ، ثُمَّ أَحْفَظُوهُ بِالِدَفْتَرِ وَالْمِيزَانِ وَحُسْنِ الْقَصْدِ. وَادْكُرُوا دَوْمًا:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الْعَلَقِ: ٥)،

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)،

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَرِ: ٩).

فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ ثَبَتَ نُورُهُ وَأَمْتَدَّ نَفْعُهُ.»

خَرَجُوا عَلَى هُدًوٍ، وَفِي كُلِّ قَلْبٍ مِصْبَاحٌ صَغِيرٌ يَزِدُّ زَيْتًا كُلَّمَا كَتَبَ
صَاحِبُهُ وَجَرَّبَ وَسَأَلَ رَبَّهُ زِيَادَةً. كَانَ لَيْلُ الْمَدِينَةِ يَتَسَّعُ لِهَذَا النُّورِ، وَيَتَرَاوَعُ
أَمَامَهُ ظِلٌّ كَانَ يُسَمَّى خَوْفًا مِنَ الْمَجْهُولِ، فَأَصْبَحَ يُدْعَى شَوْقًا إِلَى الْكُشُوفِ.
هُنَالِكَ تَمَّ الدَّرْسُ عَلَى مِيزَانِ يَجْمَعُ الْآيَةَ وَالتَّجَرُّبَةَ، وَتَرَكَ فِي الصُّدُورِ صَدَى
يَرْجِعُ كُلَّمَا قَالَ أَحَدُهُمْ: «اللَّهُمَّ زِدْنَا عِلْمًا، وَالْحَقْنَا بِنُورِكَ فِي الشُّهُودِ، وَاجْعَلْ
عِلْمَنَا قِسْطًا وَخَيْرًا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ.»

الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: التَّفَكُّرُ وَمَنْهَجُ الْإِدْرَاكِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَنَفَّسُ سَكِينَةً رَطْبَةً، وَتَتَدَلَّى مِنْ سُقُوفِهِ خُيُوطٌ ضِيَاءٍ كَأَنَّهَا أَصَابِعُ رَحْمَةٍ تَمْسَحُ جِبَاهَ الْحَلَقَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ جَابِرٌ وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ وَخَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ وَحَبِيبُ الدُّنْيَا. وَعِنْدَمَا خَفَّ هَمْسُ الْحَاضِرِينَ رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ بِتِلَاوَةِ تَسْلِيلٍ هَوْنًا هَوْنًا كَالْمَاءِ عَلَى صَفْحَةٍ صَخْرٍ أَمْلَسَ:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الْعَاشِيَةُ: ١٧).

تَغَيَّرَ وَجْهُ الْمَوْضُوعِ فِي الْقُلُوبِ؛ فَلَمْ تَعُدِ الْإِبِلُ دَابَّةً سَفَرٍ فَقَطْ، بَلْ صَارَتْ سَفِينَةً بِصِيرَةٍ تَحْمِلُهُمْ إِلَى سَاحِلِ الْإِدْرَاكِ.

مَالَ الْإِمَامُ إِلَيْهِمُ الْنِفَاتَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنَ الْقَلْبِ سِرَّهُ، وَقَالَ وَالنُّورُ يَتَحَرَّكُ فِي نَعْمِ صَوْتِهِ: «النَّظَرُ أَصْلُ الْمَعْرِفَةِ، وَالتَّفَكُّرُ طَرِيقُهَا، وَالتَّسْمِيَةُ وَالْقِيَاسُ جِسْرَاهُمَا. لَا تَنْبُتُ التَّجَرُّبَةُ فِي أَرْضٍ جُرِّدَتْ مِنْ سُقْيَا التَّدَبُّرِ، وَلَا يُؤَلَّدُ الْكَشْفُ فِي صَدْرِ لَمْ يَرْضَعْ مِنْ ثَدْيِ التَّأَمُّلِ. هَذِهِ آيَةٌ تَدْعُونَا إِلَى نَظَرٍ مُسْتَقِيمٍ

لَا يُجَامِلُ الْعَادَةَ وَلَا يَرْتَكِنُ إِلَى التَّوَهُّمِ.»

هَمَسَتْ مَرِيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ وَعَيْنَاهَا تَلْمَعَانِ بِشَوْقٍ طَاهِرٍ: «سَيِّدِي، كُنْتُ سَأَلْتُ قَبْلًا عَنْ حُدُودِ الْعَيْبِ، فَأَدْرَكْتُ الْيَوْمَ أَنَّ مِفْتَاحَ مَا فُتِحَ لَنَا مِنْهُ فِي النَّظَرِ نَفْسِهِ؛ فَهَلْ يُزِيلُ التَّفَكُّرُ حِجَابًا عَنْ قُلُوبِنَا كَمَا يُزِيلُ الرِّيحُ الْغُبَارَ عَنِ الْمَرْأَةِ»

أَجَابَهَا الْإِمَامُ وَفِي الْإِجَابَةِ لَيْنٌ مُرَبِّ وَصَرَامَةٌ مُقَوِّمٌ: «نَعَمْ. وَأَسْمِعِي شَاهِدًا يُقِيمُ الْأَصْلَ فِي النُّفُوسِ:

﴿سَرَبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ: ٥٣).

فَمَنْ نَظَرَ وَتَدَبَّرَ تَبَيَّنَ لَهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ وَتَوَهَّمَ بَقِيَ فِي الْعَمَى.»

قَامَ خَالِدُ بْنُ أُسَيْدٍ وَهُوَ رَجُلٌ يَخْتَبِرُ الْأَشْيَاءَ بِيَدَيْهِ قَبْلَ لِسَانِهِ، وَقَالَ وَهُوَ يُقَلِّبُ نَظْرَهُ فِي الْحَلَقَةِ: «وَجَدْتُ فِي الْحَقْلِ يَا سَيِّدِي نَبَاتًا يَمُوتُ إِذَا سُقِيَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَيَنْتَعِشُ إِذَا صَبَبْتُ الْمَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَصْرِ. فَقِسْتُ الظِّلَّ وَالرِّيحَ وَالتُّرْبَةَ، فَتَبَيَّنَ لِي سِرٌّ صَغِيرٌ يُصْلِحُ حَالَهُ. فَهَلِ التَّفَكُّرُ هُوَ الَّذِي يَسُوقُ إِلَى هَذِهِ الْإِشَارَاتِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ كَمَنْ يَشْكُرُ نِعْمَةَ الْفِطْنَةِ: «هَذَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

نَفْسٌ مَا نُرِيدُهُ. وَأَسْمَعُوا شَاهِدًا آخَرَ يُثَبِّتُ الطَّرِيقَ:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (الْعَنْكَبُوتُ: ٢٠)

السَّيْرُ وَالنَّظَرُ وَفَتَانِ لِقَلْبٍ وَاحِدٍ؛ فَمَنْ جَمَعَهُمَا وُلِدَ فِي نَفْسِهِ عَقْلٌ مُبْصِرٌ.﴾

تَحَرَّكَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَأَخْرَجَ مِنْ جَنِبِهِ صَفْحَةً فِيهَا خُطُوطٌ رَقِيقَةٌ تَتَقَاطَعُ كَأَنَّهَا حِبَالُ خَيْمَةٍ تُشَدُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَرْسُمُ بِالْقَلَمِ مَسَارًا بَيِّنًا: «التَّفَكُّرُ لَيْسَ أَنْفِعَالًا شَارِدًا، بَلْ هُوَ طَرِيقَةٌ: نَظَرٌ، ثُمَّ تَسْمِيَةٌ، ثُمَّ تَقْسِيمٌ، ثُمَّ قِيَاسٌ، ثُمَّ فَرَضٌ وَاخْتِبَارٌ، ثُمَّ مُرَاجَعَةٌ وَتَدْوِينٌ. فَإِذَا أَنْفَلْتِ خُطُوةً ضَاعَتِ الْحَقِيقَةُ فِي زِحَامِ الظَّنِّ.»

هُنَا أَوَّماً الْأَمَامُ إِلَيْهِ وَقَرَأَ آيَةً تَقْطَعُ طَرِيقَ التَّقْدِيمِ بِلا دَلِيلٍ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٣٦).

ثُمَّ قَالَ: «الْقَلْبُ وَالْعَيْنُ وَالْأُذُنُ أَمَانَاتٌ؛ فَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ عَلَى مِيزَانِ الْآيَاتِ أَثْمَرَتْ عِلْمًا، وَإِذَا تَرَكْتَ فِي الْهَوَى أَنْجَبْتَ وَهْمًا.»

انْفَتَحَ بَابُ الْمَسْجِدِ عَلَى أَفْقِ الصَّحْرَاءِ، وَالرَّيْحُ تَحْمِلُ رَائِحَةَ الْقِطْرَانِ وَصَهِيلَ الْأَيْلِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَرْبِدِ. قَامَ الْأَمَامُ وَقَالَ كَمَنْ يَدْعُو إِلَى مَشْهَدٍ تَعْلِيمِيٍّ

لَا يُنْسَى: «اتَّبِعُونِي إِلَى حَافَةِ الْمَدِينَةِ، فَالِدَرْسُ الْيَوْمَ لَهُ مِسْرَحٌ مَفْتُوحٌ.»

سَارُوا وَالشَّمْسُ تَمُدُّ ظِلًّا طَوِيلًا يَسْبِقُ خُطَاهُمْ، حَتَّى وَقَفُوا وَالْقَوَافِلُ تَمُرُّ كَأَنَّهَا أَنْهَارٌ مِنْ صُوفٍ وَجُلُودٍ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى نَاقَةٍ سَمِينَةٍ تَرْفَعُ رَأْسَهَا وَتَطْرُقُ عَيْنَيْهَا بِسَكِينَةٍ، وَقَالَ وَهُوَ يَقْرُبُ الْحِلْقَةَ مِنْهَا: «هَذِهِ دَرْسٌ يَمْشِي. أَلَا تَرَوْنَ الْأَخْمَصَ الْعَرِيضَ كَيْفَ يَتَسَّعُ فِي الرَّمَالِ فَلَا تَغُوصُ، وَتَرَوْنَ الْأَهْدَابَ كَأَنَّهَا سُتُورٌ تُقَاتِلُ الرَّمَالَ عَنِ الْعَيْنِ أَلَا تَرَوْنَ الْخُفَّ يَحْمِلُ الْجِسْمَ عَلَى الصَّعَابِ، وَالْأَجُوفَ فِي جِسْمِهَا يَذْخُرُ الْمَاءَ وَالْدَّسَمَ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ هَذَا الْإِتْقَانُ شَاهِدٌ يَقُولُ لَكُمْ:

﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠).

تَقَدَّمَتْ مَرِيَمٌ وَمَدَّتْ كَفَّهَا تَلْمَسُ شَعْرَ النَّاقَةِ كَمَنْ يَقْرَأُ سَطْرًا مَكْتُوبًا بِلُغَةٍ لَيْتَنِي، ثُمَّ قَالَتْ وَفِي صَوْتِهَا نَبْضُ الْاِكْتِشَافِ: «إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحِلْقَةُ كُلُّهَا مُهَيَّأَةً لِلطَّرِيقِ الْبَعِيدِ وَالرَّيْحِ وَالرَّمَالِ، فَهَلْ فِي ذَلِكَ شَاهِدٌ يَعَلِّمُنَا كَيْفَ نَصْطَبُحُ الْآتِنَا»

فَقَالَ صَفْوَانٌ وَهُوَ يَضْحَكُ ضَحْكَةً مَنْ رَأَى خَيْطًا يَرِبُطُ الْوَرِشَةَ بِالصَّخْرَاءِ: «نَعَمْ. نَصْنَعُ لِلنَّارِ مَجْرًى وَلِلْهَوَاءِ مَسْلَكًا، وَنُؤَافِقُ بَيْنَ الصُّلْبِ وَاللِّينِ حَسَبَ الْمَقْصِدِ. فَهَذَا نَفْسُ مَا تُلْهِمُنَا إِيَّاهُ النَّاقَةُ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَقَرَأَ الْإِمَامُ آيَةَ تَجْمَعُ مَا فِي الْأَنْعَامِ مِنْ عِبَرَةٍ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦)،

ثُمَّ زَادَ شَاهِدًا يُرْسِخُ نِعْمَةَ التَّذْلِيلِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (يس: ٧١-٧٢).

تَحَرَّكَ جَابِرٌ وَقَالَ وَهُوَ يَسْتَعِيدُ خُطُوطَ مَنْهَجِ رَسَمِهِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ:
«إِذَنْ نُسَمِّي الْأَعْضَاءَ وَنَقْدُرُ أَشْكَالَهَا، ثُمَّ نُجَرِّبُ فِي الْوَرَشَةِ مَا يُحَاكِهَا، فَنَصِلُ
مِنَ الْخِلْقَةِ إِلَى الصَّنْعَةِ عَلَى مِيزَانٍ. أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ»

قَالَ الْإِمَامُ وَوَجْهُهُ يَلْمَعُ رِضًا: «هُوَ هُوَ. وَاسْمَعُوا آيَةً تَفْتَحُ بَابَ التَّدَبُّرِ فِي
كُلِّ مَا يَمُرُّ بِكُمْ:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمَّد: ٢٤).

فَمَنْ فَكَّ قُفْلَ قَلْبِهِ بِمِفْتَاحِ التَّدَبُّرِ جَرَى فِيهِ النُّورُ، ثُمَّ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ فِي
الْأَرْضِ صَنِعًا وَعَدْلًا.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

اَلتَّفَتَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي صَوْتِهِ مَا يُشْبِهُ مُرَاقِبَةَ التَّاجِرِ لِكَفَّتِي مِيزَانٍ:
«وَمَا حَظُّ التَّجَارَةِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَتَرَانَا إِذَا تَفَكَّرْنَا حَسَنَ رِبْحِنَا»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَقَدْ أَمَالَ الْكَلِمَةَ نَحْوَ قَلْبِهِ لِتُصْلِحَ مِقْدَارُهُ: «إِذَا تَفَكَّرْتَ
وَوَزَنْتَ وَعَدَلْتَ ثَبَتَتِ الثِّقَةُ، وَالثِّقَةُ رَأْسُ مَالٍ لَا يَنْفَدُ. وَأَسْمَعُ شَاهِدًا يَرْفَعُ
الْقِسْطَ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٩).

فَأَقِمِ مِيزَانَ التَّفَكُّرِ فِي بَيْعِكَ كَمَا تُقِيمُهُ فِي صَلَاتِكَ، يَكْمُلُ لَكَ الرِّبْحُ.»

رَجِعُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُلُوبُهُمْ تَحْمِلُ مَشَاهِدَ الصَّحَرَاءِ كَأَنَّهَا صُورُ
مَرْسُومَةٍ بِالضُّيَاءِ. جَلَسُوا، وَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَحْشُدُ الْخُطُوبَاتِ فِي خَيْطٍ وَاحِدٍ
لِتُصْبِحَ طَرِيقًا: «التَّفَكُّرُ كَالصَّلَاةِ، لَهُ طُهُورٌ وَقِبْلَةٌ وَقِيَامٌ وَقِرَاءَةٌ وَخُشُوعٌ. فَطُهُورُهُ
تَجْرِيدُ النَّفْسِ مِنَ الْهَوَى، وَقِبْلَتُهُ آيَاتُ الْمَنْشُورَةِ فِي الْكَوْنِ وَالْقُرْآنِ، وَقِيَامُهُ
النَّظَرُ الصَّادِقُ، وَقِرَاءَتُهُ التَّسْمِيَةُ وَالْقِيَاسُ، وَخُشُوعُهُ الْإِنْتِفَاعُ بِالْحَقِّ دُونَ بَطَرٍ.
وَهُنَا شَوَاهِدُ تَرْسُمِ الطَّرِيقِ:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذَّارِيَاتُ: ٢١)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠)،

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عَبَسَ: ٢٤).

رَفَعْتُ مَرِيْمَ دَفْتَرَهَا وَقَالَتْ وَقَدْ زَالَ مِنْ صَوْتِهَا تَرْدُدُ الْبِدَايَةِ: «إِذَنْ أَكْتُبْ مَا أَرَى، ثُمَّ أُحَاوِلْ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا، ثُمَّ أَرَايَ، ثُمَّ أَسْأَلُ أَهْلَ الذِّكْرِ فِي مَا أَشْكَلُ عَلَيَّ، ثُمَّ أَسْتَعِينُ بِالْقُرْآنِ فِي تَقْوِيمِ طَرِيقِي».

فَبَسَطَ الْإِمَامُ لَهَا بِشَاشَةً وَقَالَ: «وَأَذْكُرِي شَاهِدًا يَحْفَظُ لَكَ تَوَازُنَ الطَّلَبِ:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النَّحْلُ: ٧٨).

فَمَنْ شَكَرَ الْأَدَوَاتِ الَّتِي أُعْطِيَهَا، سَادَ قَوْمُهُ بِنُورٍ لَا يُطْفِئُهُ رِيحٌ.

انْفَرَجَ الْمَجْلِسُ قَلِيلًا، ثُمَّ عَادَ الْإِمَامُ يَنْسُجُ مِنَ الْكَلِمَاتِ ثَوْبًا يَلْبَسُهُ الْقَلْبُ فِي طَلَبِهِ: «كَمَا لَا يَسِقُّ اللَّيْلُ النَّهَارَ وَلَا تُدْرِكُ الشَّمْسُ الْقَمَرَ، كَذَلِكَ لَا تَتَقَدَّمُ التَّجَرُّبَةُ عَلَى التَّفَكُّرِ وَلَا يَنْفَصِلُ التَّدْبِيرُ عَنِ الْعَمَلِ.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَلَيْكَ يَسْبَحُونَ ﴿يس: ٤٠﴾.

فَاحْفَظُوا مَوَاقِيتَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، تَسْلَمَ لَكُمْ النِّتَائِجُ.

وَقَدْ طَالَ الْحَدِيثُ وَلَمْ تَتْعَبِ الْقُلُوبُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْ عَيْنٍ بَارِدَةٍ. وَقَبْلَ الْخِتَامِ قَالَ جَابِرٌ كَمَنْ يُثَبِّتُ مَطْلَبًا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابٍ: «أُرِيدُ كَلِمَةً تُقِيمُ الْفَارِقَ بَيْنَ التَّفَكُّرِ الصَّادِقِ وَالتَّوَهُّمِ الَّذِي يُشْبِهُهُ فِي الصُّورَةِ وَيُخَالِفُهُ فِي الْحَقِيقَةِ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَقَدْ جَمَعَ أَصَابِعُهُ كَمَنْ يَمْسِكُ مِفْتَاحًا: «التَّفَكُّرُ يَلِدُ التَّسْمِيَةَ وَالْقِيَاسَ وَالتَّجَرُّبَةَ، وَالتَّوَهُّمُ يَلِدُ الدَّعَاوَى وَتَصْدِيقَ النَّفْسِ بِلَا بَيِّنَةٍ. فَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا فِيهِ وَزْنٌ وَزَمَنٌ وَتَسْجِيلٌ فَهُوَ مِنَ التَّفَكُّرِ، وَإِلَّا فَهُوَ مِنْ سَدَفِ الْخِيَالِ. وَمِفْتَاحُ الْبَابِ آيَةٌ نَسْتَظِلُّ بِهَا:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

وَعِنْدَمَا قَامُوا لِلْإِنْصِرَافِ أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ أَيْتِسَامَةً تُطْمِئِنُّ الرُّوحَ: «إِذَا اسْتَعْلَبَكُمْ الْخَوْفُ مِنْ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي النُّجُومَ فِي مَسِيرِهَا، وَيَهْدِي الْقُلُوبَ فِي طَلِبِهَا.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

(ق: ٦)،

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ (الْمُلْكُ: ٣).

فَأَقِمْوْا مِيزَانَ النُّظَرِ، يَقُمْ مَعَهُ مِيزَانُ الْحَيَاةِ.

أَطْفَأُوا سُرْجَ الزَّيْتِ إِلَّا سِرَاجًا وَاحِدًا تُرِيكَ ضَوْؤُهُ يَنْسَابُ عَلَى الْأَرْضِ
كَسَبِيلٍ بَيْنَ، ثُمَّ خَرَجُوا وَفِي كُلِّ صَدْرِ خَيْطٌ مِنْ هَذَا النُّورِ يَقُودُهُ إِلَى مَشَاهِدَ
جَدِيدَةٍ يَنْظُرُ فِيهَا وَيَتَفَكَّرُ وَيُسَمِّي وَيَقِيسُ وَيَجْرُبُ وَيُدَوِّنُ. وَيَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ
مَرُّوا بِقُطْعٍ إِبِلٍ يَعْدُ أَلْقَافَلَةً لَصَبَاحٍ قَادِمٍ، فَقَالَتْ مَرْيَمُ وَهِيَ تَتَبَسَّمُ: «سَأَكْتُبُ
الْيَوْمَ أَنَّ الْإِبِلَ آيَةٌ تُعَلِّمُ الْعَيْنَ كَيْفَ تُبْصِرُ وَالْقَلْبَ كَيْفَ يَتَّقِي وَالْعَقْلَ كَيْفَ
يَزِنُ.»

فَقَالَ «الْإِمَامُ» وَصَوْتُهُ يُشْبِهُ دُعَاءَ يَخْتِمُ مَجْلِسًا: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا مِنْ نُورِكَ
مَا نَنْظُرُ بِهِ وَنَعْمَلُ، وَاجْعَلْ تَفَكَّرَنَا جِسْرًا إِلَى رِضَاكَ، فَإِنَّكَ قُلْتَ:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الْعَلَقُ: ٥)،

وَقُلْتَ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ سَكَنَ الْمَدِينَةَ عَلَى نَبْضٍ هَادِيٍّ، وَكَانَ فِي الصُّدُورِ صَوْتُ خَفِيِّ
يُرَدِّدُ كُلَّمَا أَغْمَضُوا الْعُيُونَ: «انْظُرُوا، فَإِنَّ النَّظَرَ مِفْتَاحٌ، وَتَفَكَّرُوا، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ
طَرِيقٌ، وَأَعْمَلُوا، فَإِنَّ الْعَمَلَ ثَمَرَةٌ.»

هَكَذَا انْطَفَأَ اللَّيْلُ وَشَرَعَ الصُّبْحُ يَمْسَحُ الْأَفُقَ بِيَاضِهِ، وَبَدَأَ كَأَنَّ كُلَّ
شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ يَقُولُ لِمَنْ سَمِعَ: «إِنْ نَظَرْتَ أَبْصَرْتَ، وَإِنْ تَفَكَّرْتَ عَقَلْتَ،
وَإِنْ اتَّبَعْتَ مِيزَانَ الْآيَاتِ بَلَغْتَ الرُّشْدَ.»

الفصل الثالث: تَوَاضُعُ الْعِلْمِ وَحُدُودُهُ

• المَوَازِينُ:

- قِلَّةُ الْعِلْمِ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85).
- مِيزَانُ الْفَسَادِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:

22).

- الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الأنعام: 73).

- السَّرْدُ: يُناقِشُ الطُّلَابُ نَظْرِيَّةً عِلْمِيَّةً تَحْتَوِي عَلَى تَنَاقُضٍ. يُشِيرُ هَاشِمُ بْنُ الْعَلَاءِ إِلَى أَنَّ التَّنَاقُضَ دَلِيلٌ عَلَى الْفَسَادِ فِي الْفِكْرَةِ. تُذَكِّرُ آمِنَةُ الْبَصِيرِيَّةُ أَنَّ الْعِلْمَ الْبَشَرِيَّ قَلِيلٌ، وَأَنَّهُ لَا يُدْرِكُ الْغَيْبَ. يَتَدَخَّلُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ لِتَفْكِيكِ التَّنَاقُضِ، وَيُثَبِّتُ الْإِمَامُ أَنَّ هَذَا التَّوَاضُعَ هُوَ مِيزَانُ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْفَسَادِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَنَفَّسُ سُكُونًا رَطْبًا، وَتَتَدَلَّى مِنَ الْقِبَابِ هُدَبَاتُ ضِيَاءٍ تُقْبَلُ الْأَرْضَ كَأَنَّهَا أَنْامِلُ رَحْمَةٍ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ جَابِرٌ وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهَاشِمُ بْنُ الْعَلَاءِ وَصَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ وَحَبِيبُ الدُّنْيَا وَمَرْيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ. لَمَّا خَفَّ هَمْسُ الْحَلَقَةِ، رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَسِيلُ كَأَلْمَاءٍ عَلَى صَفْحَةٍ حَجَرٍ أَمْلَسَ:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢).

تَمَوَّجَتِ الْكَلِمَةُ فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ سَكَتَتْ كَأَنَّهَا حَجَرٌ وُضِعَ فِي مَوْضِعِ الْقَلْبِ لِيُقَيَّسَ الْأَسْتِقَامَةُ وَالْإِنْحِرَافُ.

مَالَ الْإِمَامُ إِلَيْهِمْ بِالْتِفَاتَةٍ فِيهَا بَشَاشَةٌ مُعَلِّمٍ وَحَزْمٌ مُقَوِّمٍ، وَقَالَ وَنَبْرَتُهُ تَرْتَفِعُ عَلَى قَدَرٍ: «الْيَوْمَ نَبْدَأُ مِنْ طَرَفٍ يَشُدُّ الْعَقْلَ حَتَّى يَعْلَمَ مَتَى يَنْقَلِبُ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْفَسَادِ. سَأَرْسُمُ لَكُمْ صُورَةَ رَأْيٍ مُعَقَّدٍ يَتَرَيَّنُ كَثُوبٌ مُطَرَّرٌ، غَيْرَ أَنَّ خَيْطًا خَفِيًّا فِيهِ يَقْطَعُ سِدَاهُ». سَكَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ بَسَطَ رَاحَتَيْهِ كَمَنْ يَعْرِضُ مِيزَانًا:

«يَقُولُ هَذَا الرَّأْيُ: يُمَكِّنُ أَنْ نَجْعَلَ الْمَاءَ يَصْعَدُ فِي السَّاقِيَةِ مِنْ غَيْرِ رَافِعٍ، وَيَجْرِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ مُنَحْدِرًا إِلَى الْحُقُولِ، فَتُسْقَى الْمُرْتَفَعُ وَالْمُنْخَفَضُ مَعًا بِنَفْسِ الْقَدْرِ، وَنَحْصُلُ عَلَى مَاءٍ يَزِيدُ عَلَى مَا أَدْخَلْنَا. أَلَا تَرَوْنَهُ بَرَّاقًا» أَرْتَفَعَ هَمْسٌ، وَأَشْتَعَلَتْ عُيُونُ الْفِتْيَةِ سُؤَالَ.

تَقَدَّمَ هَاشِمُ بْنُ الْعَلَاءِ خُطْوَةً وَجَبِينُهُ يَلْمَعُ بُنُورِ الْإِنْتِبَاهِ، وَقَالَ وَهُوَ يُثَبِّتُ كَلِمَاتِهِ مِثْلَ مَسَامِيرٍ فِي لَوْحٍ: «يَا سَيِّدِي، إِنْ كَانَ الْمَاءُ يَصْعَدُ وَيَنْحَدِرُ مَعًا، فَقَدْ نَفَيْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْدُنُوِّ، وَجَعَلْنَا الشَّيْءَ وَضِدَّهُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ. وَإِذَا جَرَى الْمَاءُ أَكْثَرَ مِمَّا أَدْخَلْنَا، فَقَدْ أَثْبَتْنَا زِيَادَةً بِلا سَبَبٍ. هَذَا تَنَاقُضٌ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْأَصْلِ». كَانَ الْكَلِمَةُ قَطَعَتْ خِيْطَ الزَّيْنَةِ، فَتَبَدَّى الثَّوْبُ لِلْعُيُونِ عَلَى حَقِيقَتِهِ.

هُنَا تَدَخَّلَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ وَمَعَهُ لَوْحَةٌ قَدْ رَسَمَ عَلَيْهَا سَهْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَصْعَدُ وَالْآخَرُ يَنْحَدِرُ، ثُمَّ جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِيزَانًا. قَالَ يُفَكِّكُ الْخُطُواتِ: «إِنْ قُلْنَا يَصْعَدُ الْمَاءُ بِغَيْرِ رَافِعٍ، فَقَدْ أَثْبَتْنَا فِعْلًا بِلا سَبَبٍ، وَهَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَنَا السَّابِقَ: «كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ يُسَاقُ بِهِ». وَإِنْ قُلْنَا يُسْقَى الْمُرْتَفَعُ وَالْمُنْخَفَضُ مَعًا بِنَفْسِ الْقَدْرِ، فَقَدْ سَوَيْنَا بَيْنَ مَوْضِعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِلا شَرْطٍ يُبَرِّرُ التَّسْوِيَةَ. هَذَا خَلَلٌ فِي الْقَاعِدَةِ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ الصَّحِيحَةَ تُنتِجُ نَتَائِجَ مُتَّسِقَةً لَا تَعُضُّ الصَّاحِبَ بَعْضُهَا». أَهْتَزَّتِ الْحَلَقَةُ عِجَابًا بِنَفَازِ الْقِيَّاسِ.

أَطْرَقَ الْإِمَامُ ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ وَفِي عَيْنَيْهِ سَكِينَةٌ مَنْ يَرَى الْحَقَّ يَتَجَلَّى،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَقَالَ وَصَوْنُهُ يُشْبِهُ جَرَسًا يَدْعُو إِلَى الْإِنْتِبَاهِ: «هَذَا التَّنَاقُضُ عَيْنُ مَا تُسَمِّيهِ الْآيَةُ فَسَادًا. فَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ قَامَتَا عَلَى وَحْدَةِ الْمَصْدَرِ؛ فَلَوْ تَعَدَّدَ الْمُدَبِّرُ لَأَخْتَلَّ النَّظَامُ. ثُمَّ كَرَّرَ الْآيَةَ:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وَقَدْ شَهِدَ الْكِتَابُ أَيْضًا لِهَذَا الْقَانُونِ فِي مَجَالِ الْقَوْلِ وَالْفِكْرِ، فَقَالَ:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

فَحَيْثُمَا ظَهَرَ الْإِخْتِلَافُ الْمُتَضَادُّ فِي الْأَصُولِ فَهُنَاكَ فَسَادٌ، وَحَيْثُمَا انْقَادَتْ الْأَجْزَاءُ لِوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَهُنَاكَ الْحَقُّ. «

تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَهُوَ يُدَاوِرُ سُؤَالَ فِي رَأْسِهِ كَمَنْ يُدَاوِرُ كِفَّتِي مِيزَانٍ، وَقَالَ مُتَحَفِّظًا: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي، فِي السُّوقِ نَحْتَالُ أحيانًا لِنَكْسَبِ؛ نَخَفِّفُ الْخَلِيطَ شَيْئًا، نُقَدِّمُ الْوَقْتَ أَوْ نُؤَخِّرُهُ، نَرْبِحُ الْيَوْمَ وَإِنْ خَسِرْنَا قَلِيلًا فِي الْمِيزَانِ. أَيْكُونُ هَذَا فَسَادًا»

أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً فِيهَا رَفَقٌ يَعْقِدُ عَلَيْهِ الْحَزَمَ، وَقَرَأَ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿الرَّحْمَنُ: ٧-٩﴾.

ثُمَّ قَالَ: «حِينَ تَخْسِرُ الْمِيزَانَ، تَكْسِرُ جِسْرَ الثِّقَةِ. وَإِذَا انْكَسَرَ الْجِسْرُ، انْقَطَعَ الْمَرْكَبُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، فَتَتَبَدَّدُ الْأَرْزَاقُ. هَذَا فَسَادٌ يَبْدَأُ فِي الْكِفَّةِ، ثُمَّ يَتَسَّعُ فِي الْمَدِينَةِ. وَاسْمَعْ شَاهِدًا آخَرَ:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٥٢)،

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (الْمُطَفِّفُونَ: ١).»

أَشَارَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ إِلَى الْبَابِ وَالْعَصْرِ يُقَرَّبُ ظِلُّهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ بِحِمَاسٍ رَزِينٍ: «لَوْ خَرَجْنَا إِلَى السَّاقِيَةِ نَرَى هَذَا الْفَسَادَ كَيْفَ يَظْهَرُ إِذَا خَالَفْنَا الْقَاعِدَةَ» أَكْتَسَبَتِ الْحَلَقَةُ حَيَوِيَّةَ الْمَشْهَدِ الْمَفْتُوحِ، فَخَرَجُوا. عِنْدَ حَافَةِ الْمَجْرَى وَقَدْ مَالَ الْغُرُوبُ إِلَى شُعْرَةٍ، أَمَرَ الْإِمَامُ بِأَنْ تُسَدَّ شُقَّةٌ صَغِيرَةٌ لِتُعَجَّلَ الْمَاءُ. مَضَى الْمَاءُ سَرِيعًا، ثُمَّ انْهَدَمَ جَانِبُ رَقِيقٍ وَأَصْطَحَبَ التُّرَابُ فِي السَّيْلِ. أَشَارَ الْإِمَامُ بِإِصْبَعِهِ كَمَنْ يُسَجِّلُ عَلَى سَبُورَةٍ: «هَذَا مِثَالُ فَسَادٍ نَشَأَ مِنْ مُخَالَفَةِ مِيزَانِ الْمَجْرَى. زِدْنَا الدَّفْعَ بَغَيْرِ قَدَرٍ، فَفَسَدَ الْجَانِبُ. وَاسْمَعُوا شَاهِدًا يُصْلِحُ مَعْنَى التَّقْدِيرِ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدُ: ٨).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَإِذَا زَادَ الدَّفْعُ عَلَى الْمِقْدَارِ انْقَلَبَ الْإِصْلَاحُ إِلَى فَسَادٍ.

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَعَلَى ثِيَابِهِمْ نُقَاطٌ مِنَ الطِّينِ كَأَنَّهَا شَوَاهِدُ مَكْتُوبَةٍ، فَجَلَسُوا. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَجْمَعُ مَا رَأَوْهُ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ: «الْفَسَادُ لَهُ وَجْهٌ، وَلَهُ مِيزَانٌ يُكْشَفُ بِهِ. تَارَةً يَكُونُ مِنْ تَعَارُضِ الْأُصُولِ كَمَا فِي صُورَةِ الرَّأْيِ الَّذِي حَكَيْنَا، وَتَارَةً يَكُونُ مِنَ الْإِسْرَافِ أَوْ التَّفْرِيطِ، وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ تَعَدُّدِ الْمَرْجِعِ. وَفِي كُلِّ ذَلِكَ شَاهِدٌ يُرَدُّكُمْ إِلَى الْقَاعِدَةِ الْعُلْيَا:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (الشورى: ١٧).

فَالْحَقُّ يَقُومُ عَلَى مِيزَانٍ، وَالْفَسَادُ يَظْهَرُ حِينَ يُخْسَرُ الْمِيزَانُ أَوْ يُتْرَكُ.

رَفَعَ هَاشِمُ بْنُ الْعَلَاءِ يَدَهُ وَفِي صَوْتِهِ طَلَبُ تَمَامٍ: «هَلْ مِنْ مِثَالٍ يَجْمَعُ الْعَقْلَ وَالْعَمَلَ» أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى عَاصِمِ الصَّانِعِ وَكَانَ قَدْ دَخَلَ حَدِيثًا، فَقَالَ لَهُ: «أَشْعِلْ نَارَكَ فِي الْوَرِشَةِ، وَأَدْعُهُمْ». انْتَفَلُوا إِلَى الْوَرِشَةِ وَصَوَّتَ الْمِطْرَقَةُ يُقِيمُ إِيْقَاعًا يَشْهَدُ لَوْضُوحِ الْقَانُونِ. قَالَ عَاصِمٌ وَهُوَ يَقْرُبُ الْحَدِيدَ مِنَ الْجَمْرِ: «إِذَا ضَبَطْتُ اللَّوْنَ عَلَى دَرَجَةٍ مَعْلُومَةٍ لَانَ الْحَدِيدُ وَانْقَادَ، وَإِنْ تَعَدَّيْتُ الدَّرَجَةَ تَقَصَّفَ، وَإِنْ نَقَصْتُهَا أَبَى. فَمَتَى أَهْمِلُ الْقَدْرَ فِي اللَّوْنِ فَسَدَ الصَّنِيعُ.» هَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ وَقَرَأَ:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطَّلَاقُ: ٣).

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ تَجَاوَزَ الْقَدْرَ فِي الْوَقْتِ أَوْ الْمَكَانِ أَوْ الْفِعْلِ أَوْ قَعِ الْعَمَلِ فِي فُسَادٍ، كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ ضِدَّيْنِ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ.»

وَأَخَذَ الْحَدِيثُ يَتَسَّعُ كَالدَّائِرَةِ حَوْلَ حَجَرٍ وُضِعَ فِي الْمَاءِ. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَضَعُ لِلْقُلُوبِ آيَاتٍ تَهْدِيهَا فِي الطَّرِيقِ: «يُظْهِرُ الْفُسَادَ حِينَ نَلْبِسُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ؛

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ٤٢).

وَيُظْهِرُ حِينَ نَتَّبِعُ الظَّنَّ وَنَدْعُ الدَّلِيلَ؛

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْأَسْرَاءُ: ٣٦).

وَيُظْهِرُ حِينَ نَفْسِدُ بَعْدَ إِصْلَاحٍ؛

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافُ: ٥٦).

وَيُظْهِرُ حِينَ نُخَالِفُ مَقَاصِدَ الْخَيْرِ وَنُقَدِّمُ الرَّبْحَ الْعَاجِلَ عَلَى قُوتِ

النَّاسِ؛

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠)،

وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).

وَقَفَ جَابِرٌ وَقَلَمُهُ يَلْمَعُ كَسَيْفِ سِوَالٍ، وَقَالَ بِالْحِدَّةِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَفْتَحُ
بَابًا وَلَا تُغْلِقُ آخَرَ: «هَلْ نَجْعَلُ لِلْفَسَادِ مِيزَانًا نَقِيسُ بِهِ مَظَاهِرَهُ لِكَيْ نَعْرِفَ مَوْضِعَ
الذَّاءِ»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ كَمَنْ يَسْمَعُ مَا يَرْتَضِيهِ، وَقَالَ: «نَعَمْ. أَسْأَلُوا أَنْفُسَكُمْ فِي
كُلِّ نَظَرٍ وَعَمَلٍ ثَلَاثَةَ أَسْئَلَةٍ: هَلِ الْأُصُولُ مُتَّسِقَةٌ لَا تَتَنَاقَضُ هَلِ الْقَدَرُ مَحْفُوظٌ
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْفِعْلِ هَلِ الْمَقْصِدُ نَبِيلٌ يُصْلِحُ وَلَا يُفْسِدُ فَإِنْ سَلِمَتْ هَذِهِ
الْثَلَاثَةُ، سَلِمَ الْعَمَلُ؛ وَإِلَّا فَالْخَلَلُ يَمْنَعُ الْإِتْقَانَ.» ثُمَّ قَرَأَ لِيَرُسَمَ لِلْقَلْبِ جُمْلَةً
تُضِيءُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (الذَّخَانُ: ٣٨).

فَحَيْثُ لَا عَبَثَ فِي الْخَلْقِ، لَا يَلِيقُ بِالْعَقْلِ أَنْ يَرْضَى لِنَفْسِهِ عَبَثًا فِي
الْقَوْلِ أَوْ الْعَمَلِ.

ارْتَفَعَ فِي الْحَلَقَةِ صَوْتُ مَرْيَمَ وَفِيهِ رِقَّةٌ مَنْ يَسْأَلُ لِيَزِدَادَ بَصِيرَةً: «إِذَنْ،
إِذَا اسْتَمَعْنَا إِلَى رَأْيٍ يُعْجِبُنَا لِحُسْنِ لَفْظِهِ، نَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ لِنَقِيسَهُ قَبْلَ
الْقَبُولِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

قَالَ الْإِمَامُ وَصَوْنُهُ يَهْبُ كَنْسِيمٍ عَلَى نَارٍ تُرِيدُ أَنْ تَزِيغَ: «هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ.
وَأَسْمَعِي شَاهِدًا يَضَعُ الْفَاصِلَ بَيْنَ الدَّعْوَى وَالْبَيِّنَةِ:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

فَمَنْ أَتَى بِبُرْهَانٍ مُتَّسِقٍ، قُبِلَ قَوْلُهُ، وَمَنْ أَتَى بِزَيِّنَةٍ لَفْظٍ تَحْتَهَا تَنَاقُضٌ،
رُدَّ. وَهَهُنَا يَثْبُتُ مِيزَانُ الْفَسَادِ: إِظْهَارُ التَّنَاقُضِ وَحِفْظُ الْقَدْرِ وَتَقْوِيمُ الْمَقْصِدِ..»

الْتَفَتَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَمِينًا وَشِمَالًا كَمَنْ يَتَفَقَّدُ الرِّيحَ فِي وُجُوهِ
الْكَلِمَاتِ، ثُمَّ قَالَ بِمَسْكَنَةٍ تُخْفِي جِدًّا: «أَتُرَانِي إِذَا قُلْتُ لِرُبُّونٍ: سَأَسْلَمُكَ غَدًا
وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ، فَقَدْ وَقَعْتُ فِي مِيزَانِ الْفَسَادِ»

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَضَعُ كَلِمَتَهُ عَلَى قَلْبِهِ كَغُصْنٍ نَدِيٍّ: «إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ
وَعْدٍ وَخِلَافٍ فَقَدْ جَمَعْتَ ضِدَّيْنِ، وَتِلْكَ بَذْرَةُ الْفَسَادِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢).

إِنْ عَجَزْتَ، فَأَقُلْ لَا أَقْدِرُ، يَثْبُتُ لَكَ الْقَدْرُ وَتَسْلَمِ الشُّقَّةُ.»

وَفِي سَاعَةٍ بَيْنَ الصُّحَى وَالْعَصْرِ تَدَافَعُ الْحَدِيثُ إِلَى مَشْهَدٍ آخَرَ. دَخَلَ
رَجُلٌ عَلَى الْحَلَقَةِ يَشْكُو شَهَادَةً تَتَنَاقَضُ فِي سُوْقٍ بَيْنَ بَائِعٍ وَمُشْتَرٍ. نَظَرَ الْإِمَامُ
فِي الْوَرَقَةِ، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا تَنَاقَضَتِ الشَّهَادَةُ فِي الْأَصْلِ، سَقَطَتْ، وَاحْتَجَجْنَا إِلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

شَاهِدٌ أَقْوَى. هَكَذَا يَحْكُمُ أَلْعَقْلُ: لَا يَثْبُتُ حَقٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ فِيهَا تَضَادٌّ. وَقَدْ قَالَ
تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَيْمَانِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾
(النِّسَاءُ: ١٣٥).

فَإِذَا صَحَّ الْقِسْطُ انْقَطَعَ سَبِيلُ الْفَسَادِ.

اسْتَدَارَ الْحَدِيثُ إِلَى السَّعَةِ. قَالَ الْإِمَامُ يُلَخِّصُ وَيَبْسُطُ: «تَعْرِفُونَ
الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِذَا رَأَيْتُمْ الْأَثَارَ تُجَادِبُ بَعْضُهَا هُنَا تَبْنُونَ، وَهُنَا لِكَ
تَهْدُمُونَ، هُنَا تُصْلِحُونَ، وَهُنَا لِكَ تُفْسِدُونَ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾
(الرُّومُ: ٤١).

فَاطْلُبُوا الْوَتِيرَةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي تَجْمَعُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ، وَاحْفَظُوا الْمِيزَانَ فِي
الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَاجْعَلُوا الْمَقْصِدَ نُورًا يَهْدِي الْخُطُوبَاتِ. «ثُمَّ قَرَأَ يَسْتَخْلِصُ
الصَّيْغَةَ الْعُلْيَا:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ﴾ (الْمُلْكُ: ٣).

فَمَنْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ تَفَافُتًا فِي الْأُصُولِ، فَقَدْ خَالَفَ سُنَّةَ الْإِتْقَانِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَقَفَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَجْمَعُ مَا تَنَازَعَتْ مِنَ الْأَمْثَالِ فِي خَيْطٍ وَاحِدٍ، وَقَالَ
وَهُوَ يَرْسُمُ بِاللِّسَانِ سُلَّمًا تَصْعَدُهُ الْعُقُولُ: «إِذَا ظَهَرَ فِي رَأْيٍ تَنَاقُضٌ، فَنبْدَأُ
بِتَسْمِيَةِ الْأُصُولِ، ثُمَّ نَحَاكِمُهَا إِلَى مِثْلِهَا، ثُمَّ نَقِيسُ النِّتَائِجَ عَلَى الشُّرُوطِ، ثُمَّ
نَطْلُبُ شَاهِدًا مِنَ التَّجَرُّبَةِ، فَإِنْ أُتِسَفَتْ سَلِمَ الْبَيَانُ، وَإِلَّا فَقَدْ ظَهَرَ مِيزَانُ
الْفَسَادِ.» أَوْمًا لِإِمَامٍ إِلَيْهِ رِضَى، ثُمَّ زَادَ آيَةً تُثَبِّتُ السَّيْرَ عَلَى صِرَاطٍ:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الْفَاتِحَةُ: ٦).

فَمَنْ اسْتَقَامَتْ خَطَوَاتُهُ عَلَى الْقِيَاسِ وَالتَّجَرُّبَةِ وَالْقَصْدِ، هُدِيَ إِلَى
الْإِتْقَانِ.

حَمَلْتُ آخِرَ اللَّحْظَاتِ نَفْسًا مِنْ خُشُوعٍ. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَجْمَعُ مَا
تَشَعَّبَ فِي جُمْلَةٍ تُطْفِئُ نَارَ الْإِشْتِبَاهِ: «الْفِكْرُ الْمُتَنَاقِضُ كَمَاءٍ مَالٍ فِي الْمَجْرَى
عَنْ قَدَرِهِ، يَهْدُمُ جَانِبًا وَيَتْرُكُ آخَرَ يَبَسًا؛ لَا يَسْقِي أَرْضًا وَلَا يُنْبِتُ زَرْعًا. حَافِظُوا
عَلَى وَحْدَةِ الْمَرْجِعِ فِي عُقُولِكُمْ وَمِهْنِكُمْ وَأَسْوَاقِكُمْ، تَسْلَمَ لَكُمْ الْحَيَاةُ عَلَى
وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَادْكُرُوا دَائِمًا أَنَّ اللَّهَ قَالَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠)،

وَقَالَ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩)،

فَالَّذِي أَحْكَمَ أَوْزَاقَ الشَّجَرِ عَلَى مِيزَانِ عِلْمِهِ، لَا يَرْضَى لَكُمْ فِكْرًا يَمِيلُ
وَلَا عَمَلًا يَفْسُدُ.

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْعَصْرِ يَمْسَحُ الْأَفُقَ بِنُورِهِ الرَّائِقِ، وَفِي كُلِّ صَدْرِ
مِيزَانٌ صَغِيرٌ يَطْرُقُهُ السُّؤَالُ: هَلِ اتَّسَقَ الْأَصْلُ هَلْ حُفِظَ الْقَدْرُ هَلْ سَلِمَ الْمَقْصِدُ
وَكُلَّمَا تَذَكَّرُوا آيَةَ اللَّيْلِ بَدَأَ بِهَا الْمَجْلِسُ سَمِعُوا صِدَاهَا يَرْتَدُّ فِي قُلُوبِهِمْ كَأَنَّهُ
جَرَسُ نَبِّهِ لَا يَخْمَدُ:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢).

هُنَالِكَ أَدْرَكُوا أَنَّ مِيزَانَ الْفَسَادِ لَيْسَ سَيْفًا يَهْدُدُ، بَلْ مِرَاةٌ تُبَيِّنُ، فَمَنْ
رَأَى فِيهَا الْأَعْوَجَاجَ قَوْمَ، وَمَنْ رَأَى فِيهَا الْأَسْتِقَامَةَ أَطْمَأَنَّ، فَقَدْ قِيلَ فِي آيَةٍ
جَامِعَةٍ:

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْزُونٍ﴾ (الْحَجَرُ: ١٩).

فَإِذَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مَوْزُونًا، فَالْقَوْلُ وَالْعَمَلُ أُولَى أَنْ يَقُومَا عَلَى مِيزَانٍ،
لَيْلًا يَسْرِى الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ وَالْإِنْسَانِ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّوَاضُّعِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَنَفَّسُ هُدُوَّهُ كَمَنْ يَسْتَعِدُّ لِسِرٍّ عَظِيمٍ،
وَتَدَلَّى مِنْ سَقْفِهِ قَنَادِيلُ الزَّيْتِ تُشِيعُ نُورًا أَصْفَرَ يَتَرَاجَعُ عَلَى الْجُدْرَانِ كَأَنَّهُ
أَمْوَاجُ بَحْرِ رَقِيقٍ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ الْحَلَقَةُ كَأَكْلِيلٍ مِنْ وُجُوهِ نَهْمَةٍ
لِلنُّورِ: صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ لَوْحًا قَدْ نَقَشَ عَلَيْهِ خُطُوطًا مِنْ بَيَانٍ، وَجَابِرٌ يُثَبِّتُ
قَلَمَهُ عَلَى دَفْتَرٍ أَصْفَرَ كَأَنَّهُ يُمَسِّكُ بِنَبْضِ الْكَلَامِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَتَظَاهَرُ
بِالْإِهْتِمَامِ وَيَرْمِي نَظْرَهُ حَوَالِيهِ، وَآمِنَةُ الْبَصِيرِيَّةُ تَضُمُّ طَرْفَ خِمَارِهَا وَفِي عَيْنَيْهَا
سُؤَالٌ عَامِرٌ بِالتَّقْوَى.

أَرْتَفَعَ صَوْتُ الْإِمَامِ رَقِيقًا ثُمَّ أَمْتَلَأَ ثِقَةً كَمَا تَمْتَلِئُ الْأَنْهَارُ فِي مَوَاسِمِهَا،
وَتَلَا بِتَرْتِيلٍ يَخْرُجُ مِنَ الصَّدْرِ كَالنَّسِيمِ الرُّطْبِ:

﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥).

ثُمَّ أَسْدَلَ الشُّكُونِ عَلَى الْقُلُوبِ لَحْظَةً، وَقَالَ وَهُوَ يُدِيرُ بَصَرَهُ فِي
الْوُجُوهِ: «هَذِهِ كَلِمَةُ مِيزَانٍ، لَيْسَتْ نَقْصًا فِي حَقِّكُمْ، بَلْ حِفْظًا لَكُمْ مِنْ غُرُورِ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

يَجْعَلُ الْعِلْمَ سَيْفًا يَجْرَحُ بِهِ صَاحِبُهُ نَفْسَهُ. إِذَا عَلِمْتَ قِلَّتِكَ، زَادَكَ اللَّهُ فَضْلًا،

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وَإِذَا ادَّعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ، قَلَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ حُجَّتَكَ،

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُفُ: ٧٦).

تَقَدَّمَتْ أَمِنَةُ الْبَصِيرِيَّةُ خُطُوَةً وَوَضَعَتْ كَفَّهَا عَلَى صَدْرِهَا كَمَنْ يَسْتَفْتِحُ
بَابًا لِلنُّورِ، وَقَالَتْ وَهِيَ تُخَاطَبُ الْحَلَقَةَ أَكْثَرَ مِمَّا تُخَاطَبُ الْإِمَامَ: «يَا إِخْوَةَ
الْقَلْبِ، قَدْ سَمِعْتُمْ آيَاتِي، وَإِنِّي لَأَرَاهَا تُنْقِدُنَا مِنْ مَهْلَكَتَيْنِ: غُرُورٍ يَقُولُ أَحَطْنَا،
وَقُتُوبٍ يَقُولُ لَا نَبْلُغُ. بَيْنَ هَاتَيْنِ قَامَ التَّوَاضُّعُ مِيزَانًا: نَعْرِفُ قِلَّتَنَا فَنَطْلُبُ الزِّيَادَةَ،
وَلَا نَزْعُمُ الْإِحَاطَةَ فَنَقَعَ فِي الْهَوَى».

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ لِكَلِمَاتِهَا، ثُمَّ أُنْحَنَى إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْأَرْضِ فَرَسَمَ بِإِصْبَعِهِ
دَائِرَةً صَغِيرَةً، وَقَالَ وَكَلَامُهُ يَخْرُجُ هَادِنًا كَمَنْ يَتَفَقَّدُ نَبْتَةً نَدِيَّةً: «هَذِهِ دَائِرَةُ مَا
تَعْلَمُ. حَوْلَهَا بَحْرٌ لَا حَافَةَ لَهُ مِمَّا لَا تَعْلَمُ. كُلَّمَا كَبُرَتْ الدَّائِرَةُ كَثُرَ مَسْهَاهَا لِبَحْرِ
الْمَجْهُولِ، فَيَزْدَادُ الْمَرْءُ عِلْمًا وَتَوَاضُّعًا مَعًا. هَكَذَا يَنْبُتُ الْعِلْمُ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ،

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فَاطِرُ: ٢٨)،

لِأَنَّ الْعَالَمَ يَعْرِفُ قَدْرَ نَفْسِهِ، فَيَخْشَى وَيَسْتَرِيدُ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

مَا لَ صَاحِبِ الْقِيَاسِ إِلَى الْأَمَامِ كَمَنْ يَسْتَأْذِنُ بِسُؤَالٍ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ
مِفْتَاحًا، وَقَالَ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، إِنِّي أَرَى التَّوَاضُّعَ لَيْسَ خُلُقًا فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَيْضًا
قَاعِدَةٌ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي نَطْلُبُ بِهَا الْمَعْرِفَةَ؛ فَنَسَمِّي الشُّرُوطَ، وَنُصَلِّحُ الْفَرَضَ،
وَنَعْتَرِفُ بِأَنَّ نَتِيجَتَنَا قَابِلَةٌ لِلتَّغْيِيرِ إِذَا ظَهَرَ لَنَا دَلِيلٌ أَقْوَى. هَلْ هَذَا مِنْ مِيزَانِ
التَّوَاضُّعِ»

هَزَّ الْأَمَامُ رَأْسَهُ رِضًى، وَقَرَأَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الْقَاعِدَةَ فَوْقَ كِتْفِي آيَةً:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٣٦).

ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلدَّلِيلِ سَلِمَ مِنَ الظَّنِّ الَّذِي يُضِلُّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى
الْحُجَّةِ سَلَبَ نَفْسَهُ الْمِيزَانَ.»

وَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ أَصَابَتْهُ كَلِمَاتُ الْأَمَامِ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْتَرِفُ بِهِ
سِوَى ضَمِيرِهِ، وَقَالَ مُتَحَامِلًا عَلَى خُطُوتِهِ: «وَلَكِنَّ التَّوَاضُّعَ قَدْ يُضَيِّعُ عَلَى
الْمَرْءِ رِبْحًا مُعْجَلًا؛ إِنَّ النَّاسَ لَا تَرْحُمُ الضَّعِيفَ، وَتُعْطِي الْمُتَعَالِي مَا يُرِيدُ.»

نَظَرَ إِلَيْهِ الْأَمَامُ نَظْرَةً فِيهَا رِفْقٌ وَعَزْمٌ مَعًا، وَقَالَ: «لَيْسَ التَّوَاضُّعُ ضَعْفًا،
بَلْ هُوَ قُوَّةٌ تُقِيمُكَ عَلَى قَدْرِكَ؛ تَرْفُضُ مَا لَا تَعْلَمُهُ، وَتَقْبَلُ مَا يَشْهَدُ لَهُ الدَّلِيلُ.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الْقَمَانُ:

،(١٨

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٣٧).

وَإِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ زَادَكَ اللَّهُ عِزًّا،

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الْحَجَرُ: ٨٨).

أَنْتَقَلَ الْمَشْهُدُ كَمَا تَنْتَقِلُ الرِّيحُ مِنْ شُعْبَةٍ نَخْلَةٍ إِلَى أُخْرَى. خَرَجُوا إِلَى السَّاقِيَةِ، وَالشَّمْسُ تَتَرَاوَعُ خَبُولَةً خَلْفَ سُتُورٍ مِنْ سَحَابٍ خَفِيفٍ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى مَوْضِعٍ فِيهِ تَرْسَبَاتٌ طِينٍ، وَقَالَ: «هُنَا يَتَكَبَّرُ الْمَاءُ إِذَا لَمْ نُقَوِّمَهُ؛ يَحْمِلُ مَعَهُ مَا لَا يَلْزِمُهُ، فَيَسُدُّ مَجْرَى الرَّزْقِ. نَتَوَاضَعُ لِقَانُونِ الْأَرْضِ فَنَضْعُ الْحَوَاجِزَ عَلَى قَدَرٍ، فَيَسِيرُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَوْضِعِهِ،

﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يَس: ٤٠).

هَكَذَا يَكُونُ التَّوَاضُّعُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ لَا نُحْمِلُ النَّفْسَ مَا لَيْسَ لَهَا، وَلَا نَدَّعِي مَا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ.

تَقَدَّمَتْ «أَمْنَةٌ» وَفِي يَدِهَا لَوْحَةٌ صَغِيرَةٌ تَرْسُمُ عَلَيْهَا مَقَاطِعَ مِنْ سِيرِ الْمَاءِ، وَقَالَتْ: «لَمَّا بَدَأْتُ أَرْصُدُ مَسِيرَ السَّاقِيَةِ زَعَمْتُ أَنِّي أَعْرِفُ كُلَّ مَنْعَطٍ، ثُمَّ ظَهَرَتْ لِي حُفْرَةٌ صَغِيرَةٌ تُغَيِّرُ الْجَرَيَانَ إِذَا أَمْتَلَأَتْ. لَمْ أَرَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ لِأَنَّ زَعْمِي

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

حَجَبَنِي. فَلَمَّا انْكَسَرَ الرَّعْمُ، انْفَتَحَ لِي مَا لَمْ أَرُ.»

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْبُطُ الْحِكْمَةَ بِآيَةِ تَغْسِلُ الْقَلْبَ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)،

وَمَعَ التَّعْلِيمِ أَمَرْنَا أَنْ نَزِيدَ وَأَنْ نَتَوَاضَعَ،

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

فَكُلُّ مَا انْكَسَرَ فِيهِ الرَّعْمُ صَلَحَتْ فِيهِ الرُّؤْيَا.»

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَالْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ طِينٍ مَبْلُولٍ كَأَنَّهَا تَذَكِيرٌ
بِأَصْلِهِمْ. جَلَسَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَرَسَمَ عَلَى لَوْحَتِهِ سُلَّمًا مِنْ مَرَاجِلَ، ثُمَّ قَرَأَ مَا
كَتَبَ: «نَبْدَأُ بِسُؤَالٍ، ثُمَّ نَضَعُ فَرْضًا، ثُمَّ نَجْمَعُ شَهَادَاتٍ، ثُمَّ نَصَحِّحُ، ثُمَّ نَقْبَلُ
أَوْ نَرُدُّ. وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ مِنْ هَذَا السُّلْمِ نَسْتَصْحِبُ كَلِمَةَ الْقُرْآنِ:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)

لِكَيْ لَا نَدَّعِي أَنَّ السُّلْمَ انْتَهَى.»

هَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ، وَقَالَ: «وَإِذَا خَالَفَتْنَا النَّفْسُ بِتَرْكِيةٍ لَا حَقَّ لَهَا، نَقْرَأُ

عَلَيْهَا:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النَّجْمُ: ٣٢)،

وَنَرْجِعُ إِلَى الْمِيزَانِ.

أُسْتَاذُنْ جَابِرٌ وَفِي صَوْتِهِ حَرَارَةٌ مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَجْمَعَ الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ:
«أُرِيدُ مِنْ سَيِّدِي مَثَلًا يُصْلِحُ لِي يَوْمِي فِي الْوَرُشَةِ. أَحْفَظُ الْقَاعِدَةَ، وَلَكِنْ كَيْفَ
أُقِيمُ لَهَا تَوَاضُعًا يَمْنَعُ خَطِيئِي»

قَالَ الْإِمَامُ: «إِذَا دَخَلْتَ الْوَرُشَةَ فَادْخُلْهَا بِقَلْبٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَدِيدَ يُعَلِّمُكَ
كَمَا تُعَلِّمُهُ. أَعْطِ كُلَّ لَوْنٍ مِنَ الْجَمْرِ اسْمًا وَقَدْرًا، ثُمَّ لَا تَزْعُمَنَّ أَنَّكَ قَدْ أَحْطْتَ؛
فَقَدْ يَظْهَرُ لَكَ لَوْنٌ بَيْنَ لَوْنَيْنِ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ تَسْمِيَةً. هُنَاكَ يَتَكَلَّمُ التَّوَاضُّعُ فَيَقُولُ
لَكَ: زِدْ سَطْرًا فِي دَفْتَرِكَ، وَقُلْ: وَجَدْتُ الْيَوْمَ مَا لَمْ أَجِدْ بِالْأَمْسِ.»

انْفَتَحَ بَابُ الْمَسْجِدِ عَلَى سِعَةِ السَّمَاءِ، وَدَخَلَ رَجُلٌ يَشْتَكِي نِزَاعًا فِي
السُّوقِ؛ قَدْ بَاعَ سِلْعَةً وَزَعَمَ أَنَّهْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِجَوْدَتِهَا، ثُمَّ ظَهَرَ فِيهَا عَيْبٌ. قَالَ:
«أُاعَاتِبُ عَلَى جَهْلٍ لَمْ أَفْصِدْهُ»

فَنَظَرَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ وَقَالَ: «إِذَا ادَّعَيْتَ الْإِحَاطَةَ فَقَدْ حَمَلْتَ نَفْسَكَ مَا لَا
طَاقَةَ لَهَا بِهِ، وَإِذَا تَوَاضَعْتَ لِلْحَقِّ قُلْتَ: أَعْلَمُ مَا عَلِمْتُ وَآتَوَقَّيْ مَا جَهِلْتُ،
فَسَلِمْتَ.

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيِّنَاتِ

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَرُ: ٩)،

وَلَكِنَّ الْعَالِمَ حَقًّا هُوَ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ مَا لَا يَعْرِفُ، فَيَتَّقِي الدَّعَاوَى وَيَلْزَمُ
الْبَيِّنَةَ،

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١١١)».

تَحَرَّكَتِ الْحَلَقَةُ إِلَى سَاحَةِ الْمَسْجِدِ، وَالظَّلَالُ تَطُولُ كَانَهَا سَطُورُ
كِتَابٍ تُقْرَأُ عَلَى الْأَرْضِ. جَمَعَ الْإِمَامُ شَبَابًا مِنَ الْحَلَقَةِ وَقَالَ لَهُمْ: «سَنَضَعُ الْيَوْمَ
مِيزَانًا يَكْشِفُ لَكُمْ نَفْسَكُمْ. كُلُّ مِنْكُمْ يَكْتُبُ فِي دَفْتَرٍ مَا يَعْلَمُهُ فِي صَنْعَتِهِ، ثُمَّ
يَكْتُبُ مَا يُظُنُّ أَنَّهُ يَعْلَمُهُ، ثُمَّ مَا يَجْهَلُهُ جَهْلًا بَيِّنًا. ثُمَّ يَسْأَلُ صَاحِبُهُ أَنْ يَرِيدهُ
عَلَى الْقَوَائِمِ مَا يَرَاهُ نَاقِصًا.» جَرَى الْعَمَلُ، فَحِينَ رَجَعُوا بِالْذَّفَاتِرِ كَانَتْ قَوَائِمُ «مَا
يُظُنُّ» طَوِيلَةً كَالظِّلِّ فِي آخِرِ النَّهَارِ. ضَحِكَ الْإِمَامُ ضَحْكَةً فِيهَا بَشَاشَةٌ مِنْ وَقَعِ
عَلَى كَنْزٍ، وَقَالَ: «هَذِهِ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي يَنْبُتُ فِيهَا التَّوَاضُّعُ. فَإِذَا قَلَّ «مَا يُظُنُّ»
وَزَادَ «مَا يَعْلَمُ» عَلَى قَدَرٍ مِنَ الدَّلِيلِ، وَزَادَ «مَا يُجْهَلُ» فِي الْإِعْتِرَافِ بِهِ طَلَبًا
لِرِيَادَةٍ، فَقَدْ قَامَ الْمِيزَانُ.»

وَقَفَّتْ «آمِنَةٌ» عِنْدَ عَتَبَةِ الْأَبَابِ تَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ كَمَنْ يَقْرَأُ
سَطْرًا بَيِّنًا فِي الْفَضَاءِ: «إِذَا كَانَ الرَّبُّ قَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ وَحْدَهُ يَمْلِكُ مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ،

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَمَا لَنَا نَدْعِي مَا لَا نَمْلِكُهُ»

قَالَ الْإِمَامُ: «بِهَذِهِ تَسْلَمَ الْقُلُوبُ وَتَسْتَفِيمُ الصَّنَاعَاتُ. وَإِذَا سَارَ الْإِنْسَانُ هَكَذَا، رَجَعَ الْعِلْمُ عَلَيْهِ نُورًا يَقُودُهُ وَلَا يُعْمِيهِ،

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ (النُّورُ: ٣٥).»

عِنْدَ الْمَسَاءِ عَادُوا إِلَى الْوَرِشَةِ، وَأَوْقَدَ عَاصِمٌ نَارَهُ. دَخَلَ فَتَى صَغِيرٌ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَحْكَمُ الطَّرِيقِ، فَافْسَدَ قِطْعَةً مِنَ الْحَدِيدِ لِأَنَّهُ غَلَا فِي التَّسْحِينِ. بَصُرَ بِهِ الْإِمَامُ، وَقَالَ لَهُ بِرَفْقٍ: «مَا أَسْمُ هَذَا اللَّوْنِ» قَالَ الْفَتَى: «أَحْمَرُ كَالنَّارِ». قَالَ الْإِمَامُ: «سَمِّهِ أَدَقَّ مِنْ ذَلِكَ، وَاجْعَلْ لَهُ قَدْرًا، ثُمَّ لَا تَزْعُمَنَّ أَنَّ الْأَحْمَرَ كُلَّهُ سَوَاءٌ». ثُمَّ قَرَأَ يَثْبُتُ الطَّرِيقَ فِي قَلْبِهِ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدُ: ٨).

فَأَخَذَ الْفَتَى يُفَرِّقُ بَيْنَ «أَحْمَرَ يَمِيلُ إِلَى الْأَصْفَرِ» وَ«أَحْمَرَ يَمِيلُ إِلَى الْبَيَاضِ»، وَسَجَّلَ مَا يَصْلُحُ لِكُلِّ مِنْهُمَا، فَصَلَحَتْ يَدُهُ بَعْدَ أَنْ كَادَ الْغُرُورُ يُفْسِدُهَا.

وَفِي السُّوقِ نَزَلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يُجَرِّبُ نَصِيحَةَ الْيَوْمِ. كَانَ قَدْ وَعَدَ رَجُلًا بِسَلْعَةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا فِي الْبَيْعَادِ، فَأَحَسَّ فِي صَدْرِهِ كَلِمَةً

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النَّجْمُ: ٣٢)

تُنَادِيهِ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: «أَخْطَأْتُ، لَا أَقْدِرُ، فَهَلْ نَسْتَبْدِلُ بِهَا مَا هُوَ أَدْنَى فِي الْوَقْتِ وَمَا هُوَ أَوْفَى فِي الصِّفَاتِ» فَأَبْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقَالَ: «لَوْ قَالَهَا غَيْرُكَ مَا قَبِلْتُ، وَلَكِنَّ صِدْقَكَ وَتَوَاضُعَكَ أَرَا حَاقًا قَلْبِي». رَجَعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ جَدِيدٌ، فَقَالَ لِلْإِمَامِ: «وَجَدْتُ التَّوَاضُعَ رِبْحًا لَا يَخْسَرُ».

لَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ، صَعِدُوا سَطْحَ الْبَيْتِ وَالنُّجُومُ تَتَنَاثَرُ كَحُرُوفِ نَبِيَّةٍ عَلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ النُّجُومِ: «إِنَّ هَذِهِ الرُّؤُوسَ الْمُضِيئَةَ تَهْدِي السَّارِيَ فِي الْفَلَاةِ، وَتَذَكِّرُ الْعَالَمَ بِحَدِّهِ؛ مَا زَالَ فَوْقَكَ مَنْ يَعْلَمُ،

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُفُ: ٧٦).

فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ عِلْمَكَ، وَلَا تَسْتَقِلَّنَّهُ؛ بَلْ اجْعَلْهُ سُلْمًا تَصْعَدُ بِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ، وَزَادًا تَسِيرُ بِهِ إِلَى مَنْزِلٍ أَقْرَبَ مِنَ الْحَقِّ». ثُمَّ قَرَأَ بِخُشُوعٍ يَفْتَحُ لِلْقُلُوبِ أَبْوَابَ الرَّجَاءِ:

﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

فِي الْغَدِ جَمَعَ الْإِمَامُ الْخَلْقَةَ وَوَضَعَ أَمَامَهُمْ صُحُفًا خَفِيفَةً، وَقَالَ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«سَنَكْتُبُ «سِفْرَ التَّوَاضُّعِ» لِكُلِّ صَنْعَةٍ وَفَنٍّ. فِي أَوَّلِهِ آيَاتٌ تَهْدِي، ثُمَّ قَوَاعِدُ تَحْفَظُ الْقَدْرَ، ثُمَّ أَمْثَلَةٌ تَرْفَعُ الْعِلْمَ مِنَ التَّجَرُّبَةِ إِلَى الْقَاعِدَةِ، ثُمَّ مَوَاضِعُ لِكِتَابَةِ الْخَطِّ قَبْلَ الصَّوَابِ، لِأَنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِخَطِّهِ نَجَا مِنْ أَنْ يُكَرَّرَهُ.»

تَقَاسَمُوا الصُّحُفَ، فَكَتَبَ جَابِرٌ فِي صَفْحَتِهِ الْأُولَى: «أَسْمُ اللَّهِ نُورُ الْقَلْبِ، وَالتَّوَاضُّعُ مِيزَانُ الْعِلْمِ.» وَكُتِبَ فِي ذَيْلِ الصَّفْحَةِ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزُّمَرُ: ٩)،

﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥).

مَضَتْ أَيَّامٌ، وَكَانَتْ الْحَلَقَةُ كُلَّمَا رَاجَعَتْ صُحُفَهَا زَادَتْ بَصِيرَةً. وَفِي مَشْهَدٍ يَخْتَرِنُ الْخِلَاصَةَ، قَامَ الْإِمَامُ يَوْمًا وَقَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي وُجُوهِ أَصْبَحَتْ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ: «إِنَّ مِيزَانَ التَّوَاضُّعِ يَصُونُكُمْ مِنْ ثَلَاثَةٍ: غُرُورٍ يُعْمِيكُمْ عَنِ الدَّلِيلِ، وَزَعَمٍ يُضِلُّكُمْ عَنِ الْقَصْدِ، وَقَسْوَةٍ تُفْسِدُ بِهَا الْقُلُوبَ. فَإِذَا جَعَلْتُمُوهُ فِي قُلُوبِكُمْ، صَلَحَ قَوْلُكُمْ فِي الْمَجْلِسِ وَعَمَلُكُمْ فِي السُّوقِ وَصَنَعْتُكُمْ فِي الْوَرِشَةِ. وَتَذَكَّرُوا أَنَّ الْقُرْآنَ جَمَعَ لَكُمْ الْأَصْلَ فِي كَلِمَةٍ:

﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)،

فَمَنْ عَرَفَ قِلَّتَهُ اسْتَكْمَلَهَا بِسُؤَالِ الزِّيَادَةِ، وَمَنْ جَهَلَ قَدْرَهُ اعْتَدَى عَلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْحَقُّ فِي النَّاسِ وَفِي الْأَشْيَاءِ.»

أَسْدَلَ كَلِمَاتِهِ بِآيَةٍ تَجْمَعُ الْخُلُقَ وَالطَّلَبَ فِي سَيْرٍ وَاحِدٍ:

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النَّحْلُ: ١٢٥)،

ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ تَوَاضَعَ أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْمُجَادَلَةِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى الْحَقَّ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَشْهَدُ الصَّوَابَ فَيَتَّبِعُهُ وَإِنْ خَرَجَ مِنْ فَمٍ لَا يُحِبُّهُ.»

عِنْدَ الْخِتَامِ اقْتَرَبَتْ «أَمْنَةُ» وَوَضَعَتْ صَحِيفَتَهَا بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ، وَفِيهَا جُمْلَةٌ كَتَبَتْهَا بِنَفْسٍ طَوِيلٍ: «أَلْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنِي أَعْلَمُ كَمْ أَنَا جَاهِلٌ، فَأَسْتَكْثِرُ مِنْ

﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)،

وَأَسْتَفِئُ مِنْ نَفْسِي، وَأَسْتَمْسِكُ بِـ

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)

مِيزَانًا يَصُونُنِي مِنَ الزَّعْمِ وَيَرْفَعُنِي إِلَى الطَّلَبِ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَقَالَ الْإِمَامُ وَوَجْهَهُ يُشْعُّ بَشَارَةً: «هَكَذَا يُخْتَمُ الدَّرْسُ فِي الْقَلْبِ قَبْلَ الصَّحِيفَةِ؛ مِيزَانُ يَزْنُكَ وَأَنْتِ تَزِينِ الْأَشْيَاءَ، فَلَا تَزِيغِينَ وَلَا تُزِيغِينَ.»

انْفَضَّ الْمَجْلِسُ عَلَى نَفْسٍ طَيِّبَةٍ كَالرَّيحِ الَّتِي مَرَّتْ بِحَدِيقَةٍ فَتَرَكَتْ فِيهَا مِنْ عِطْرِهَا مَا يَكْفِي لِيَوْمٍ آخَرَ. وَحِينَ خَرَجُوا كَانَ السُّؤَالُ يَمْشِي فِي أَقْدَامِهِمْ: كَيْفَ نُقِيمُ مِيزَانَ التَّوَاضُعِ فِي كُلِّ نَفْسٍ فَاسْتَجَابَتْ آيَاتُ فِي صُدُورِهِمْ كَأَنَّهَا صَدَى يُجِيبُ عَلَى الدُّعَاءِ:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٨٥)،

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُفُ: ٧٦)،

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

هُنَالِكَ عَلِمُوا أَنَّ مَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِيزَانًا، نَجَا مِنْ غُرُورٍ يُضِلُّهُ، وَرَزَقَ نُورًا يَهْدِيهِ، فَاسْتَقَامَتْ لَهُ الصَّحِيفَةُ وَالصَّنْعَةُ وَالشُّوقُ وَالطَّرِيقُ.

الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

كَانَ الْمَسْجِدُ يَسْتَعِيدُ رِقَّتَهُ فُبَيْلَ الْعَصْرِ، وَقَنَادِيلُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضِيَاءً لَطِيفًا يَتَمَوَّجُ عَلَى الْجُدُرَانِ، كَأَنَّ الْحِجَارَةَ تُصْغِي لِقَلْبٍ يَنْطِقُ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ وَحَوْلَهُ الْحَلَقَةُ كَاكْلِيلٍ مِنْ وُجُوهِ يَطْلُبُ كُلُّ مِنْهَا نَصِيبًا مِنَ الثُّورِ: صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ لَوْحًا قَدْ رُسِمَتْ عَلَيْهِ سُلَّمَاتٌ مِنْ بُرْهَانٍ، وَجَابِرٌ يُثَبِّتُ قَلَمَهُ عَلَى دَفْتَرٍ أَصْفَرَ كَأَنَّهُ يُمَسِّكُ بِنَبْضِ الْكَلِمَةِ، وَآمَنَةُ الْبَصِيرَةِ تُطَبِّقُ أَطْرَافَ خِمَارِهَا وَفِي عَيْنَيْهَا تَوْقُ الْمَعْرِفَةِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَنْظُرُ فِي السَّقْفِ مَرَّةً، وَفِي الْوُجُوهِ مَرَّةً، كَمَنْ يَبْتَغِي رَبِّحًا حَتَّى فِي الْكَلِمَاتِ.

أَرْتَفَعَ صَوْتُ الْإِمَامِ عَلَى مَهَلٍ، ثُمَّ جَرَى كَأَلْمَاءٍ عَلَى حَجَرٍ أَمْلَسَ:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٧٣).

ثُمَّ سَكَتَ لِحِظَةً وَقَالَ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ تَجْمَعُ الطَّرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ نَسِيرُ عَلَيْهِمَا: طَرِيقُ مَا نُنْذِرُكَ وَنَشْهَدُهُ، وَطَرِيقُ مَا نَغِيبُ عَنْهُ وَيَحْجُبُهُ اللَّهُ بِحُكْمَتِهِ. فَإِذَا اخْتَلَّ الْمِيزَانُ بَيْنَهُمَا، فَسَدَ الْفِكْرُ وَضَلَّ الْعَمَلُ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

رَفَعَ جَابِرٌ يَدَهُ، وَقَالَ وَنَبْضُ التَّسَاوُلِ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، كَيْفَ أَجْمَعُ فِي يَدٍ وَاحِدَةٍ مِفْتَاحَ الشَّهَادَةِ وَمِفْتَاحَ الْغَيْبِ إِنِّي فِي الْوَرِشَةِ أَفَيسُ الْحَرَارَةَ وَأُسَمِّي الْأَلْوَانَ، فَذَلِكَ شَهَادَةٌ. فَأَيْنَ يَقُومُ الْغَيْبُ فِي عَمَلِي»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «الْغَيْبُ يَقُومُ حَيْثُ يُذَكِّرُكَ اللَّهُ بِحَدِّكَ؛ تَقْيِسُ وَتُسَمِّي وَتُجَرِّبُ، ثُمَّ تَضَعُ فِي آخِرِ الصَّفْحَةِ سَطْرًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ عَلَّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَزِدْنَا عِلْمًا»؛ لِأَنَّ الْأَسْبَابَ تَحْتَ يَدَيْكَ، وَالْمُسَبَّبَ فَوْقَكَ.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩).

قَالَتْ «أَمِنَةٌ» وَهِيَ تَضَعُ كَفَّهَا عَلَى صَدْرِهَا: «إِذَا فَالْغَيْبُ لَيْسَ فَرَاغًا نَتَكَيُّ عَلَيْهِ إِذَا عَجَزْنَا عَنِ الْبُرْهَانِ، بَلْ هُوَ سِتْرٌ حِكْمَةٌ يُرَبِّينَا عَلَى التَّعَظُّمِ لَا عَلَى التَّعَاطُفِ». هَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ رِضًى، وَتَلَا يُثَبِّتُ الْقَاعِدَةَ فِي الْقُلُوبِ:

﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النَّمْلُ: ٦٥).

«فَإِذَا تَرَكْتُمُ الدَّلَاوَى، وَأَخَذْتُمُ الشَّهَادَةَ بِقَدْرِهَا، وَأَقَمْتُمُ اللَّهَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ، اسْتَقَامَ الْمِيزَانُ.»

مَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ قَلِيلًا، وَرَسَمَ عَلَى لَوْحَتِهِ خَيْطَيْنِ يَجْرِيَانِ مُتَرَاوِيَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا نَقُولُ: الشَّهَادَةُ مَا نَسْتَشْهَدُ بِهِ وَنَرْصُدُهُ، وَالْغَيْبُ مَا نَقِفُ عِنْدَ حَدِّهِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَلَا نَتَجَاوَزُهُ. فَإِذَا اتَّسَعَ الْأَوَّلُ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالرَّصْدِ، زَادَتْ أَطْرَافُ الدَّائِرَةِ مَسَاسًا
بِبَحْرِ الْغَيْبِ، فَتَوَاضَعُ. وَإِذَا أَدْعَيْنَا الْإِحَاطَةَ خَسِرْنَا الطَّرِيقَيْنِ مَعًا. ثُمَّ اسْتَدَارَ
إِلَى الْحَلَقَةِ وَقَالَ جُمْلَتُهُ الَّتِي تَلَمَّعَ كَالْحَدِّ الصَّقِيلِ: «الْعِلْمُ يَبْدَأُ حَيْثُ يَنْتَهِي
الْجَهْلُ، وَلَكِنَّ الطُّمَأْنِينَةَ تَبْدَأُ حَيْثُ يَنْتَهِي الْعِلْمُ، عِنْدَ بَابِ الْغَيْبِ الَّذِي نَقَفُ
عِنْدَهُ حَاشِعِينَ.»

تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا فِي مَجْلِسِهِ وَقَالَ وَفِي صَوْتِهِ نَفْسٌ مِنْ مُجَادَبَةِ
السُّوقِ: «وَلَكِنَّ النَّاسَ تُحِبُّ الْخَبَرَ الْمُسْتَقْبَلِيَّ، فَيَسْأَلُونَ عَنْ سِعْرِ التَّمْرِ فِي
الْغَدِ، وَعَنْ نَجَاحِ الْغَلَّةِ بَعْدَ مُوسِمَيْنِ. أَأَقُولُ لَهُمْ: هَذَا غَيْبٌ فَأَيْنَ رُبْحِي»

نَظَرَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً رَفِيقٍ وَعَزَمَ مَعًا، وَقَالَ: «قُلْ لَهُمْ: نَعْمَلُ بِالشَّهَادَةِ
وَنَتَّقِي فِي الْغَيْبِ. نَرُصِدُ السَّمَاءَ وَمَوَاقِيتَ الْمَطَرِ، وَنَحْفَظُ الْأَرْضَ مِنَ
الْإِسْرَافِ، ثُمَّ نُسَلِّمُ الْعَوَاقِبَ لِلَّهِ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لُقْمَانَ: ٣٤).

فَإِذَا جَعَلْتَ التَّقْوَى سِتْرًا لِقَلْبِكَ، رَبِحْتَ فِي السُّوقِ وَفِي الْحِسَابِ
الْأَخْرَوِيِّ..»

أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى الْبَابِ، فَخَرَجُوا مَعَهُ كَمَا يَخْرُجُ النَّهْرُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ
إِلَى فُضَاءٍ أَوْسَعٍ. مَشَوْا إِلَى حَافَةِ السَّاقِيَةِ؛ الْمَاءُ يَجْرِي عَلَى قَدَرٍ، وَعَلَى الضَّفَّةِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَتَى صَغِيرٌ يَرْسُمُ بِعُودٍ عَلَى الثُّرَابِ مَسَارَ الْجَرَيَانِ. قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا نَرَى الشَّهَادَةَ عَيْنًا: مِثْلُ الْمَجْرَى، وَقَدْرُ السَّحْبِ، وَتَوَازُنُ الثَّرْبَةِ. هَذَا كُلُّهُ يَفْعُ تَحْتَ يَدِكُمْ فَسَمُوهُ وَزَنُوهُ. وَأَمَّا مَطَرُ الْعَدِ فَهُوَ عِنْدَ رَبِّكُمْ؛ فَاسْتَعِدُّوا لَهُ بِحِفْظِ الْقَنَوَاتِ وَتَقْوَى الْقُلُوبِ..» ثُمَّ تَلَا:

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ (لُقْمَانَ: ٣٤)،

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١٨).

فَمَا كَانَ بِقَدَرٍ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلُوا لَهُ قَدْرًا فِي الْأَرْضِ.

عَادُوا، وَفِي الطَّرِيقِ تَوَقَّفُوا عِنْدَ الْوَرَشَةِ. أَوْقَدَ عَاصِمٌ نَارَهُ، وَوَضَعَ شَرَارَاتٍ مِنَ الْفَحْمِ تَتَلَأُّ كَنُفَاطٍ عَلَى صَحِيفَةٍ مُظْلِمَةٍ. قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا تَرَوْنَ آيَةً مِنْ مِيزَانِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ: لَوْ أَنَّ الْجَمْرَ وَصَوْتَ الْحَدِيدِ عِنْدَ الطَّرْقِ هَذِهِ شَهَادَةٌ، وَالنَّبِيَجَةُ الَّتِي يَكْتُبُهَا اللَّهُ لِسَيْفٍ أَوْ مِسْمَارٍ تَحْمِلُ مَعَهَا غَيْبًا مِنْ تَوْفِيقٍ أَوْ أَمْتِحَانٍ. فَاعْمَلُوا كَأَنَّ النَّبِيَجَةَ كُلَّهَا فِي أَيْدِيكُمْ، وَتَوَكَّلُوا وَاسْتَغْفِرُوا كَأَنَّكُمْ لَا تُحِيطُونَ بِشَيْءٍ؛

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (هُودٌ: ٨٨).

فِي اللَّيْلِ صَعِدُوا سَطْحَ الْبَيْتِ؛ النُّجُومُ تَسْبَحُ فِي فَلَكٍ حَسِيبٍ، وَالْقَمَرُ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

يَمِيلُ إِلَى أَفْقٍ يَتَهَيَّأُ لِلْسَّرَايَاتِ. بَسَطَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ سُجَادَةَ الرِّصْدِ، وَوَضَعَ
عُودًا يَقِيسُ بِهِ الِارْتِفَاعَ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَوْقِفُ الشَّهَادَةِ؛ نُسَجِّلُ الْأَوْقَاتَ،
وَنُحَدِّدُ الْمَسَارَ، وَنُوَافِقُ بَيْنَ الْمَشَاهِدِ، فَنَعْرِفُ مَوَاقِيتَ الزَّرْعِ وَالرَّيِّ. وَلَكِنَّ
الْقُلُوبَ تُسَلِّمُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ أَنَّ

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الْفَتْحُ: ١٤)،

وَأَنَّ مَا لَا نَعْلَمُهُ أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُهُ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَبِهَذِهِ يَقُومُ الْمِيزَانُ؛ نَعْمَلُ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَنَسِيرُ عَلَى تَوْقِيرٍ
لِمَا غَابَ عَنَّا.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ: ٥٣).»

قَالَتْ «أَمْنَةٌ» وَهِيَ تُحَدِّقُ فِي قِطْعَةٍ سَمَاءٍ تَشِي بِأَمْطَارٍ بَعِيدَةٍ: «إِذَا
الْغَيْبُ لَيْسَ نَقِيضًا لِلْعِلْمِ، بَلْ هُوَ حَرَسٌ لِقَلْبِ الْعَالِمِ لِكَيْلَا يَبْطِشَ بِمَا عِلْمٌ
فَيُفْسِدَ. وَالشَّهَادَةُ لَيْسَتْ نَقِيضًا لِلْإِيمَانِ، بَلْ هِيَ سَبِيلٌ إِلَيْهِ؛ إِذْ كُلَّمَا أَزْدَادَتْ
آيَاتُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَضَاحَةً فِي الْعَيْنِ، زَادَ الْقَلْبُ خُشُوعًا لِمَنْ أَجْرَاهَا عَلَى
هَذَا النَّسِيجِ الْمُحْكَمِ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ الَّذِي نُرِيدُهُ.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الْحَدِيدُ: ٣).

فَمَا ظَهَرَ لَكُمْ فَهُوَ مِنْ نُورِهِ، وَمَا بَطَنَ فَهُوَ مِنْ سِتْرِهِ؛ وَكِلَاهُمَا يَرُدُّانِكُمْ إِلَيْهِ.»

عَادَ الْحَدِيثُ إِلَى الْمَسْجِدِ كَمَا تَعُودُ الْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِهَا. جَلَسُوا، فَأَخَذَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَسْأَلُ: «كَيْفَ نَمْنَعُ أَنْفُسَنَا مِنْ تَحْوِيلِ الْغَيْبِ إِلَى دَعَاوَى تَفْسِدِ السُّوقِ وَالْقَضَاءِ وَالتَّعْلِيمِ»

قَالَ الْإِمَامُ: «نَضْعُ لِكُلِّ مَجَالٍ صَحِيفَتَيْنِ فِي دَفْتَرٍ وَاحِدٍ يَتَوَافَقَانِ وَلَا يَتَرَاخَمَانِ. صَحِيفَةُ الشَّهَادَةِ فِيهَا الرِّصْدُ وَالْأَسْمَاءُ وَالْقَدَرُ وَمَا ثَبَتَ مِنَ التَّجَرُّبَةِ. وَصَحِيفَةُ الْغَيْبِ فِيهَا الدُّعَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالتَّادُّبُ مَعَ اللَّهِ. فَإِذَا قَوِيَتْ الْأَوَّلَى بِالْعِلْمِ، زَادَتْ الثَّانِيَّةُ نُورًا بِالْإِيمَانِ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْأَمِيلَ إِلَى إِحْدَاهُمَا عَلَى حِسَابِ الْأُخْرَى يُفْسِدُ الْمِيزَانَ: فَمَنْ جَعَلَ الشَّهَادَةَ كُلَّ شَيْءٍ تَجَبَّرَ وَعَلَا، وَمَنْ جَعَلَ الْغَيْبَ ذَرِيعَةً لِتَرْكِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ تَوَاكَلَ وَتَخَلَّفَ.»

اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السُّوقِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي، يَا تُبَيِّنَا مَنْ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ سِلْعَتَهُ تَنْجُو مِنْ كُلِّ آفَةٍ، فَنَشْتَرِي عَلَى غَيْرِ رُؤْيَةٍ. أَهْوَوُ مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ» فَقَالَ الْإِمَامُ: «ذَاكَ مِنْ بَابِ الدَّعَاوَى. الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ يَرِيدُكَ تَوْقِيرًا لِلَّهِ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيِّنَاتِ

وَحَقًّا لِلنَّاسِ، لَا يَدْفَعُكَ إِلَى الْغِشِّ.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الْأَعْرَافِ: ٨٥).

وَالشَّرَاءُ بِغَيْرِ رُؤْيِيَّةٍ شَهَادَةٌ مَنْقُوصَةٌ. فَأَقِمِ الشَّهَادَةَ بِالْوَزْنِ وَالْكَيْلِ، وَأَقِمِ الْغَيْبَ فِي قَلْبِكَ تَقْوَى.

وَقَامَتْ «آمَنَةٌ» تَطْلُبُ خِتَامًا يُثَبِّتُ الطَّرِيقَ: «هَلْ لَنَا مِنْ كَلِمَةٍ نَحْمِلُهَا مَعَنَا إِذَا أَشْتَبَهَ عَلَيْنَا الْأَمْرُ» فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَتْلُو بِخُشُوعٍ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (الْبَقَرَةِ: ٢٥٥)؛

فَهُوَ قَيُّومُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (الْبَقَرَةِ: ٢٨٢)؛

فَبِالتَّقْوَى تُفْتَحُ لَكُمْ الْبَيِّنَةُ فِي الشَّهَادَةِ وَالْأَدَبِ فِي الْغَيْبِ. فَإِذَا اسْتَقَامَتْ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ فِي قَلْبِكَ، لَمْ يَفْسُدْ عَلَيْكَ الْمِيزَانُ.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْقُضَ الْمَجْلِسُ، دَعَا الْإِمَامُ إِلَى مَشْهَدٍ أَخِيرٍ يَجْمَعُ الْعِلْمَ وَالتَّدْرِيبَ. قَالَ: «يَا جَابِرُ، أَخْرُجْ مَعَ صَفْوَانٍ لَتَرُصِّدَا الْقَمَرَ لَيْلَتَيْنِ؛ اكْتُبَا الْمَوَاقِيتَ وَالزَّوَايَاتِ فَبِكَ شَهَادَةٌ. ثُمَّ قُومَا فِي آخِرِ اللَّيْلِ رَكَعَتَيْنِ وَقُولَا: «اللَّهُمَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَهْدِنَا لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، فِتْلِكَ حُرْمَةُ الْغَيْبِ. وَأَنْتِ يَا «أَمْنَةُ»،
سِيرِي إِلَى السَّافِيَةِ وَسَجِّلِي الْجَرَيَانَ عَلَى دَرَجَاتٍ، ثُمَّ أَرْفَعِي يَدَيْكَ:

﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وَأَنْتِ يَا حَبِيبُ، عَاهِدِ الْقَلْبَ أَلَّا تَبِيعَ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَلَا تَعِدَ عَلَى غَيْرِ
قُدْرَةٍ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقَامَ الشَّهَادَةَ وَتَادَّبَ فِي الْغَيْبِ رَبِحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

انصَرَفُوا، وَفِي الصُّدُورِ صَدَى يَرْتَلُّ مَعَ الْخُطَى: الْغَيْبُ سِتْرٌ يُرَبِّي،
وَالشَّهَادَةُ بَيِّنَةٌ تُقِيمُ، وَالْإِنْسَانُ بَيْنَهُمَا عَبْدٌ يَعْمَلُ وَيَتَادَّبُ. وَحِينَ صَعِدَ الْقَمَرُ
أَكْثَرَ فِي السَّمَاءِ، كَانَ جَابِرٌ يَكْتُبُ فِي دَفْتَرِهِ: «الْعِلْمُ يَحْمِلُنِي عَلَى الْبَيِّنَةِ،
وَالْغَيْبُ يَحْمِلُنِي عَلَى الْخُشُوعِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَا وُلِدَ فِي قَلْبِي مِيزَانٌ يَزِنُ الْأَشْيَاءَ
بِقُدْرَتِهَا».

وَكَانَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُحَرِّكُ قَلَمَهُ عَلَى اللَّوْحِ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: «مَا
أَجْمَلَ أَنْ يَقِفَ الْبُرْهَانُ عِنْدَ بَابِ الْغَيْبِ مُسْتَأْذِنًا؛ فَإِذَا أُذِنَ لَهُ دَخَلَ نُورًا، وَإِنْ
مُنِعَ رَجَعَ أَدْبًا». وَكَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَعُدُّ فِي الشُّوقِ كَيْلًا صَحِيحًا وَيَبْتَسِمُ:
«الرَّبِّحُ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَبِيعَ عَلَى شَهَادَةٍ، وَتَسِيرَ عَلَى رَجَاءٍ مَنِ اسْتَوْدَعْتَهُ الْعَوَاقِبَ».

عِنْدَ الْخِتَامِ جَمَعَ الْإِمَامُ الْكَلِمَةَ فِي نَقْطَةٍ تُشَبِّهُ نَقْطَةَ نُورٍ عَلَى حَافَةِ
لَيْلٍ: «مِيزَانُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ يُعَلِّمُكُمْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ كُلُّ شَيْءٍ، بَلْ جُزْءٌ مِنْ كُلِّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَعْظَمَ؛ تَعْمَلُونَ فِي حُدُودِ مَا شَهِدْتُمْ، وَتَسْتَسْلِمُونَ لِحِكْمَةِ مَنْ أَحَاطَ بِمَا غَابَ عَنْكُمْ. فَإِذَا قُمْتُمْ عَلَى هَذَا الْمِيزَانِ، لَمْ يَعِدِ الْعِلْمُ يُنْقِصُ مِنْ إِيْمَانِكُمْ، وَلَا الْإِيْمَانُ يَصُدُّكُمْ عَنِ الْعِلْمِ؛ بَلْ يَصِيرَانِ جَنَاحَيْنِ لِقَلْبٍ يَطِيرُ فِي فِضَاءِ الْحَقِّ. ثُمَّ تَلَا خَاتِمًا كَمَا بَدَأَ:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ (الرَّعْدُ: ٩).

فَأَمَّنَتِ الْحَلَقَةُ، وَسَارَ النُّورُ فِي الصُّدُورِ كَمَا تَسِيرُ الْمِيَاهُ فِي السَّوَاقِي، لَا تَعْرِفُ كَيْفَ جُمِعَ الصَّوْتُ وَالصُّورَةُ فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمِيزَانَ قَدْ قَامَ.

المَحْوَرُ الثَّالِثُ: الْأَخْلَاقُ وَالْمُجْتَمَعُ

يَضَعُ هَذَا الْمَحْوَرُ مِفْتَاحَهُ فِي بَابِ الْقِيمِ الْعُلْيَا الَّتِي بِهَا يَقُومُ الْبُنْيَانُ
الْاجْتِمَاعِيُّ وَعَلَيْهَا يَسْتَقِيمُ مِيزَانُ الْعُمَرَانِ؛ فَالْأَخْلَاقُ لَيْسَتْ زِينَةً لِلْشُّلُوكِ، بَلْ
هِيَ قَاعِدَةُ الْحَيَاةِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَبِهَا تُصَانُ الْكِرَامَةُ وَتُحْفَظُ الْحُقُوقُ وَتَجْرِي
الْوَاجِبَاتُ عَلَى الْفِطْسِ. وَيَسْتَهْدِي الْمَحْوَرُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)،

وَقَوْلَهُ:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)،

لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَحْوَرَ الْقِيمِ يَنْصَبُ عَلَى عَدْلِ يَضْبِطُ الْمُعَامَلَاتِ، وَإِحْسَانِ
يُجَوِّدُهَا، وَتَعَاوُنٍ يُؤَلِّفُ الْقُلُوبَ وَيُشْعِلُ مَصَالِحَ النَّاسِ. وَسَنَتَعَقَّبُ فِي هَذَا الْمَدَارِ
سِلْسِلَةَ الْقِيمِ الْمُؤَسَّسَةِ: الصِّدْقَ وَالْأَمَانَةَ وَالْعَهْدَ وَالرَّحْمَةَ وَالْحَيَاءَ وَحُسْنَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْجَوَارِ وَنُصْرَةَ الضَّعِيفِ، كَيْفَ تَتَشَكَّلُ فِي النُّفُوسِ، وَكَيْفَ تَنْعَكِسُ نِظَامًا عَامًّا فِي الْأُسْرَةِ وَالسُّوقِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ، حَتَّى تَصِيرَ «الْأُمَّةُ»، كَمَا وَصَفَهَا الْكِتَابُ،

﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آلُ عِمْرَانَ: ١١٠).

وَسَنُظْهِرُ كَيْفَ يَبْنِي خُلُقُ الْمُسَاءَلَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ»، مَسَارًا يُصْلِحُ الْخَطَأَ وَيَرْفَعُ الْخِلَافَ بِغَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ، وَكَيْفَ يُحْدِثُ التَّرَاكُّبُ بَيْنَ الْقِيَمِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْأَعْرَافِ الْعَامَّةِ نَسِيجًا يُمَكِّنُهُ أَحْتِمَالُ الْإِخْتِلَافِ وَتَدَافُعُ الْمَصَالِحِ بِبَصِيرَةٍ وَقَسْطٍ. هَكَذَا تُصْبِحُ الْأَخْلَاقُ جِسْرًا بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالنِّظَامِ، وَتَعْدُو قُوَّةً مُنْتَبِجَةً لِلسَّلَامِ الْمَدَنِيِّ، وَرَافِعًا لِعُمُرَانِ يُلَاقِيهِمُ الْفِطْرَةَ وَيُحَقِّقُ خَيْرَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الفصل الأول: عدالة السماء والأرض

يَفْتَحُ هَذَا الْفَصْلُ بَابَ الْمِيزَانِ الَّذِي بِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ فَمَحْوَرُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ الْعَدْلُ مِنْ مَعْنَى مُجَرَّدٍ إِلَى نِظَامٍ حَيَاةٍ، تَحْرُسُهُ الرَّسَالَةُ وَتُقَوِّمُهُ الْقِيَمُ. وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)،

فَيَتَحَقَّقُ لِلْحَقُوقِ قِسْطُهَا، وَلِلْقُلُوبِ حَظُّهَا مِنَ الرَّقَّةِ وَالتَّجْوِيدِ. وَإِذْ قَالَ
سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٩)،

جَعَلَ الْمِيزَانَ شَرِيعَةً الْمُعَامَلَاتِ كَمَا هُوَ سُنَّةُ الْكَوْنِ؛ فَلَا طُعْيَانَ فِي الْحُكْمِ، وَلَا بَخْسٍ فِي الْأَوْزَانِ، وَلَا تَحْيِفَ فِي الْمَوَارِدِ. ثُمَّ يَتَوَّجُ الْمِيزَانُ بِنَفْسِ الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَتَصِيرُ الرَّحْمَةُ سِرَّ الْأَسْتِقَامَةِ وَعِمَادَ الْأَسْتِدَامَةِ، تُلَطِّفُ سُلْطَانَ الْقَانُونِ،
وَتَضَعُ لِلتَّنْمِيَةِ حُدُودَ الْحِفْظِ وَالصَّوْنِ.

سَنَسْتَقْرِئُ فِي هَذَا الْفَصْلِ كَيْفَ يَنْسَاحُ الْعَدْلُ فِي مَجَارِي الْحُكْمِ
وَالْقَضَاءِ وَالْأُسْرَةِ وَالسُّوقِ، وَكَيْفَ يَتَرَجَّمُ الْقِسْطُ مِقْدَارًا مُحْكَمًا فِي التَّوْزِيعِ
وَالْحِمَايَةِ وَالْمُسَاءَلَةِ، ثُمَّ كَيْفَ تَجْعَلُ الرَّحْمَةُ هَذَا الْمِيزَانَ حَيًّا يَنْبِضُ بِحِفْظِ
الْأَدَمِيِّ وَالْأَكْوَانِ مَعًا؛ فَلَا يُسْتَهْلَكُ الْكَوْنُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا تُحْمَلُ الْفِتَاتُ ضِعْفَ
مَا تُطِيقُ. هُنَالِكَ تَلْتَقِي «عَدَالَةُ السَّمَاءِ» الْمُنَزَّلَةُ شَرْعًا بِ«قِسْطِ الْأَرْضِ» الْمُبْجَرَى
سِيَاسَةً وَعُمَرَانًا، فَيُصْبِحُ الْمِيزَانُ عَهْدًا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَمِيثَاقًا بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
لَا طُغْيَانَ وَلَا بَخْسَ، بَلْ حِفْظٌ وَتَعَاوُنٌ وَزِيَادَةٌ فِي الْخَيْرِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَنَفَّسُ سَكِينَةً كَمَا تَتَنَفَّسُ الْأَشْجَارُ بَعْدَ
نَسَمَةِ مَطَرٍ، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تُنْضِجُ ضِيَاءً لَطِيفًا يَتَحَرَّكُ عَلَى الْجُدُرَانِ كَأَمْوَاجٍ
صَغِيرَةٍ تَلْعَبُ فِي جَوْفِ بَحْرِ هَادِيٍّ. تَجَمَّعَتِ الْحَلَقَةُ كَأَكْلِيلٍ حَوْلَ الْإِمَامِ؛ جَابِرٌ
يُدَاعِبُ قَلَمَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ نَبْضًا، صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ لَوْحَتَهُ وَعَلَيْهَا
خُطُوطٌ تَنْتَظِمُ كَأَنهَا جُسُورُ مَعَانٍ، أَمَنَةُ الْبَصِيرَةِ تُصْغِي وَفِي عَيْنَيْهَا لَمْعَةٌ تَوْقٍ،
وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَتَظَاهَرُ بِالْإِهْتِمَامِ وَنَظَرُهُ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ السَّقْفِ وَوُجُوهِ الْحُضُورِ كَمَنْ
يَتَفَقَّدُ فُرْصَةً رَابِحَةً.

أَرْتَفَعَ صَوْتُ الْإِمَامِ هَادِنًا ثُمَّ مَلَأَ الْمَكَانَ عَلَى مَهَلٍ، يَتْلُو تِلَاوَةً يَخْشَعُ
لَهَا الْحَجَرُ قَبْلَ الْبَشَرِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠).

سَكَتَ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ يُفْسِحُ لِلْآيَةِ مَجَالًا لِتَسْكُنَ فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ قَالَ
وَوَجْهُهُ يَسْتَجْمِعُ الثُّورَ: «هَذِهِ كَلِمَةُ مِيزَانٍ تُقِيمُ سُوقَ الدُّنْيَا وَسُوقَ الْقُلُوبِ مَعًا.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَلْعَدْلُ قَاعِدَةٌ لَا غِنَاءَ لِأَحَدٍ عَنْهَا، وَالْإِحْسَانُ سُلَّمٌ يَرْقَى بِكُمْ فَوْقَ حَدِّ الْحَقِّ إِلَى سَعَةِ الْفَضْلِ.»

تَحَرَّكَ يَاسِرُ بْنُ سُحَيْمٍ فِي طَرَفِ الْحَلَقَةِ، وَكَانَتْ عَلَى وَجْهِهِ سِمَةٌ التُّجَّارِ الْأُمْنَاءِ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَضُمُّ كَفَّيْهِ: «يَا سَيِّدِي، جَاءَنَا فِي السُّوقِ صِنْفٌ جَدِيدٌ مِنَ الزَّيْتِ تُشْنِي عَلَيْهِ الْأَلْسُنُ، فَأَنَا أَطْلُبُ لَهُ سِعْرًا يَنْصِفُنِي وَيُنْصِفُ النَّاسَ. مَا الْحَدُّ الَّذِي لَا أَتَجَاوِزُهُ فَلَا أَغْدِرُ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَا أُضِيعُ تَعْيِي»

أَلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ وَفِي أَلْتِفَاتِهِ رِفْقٌ وَحَزْمٌ، وَقَالَ: «أَجْعَلْ لِنَفْسِكَ مِيزَانَيْنِ يَسِيرَانِ كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ: مِيزَانُ الْعَدْلِ وَمِيزَانُ الْإِحْسَانِ. فَأَمَّا الْعَدْلُ فَإِنْ تَظْهَرَ كُلُّ مَا فِي السَّلْعَةِ مِنْ صِفَاتٍ وَعُيُوبٍ، وَتَقَدَّرَ نَفَقَتَكَ وَرَبْحَكَ الْمَعْقُولُ، وَلَا تَأْكُلَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (الْبَقَرَةِ: ١٨٨)،

وَأَنْ تُقِيمَ الْكَيلَ وَالْوَزْنَ

﴿وَأَوْفُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامِ: ١٥٢)،

﴿وَأَوْفُوا الْكَيلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الْإِسْرَاءِ: ٣٥).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فَأَنْ تَزِيدَ فِي الْقِسْطِ شَيْئًا يُطِيبُ قُلُوبَ الْخَلْقِ، وَتَتَخَفَّفَ
لِلْمُعْسِرِ، وَتَبْذُلَ النَّصِيحَةَ وَإِنْ ضِدَّتْ رِبْحًا يَسِيرًا؛

فَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

قَطَعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا سَبِيلَ الْكَلَامِ بِإِتْسَامَةٍ فِيهَا نَفْسُ الْمُرَاوَعَةِ: «ولكن،
إِذَا كَانَ الطَّلَبُ كَثِيرًا وَالْعَرَضُ قَلِيلًا، أَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَعْتِمَ الْفُرْصَةَ، فَأَرْفَعَ السَّعَرَ
رَفْعًا يُرْضِينِي وَيُرْضِي هَذِهِ الْجُيُوبَ الضَّامِرَةَ»

ضَحِكَتِ الْحَلَقَةُ بِصَوْتٍ خَفِيِّ، وَبَسَطَ الْإِمَامُ كَفَّهُ كَمَنْ يُهْدِي مَوْجَةً:
«الرَّبْحُ حَقٌّ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى حِسَابِ الْحَقِّ».

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ
أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١-٣).

فَمَنْ أَسْتَوْفَى لِنَفْسِهِ وَأَخْسَرَ لِعَیْرِهِ، هَدَمَ مِنْ جِسْرِ الثِّقَةِ حَجْرًا؛ وَإِذَا
هُدِمَ الْجِسْرُ تَفَرَّقَ النَّاسُ وَصَاعَ الرِّزْقُ. أَعْلَمَ أَنَّهُ

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾
(المائدة: ٨).

أَمْتَدَّ الْحَوَارُ كَسَاقِيَةٍ تَلْتَفُّ عَلَى حَافَةِ الْحَقْلِ، ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَنْهَضُ: «قُومُوا نَزِلَ السُّوقَ، فَأَلْكَِمَةُ تُتِمُّ نُورَهَا إِذَا سَارَتْ فِي الْأَرْضِ».

خَرَجُوا، وَشَمُوا رَائِحَةَ الثَّمَرِ وَالتَّوَابِلِ وَصَوْتَ الدَّلَّالِينَ يَتَصَادَمُ كَنْبُضُ
يَحْيَا بِهِ الْمَكَانُ. تَوَقَّفُوا عِنْدَ حَانُوتِ يَاسِرٍ، وَكَانَ يُصْلِحُ كَفَّتِي مِيزَانٍ قَدْ مَالَتْ
إِحْدَاهُمَا. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يُثَبِّتُ النَّظَرَ عَلَى الْكَفَّتَيْنِ: «الْعَدْلُ أَنْ تَقِفَ هَذِهِ مَعَ
هَذِهِ، لَا تَعْلُو كِفَّةً إِلَّا بِحَقٍّ وَلَا تَهْبِطُ أُخْرَى إِلَّا بِحَقٍّ. وَالْإِحْسَانُ أَنْ تُزِيدَ
الْمِقْيَاسَ حَبَّةً تُطَيِّبُ الصَّدْرَ وَتَحْفَظُ الْأُلْفَةَ؛ فَإِنَّهُ

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٦٠).

وَأَقْبَلَتْ «أَرْمَلَةٌ» تَسْتَنْدُ إِلَى صَبِيَّهَا، بِيَدِهَا قُفَّةٌ تَطْلُبُ حَبًّا لِقَوْتِ الْيَوْمِ.
نَظَرَ حَبِيبُ الدُّنْيَا إِلَى الْمَشْهَدِ ثُمَّ بَسَطَ كِفَّةً عَلَى كَيْسِ الْحَبِّ وَرَفَعَ السَّعَرَ
لَمَحَةً، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الصَّبِيِّ. أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى الْمِيزَانِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ فِيهِ حَزْمٌ رَفِيقٍ:
«أَمْلَأُوا لَهُمَا الْكَيْلَ، وَانْقُصُوا مِنَ الثَّمَنِ قَلِيلًا؛

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الْأَعْرَافِ: ٨٥).

هَذَا الْيَوْمَ يَصِيرُ ذِكْرِي فِي قَلْبِ الصَّبِيِّ، فَإِنْ وَجَدَ الْعَدْلَ شَبَّ عَلَيْهِ،
وَإِنْ وَجَدَ الظُّلْمَ أَحْرَقَ قَلْبُهُ وَأَحْرَقَ مَعَهُ الْمَدِينَةَ».

تَنَاهَدَ حَبِيبٌ وَكَأَنَّ نَفْسًا ثَقِيلًا خَرَجَ مِنْ صَدْرِهِ، ثُمَّ أَمَرَ غُلَامَهُ أَنْ يَزِيدَ

فِي الْكَيْلِ شَيْئًا.

إِنْتَقِلُوا إِلَى طَرَفِ الشُّوقِ حَيْثُ يَفْقُصُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ عَلَى مِقْطَعٍ مِنَ
الْحَدِيدِ يُقَدِّرُ ثَمَنَهُ صِنَاعَةً وَمَادَّةً. قَالَ: «الْعَدْلُ فِي الصَّنَاعَةِ أَنْ نُسَمِّيَ الزَّمَنَ
وَالْمَادَّةَ وَالْجُهْدَ، ثُمَّ نُقَدِّرَ ثَمَنًا لَا يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يُصَيِّعُ كُلَّ شَيْءٍ.»

فَأَجَابَهُ الْإِمَامُ: «وَأَنْ نُوفِّيَ الْعَهْدَ

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الْإِسْرَاءِ: ٣٤)،

فَإِذَا وَعَدْتَ زُبُونًا يَوْمَ فِاقِمِ الْوَعْدِ، وَإِلَّا فَأَعْلِمَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكَ فَيَنْقَلِبَ
رِضَاهُ سَخَطًا. وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَجْعَلَ لِصَنْعَتِكَ ضَمَانًا يَرُدُّ الْبُضَاعَةَ إِنْ عَابَتْ،
فَلَيْسَتْ آيَةً

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلِ: ٩٠)

جُمْلَةً تُتْلَى، بَلْ طَرِيقُهُ عَيْشٌ تُطَبَّقُ.

مِنْ مَشْهَدِ الشُّوقِ انْعَطَفَ الْقَوْمُ إِلَى مَجْرَى السَّاقِيَةِ؛ الْمَاءُ يَجْرِي
وَالْحُقُولُ تُطْلُ عَلَيْهِ كَعِمَارٍ مِنْ أَمَلٍ أَخْضَرَ. تَقَدَّمَ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي دَوْرٍ
الرِّيِّ؛ هَذَا يَقُولُ: «ابْتَدِئُوا بِي فَقَدْ بَذَرْتُ أَوَّلًا»، وَآخَرُ يَقُولُ: «بَلْ أَنَا فَإِنَّ أَرْضِي
أَقْرَبُ إِلَيَّ الْمَجْرَى».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وُضِعَتِ الْأَعْيُنُ فِي عَيْنِي الْإِمَامِ كَأَنَّهُا تَسْتَفْتِيهِ، فَقَالَ وَهُوَ يَرْسُمُ بِعُودٍ عَلَى الثَّرَابِ جَدُولًا لِلْأَوْقَاتِ: «الْعَدْلُ أَنْ نَجْعَلَ لِكُلِّ حَقِّهِ بِمِقْدَارٍ لَا يَظْلِمُ، وَالْإِحْسَانُ أَنْ يُؤَثِّرَ أَحَدُكُمَا أَخَاهُ فِي يَوْمٍ شَدِيدٍ الْحَرِّ، ثُمَّ يُؤَثِّرَهُ الْآخَرُ فِي يَوْمٍ آخَرَ؛ هَكَذَا تَبْقَى الْأَرْضُ مُثْمِرَةً وَالْقُلُوبُ مُؤْتَلِفَةً.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافِ: ٥٦)؛

وَمِنَ الْإِفْسَادِ أَنْ يَغْلِبَ هَوَى النَّفْسِ عَلَى مِيزَانِ الْحَقِّ.

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَفِي الْأَنْفَاسِ عِطْرُ طِينٍ مَبْلُولٍ وَصَخَبُ سُوقٍ هَذَا بَعْدَ الْإِقَالَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ، وَقَالَ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَمَرَ بِالْعَدْلِ جَعَلَهُ أَصْلًا، وَإِذَا قَامَ الْأَصْلُ صَلَحَ كُلُّ فَرْعٍ. وَإِذَا دَخَلَ الْإِحْسَانُ عَلَى الْعَدْلِ زَانَهُ وَأَطْلَعَ فِيهِ ثَمَرًا لَا تَنْبِيهُ الصِّفَقَاتُ الْمُجَرَّدَةُ. فَلَا إِحْسَانَ فِي التَّجَارَةِ أَنْ تَصْفَحَ عَنْ خَطَا يَسِيرٍ لِمَتَعَلِّمٍ، وَتُرْشِدَ جَارًا إِلَى مَصْدَرِ رِزْقٍ وَإِنْ نَافَسَكَ، وَتُقَدِّمَ الْحَاجَةَ الْعَامَّةَ عَلَى الرِّبْحِ الْعَاجِلِ؛ فَإِنَّ

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

(الشُّورَى: ٤٠).

رَفَعَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ، وَقَالَ وَفِي صَوْتِهِ حِدَّةٌ مَنْ يُحِبُّ التَّحْقِيقَ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، تَكَلَّمْتُ عَنِ الْحُدُودِ فِي السَّعْرِ وَالْكَيْلِ، فَهَلْ لِلْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مِقْيَاسٌ

فِي الْكَلَامِ أَيْضًا»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَأَشَارَ إِلَى اللِّسَانِ بِنَظَرَةٍ تُشْعِرُ بِخُطُورَةٍ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ:
«نَعَمْ؛ الْكَلِمَةُ مِيزَانٌ، فَإِنْ زَادَتْ فِي الْقُسُوفَةِ ظَلَمَتْ، وَإِنْ نَقَصَتْ فِي التَّبْلِيغِ
ضَيَّعَتْ الْحَقَّ. وَإِنَّ مِنَ الْإِحْسَانِ أَنْ تَسْتُرَ عَيْبًا صَغِيرًا مِمَّا لَا يَغُشُّ، وَتَذْكُرُهُ إِذَا
كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ؛

﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(آلِ عِمْرَانَ: ١٣٤).

مَالَتْ «آمَنَةُ» بِجِسْمِهَا قَلِيلًا كَمَنْ يَقْتَرِبُ مِنْ سِرٍّ، وَقَالَتْ: «إِنَّ النُّفُوسَ
تَمِيلُ فِي الشَّدَّةِ إِلَى الْاِقْتِنَاصِ، فَكَيْفَ نَقِيمُ مِيزَانَ الْعَدْلِ وَنَصِلُ إِلَى مَقَامِ
الْإِحْسَانِ»

جَرَى صَوْتُ الْإِمَامِ كَنَهْرٍ يَعْرِفُ مَجْرَاهُ: «بَلَّا نُعْطِي الْهَوَى مَقْعَدَ
الْحَاكِمِ. مَنْ كَانَ خَصْمُهُ هَوَاهُ لَمْ يَعْدِلْ، فَأَخْطَأَ الْحُكْمَ وَأَفْسَدَ الْعَامِرَ مِنَ الْبِلَادِ
وَالْقُلُوبِ.

﴿كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْمَائِدَةِ: ٨)،

وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النِّسَاءِ: ٥٨).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَإِذَا قُتِمَتْ بِالْقِسْطِ وَاسْتَحْضَرْتَ اللَّهَ شَاهِدًا، تَهَيَّأْ قَلْبُكَ لِلْإِحْسَانِ فَتَعْفُو
عَمَّنْ أَعْتَذَرَ، وَتَيْسَّرْ عَلَى مَنْ ضَاقَ، وَتَمَدَّحْ مَنْ أَحْسَنَ وَلَوْ كَانَ مُخَالِفًا لَكَ.
هَذِهِ مَقَامَاتٌ تُرْفَعُ بِهَا الْمَدِينَةُ كُلُّهَا.»

وَيَنْبَغُ هُمْ فِي الْحَدِيثِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ أَثَرُ التَّعَبِ، يَقُودُ صَبِيًّا يَتَحَفَّظُ
مِنْ خَطَوَاتِهِ كَمَنْ يَحْمِلُ الْعَالَمَ فِي قَدَمَيْهِ. قَالَ الرَّجُلُ: «يَا سَيِّدِي، أَسْتَأْجِرُكَ
هَذَا الْفَتَى يَوْمًا فِي الْحَقْلِ، فَلَمْ يُؤَدِّ صَنِيعَهُ عَلَى تَمَامٍ، وَيَطْلُبُ الْأَجْرَ كَامِلًا.»

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى الصَّبِيِّ وَإِلَى يَدَيْهِ الْمُتَرَبِّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ بَلِيغٍ لَا
يَنْفَصِلُ عَنِ الْحَقِّ: «أَجْعَلْ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ مَا بَدَلَ، وَزِدْهُ شَيْئًا إِحْسَانًا تُعَلِّمُهُ بِهِ
أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا رَحِمَ اتَّقَنَ، وَإِذَا اتَّقَنَ رَزَقَ. فَالْعَدْلُ أَنْ لَا تُظْلِمَ، وَالْإِحْسَانُ أَنْ
تُرَبِّيَ.»

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٥٢)،

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٧).»

حِينَ مَالَتْ الشَّمْسُ إِلَى الْغُرُوبِ، طَلَبَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ أَنْ يُلْخَصَ
الطَّرِيقَ فِي قَلِيلِ كَلِمٍ،

فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ بِيَدِهِ هَلَالًا يَتَسَعُّ: «الْعَدْلُ حَدُّ نَقِيمِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَالْإِحْسَانُ فَضْلٌ نَنْشُرُهُ فَوْقَ الْحَدِّ. الْعَدْلُ يَمْنَعُ الظُّلْمَ، وَالْإِحْسَانُ يَسُدُّ ثُلْمَ الْقُلُوبِ. وَمَا اتَّسَقَتْ مَدِينَةٌ إِلَّا إِذَا قَامَتْ بِهِمَا مَعًا: تَقْيِيسُ بِالْقِسْطِ، وَتُجْمِيلُ بِالْفَضْلِ. وَتَذَكَّرُوا

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)

حِطَابٌ يَنْزِلُ فِي الْمَحْرَابِ لِيُمْتَحَنَ فِي السُّوقِ، وَيُتْلَى عَلَى الْمَنْبَرِ لِيَجْرِيَ فِي الْمَزَارِعِ وَالْوُرُشِ وَالْبُيُوتِ..

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ الْمَجْلِسُ، نَهَضَ يَاسِرٌ وَفِي يَدِهِ كَيْسُ الزَّيْتِ الْجَدِيدِ، ثُمَّ قَالَ: «أُقِيمُ السَّعْرَ عَلَى كُلِّفَتِي وَرِبْحٍ مُنْصِفٍ، وَأَجْعَلُ لِلْفُقَرَاءِ نَصِيبًا مَعْلُومًا فِي كُلِّ عَشْرِ قَرَبٍ قُرْبَةً. هَذَا عَدْلِي وَهَذَا إِحْسَانِي.»

صَفَّقَتِ الْعُيُونُ قَبْلَ الْأَكْفِ، وَتَبَسَّمَ حَيِّبُ الدُّنْيَا مُسْتَسْلِمًا لِنُورٍ لَمْ يَعْتَدِهِ، وَقَالَ: «أَجْرُبِ الْيَوْمَ أَنْ أَرْبَحَ رِبْحَيْنِ: رِبْحًا فِي الدُّنْيَا بِثِقَةِ النَّاسِ، وَرِبْحًا فِي الْآخِرَةِ بِرِضَى الرَّبِّ. لَعَلَّهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا ثَبَتَتِ التَّجَارَةُ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ وَوَجْهُهُ يَزْدَادُ بَهَاءً: «هَكَذَا يَسِيرُ السُّوقُ عَلَى قَدَمَيْنِ: قَدَمُ الْعَدْلِ وَقَدَمُ الْإِحْسَانِ. فَإِذَا عَثَرَتْ إِحْدَاهُمَا سَقَطَ النَّاسُ، وَإِذَا اسْتَقَامَتَا أَنْسَابَ الرَّبِّحِ كَمَا سَاقِيَةٌ لَا يُفْسِدُهُ طَمَعٌ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَعِنْدَ الْعُرُوبِ تَحَوَّلَ ضَوْءُ الْمَسْجِدِ إِلَى ذَهَبٍ بَاهِتٍ يُشْبِهُ تَرْتِيلًا أَحْيَرًا.
أَطَالَ الْإِمَامُ النَّظَرَ فِي الْحَلَقَةِ، ثُمَّ خَتَمَ كَلَامَهُ كَمَنْ يُسْكِنُ بَحْرًا بِلَمْسَةٍ:
«أَجْعَلُوا فِي كُلِّ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَعَهْدٍ وَعُودٍ نَصِيبًا لِهَذِهِ آيَةِ الْجَامِعَةِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠).

فَإِنْ أَقَمْتُمْ الْعَدْلَ سَلِمْتُمْ مِنَ الظُّلْمِ، وَإِنْ تَزَيَّنْتُمْ بِالْإِحْسَانِ أَحْيَيْتُمْ
الْمُودَّةَ فِي الْقُلُوبِ. وَتَذَكَّرُوا

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩)،

فَمَنْ حَفِظَ الْمِيزَانَ فِي يَدَيْهِ حَفِظَ اللَّهُ لَهُ الْمِيزَانَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ.»

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمَدِينَةِ تَتْلَأُ بِنُقْطِ صَغِيرَةٍ مِنْ نُورٍ، كَأَنَّهَا أَسْمَاءُ
أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تُكْتَبُ عَلَى الشُّوَارِعِ. كَانَ جَابِرٌ يَحْمِلُ دَفْتَرًا قَدِ امْتَلَأَ صَفْحَاتٍ
جَدِيدَةً، وَفِي الْحَاشِيَةِ كَتَبَ: «الْعَدْلُ يُقِيمُ الْحُدُودَ، وَالْإِحْسَانُ يُنْبِتُ فَوْقَهَا
رَوَاحِينَ»،

وَكَانَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْسُمُ فِي ذَهْنِهِ مِيزَانًا ذَا كَفَّتَيْنِ، إِذَا مَالَتِ
إِحْدَاهُمَا أَقَامَتِهَا الْأُخْرَى. أَمَّا حَبِيبُ الدُّنْيَا فَقَدْ مَشَى بِخُطًى أَبْطَأَ، كَمَنْ يَعْلَمُ

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

إِقَاعًا جَدِيدًا لِلشُّوقِ لَا يَسْمَحُ فِيهِ لِلْجَشَعِ أَنْ يَصْطَلِحَ فَوْقَ نِعْمَةِ الْحَقِّ.

وَفِي الْقَلْبِ صَدَى يَعُودُ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ: الْعَدْلُ أَسَاسُ الشُّوقِ الْقَوِيمِ،
وَالْإِحْسَانُ نُورُهُ الَّذِي يُزِينُهُ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَ سَارَ النَّاسُ إِلَى أَرْزَاقِهِمْ وَهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّ
الرَّيْحَ لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْكَيْسَ فَقَطْ، بَلْ مَا يَدْخُلُ الصَّدْرَ مِنْ سَعَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.
هُنَاكَ،

فِي الْمَسَاءِ الَّذِي هَدَأَتْ فِيهِ الرِّيحُ، كَانَ صَوْتُ آيَةٍ يَرْتَدُّ كَأَنَّهُ نَفْسُ
مَدِينَةٍ تَعْلَمُ طَرِيقَهَا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠).

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْقِسْطِ وَعَدَمُ الطُّغْيَانِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَنْفُخُ فِي جَوْ الْمَدِينَةِ نَفْسًا هَادِيًا، وَسُرُجُ الزَّيْتِ تَتَوَهَّجُ فِي الْأَرْكَانِ كَأَنَّهَا حُبُوبُ نُورٍ تُنَبِّتُ سَكِينَةً فِي الْقُلُوبِ. جَلَسَتْ الْحَلَقَةُ حَوْلَ الْإِمَامِ كَهْلَالٍ يُحِيطُ بِقَمَرٍ، جَابِرٌ يُلَامِسُ طَرْفَ قَلَمِهِ لِيَهَيِّئَ صَفْحَةَ كِتَابَتِهِ، صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ لَوْحًا عَلَيْهِ رُسُومُ مِيزَانٍ وَنُقُطٌ تَدُلُّ عَلَى مَسَارِ حُجَجٍ، أَمَنَةُ الْبَصِيرَةِ تُضْغِي وَفِي عَيْنَيْهَا بَرِيقُ فَهْمٍ يَسْتَجْمِعُ نَفْسَهُ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُصَفِّرُ فِي سِرِّهِ وَيَنْظُرُ مُتَلَفِّتًا كَمَنْ يَتَحَسَّسُ سِعَرَ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ تَفُوتَ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَتَدَافَعُ فِي الْهَوَاءِ كَمَاءٍ سَاقِيَةٍ صَافِيَةٍ:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩).

ثُمَّ أَسْدَلَ عَلَى الْآيَةِ صَمْتًا يَتَسَّعُ فِي الصُّدُورِ، وَقَالَ وَهُوَ يُمَسِّكُ سَبَابَتَهُ كَمَنْ يُشِيرُ إِلَى أَقْفٍ: «هَذَا نِدَاءٌ يُقِيمُ لَكُمْ حَدًّا يَحْفَظُ الْحَقَّ مِنْ أَنْ يَضِيعَ، وَيَنْهَى نَفْسَكُمْ عَنِ الطُّغْيَانِ فِي كُلِّ بَابٍ؛ فَالْقِسْطُ هُوَ تَمَامُ الْعَدْلِ، وَالْمِيزَانُ لَيْسَ حَدِيدًا وَخَشَبًا فَقَطْ، بَلْ حَدٌّ يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَجَاوَزَ حَقَّ غَيْرِكَ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

تَنَفَّسَ الْمَكَانُ كَأَنَّهُ يَتَعَلَّمُ، وَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي ابْتِسَامَتِهِ لَمْعَةٌ
التَّحَدِّي: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، إِنَّ السُّوقَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْأَرْبَاحِ، وَالْفُرْصَةُ إِذَا لَمْ أَعْتَمِمْهَا
ذَهَبَتْ إِلَى غَيْرِي. أَمَا رَأَيْتَ إِذَا قَلَّ الْغَرَضُ وَكَثُرَ الطَّلَبُ كَيْفَ يَرْتَفِعُ السَّعْرُ فَلِمَ
لَا أَرْفَعُهُ مَا اسْتَطَعْتُ مَا دَامَ النَّاسُ مُقْبِلِينَ»

الْتَمَعَتْ فِي عَيْنِ صَاحِبِ الْقِيَّاسِ فِكْرَةٌ، فَقَرَّبَ الْمِيزَانَ الَّذِي أَحْضَرَهُ
لِلتَّدْرِيبِ، وَوَضَعَ فِي كِفَّتِهِ الْأُولَى حَصَى صَغِيرًا، ثُمَّ قَالَ: «تَصَوَّرْ مَعِيَ هَذَا
الْحَصَى هُوَ رِبْحُكَ الْآنَ، وَتِلْكَ الْكِفَّةُ الْأُخْرَى هِيَ ثِقَةُ النَّاسِ بِكَ. كُلَّمَا زِدْتَ
الْحَصَى مِنْ غَيْرِ حَقٍّ هَبَطَتْ كِفَّتُكَ هُنَا وَارْتَفَعَتْ هُنَاكَ الشُّبْهَةُ وَسُوءُ الظَّنِّ،
فَتَخَسَّرَ مَعَ الزَّمَنِ مَا تَظُنُّهُ الْيَوْمَ رِبْحًا.» ثُمَّ هَزَّ الْمِيزَانَ هَزَّةً خَفِيفَةً فَاخْتَلَّ،
وَعَقَّبَ: «وَإِذَا اخْتَلَّ الْمِيزَانُ الصَّغِيرُ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ، اخْتَلَّ الْمِيزَانُ الْكَبِيرُ فِي
الْمُجْتَمَعِ؛ تَضِيقُ الْقُلُوبِ، وَتَرْتَفِعُ الْأَلْسِنَةُ بِالتَّشَكُّيِّ، وَتَنْقَطِعُ الْأَيَادِي عَنِ
الْمُسَاعَدَةِ.»

أَطْرَقَ حَبِيبُ كَمَنْ يُفَكِّرُ فِي مَكَاسِبِهِ وَمَخَاسِرِهِ، وَتَقَدَّمَ جَابِرٌ وَقَالَ وَهُوَ
يُدَوِّنُ: «إِنْ كَانَ الْقِسْطُ تَمَامَ الْعَدْلِ، فَكَيْفَ نَقِيمُهُ فِي السَّعْرِ وَالْخِدْمَةِ وَالْعَهْدِ»

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ، وَأَشَارَ إِلَى آيَةِ الْمَثَلَةِ كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا: «أَبْدُوا مِنْ هُنَا:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (الرحمن: 9)؛

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَقِيمُوهُ فِي قُلُوبِكُمْ أَوَّلًا، فَمَنْ اسْتَقَامَ قَلْبُهُ اسْتَقَامَتِ يَدُهُ، وَمَنْ رَاعَى اللَّهَ فِي الْخَفَاءِ أَمِنَهُ النَّاسُ فِي الْجَهْرِ. إِذَا سَعَرْتَ فَادْكُرْ كُفَّتَكَ وَتَعَبَكَ وَدَقَّةَ صَنَعَتِكَ، ثُمَّ زِدْ عَلَيْهَا رِبْحًا مُنْصِفًا، وَلَا تَتَخَذِ الضُّعَفَاءُ سُلَّمًا لِيُصْعُودَكَ؛ فَإِنَّهُ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: 1)،

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الْحُجُرَات: ٩)».

وَكَأَنَّ الْكَلِمَاتِ تَحُثُّ الْأَقْدَامَ عَلَى الْمَسِيرِ، قَالَ الْإِمَامُ: «هَلُمُّوا إِلَى السُّوقِ، فَالْقِسْطُ يَبْدُو أَجْلَى حِينَ يُمْتَحَنُ».

خَرَجُوا، فَإِذَا الْمَتَاجِرُ تَفَتَّحَ أَفْوَاهَ الْخَشَبِ عَلَى الْأَرْضِيفَةِ، وَصَوْتُ الدَّلَّالِينَ يَطْلُبُ الْأَسْمَاعَ كَنْدَاءٍ يَتَرَأَّشُ مِنْ زَاوِيَةٍ إِلَى زَاوِيَةٍ. وَقَفُوا عِنْدَ بَاعَةِ الْحَبِّ، فَإِذَا رَجُلٌ يُسْرِعُ يَدَهُ عِنْدَ الْكَيْلِ، يَحْذِفُ مِنَ الْقِفَّةِ حَبَّاتٍ لَا تَرَى إِلَّا لِعَيْنِ دَرِيَّةٍ. لَمَحَهُ الْإِمَامُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ بِهِدِي لَطِيفٍ: «يَا هَذَا، أَتَقِي اللَّهَ فِي الْمِيزَانِ؟

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (هود: 85)،

فَإِنَّ الْحَبَّةَ تَسْقُطُ أَلْيَوْمَ مِنْ كِفَّتِكَ، وَلَكِنَّهَا عَدَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقِكَ». رَجَعَتْ يَدُ الرَّجُلِ، وَأَعَادَ الْكَيْلَ عَلَى مَهْلٍ كَمَنْ يَغْسِلُ ذَنْبًا بِمَاءِ تَوْبَةٍ.

الْتَفَتَ حَبِيبُ الدُّنْيَا إِلَى صَاحِبِ الْقِيَاسِ وَقَالَ: «وَلَكِنْ، أَرَأَيْتَ إِذَا

دَخَلَتْ بَصَاعَةً قَلِيلَةً فِي الْمَدِينَةِ، أَلَا نَرْفَعُ الثَّمَنَ رَفْعًا يُقَابِلُ قِلَّتَهَا»

قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَرْسُمُ بِالْعَصَا عَلَى الثَّرَابِ قَوْسًا يَصْعَدُ ثُمَّ يَهْبِطُ: «أَرْتَفَاعُ السَّعْرِ لِعِلَّةِ ظَاهِرَةٍ مَعْقُولٌ إِذَا وُضِّحَ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا الْإِعْتِنَامُ الظَّالِمُ فَهُوَ سُلَّمٌ خَادِعٌ؛ يَرْفَعُكَ خُطُوبَاتٍ سَرِيعَةً ثُمَّ يُلْقِيكَ فِي هَاوِيَةِ فَقْدِ الثَّقَةِ. اُنْظُرْ؛ إِنْ رَفَعْتَ السَّعْرَ فَوْقَ قَدْرِهِ أَلْمَعْقُولُ خَرَجَ الْمُشْتَرِي إِلَى بَدِيلٍ وَإِنْ بَعْدَ، وَجَفَّتْ سَاقِيَةُ رِبْحِكَ. وَإِنْ بَيَّنْتَ لِلنَّاسِ سَبَبَ الزِّيَادَةِ، وَقَابَلْتَهَا بِقِسْطٍ فِي الْكَيْلِ وَرِقَّةٍ فِي الْكَلِمَةِ، صَلَحَ الْحَالُ وَطَالَ الْعُمْرُ لِتِجَارَتِكَ.»

وَأَضَافَ الْإِمَامُ كَمَنْ يُتِمُّ حُجَّةً: «وَأَيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: الْآنَ وَحْدَهُ، فَإِنَّ الشُّوقَ نَفْسٌ طَوِيلٌ؛ مَنْ أَقَامَهُ عَلَى قِطْعِ النَّفْسِ هَلَكَ، وَمَنْ أَقَامَهُ عَلَى تَوَازُنِ الشَّهْقَةِ وَالزَّفِيرِ دَامَ.»

إِنْصَرَفُوا إِلَى حَائُوتِ نَسَاجٍ يَبِيعُ أَثْوَابًا مَشْغُولَةً بِدِقَّةٍ، فَإِذَا بِأَمْرَأَةٍ تَسْأَلُهُ: «أَتُخَفِّفُ السَّعْرَ» فَقَالَ بِغِلْظَةٍ: «هَذِهِ صَنْعَةٌ مُتَّقَنَةٌ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَبْتَغِ غَيْرَهَا.»

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ نَظْرَةً تُطْفِئُ غِلْظَةَ الصَّوْتِ، ثُمَّ قَالَ لِلْأَمْرَأَةِ: «هَاتِي الثَّوبَةَ نَنْظُرُ إِلَيْهِ.» تَلَمَّسَ الطَّرِيفَ وَقَالَ لِلنَّسَاجِ: «إِنَّ تَمَامَ الْقِسْطِ أَنْ تُبَيِّنَ لِلْمُشْتَرِي مَوْضِعَ الْإِتْقَانِ مِنْ ثَوْبِكَ، وَمَوْضِعَ الضَّعْفِ إِنْ وَجَدَ، ثُمَّ تُسَعِّرَ عَلَى ذَلِكَ. وَلَكَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فِي اللَّيْنِ نَصِيبٌ؛ فَالْكَلِمَةُ اللَّطِيفَةُ تَزِيدُ فِي الرِّبْحِ مَا لَا تَزِيدُهُ الْعِلَظَةُ.

﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩).

ثُمَّ مَالُوا إِلَى طَرَفِ السُّوقِ حَيْثُ تَصْطَلُكُ الْمَطَارِقُ فِي وَرْشَةِ صَفْوَانِ بْنِ رِيَّاحٍ، وَالْحَدِيدُ يَحْمَرُّ كَأَنَّهُ شَمْسٌ فِي كَفِّ صَانِعٍ. قَالَ صَفْوَانُ وَهُوَ يَرْفَعُ الْمِطْرَقَةَ: «إِذَا أَرْتَفَعْتَ هَذِهِ فَوْقَ قَدْرِهَا شَقَّتِ الْحَدِيدَ انْشِقَاقًا يُفْسِدُهُ، وَإِذَا نَقَصْتَ عَنْ قَدْرِهَا لَمْ تُبَلِّغِ الشُّغْلَ حَدَّهُ. هَذَا مِيزَانُ الْمِطْرَقَةِ، وَمِثْلُهُ مِيزَانُ السَّعْرِ وَالْكَلِمَةِ وَالْحُكْمِ..»

فَأَجَابَهُ الْإِمَامُ: «وَكَذَلِكَ مِيزَانُ النُّفُوسِ؛ إِنْ طَغَتْ عَلَى حَقِّ الْآخِرِينَ فَسَدَتْ، وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْ حَقِّ نَفْسِهَا أَنْكَسَرَتْ.

﴿أَلَا تَطْغَوْنَ فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرَّحْمَنِ: ٨).

وَبَيْنَمَا هُم فِي ذَلِكَ دَخَلَ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي عَقْدٍ مَغْشُوشٍ؛ أَحَدُهُمَا يَقُولُ: «أَعْطَيْتُكَ مَا وَعَدْتُكَ»، وَالْآخَرُ يَقُولُ: «وَعَدْتَنِي بِغَيْرِ هَذَا». جَلَسُوا أَمَامَ الْإِمَامِ، فَقَالَ لَهُمَا: «أَخْرِجَا الصَّحِيفَةَ.» فَلَمَّا نَظَرَ فِيهَا وَجَدَ كَلِمَاتٍ مُبْهِمَةً تَحْتَمِلُ وُجُوهًا. قَالَ: «الْقِسْطُ فِي الْعُقُودِ إِحْكَامُ اللَّفْظِ كِاحْكَامِ الْكَيْلِ، فَإِذَا أَبْهَمْتُمُ الْكَلِمَةَ ظَلَمْتُمُ وَإِنْ لَمْ تَقْصِدُوا؛ وَإِذَا أَحْكَمْتُمُوهَا سَلِمْتُمْ مِنْ مَوَاطِنِ الرَّيْبِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (الْمَائِدَةِ: ١).

ثُمَّ أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ مَا تَحْمِلُهُ الْأَلْفَاظُ، وَزَادَهُمَا كَلِمَةً تُعَلِّمُ:
«أَسْتَعِينَا بِنُسْخَةٍ مُحْكَمَةٍ، فَمَنْ أَحْكَمَ الْكَلِمَةَ حَفِظَ الْحَقَّ.»

وَفِي طَرَفِ السُّوقِ كَانَتْ «أَمْنَةٌ» تَنْظُرُ إِلَى صَبِيٍّ يَحْمِلُ قُبَّةً فَوْقَ طَاقَتِهِ،
فَنَدَتْ مِنْهَا رِقَّةٌ قَالَتْ بِهَا: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، هَلْ لِلْقِسْطِ مَوْفِقٌ مَعَ الرِّقَّةِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «بَلْ هُوَ أَقْرَبُ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا؛ فَمَنْ قَسَطَ لِلنَّاسِ رَحِمَهُمْ، وَمَنْ
ظَلَمَهُمْ قَسَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَفْسِهِ. وَأَعْلَمُوا أَنَّ الطُّغْيَانَ لَيْسَ فِي الْمِيزَانِ الْمَادِّيِّ
فَقَطُّ، بَلْ فِي كُلِّ قِيَمَةٍ تُرِيدُونَ إِقَامَتَهَا؛ فِي السَّعْرِ، وَفِي الْكَلِمَةِ، وَفِي
الْمَنْصِبِ، وَفِي الْحُكْمِ. إِذَا طَغَى رَئِيسٌ فِي نَادِيهِ أَنْكَسَرَ الْمِيزَانُ فِي الْقُلُوبِ؛
وَإِذَا طَغَى مُعَلِّمٌ فِي فَصْلِهِ تَعَلَّمَ الصَّبِيَّانُ الظُّلْمَ قَبْلَ الْحُرُوفِ؛ وَإِذَا طَغَى بَائِعٌ فِي
سِعْرِهِ قَلَّ الرِّزْقُ وَكَثُرَ الشَّكْوَى.»

سَارُوا مِنَ السُّوقِ إِلَى ضِفَّةِ السَّاقِيَةِ، وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى قَدَرٍ، يَأْخُذُ حَظَّهُ
مِنَ الْمَجْرَى ثُمَّ يُسَلِّمُهُ لِمَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ وَلَا بُخْلِ.

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْمَاءِ: «هَذِهِ الْجَارِيَةُ تُعَلِّمُكُمُ الْقِسْطَ؛ لَا
تَحْبِسُ نَفْسَهَا عَنْ قَرِيَةٍ لِتُفْسِدَ قَرِيَةً أُخْرَى، وَلَا تَتَدَفَّقُ تَدَفُّقًا يُجَرِّفُ التُّرْبَةَ. هَذَا
قَدْرٌ يَحْفَظُ الْخَيْرَ، وَمَنْ قَاسَ عَلَيْهِ سِعْرًا أَوْ حُكْمًا أَوْ كَلِمَةً نَجَا.» ثُمَّ تَقَدَّمَ رَاعٍ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَطْلُبُ زِيَادَةَ سَحْبٍ لِإَرْضِهِ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى الْمَجْرَى، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: «أَقْرَبِيَّةُ الْمَكَانِ لَا تَجْعَلُكَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ؛ الْحَقُّ يُقَاسُ بِحَاجَةٍ وَوَقْتٍ وَمِقْدَارٍ. نُعْطِيكَ قَدْرًا، وَنُعْطِي بِعَدِّكَ قَدْرًا، فَيَبْقَى الْمَجْرَى لِلْجَمِيعِ.»

حِينَ مَالَتْ الشَّمْسُ إِلَى الْغُرُوبِ عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَالنُّورُ يَنْكَسِرُ عَلَى الْأَعْمِدَةِ كَأَنَّهُ خِيوطُ ذَهَبٍ تُخِيطُ خِتَامَ الْيَوْمِ. جَلَسُوا، وَقَالَ الْإِمَامُ: «يَا أَصْحَابِي، إِنَّ الْقِسْطَ صُورَةٌ مِّنَ الْحَقِّ فِي الْأَرْضِ، وَالطُّغْيَانَ صُورَةُ الْفَسَادِ؛ وَقَدْ رَبَطَ اللَّهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْمِيزَانِ، فَقَالَ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾
(الرَّحْمَنِ: ٧-٨).

فَمَنْ نَظَرَ فِي الْكَوْنِ رَأَاهُ يَجْرِي عَلَى وَتِيرَةٍ لَا تُخْسِرُ كَوْكَبًا وَلَا تُطْغِي جَرْمًا، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْمُدُنِ رَأَى أَنَّهَا تَعْمُرُ إِذَا قَامَتْ فِيهَا الْقِسْطَةُ وَتَخْرُبُ إِذَا طَغَى الرَّبْحُ عَلَى الْحَقِّ.»

رَفَعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَدَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ وَفِيهَا صِدْقٌ مِّنْ يَتَعَلَّمُ: «قَدْ فَهِمْتُ أَنَّ الرَّبَّ الْعَاجِلَ قَدْ يَكُونُ خُسْرَانًا مُّؤَجَّلًا، فَمَا الْعَلَامَةُ الَّتِي أَعْرِفُ بِهَا أَنَّي أَقَمْتُ الْقِسْطَ فِي سِعْرِي وَمِيزَانِي»

قَالَ الْإِمَامُ: «ثَلَاثٌ يَدُلُّلَنَّكَ: أَنْ تَقْدِرَ نَفَقَتَكَ وَتَجْعَلَ لِنَفْسِكَ رِبْحًا

مُنْصِفًا لَا يَسْتَحْيِي مِنَ النُّورِ، وَأَنْ تُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا تَبِعَهُ بِلَا غِشٍّ وَلَا كِتْمَانٍ، وَأَنْ تَتَفَقَّدَ قَلْبَكَ عِنْدَ كُلِّ صَفَقَةٍ؛ فَإِنْ وَجَدْتَ فِيهِ شِدَّةَ الطَّمَعِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمِيزَانَ قَدْ مَالَ. وَأَذْكُرْ دَوْمًا:

﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

وَقَامَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ كَمَنْ يَخْتِمُ سُلَّمِ الْحُجَجِ بِدَرَجَتِهِ الْأَخِيرَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ التَّسْعِيرَ الْجَائِرَ يَفْسُدُ السُّوقَ كَمَا تُفْسِدُ قَطْرَةُ الزَّيْتِ جَرَّةَ الْمَاءِ؛ يُقْصِرُ الْمَدَى، وَيَحْرِقُ جُسُورَ الثِّقَةِ، وَيَحُولُ الْمُشْتَرِي إِلَى خَصْمٍ، وَالتَّاجِرُ إِلَى مَشْرُوعٍ يَتَنَفَّسُ بِالْصُّدْفِ لَا بِالْحِسَابِ. وَإِنَّ الْقِسْطَ يُطِيلُ النَّفْسَ، وَيَبْنِي جُسُورًا تَعْبُرُ عَلَيْهَا الْأَمْوَالُ وَالِدُّعَاءُ.» فَهَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ رِضًا، وَقَالَ: «مَنْ أَقَامَ الْقِسْطَ فِي السُّوقِ رَأَى أَثَرَهُ فِي الْبَيْتِ وَالْحَقْلِ وَالْقَلْبِ.»

وَدَخَلَتْ مَرِيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ تَحْمِلُ فُتَّةً صَغِيرَةً مِنَ التَّمْرِ، وَقَالَتْ: «يَا سَيِّدِي، أَكُونُ بَائِعَةً فِي الطَّرَفِ الْبَعِيدِ مِنَ السُّوقِ، فَيَمُرُّ بِي النَّاسُ قَلِيلًا، فَأَرَى بَعْضَ الْبَاعَةِ يَرْفَعُونَ الصَّوْتَ وَيَسْتَخْدِمُونَ الْمُبَالَاةَ لِيَجْذِبُوا الْحَلْقَ. هَلْ لِلْقِسْطِ مَوْقِفٌ فِي الصَّوْتِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «بَلْ لَهُ مَوَاقِفُ؛ فَلِلْكَلِمَةِ وَزْنٌ، وَلِلصَّوْتِ وَزْنٌ، وَمَنْ خَسِرَ الْمِيزَانَ فِي الصَّوْتِ غَطَّى الْحَقَّ بِضَجِيجِهِ. نَادِي بِالْحَقِّ وَأَبْدِي صِفَاتَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِئَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

سَلَعَتِكَ، وَلَا تُزَاحِمِي النَّاسَ بِغِلْظَةٍ؛ فَإِنَّ الرِّزْقَ يُؤْتَى مِنْ بَابِ الْحَقِّ، لَا مِنْ شُرْفَةِ الْمُخَادَعَةِ.»

وَلَمَّا أَصْفَرَ الْأَفْقُ قَامَ الْإِمَامُ يَمْسَحُ بِصَوْتِهِ مَا بَقِيَ مِنْ صَجِيجِ النَّهَارِ: «أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، الْمِيزَانُ الَّذِي تَحْمِلُونَهُ فِي أَيْدِيكُمْ صُورَةٌ لِمِيزَانٍ أَعْظَمَ تُقَابِلُونَهُ عَدَا؛ فَاحْفَظُوا هَذَا تَسَلَّمُوا فِي ذَاكَ. إِذَا بَعْتُمْ فَلَا تُنْقِصُوا، وَإِذَا اشْتَرَيْتُمْ فَلَا تَظْلُمُوا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ فَبِالْقِسْطِ، وَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلْهَوَى سَبِيلًا. وَاذْكُرُوا دَائِمًا:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: 9)؛

فَهُوَ أَمْرٌ يُصْلِحُ وَزْنَ الْحَبِّ وَوَزْنَ الْكَلِمَةِ وَوَزْنَ الْقُلُوبِ.» ثُمَّ سَكَتَ وَتَرَكَ لِلصَّمْتِ أَنْ يُتِمَّ الدَّرْسَ فِي الصُّدُورِ.

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْمَدِينَةِ تَلْبَسُ طَعَمَ الْمَسَاءِ؛ نَقَطُ النُّورِ تَتَقَدُّ فِي الطُّرُقَاتِ كَأَنَّهَا حُرُوفٌ تَكْتُبُ «قِسْطًا» عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. جَابِرٌ يَحْمِلُ دَفْطَرًا امْتَلَأَ بِعِبَارَاتٍ تُشَبِّهُ الْمِيزَانَ فِي اسْتِقَامَتِهِ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرَى فِي خَيَالِهِ سُلَمًا مِنْ حُجَجٍ كُلُّ دَرَجَةٍ فِيهِ قَدْرُهَا، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَمْشِي أَبْطَأَ كَسَائِرٍ يَتَعَلَّمُ إِيقَاعًا جَدِيدًا لِلسُّوقِ لَا يَقْبَلُ أَنْ يَغْلُو فِيهِ صَوْتُ الطَّمَعِ عَلَى نِعْمَةِ الْحَقِّ.

وَإِذْ بَلَغُوا طَرَفَ السُّوقِ الَّذِي تَخَفُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، تَوَقَّفَ حَبِيبٌ وَقَالَ:

«أُقِيمُ فِي حَانُوتِي صَحِيفَةً أَكْتُبُ فِيهَا سِعَرَ كُلِّ سِلْعَةٍ وَكُلْفَتَهَا، وَأُخْبِرُ بِهَا الْمُشْتَرِي، فَإِنْ رَضِيَ وَإِلَّا بَعْنَاهُ بِالْمَعْرُوفِ لِعَيْرِهِ. لَعَلِّي أَتَعَلَّمُ كَيْفَ أُقِيمُ أَلْوَزْنَ فِي الصَّفْقَةِ قَبْلَ أَنْ أُقِيمَهُ فِي الْمِيزَانِ.»

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «هَكَذَا يُؤَلَّدُ الْقِسْطُ فِي الْعَادَاتِ؛ كَلِمَةٌ صَادِقَةٌ، وَمِيزَانٌ مُسْتَقِيمٌ، وَقَلْبٌ يَرْقُبُ اللَّهَ. إِذَا يَسْهُلُ عَلَيْكَ أَنْ تَكْفَّ يَدَكَ عَنِ الطُّغْيَانِ، لِأَنَّ الْحَدَّ قَدْ قَامَ فِي دَاخِلِكَ.»

وَتَرَكَبَ اللَّيْلُ عَلَى الْمَدِينَةِ كَثُوبٍ سَاكِنٍ، وَبَقِيَ فِي الْأُذُنِ صَدَى يَتَرَدَّدُ كَدْعَاءٍ يَتَكَرَّرُ: «وَأُقِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ». فَمَنْ جَعَلَ لِلْمِيزَانِ حَدًّا حَفِظَ حَقًّا، وَمَنْ كَفَّ عَنِ الطُّغْيَانِ وَقَفَ عِنْدَ الْحَقِّ لَا يَتَعَدَّاهُ؛ وَهَكَذَا يَتَحَوَّلُ الشُّوقُ إِلَى دَرْسٍ، وَالدَّرْسُ إِلَى خُلُقٍ، وَالْخُلُقُ إِلَى مِيزَانٍ يَحْمِلُهُ كُلُّ فِينَا حَيْثُمَا سَارَ. فَالْمِيزَانُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ وَأَنْبَتَتْهُ الْأَيَّامُ، لَيْسَ أَدَاةً لِلْوَزْنِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ حَدٌّ يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَطْغَى عَلَى غَيْرِكَ؛ فَإِذَا قُمْتَ بِهِ قَامَتْ مَعَكَ الْمَدِينَةُ عَلَى قَدَمَيْ قِسْطٍ لَا تَمِيلَانِ.

الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الرَّحْمَةِ وَالْإِسْتِدَامَةِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْمَغْرِبِ يَتَفَتَّحُ كَزَهْرَةٍ تُسْرِجُ قَلْبَ الْمَدِينَةِ بِنُورٍ لَطِيفٍ، وَتَنْسَابُ فِي الْأَرْوَاقِ رَائِحَةُ مَاءِ الْوُضُوءِ مُمْتَرِجَةً بِسُكُونٍ يُشْبِهُ دَعْوَةً خَفِيفَةً إِلَى الرَّاحَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، حَوْلَهُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَيَاسِرُ بْنُ سَحِيمٍ وَحَبِيبُ الدُّنْيَا، وَفِي الْطَّرَفِ جَابِرٌ يُهَيِّئُ دَفْتَرَهُ كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا لِكَلِمَاتٍ سَتُهُنْدِسُ مَا بَقِيَ مِنَ الْيَوْمِ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً لَهَا رِقَّةٌ قَطْرَةٌ تَنْحَدِرُ عَلَى نَخْلَةٍ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ١٠٧).

ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتًا يَسْعُ مَدَى طَوِيلًا، وَقَالَ عَلَى مَهَلٍ: «الرَّحْمَةُ أَصْلُ الْمِيزَانِ كُلِّهِ، وَهِيَ الْعَيْنُ الَّتِي تَسْقِي الْعَدْلَ فَيُثْمِرُ قِسْطًا، وَتَسْقِي الْقَلْبَ فَيُثْمِرُ إِحْسَانًا، وَتَسْقِي الْأَرْضَ فَتَزْهَرُ اسْتِدَامَةً.»

أَقْتَرَبَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي عَيْنَيْهِ ظِلٌّ مِنْ قَلَقٍ يُحَاسِبُ الْأَرْقَامَ: «يَا سَيِّدِي، أَتَكُونُ الرَّحْمَةُ مِيزَانًا فِي السُّوقِ الرَّبْحُ يَطْلُبُ خَفَةً فِي الْيَدِ وَسُرْعَةً فِي

الْقَرَارِ، فَأَيْنَ نَضَعُ الرَّقَّةَ وَنَحْنُ نُجَابِهِ مُنْحَدَرِ الْأَسْعَارِ وَمَدَّ الطَّلَبِ»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَلْمَسُ جَانِبَ مِحْرَابٍ لَهُ فِي الْبَصْرِ قَدْرُ الْأَمَانِ، ثُمَّ قَالَ: «الرَّحْمَةُ لَيْسَتْ لَنَا يُفْسِدُ الْحَدَّ، وَلَا شَفَقَةٌ تُسْقِطُ الْحَقَّ، بَلْ هِيَ قَدْرٌ يُعِيدُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى مَوْضِعِهِ. إِذَا قَامَتْ فِي الْقَلْبِ قَامَ بَعْدَهَا الْعَدْلُ فِي الْيَدِ، وَإِذَا أَنْسَكَبَتْ فِي الْعَادَاتِ أَنْسَابَتْ الْبَرَكَةُ فِي الْأَعْمَالِ.»

خَرَجُوا مَعَ الْإِمَامِ إِلَى السُّوقِ، فَإِذَا الْأَصْوَاتُ تَرْتَفِعُ كَالْأَمْوَاجِ، وَالْوُجُوهُ تَتَفَتَّحُ عَلَى الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ كَأَبْوَابٍ صَغِيرَةٍ فِي مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ. وَقَفُوا عِنْدَ بَائِعِ حَبِّ أَشْيَبَ لَهُ فِي الصَّوْتِ نَبْرَةٌ تَعَبٍ، وَإِذَا بَأْمَرَةً تَسْأَلُهُ خَفْضًا: «هَلْ تُنْقِصُ لَنَا السَّعْرَ أَوْ تُؤَخِّرُ بَاقِيَ الْأَجْرِ إِلَى نِهَايَةِ الْأُسْبُوعِ» فَقَالَ الرَّجُلُ وَقَلْبُهُ بَيْنَ رَغْبَةِ الرَّبْحِ وَرَهْبَةِ الْحَاجَةِ: «عَلَيَّ دُيُونٌ، وَلِي عِيَالٌ.»

فَنَظَرَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ نَظْرَةً تَنْسَابُ مِنْهَا الطُّمَائِنَةُ وَقَالَ: «أَقْبِلِ الْبَاقِيَ مَوْجَلًا مَعَ شَاهِدَيْنِ وَصَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ، وَضَعْ فِي نَفْسِكَ أَنَّ الرَّحْمَةَ لَا تَذْهَبُ سُدىً؛ مَنْ يَرْحَمِ يَرْحَمُهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْقِ الْيَوْمَ بِقَدْرِ يَسْقِهِ اللَّهُ غَدًا بِبِرْكَةٍ.» هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ وَقَدْ خَفَّ عَنْ كِتْفَيْهِ ثَقْلٌ، وَأَخَذَتْ أَلْمَرَّةُ حَاجَتَهَا وَفِي الْعَيْنَيْنِ شُكْرٌ يُشَبِّهُهُ طَلَعُ نَخْلَةٍ يَبْدَأُ فِي الظُّهُورِ.

قَالَ يَاسِرُ بْنُ سُحَيْمٍ وَهُوَ يَلْمَسُ كِفَّةَ مِيزَانٍ قَدِيمٍ مُعَلَّقٍ فِي السَّقْفِ: «يَا

سَيِّدِي، أَتَكُونُ الرَّحْمَةُ قَاعِدَةً فِي التَّجَارَةِ تُطِيلُ الْعُمْرَ لِلسُّوقِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «السُّوقُ كَنَخْلَةٍ لَهَا جَذْرٌ فِي الْقَلْبِ وَسَاقٌ فِي أَلْعَادَاتِ وَعِذْقٌ فِي أَلْمَعَامَلَاتِ؛ إِذَا سُقِيَ الْجَذْرُ بِالرَّحْمَةِ جَرَى الْمَاءُ فِي السَّاقِ عَذْلًا، وَأَثْمَرَ الْعِذْقُ قِسْطًا. وَإِذَا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ يَسَسَتْ الْقُلُوبُ وَالْأَكْفُ، ثُمَّ لَا يَبْقَى إِلَّا قَشْرٌ يَتَكَسَّرُ فِي أَوَّلِ رِيحٍ».

تَقَدَّمَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَقَالَ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى الْأَرْضِ خَطًّا يَتَشَعَّبُ إِلَى أَفْنِيَّةٍ صَغِيرَةٍ: «أَرْحَمُ فِي السُّومَةِ، يَنْصَرِفُ إِلَيْكَ الزُّبُونُ فِي الْغَدِ. أَرْحَمُ فِي أَلْمِيعَادِ، يَمْتَدُّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ جِسْرٌ ثَقِيٌّ. أَرْحَمُ فِي الْقِسْمَةِ، يَعْدِلُ مِيزَانُ الرِّزْقِ عِنْدَكَ وَإِنْ كَثُرَ الْمُنَافِسُونَ. فَالرَّحْمَةُ مَنْطِقُ الْخَلْقِ؛ بِهَا تَتَعَاوَنُ الْأَجْزَاءُ وَلَا تَتَصَادَمُ». تَأَمَّلْ حَبِيبُ الدُّنْيَا الْخُطُوطَ، وَكَأَنَّهَا طُرُقٌ فِي دَاخِلِهِ تُفْضِي كُلُّ مَنِهَا إِلَى بَابٍ يُكْتَبُ عَلَيْهِ «بَرَكَهٌ».

مَضَوْا يَتَتَبَعُونَ جَرِي السَّاقِيَةِ فِي الْحُقُولِ. هُنَاكَ، كَانَ الْمَاءُ يَمْشِي عَلَى قَدَرٍ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالشَّجَرِ، لَا يَسْرِقُ سَاعَتَهُ مِنْ أَيِّ حَقْلٍ، وَلَا يُجَامِلُ قُرْبَ الْبَيْتِ عَلَى بُعْدِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى حَافَةِ الْمَجْرَى حَيْثُ تَنْبُتُ الْحَشَائِشُ الصَّغِيرَةُ: «أَسْتِدَامَةُ الْمَاءِ رَحْمَةٌ لِلْأَرْضِ وَمِنْ عَلَيْهَا؛ لَيْسَ الْأَمْرُ أَنْ تَأْخُذَ الْيَوْمَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَكْثَرَ، بَلْ أَنْ يَبْقَى لَكَ وَلِغَيْرِكَ غَدًا.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الْأَعْرَافِ: ٥٦)،

و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الْأَعْرَافِ: ٣١).

الْمُسْرِفُ ظَالِمٌ لَا يَشْعُرُ؛ يَظْلِمُ الْيَوْمَ غَدَهُ، وَيَظْلِمُ كَثْرَتَهُ فِي الرِّزْقِ بَقْلَةً
الْبَرَكَةِ.

تَقَدَّمَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الزَّرَاعَةِ، وَقَالَ: «السَّنَةُ قَدْ قَلَّ مَطَرُهَا، وَالنَّاسُ
يَطْلُبُونَ الزِّيَادَةَ فِي السَّحْبِ. كَيْفَ نَرْحَمُ وَنَحْنُ نَحْتَاجُ» أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى السَّاقِيَةِ،
وَقَالَ: «الرَّحْمَةُ هُنَا قِسْمَةٌ عَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ وَالْوَقْتِ؛ نُقَدِّمُ الزَّرْعَ الَّذِي عَلَيْهِ
قُوَّةُ الْقَرْيَةِ، ثُمَّ نُنْبِئُهُ بِمَا بَقِيَ عَلَى الْحُقُولِ الْمُكْمَلَةِ. وَنَزْرَعُ صِفَّتِي الْمَجْرَى
شَجَرًا يُمْسِكُ التُّرْبَةَ وَيَحْفَظُ الظِّلَّ، فَتَقِلُّ حَاجَتُنَا إِلَى السَّحْبِ الشَّرِّهِ. هَذِهِ
رَحْمَةٌ تُنْبِئُ أَسْتِدَامَةً.»

رَفَعَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ وَكَتَبَ: «الرَّحْمَةُ تَصْنَعُ نِظَامًا، وَالنِّظَامُ يَصْنَعُ بَقَاءً.»

عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي الطَّرِيقِ سَمِعُوا صَجِيحًا عِنْدَ وَرَشَةِ نِسَاجٍ
يَشْتَكِي أَنَّ الْغُزْلَ فَسَدَ لِأَنَّ الْعُمَالَ عَجِلُوا فِي السَّحْبِ وَالْقَتْلِ. دَخَلَ الْإِمَامُ
وَسَأَلَ: «لِمَ عَجِلْتُمْ» قِيلَ: «نُرِيدُ أَنْ نَلْحَقَ طَلَبَ السُّوقِ.» فَقَالَ: «مَنْ رَحِمَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الصَّنْعَةَ رَحِمَهَا الرَّبُّ؛ أَعْطُوا الْخَيْطَ حَقَّهُ مِنَ الْفَتْلِ، وَأَنْتَوَلِ حَقَّهُ مِنَ التَّائِي، وَلَا
تَدْخُلُوا الْعَجَلَ فِي مَوْضِعِ الْإِحْكَامِ، فَ

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

أَسْتِدَامَةُ الْجُودَةِ رَحْمَةً لِلزُّبُونِ وَرَبْحٌ لَكُمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا عَلَى الْبَابِ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ تَأَمُّلٌ صَادِقٌ، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا
الرَّحْمَةُ تَضَعُ لِلرَّبِّحِ حَدًّا، وَلَكِنَّهَا تُطِيلُ عُمرَهُ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «بَلْ تَكْشِفُ لِلرَّبِّحِ وَجْهَهُ الْحَقِيقِيَّ؛ الرَّبُّ لَيْسَ كَثْرَةً
أَلْعَدِدُ فَقَطْ، بَلْ سَعَةُ الْبَرَكَةِ. وَالْبَرَكَةُ تَنْزِلُ حَيْثُ يَقُومُ الْقَلْبُ عَلَى الرَّحْمَةِ وَالْيَدُ
عَلَى الْقِسْطِ. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يُرْحَمَ.»

مَالَتِ الشَّمْسُ، وَأُنْعَكَسَ الضِّيَاءُ عَلَى قِيَابِ الْبُيُوتِ كَأَنَّهُ خَيْطُ ذَهَبٍ
يَخِيطُ غِمَادَ الْمَسَاءِ. جَلَسُوا فِي فِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ يَاسِرٌ: «يَا سَيِّدِي، هَلْ مِنْ
عَلَامَةٍ نَعْرِفُ بِهَا أَنَّ مِيزَانَ الرَّحْمَةِ قَدْ قَامَ فِي السُّوقِ وَالْحَقْلِ وَالْحَرْفَةِ؟» قَالَ
الْإِمَامُ: «أَرْبَعٌ تُخْبِرُكَ وَلَا تَكْذِبُكَ: قَلْبٌ يَسْتَثْقِلُ غُبْنًا وَلَوْ قَلَّ، وَيَدٌ تَسْتَحْيِي مِنْ
كَتَمِ عَيْبٍ وَلَوْ خَفِيَ، وَلِسَانٌ يَسْتَخْفِضُ الصَّوْتَ لَا يَسْتَعِينُ بِالْمُبَالِغَةِ، وَحِسَابٌ
يُظْهِرُ التَّكْلِيفَةَ لَا يَتَّكِي عَلَى الْغُمُوضِ. إِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ قَامَتِ الرَّحْمَةُ فِي
الْمِيزَانِ، وَحِينَئِذٍ تَلِدُ الْإِسْتِدَامَةَ.»

ثُمَّ نَهَضَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ كَمَنْ يُتِمُّ سَلَمَ حُجَّةٍ، وَقَالَ: «أَرَى الرَّحْمَةَ قَانُونًا يُنَظِّمُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ؛ فِي الْكَوْنِ لَا تَرَاحِمُ مُهْلِكًا بَيْنَ الْأَفْلَاقِ، بَلْ مُدَافِعَاتٌ مُنْتَظِمَةٌ تَحْفَظُ التَّوَازْنَ. وَفِي الْمُجْتَمَعِ إِذَا رَعَى النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَامَتِ الْحَيَاةُ عَلَى صَفَاءٍ. فَالرَّحْمَةُ مِيزَانٌ لِلْحَرَكَةِ لَا يُسْقِطُ حَقًّا وَلَا يُسْرِفُ فِي مَنَحٍ».

فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا هُوَ مَنْطِقُ الْخَلْقِ الْإِلَهِيِّ؛ رَحْمَةٌ تَسُوقُ عَدْلًا، وَعَدْلٌ يُثْمِرُ قِسْطًا، وَقِسْطٌ يُجَدِّدُ الْحَيَاةَ فَلَا تَنْقَطِعُ».

وَفِي اللَّيْلِ، بَعْدَ أَنْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، تَقَدَّمَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي صَوْتِهِ نَبْرَةٌ مِنْ أَزْدَادٍ فَهَمَّا: «يَا سَيِّدِي، أَقَرَرْتُ أَنَّ رَبِّحًا يُبْنَى عَلَى ظُلْمٍ إِنَّمَا هُوَ قَطْرَةٌ تَجِفُّ سَرِيعًا، وَأَنَّ الْبَرَكَاتِ الَّتِي تَأْتِي مَعَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ نَهْرٌ لَا يَنْقَطِعُ. سَأُجَرِّبُ فِي حَانُوتِي أَنْ أَجْعَلَ لِكُلِّ سِلْعَةٍ صَحِيفَةً تُظْهِرُ قِيمَتَهَا وَعَيْبَهَا وَتَكْلِفَتَهَا، وَأَجْعَلَ لِلْفُقَرَاءِ نَصِيبًا مَعْلُومًا فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، وَأُوَخِّرُ لِمَنْ عَجَزَ وَأَسْتَكْتَبَ عَلَيْهِ شَاهِدًا. هَلْ هَذَا مِنَ الرَّحْمَةِ»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «بَلْ هُوَ مِنْ عُرُوفِهَا الْمُثْمِرَةِ؛ فَإِذَا سَارَتْ هَذِهِ الْعَادَاتُ فِي السُّوقِ سَارَتْ الْأَمْنَةُ فِي الْقُلُوبِ، وَإِذَا سَارَتْ الْأَمْنَةُ فِي الْقُلُوبِ طَالَتْ أَعْمَارُ الْمَشَارِيعِ وَالْأَرْزَاقِ».

سَكَتَ الْمَجْلِسُ مَلِيًّا كَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى صَدَى يَعُودُ مِنْ جِبَالِ التَّفَكِيرِ،
ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَخْتِمُ الْحَدِيثَ كَمَنْ يَغْرِسُ وَتَدًّا فِي أَرْضٍ تُهَيَّأُ لِبِنَاءٍ: «أَعْلَمُوا
أَنَّ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ وَالْقِسْطَ كُلُّهَا وَجُوهٌ لِمِيزَانِ الرَّحْمَةِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِيُحَقِّقَ
الْخَيْرَ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ؛ فَمَنْ طَلَبَ الرَّحْمَةَ فِي نَفْسِهِ رَأَاهَا فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ
وَصَنَعَتِهِ، وَمَنْ طَلَبَهَا فِي الْأَرْضِ رَأَاهَا فِي الزَّرْعِ وَالْمَاءِ وَالزَّمَانِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)

آيَةٌ تُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَكُونَ جِسْرًا تُجَاوِزُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، لَا
حَاجِرًا يَحْبِسُهَا عَنْهُمْ.

خَرَجُوا وَاللَّيْلُ يَتَطَوَّقُ الْمَدِينَةَ بِخَيْطٍ رَقِيقٍ مِنْ نُورٍ وَظِلٍّ، وَفِي الصُّدُورِ
عَزَمٌ يَخْتَبِرُ نَفْسَهُ فِي الْعَدِّ: أَنْ يَرَحِّمُوا فِي السَّعْرِ وَفِي الْكَلِمَةِ وَفِي الْمَاءِ وَفِي
الصَّنْعَةِ، حَتَّى تَقُومَ الْأُسْتِدَامَةُ لَيْسَ كَخُطَّةٍ تُكْتَبُ وَتُنْسَى، بَلْ كَعَادَةٍ تَجْرِي فِي
الْقُلُوبِ وَفِي الْأَكْفِ وَفِي الْأَرْضِ سَوَاءً. وَكَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا آخِرَ الْخَارِجِينَ،
يَنْظُرُ إِلَى نَجْمَةٍ فِي الْأَفُقِ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: «لَعَلَّ هَذِهِ النَّجْمَةُ هِيَ الرَّحْمَةُ إِذَا قَامَ
لَهَا فِي الْقَلْبِ مِيزَانٌ، فَلَا تَغِيبُ وَلَا تَخُونُ». ثُمَّ مَضَى، وَفِي خُطَاهُ وَقَارٌ مَنْ
عَرَفَ أَنَّ مَا يَبْقَى لَيْسَ سُرْعَةُ الرِّيحِ، بَلْ سَعَةُ الْبَرَكَةِ الَّتِي تَلِدُهَا الرَّحْمَةُ كُلَّمَا
اسْتَقَامَ الْمِيزَانُ.

الفصلُ الثَّانِي: مَلَحَمَةُ الْإِحْسَانِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ

• المَوَازِينُ:

○ التَّعَاوُنُ وَالْإِحْسَانُ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة:

2).

○ الْإِسْتِخْلَافُ وَالْمَسْئُولِيَّةُ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ

فِيهَا﴾ (هود: 61).

- الشَّخْصِيَّاتُ الْمُحَوَّلَةُ: يَتَحَدَّثُ الطَّلَابُ عَنْ مَشْرُوعٍ لِنَتْمِيَةِ مَنْطِقَةٍ قَاحِلَةٍ. يُبْدِي حَمَزَةُ الْأَنْصَارِيِّ حِمَاسًا لِلْمَشْرُوعِ، وَيُشَدِّدُ عَلَى أَهْمِيَةِ التَّعَاوُنِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَنْطِقَةِ. تُذَكِّرُ صَفِيَّةُ الْوَائِقَةُ بِأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ هُوَ جُزْءٌ مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْإِسْتِخْلَافِ. يَتَوَرَّعُ حَبِيبُ الدُّنْيَا عَنِ الْمَشَارَكَةِ، فَيَكْشِفُ الْإِمَامَ عَنْ نَسْيَانِهِ لِلْقِيَمِ الْحَقِيقِيَّةِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّعَاوُنِ وَالتَّقْوَى

كَانَ الصُّبْحُ يَنْحَدِرُ عَلَى الْمَدِينَةِ كَسَرِيرِ صَوءٍ يَجْرُ خَلْفَهُ أَذْيَالُ نَسِيمٍ رَطْبٍ، وَتَتَفَتَّحُ مَعَ النُّورِ أَبْوَابُ الْمَسْجِدِ عَلَى هُدُوءٍ يُشْبِهُ دُعَاءَ يَمْشِي عَلَى قَلْبِ الْحَارَاتِ. دَخَلَ الْإِمَامُ، فَجَلَسَ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ حَمَزَةُ الْأَنْصَارِيِّ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ بَشَرٌ وَنَهَمٌ لِلْعَمَلِ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَجْهُهُ كَصَفْحَةٍ وَعَاءٍ مُصْقُولٍ يَعْكِسُ الْحُجَّةَ حُجَّةً، وَحَيِّبُ الدُّنْيَا يَقْلُبُ كَفِّهِ حِسَابًا وَرَبْحًا، وَلُبْنَى الْمُهَنْدِسَةِ تُحَكِّمُ لَوْحَةً فِي حِجْرِهَا كَمَنْ يَرَسُمُ مَدِينَةً لِلنُّورِ، وَجَابِرٌ يَهْيِي دَفْتَرَهُ كَسَفِينَةٍ مُهَيَّاةٍ لَأَمْوَاجِ الْكَلِمَاتِ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً لَهَا رِقَّةُ الْمَطَرِ وَقَوَامُ الْعَزَمِ:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (الْمَائِدَةُ: ٢).

ثُمَّ قَالَ عَلَى سُكُونٍ يَسْعُبُ فِي الصُّدُورِ: «الْبِرُّ هُوَ الْوَجْهَةُ، وَالتَّقْوَى هِيَ الْغَدَةُ، وَالتَّعَاوُنُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يَحْمِلُنَا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ. لَا يَقُومُ بِنَاءُ لِقَرْنٍ وَلَا صَنْعَةُ لِحَيَاةٍ إِلَّا عَلَى أَكْفٍ تَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقَلْبٍ يُحْسِنُ وَيُتَّقِنُ.»

أَخْرَجَ الْإِمَامُ مِنْ جَانِبِهِ صَحِيفَةً، وَنَشَرَهَا كَأَنَّهُ يَنْشُرُ خَارِطَةَ أَمَلٍ، فَبَدَتْ

فِيهَا سُهُولٌ مُتَعَصِّنَةٌ وَسُلْسِلَةٌ تِلَالٍ تَقِفُ عَلَى حَافَةِ الصَّحَرَاءِ، وَوَادٍ عَفَّ أَلْمَاءُ عَنْهُ إِلَّا مِنْ خِيَاطَةِ يَنْبُوعٍ خَفِيٍّ. قَالَ: «هُنَا مَوْضِعُ مَحْنَتِنَا وَمَحْنَتِنَا؛ بَطْحَاءٌ قَاحِلَةٌ تَنْتَظِرُ صَوْتَ أَلْمَاءِ، وَقَرِيَّاتٌ عَلَى الْحَافَةِ تَنْتَظِرُ الرِّزْقَ إِذَا سَالَ. نُرِيدُ أَنْ نَخُطَّ لِلْوَادِي جِهَةً، وَلِلْأَرْضِ نَفْسًا، وَلِلنَّاسِ صُنْعَةً يَعْيشُونَ بِهَا. وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَيْدٍ مُجْتَمِعَةٍ وَقُلُوبٍ مُحْسِنَةٍ.»

أَنْدَفَعَ حَمَزَةُ الْأَنْصَارِيِّ كَمَنْ أَفْرَغَ فِي دَمِهِ نَشِيدُ الْعُزْمِ: «يَا سَيِّدِي، أَجْعَلْ لِي فِرْقَةً لِلْحَفْرِ وَفِرْقَةً لِسُوبَةِ الْمَجَارِي، وَأُجِنِّدِ الشَّبَابَ يَتَنَاوَبُونَ عَلَى السَّاعَاتِ، وَنَرْفَعُ الْحِجَارَةَ وَنَضْعُهَا كَأَنَّا نَرْفَعُ جِدَارًا فِي الصَّدْرِ لِلرَّيْحِ.»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «الْحَمَاسُ مَطِيَّةٌ، وَلَكِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا تُؤَدِّي إِلَّا إِذَا ذَلَّهَا الدَّلِيلُ.» ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى صَاحِبِ الْقِيَاسِ: «قَسْ لَنَا الْقُدْرَاتِ وَالْأَعْدَادَ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ فِرْقَةٍ مِقْدَارًا مِنَ الْعَمَلِ لَا يُجْحِفُ وَلَا يُقْصِرُ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ فِي التَّخْطِيطِ أَسَاسٌ لِلْإِحْسَانِ فِي التَّنْفِيزِ.»

قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَهُوَ يَمْسُدُ لِحِيَّتَهُ كَمَنْ يَهْدِي فِيهَا خَطًّا مُتَشَعِّثًا: «وَمَا الَّذِي يَعُودُ عَلَيَّ أَنَا رَجُلٌ لِي حَانُوتٌ، وَهَذَا الْمَشْرُوعُ لَا يُعْطِينِي رِبْحًا عَاجِلًا. هَلْ نَتْرُكُ الْحِسَابَ عَلَى الْمَنْفَعَةِ وَنَمْضِي وَرَاءَ النَّدَاءِ؟»

نَظَرَ الْإِمَامُ فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَةً تَجْمَعُ لَيْنًا وَحَزَمًا، وَقَالَ: «مَنْ قَاسَ الْخَيْرَ

عَلَى عَاجِلِ رِبْحِهِ فَقَدْ قَاسَ الْأَرْضَ بِقَدَمِهِ، لَا بِقَدَرٍ وَسِعَهَا. وَالتَّعَاوُنُ يَرْجِعُ عَلَيْكَ وَإِنْ تَأَخَّرَ، فَيَرْجِعُ أَمْنًا فِي السُّوقِ، وَثِقَةً فِي الْقُلُوبِ، وَاتِّسَاعًا فِي الرِّزْقِ، وَهَذَا كُلُّهُ رِبْحٌ مَكْفُولٌ بِرِضَا اللَّهِ.»

خَرَجُوا إِلَى الْوَادِي، وَالشَّمْسُ تَرَفَى كَثُوبٍ يَرْتَفِيهِ النَّهَارُ سُمْرَةً فَسُمْرَةً. وَفَقَتِ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ عَلَى رَأْسِ رُبُوعٍ تَنْظُرُ فِي الْأَكْمَةِ وَتَقْرَأُ خُطُوطَ التُّرْبَةِ كَأَنَّهَا سُطُورُ كِتَابٍ قَدِيمٍ: «هُنَا يَنْحَدِرُ الْمَطَرُ إِذَا نَزَلَ، وَهُنَاكَ الرِّيحُ تَهْبُ فَتَجْرُ الرِّمَالُ. نَصْنَعُ سَوَاتِرَ مِنْ حِجَارَةٍ يَتَخَلَّلُهَا الْمَاءُ، وَنَرَسُمُ مَجَارِيَ تَسِيرُ عَلَى مِيلٍ لَطِيفٍ، وَنَغْرِسُ الْأَطْرَافَ بِشَجَرٍ يَشُدُّ التُّرْبَةَ وَيُظِلُّ الْمَجْرَى.» قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نَقْسِمُ أَلْعَمَلَ إِلَى أَسَابِيعَ، لِكُلِّ أُسْبُوعٍ غَايَةٌ مَعْلُومَةٌ وَمِقْدَارٌ مَحْسُوبٌ؛ فَالْعَجَلَةُ تُفْسِدُ، وَالتَّقْسِيمُ يُحْكِمُ.»

تَقَدَّمَ حَمْرَةٌ فَصَاحَ فِي الشَّبَابِ صَيْحَةً فَرِحَ لَا صَيْحَةَ أَمْرٍ: «قِسْمَةُ الْأَكْفِ عَلَى الْحِجَارَةِ، وَالْقُلُوبُ عَلَى النَّيَّةِ، فَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَمَلَ فَلْيُعِدَّ الطَّعَامَ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَفْرِ فَلْيَسْقِ الْقَائِمِينَ.» وَفِي ظِلِّ شَجَرَةٍ قَلِيلَةٍ الْأَوْرَاقِ أَقَامَتْ أَمِنَةُ الْبَصِيرِيَّةُ قَدْرًا، تُوَزَّعُ الْمَاءُ وَالزَّادُ عَلَى الْعَامِلِينَ، وَتَقُولُ كَلِمَةً لَهَا فِي الْقَلْبِ طَعْمُ الطَّمَأْنِينَةِ: «مَنْ سَقَى مُجْتَهِدًا فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ نَتَائِجِ سَقْيِهِ وَإِنْ لَمْ يَرْفَعْ حَجَرًا.»

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ جَرَى أَلْعَمَلُ كَأَنَّهُ نَشِيدٌ مُرْتَبٌّ: هَذَا يَحْفِرُ، وَهَذَا

يَحْمِلُ، وَهَذَا يُسَوِّي، وَهَذَا يُرْتَّبُ الْحِجَارَةُ عَلَى الْحَافَةِ لِئَلَّا يَجْرِيَ الْمَاءُ هَدْرًا. وَكَانَ جَابِرٌ يُدَوِّنُ كُلَّ شَيْءٍ: «سَاعَةُ الْمَاءِ تَلِي سَاعَةَ التُّرَابِ، وَالْخُطُوطُ تُتَمِّمُ بَعْضَهَا بَعْضًا.» وَفِي الْمَسَاءِ عَادُوا، وَفِي الْعَيْنِ بَرَقَ تَعَبٌ لَدِيدٌ يُشْبِهُ الرِّضَا.

وَلَكِنَّ الْأُمُورَ لَا تَسِيرُ دَائِمًا عَلَى سِكَّةٍ مُهَيَّأَةٍ؛ فَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ تَخَلَّفَتْ فِئَةٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «مَا نَصِيبُنَا مِنْ هَذَا إِلَّا التَّعَبُ» وَأَنْسَلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا فِي الْجَمْعِ يَقُولُ كَلِمَةً تُخَفِّفُ الْعَزَمَ: «الْمَنْفَعَةُ قَرِيبَةٌ أَوْ لَا شَأْنُ لِي.» فَجَمَعَهُمُ الْإِمَامُ حَوْلَ نَارٍ صَغِيرَةٍ تُزَكِّي الْبَرْدَ، وَقَالَ: «إِنَّمَا التَّعَاوُنُ مِيزَانٌ لِلْقُلُوبِ قَبْلَ الْأَكْفِ؛ مَنْ رَأَى نَفْسَهُ فِي مَرَحَلَةٍ وَحَدَّهَا ضَاقَ، وَمَنْ رَأَى الْجَمِيعَ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ اتَّسَعَ. الْإِحْسَانُ أَنْ تُثَقِّنَ لِلَّهِ، وَأَنْ تُجَمِّلَ لِلنَّاسِ، وَأَنْ تَرَى الْمَنْفَعَةَ بَعِيدَةً فَتَصْبِرَ حَتَّى تَقْرُبَ.» ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمْ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)،

فَسَكَنَتْ نُفُوسٌ وَعَادَتْ الْأَقْدَامُ تَخْبُو عَلَى الطِّينِ بِنَفْسٍ أَطُولَ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ حِينَ انْفَتَحَتْ أَفُقُ السَّمَاءِ بِغَيْمٍ رَاحِلٍ، تَنَازَعَ قَوْمٌ عَلَى أَوْلِيَّةِ السَّقْيِ؛ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: «نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَجْرَى»، وَأُولَئِكَ يَقُولُونَ: «زَرْعُنَا أَضْعَفُ يَحْتَاجُ إِلَى بَدَايَةِ مُبَكَّرَةٍ.» فَدَعَا الْإِمَامُ إِلَى «صَحِيفَةِ التَّوَافُقِ»، فَكَتَبُوا فِيهَا جَدُولًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْقُرْبِ وَالْحَاجَةِ وَزَمَنِ الْبَذْرِ، وَجَعَلُوا لِلْأَيَّامِ وَالْأَرَامِلِ

نَصِيْبًا مَعْلُومًا مِنْ الْمَاءِ فِي رَأْسِ كُلِّ أُسْبُوعٍ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «مَا تَرَاحَمَ حَقَّانِ إِلَّا وَفِي التَّرْتِيبِ مَخْرَجٌ؛ نَقَدُّمُ أَقْوَى الْحُجَّتَيْنِ مَعَ حِفْظِ الثَّانِيَةِ فِي الدَّوْرِ التَّالِيِ». فَصَفَتِ النُّفُوسُ كَانَهَا مَاءً تَرَاجَعَتْ عَنْهُ الْعَكْرَةُ.

وَبَيْنَمَا الْعَمَلُ يَمْضِي، كَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَقِفُ أَحْيَانًا عَلَى الطَّرَفِ، يَنْظُرُ إِلَى أَيْدٍ تَرَفَعُ، وَأَيْدٍ تُسَلِّي، وَالْأَفْ يَتَخَلَّقُ بَيْنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ لُغَةٌ جَدِيدَةٌ؛ فَيَحْنُو جَبِينَهُ وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: «لَعَلَّ الرِّيحَ الَّذِي لَا يُحَسَّبُ بِالْكَيْلِ هُوَ الَّذِي يَبْقَى». ثُمَّ يَقْتَرِبُ وَيُسْهِمُ فِي قِسْمٍ صَغِيرٍ، ثُمَّ يَكْبُرُ قِسْمُهُ حَتَّى صَارَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غَيْرَةً عَلَى النَّظَامِ وَالْإِحْسَانِ.

وَفِي غَدُوٍّ آخَرَ، أَقَامَ حَمَزَةٌ يَوْمًا لِغِرَاسٍ حَافَتِي الْمَجْرَى بِمَا يُمَسِّكُ التُّرْبَةَ وَيُزَيِّنُ الْمَمَرَّ: سِدْرٌ وَتَمَرٌ وَشَجَرُ رُمَانٍ. تَقَدَّمَ الصَّبِيَّانُ وَالْفَتَيَاتُ، وَفِي الْعُيُونِ لَمَعَةٌ الْإِشْتِرَاكِ. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَغْرِسُ بِيَدَيْهِ: «هَذِهِ الْأَشْجَارُ شَهَادَةُ الزَّمَانِ لِلتَّعَاوُنِ؛ سَتُؤْتِي أَكْلَهَا عَلَى مَرِّ الْأَعْوَامِ، وَسَيَأْكُلُ مِنْهَا مَنْ لَا يَعْرِفُ أَسْمَاءَنَا، وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ أَثَرَ الْإِحْسَانِ فِي طَعْمِ الثَّمَرِ». وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَنْ يَرْفَعُ حَصَادَهُ إِلَى شُكْرِ لَا يُرَى.

لَمَّا طَالَ الْعَمَلُ، جَمَعُوا مَجْلِسًا لِتَقْوِيمِ الطَّرِيقِ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «قَدْ نَجَحَ التَّقْسِيمُ فِي تَوْزِيعِ الْقُوَى، وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ إِلَى «دَوْرَةِ تَدْرِيبٍ» لِلطِّفَالِ عَلَى السَّقْيَا وَالْغِرَاسِ لِكَيْ لَا يَفْسُدُ الْمَجْرَى بِالْحُسْنِ الْمُسْتَعَجَلِ».

فَقَالَ الْإِمَامُ: «التَّعَاوُنُ يَكْبُرُ بَأَن يُوَرِّثَ، وَالْإِحْسَانُ يَثْبُتُ بِأَن يُعْلَمَ. اجْعَلُوا لِلصَّبْيَانِ يَوْمًا فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ آدَبَ الْمَاءِ، وَالرَّفْقَ بِالتُّرْبَةِ، وَحُسْنَ الْقِسْمَةِ». وَقَامَتْ «أَمْنَةُ» تَرْتَّبُ «صَحِيفَةَ الْأَدْوَارِ» لِلنِّسَاءِ: «هَؤُلَاءِ لِلطَّبَّحِ، وَهَؤُلَاءِ لِلخِدْمَةِ، وَهَؤُلَاءِ لِلتَّطْرِيبِ بِالْأَنَاشِيدِ الَّتِي تَرْفَعُ النَّفْسَ.»

وَبَيْنَ الْمَجْلِسِ وَالْوَادِي تَعَلَّمَ النَّاسُ فَنَّا لَمْ يَسْتَكْمِلُوهُ مِنْ قَبْلُ: فَنَ «التَّطَوُّعِ الْمُنْضَبِطِ». لَا يُتْرَكُ الْأَمْرُ لِمُجَرَّدِ النَّيَاتِ، بَلْ لِحُطَّةِ تَسْمِيِ الْمَوَاعِيدِ وَالذُّورِ وَالْقَدَرِ. وَقَدْ كَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا أَوَّلَ مَنْ اقْتَرَحَ «صُنْدُوقَ الْمَاءِ»، فِيهِ يَضَعُ التَّجَارُ وَالصُّنَاغُ جُزْءًا مَعْلُومًا مِنْ رِبْحِهِمْ كُلِّ أُسْبُوعٍ، يُنْفَقُ مِنْهُ عَلَى صِيَانَةِ الْمَجْرَى وَإِصْلَاحِ مَا يَتَخَرَّقُ. قَالَ وَجْهُهُ يَبْتَسِمُ: «عَلِمْتُ أَنَّ الْإِحْسَانَ قُدْرَةٌ عَلَى التَّعَدِّيِّ مِنْ مَنْفَعَتِي إِلَى مَنْفَعَةِ الْجَمِيعِ؛ فَإِذَا اتَّسَعَتِ الدَّائِرَةُ رَجَعَ النَّفْعُ إِلَيَّ أَكْثَرَ مِمَّا خَرَجَ.»

عِنْدَ الْعَصْرِ كَانَ الْمَاءُ قَدْ بَلَغَ الْحَافَّةَ الْأُولَى مِنَ الْوَادِي، وَانْسَابَتْ فِي التُّرْبَةِ بِشَائِرٍ نَمَاءٍ. وَقَفَ الْإِمَامُ عَلَى شَفَةِ الْمَجْرَى، وَقَالَ عَلَى نَفْسٍ يُشَبِّهُ الشُّكْرَ: «الْمَاءُ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، يَنْزِلُ فَيُحْيِي، وَيَجْرِي فَيَعْدِلُ، وَيَقِفُ عِنْدَ الْحُدُودِ فَيُحْسِنُ. وَمِثْلُهُ التَّعَاوُنُ؛ إِنْ نَزَلَ فِي الْقُلُوبِ أَحْيَا، وَإِنْ جَرَى فِي الْعَادَاتِ عَدَلَ، وَإِنْ وَقَفَ عَلَى حُدُودِ الْأَحْتِرَامِ أَحْسَنَ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ «التَّقْوَى» الَّتِي تَحْرُسُ عُيُونَنَا مِنَ الزَّيْغِ وَأَيَّدِنَا مِنَ الطُّغْيَانِ». ثُمَّ عَادَ يَتَلَوُّ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾،

كَأَنَّهُ يَخِيطُ بِهَا عَلَى الْمَشْهَدِ لِبَاسًا لَا يُخْلَعُ.

مَرَّتْ أُسْبُعُهُ، وَصَارَ لِلْوَادِي حَارِطَةٌ تُعَلَّقُ فِي قَاعَةِ الْمَسْجِدِ؛ خُطُوطٌ لِمَجَارٍ فَتَحُوهَا، وَنِقَاطٌ لِآبَارٍ نَقَبُوهَا، وَأَشْجَارٌ غُرِسَتْ بِأَسْمَاءِ الْأَيَّادِي الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ. وَصَارَ لِلْمَشْرُوعِ «مِثَاقٌ» يَضَعُ الْحُدُودَ وَيُثَبِّتُ الْأَدْوَارَ وَيَفْتَحُ بَابًا لِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِيدَ. وَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ يَقُومُ جَابِرٌ يَقْرَأُ «صَحِيفَةَ التَّقَدُّمِ»: مَاذَا أُنْجِزَ، وَمَا الَّذِي يَبْقَى، وَمَنْ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى عَوْنٍ، فَتَنْفَتِحُ الْأَكْفُ قَبْلَ الْأَلْسِنَةِ.

وَفِي يَوْمٍ أَضَاءَ فِيهِ الْقَمَرُ كَأَنَّهُ مِصْبَاحٌ طَحِينٍ فِي السَّمَاءِ، جَمَعَ الْإِمَامُ النَّاسَ لِكَلِمَةِ خِتَامٍ تَفْتَحُ لِعَدِّ أَبْوَابًا أَكْثَرَ: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ التَّعَاوُنَ لَا يَقِفُ عَلَى مَشْهَدٍ، بَلْ هُوَ طَبِيعَةٌ تَجْرِي؛ فِي الْحِرْفَةِ كَمَا فِي الزَّرَاعَةِ، فِي الشُّوقِ كَمَا فِي الْأُسْرَةِ. وَالْإِحْسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَطَاءٍ يَغْتَسِلُ الْيَوْمَ وَيَجِفُّ غَدًا؛ بَلْ هُوَ جَوْدَةٌ فِي الْعَمَلِ، وَإِتْقَانٌ فِي التَّنْفِيزِ، وَتَجْمِيلٌ لِمَنْ يَخِيرُ حَتَّى يَكُونَ مَشِيًّا مُحَبَّبًا لَا حَمَلًا ثَقِيلًا. إِذَا اجْتَمَعَ التَّعَاوُنُ وَالْإِحْسَانُ وُلِدَ «الْبِرُّ» وَتَرَبَّتْ قُلُوبٌ عَلَى «التَّقْوَى»، فَاسْتَقَامَ الْمِيزَانُ فِي الْمَدِينَةِ كَمَا اسْتَقَامَ فِي الْوَادِي.»

رَفَعَ حَمْرَةً يَدَهُ، وَقَالَ بِفَرْحٍ يَمْرُجُهُ الْوَقَارُ: «شَهَدْنَا الْيَوْمَ أَنَّ الْأَيْدِيَ إِذَا

أَمْتَدَّتْ لِتَأْخُذَ قَصْرَتِ، وَإِذَا أَمْتَدَّتْ لِتُعْطِيَ طَالَتْ؛ فَصِرْنَا نُطِيلُ أَدْرَعَنَا بِالْعَطَايَا فَتَطُولُ بِنَا الْحَيَاةُ.» وَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَهُوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً مَنْ تَعَلَّمَ شَيْئًا بَعْدَ تَرَدُّدٍ: «وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّفْعَ الْمُشْتَرَكَ أَضْمَنُ مِنَ الرِّيحِ الْمُنْفَرِدِ، وَأَنَّ مَا يُبْنَى بِالتَّعَاوُنِ يَبْقَى الْأَطْوَلَ.»

ثُمَّ قَامَ الْإِمَامُ، وَقَالَ كَلِمَتَهُ الَّتِي تُخْتِمُ وَتُفْتَحُ: «الْيَدُ الْوَاحِدَةُ لَا تُصَفِّقُ، وَلَكِنَّ الْأَيْدِيَ الْمُتَعَاوِنَةَ تَبْنِي وَتُحْيِي. فَمَنْ أَرَادَ لِنَفْسِهِ بَقَاءً فِي الْخَيْرِ فَلْيَجْعَلْ مِنْ نَفْسِهِ قُطْرَةً فِي نَهْرٍ، لَا صَحْفَةً تَنْفَدُ. وَمَنْ أَرَادَ لِمَالِهِ بَرَكََةً فَلْيَسْقِ بِهِ مَعَ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا رَأَى الْإِحْسَانَ جَعَلَ لَهُ دَرَبًا فِي الْقُلُوبِ لَا يَنْقَطِعُ.» ثُمَّ عَادَ يَتْلُو آيَةَ الْإِفْتِاحِ، فَسَكَنَ الْمَكَانُ عَلَى نِعْمَةٍ تُشْبِهُ وَعْدًا:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: 2).

خَرَجُوا، وَالصَّبَاحُ يَتَمَدَّدُ عَلَى حَوَافِي الْوَادِي، وَفِي الْهَوَاءِ رَائِحَةُ تُرْبَةٍ مُبَلَّلَةٍ وَصَوْتُ مَاءٍ يَتَحَلَّقُ فِي الْقَنَوَاتِ كَأَنَّهُ أَغَانِي الطُّيُورِ فِي مَوْسِمِ الْإِخْضِرَارِ. وَكَانَ كُلُّ يَحْمِلُ مَعَهُ نَصِيبًا مِنَ الدَّرْسِ: نَصِيبًا فِي فِكْرٍ، وَنَصِيبًا فِي عَادَةٍ، وَنَصِيبًا فِي وَعْدٍ يُتَرَجَّمُ غَدًا إِلَى يَدٍ تَمْتَدُّ لِتُسَاعِدَ قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَ. هَكَذَا انْتَهَى الْمَجْلِسُ وَابْتَدَأَ الطَّرِيقُ؛ طَرِيقُ مِيزَانِهِ التَّعَاوُنِ وَزِينَتُهُ الْإِحْسَانُ، يَسِيرُ فِيهِ النَّاسُ عَلَى قَدَرٍ مَا يَحْمِلُونَ، وَيَصِلُونَ عَلَى قَدَرٍ مَا يُجْمَلُونَ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْأَسْتِخْلَافِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ

يَنْحَدِرُ الصُّبْحُ عَلَى الْمَدِينَةِ كَالضِّيَاءِ الْمَفْتُوحِ مِنْ كَوَّةِ سَمَاءٍ رَحْبَةٍ،
وَتَتَنَفَّسُ الْأَرِقَّةُ نَسِيمًا نَدِيًّا يَمْسَحُ جِبَاهَ الْمَارَّةِ مَسْحًا رَفِيقًا. تَفْتَحُ أَبْوَابُ
الْمَسْجِدِ عَلَى هُدُوءٍ يُشْبِهُ الدُّعَاءَ، وَيَجْلِسُ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ الْوُجُوهُ
الْمَأْلُوفَةُ: صَفِيَّةُ الْوَأْتِيقَةِ، وَقَارٌ يُلُوحُ فِي نَبْرَتِهَا كَأَنَّهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ يَتَجَدَّدُ، وَلُبْنَى
الْمُهَنْدِسَةِ بِيَدَيْهَا لَوْحَةً تَسْتَقْرِئُ طُيُوعَ الثَّرْبَةِ لِلْعِمَارَةِ، وَحَمْزَةُ الْأَنْصَارِيِّ فِي عَيْنَيْهِ
بَرْقُ الْحِمَاسِ، وَجَابِرٌ يَفْتَحُ دَفْتَرَهُ كَمَنْ يَنْشُرُ شِرَاعًا، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ
بَصَرَهُ فِي مَوَازِينِ الْحُجَجِ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُحَرِّكُ أَصَابِعَهُ عَلَى سُبْحَتِهِ كَأَنَّهُ يَعُدُّ
أَرْبَاحًا مُتَحَيِّلَةً.

رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً، فَسَرَى الْقُرْآنُ فِي الْمَكَانِ سُرُوجًا مِنْ نُورٍ وَعَهْدًا
مِنْ مَعْنَى:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هُود: ٦١).

سَكَتَ سُكُوتًا قَصِيرًا كَأَنَّهُ يُفْسِحُ لِلْقُلُوبِ مَجَالًا لِتَتَنَفَّسَ، ثُمَّ قَالَ:

مِيزَانُ الْيَسَّانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«الْآيَةُ مِثَاقٌ، تَخْلَعُ عَنَّا ثَوْبَ الْمَلَكِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَتُلْبِسُنَا رِدَاءَ الْأَمَانَةِ. نَحْنُ مُنْشَوُّونَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَمُسْتَعْمَرُونَ فِيهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ عِمَارَةٍ تَشْهَدُ لَنَا لَا عَلَيْنَا.»

قَالَتْ صَفِيَّةُ الْوَائِقَةُ وَهِيَ تُقَرِّبُ صَوْتَهَا مِنْ أُذُنِ الْحَلَقَةِ كَمَنْ يُسَلِّمُ أَمْرًا: «يَا قَوْمُ، لَيْسَ الْمَشْرُوعُ الَّذِي نَشُدُّ لَهُ الْعَزْمَ تَفْضُلًا يُحْمَدُ فِي مَجْلِسٍ وَيُسْتَدَكَّرُ فِي خَيْرٍ، بَلْ هُوَ وَاجِبٌ مِنْ جَنْسِ الصَّلَاةِ يُقَامُ بِقَلْبٍ وَعَمَلٍ. مَنْ أُوتِيَ أَرْضًا فَقَدْ أُوتِيَ أَمَانَةً، وَمَنْ أُوتِيَ مَاءً فَقَدْ أُوتِيَ عَهْدًا.»

تَهَا مَسَّتِ الدَّرَاسَاتُ فِي صَدْرِ جَابِرٍ، فَكَتَبَ: «الْأَرْضُ أَمَانَةٌ، وَاسْتَعْمَارُهَا فَرَضٌ.»

أَسْتَأْذَنَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي وَجْهِهِ اسْتِغْرَابٌ لَطِيفٌ: «إِنْ لَمْ يَعُدْ الْعَمَلُ بَرْنَجٍ، فِيمَاذَا يَعُودُ أُرِيدُ أَنْ أَفْهَمَ مَا أَفْعَلُ وَأَيْنَ مَنْفَعَتِي.»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ بِمَثَلِ الْآبَاءِ حِينَ يَجْمَعُونَ الْأَطْفَالَ عَلَى قِصَّةِ تَفْضِي إِلَى حِكْمَةٍ، وَقَالَ: «يَعُودُ يَا حَبِيبُ بِأَمْنٍ فِي السُّوقِ، وَبِسَعَةِ رِزْقٍ عَلَى الْمَدَى، وَبَسْتَرٍ مِنَ الْأَضْطِرَابِ حِينَ يَفُورُ الْغَلَاءُ. وَيَعُودُ بِرِضَا اللَّهِ وَهُوَ الْأَعْلَى. لَوْ طَلَبَ كُلُّ مِنَّا رِبْحَهُ الْعَاجِلَ بِغَيْرِ عِزَّةٍ بِمُصْلَحَةِ الْجَمِيعِ لَأَخْتَلَّ الْمِيزَانُ، وَإِذَا اخْتَلَّ الْمِيزَانُ قَصُرَ الرِّبْحُ ثُمَّ انْقَطَعَ.»

خَرَجُوا جَمِيعًا إِلَى بَطْحَاءِ الْوَادِي، سَجَلٌ مِنْ تَرَابٍ يَنْتَظِرُ قَلَمًا يَكْتُبُ فِيهِ غَدًا. أَشَارَتْ لُبْنَى بِالرُّسُومِ: «هُنَا مَجْرَى نَقْوَمُهُ، وَهُنَاكَ سَدٌّ صَغِيرٌ يَحْجُزُ السَّيْلَ عَنِ الزَّرْعِ، وَفِي الْجَانِبِ مَصَافٌّ تُنْقِي الْمَاءَ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى الْحَقْلِ.» قَالَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ: «نَضَعُ لِلْعَمَلِ نِظَامًا يَرَعَى الْقُدْرَةَ وَالزَّمْنَ وَالْحَاجَةَ؛ فَمَنَازِلُ الْأَحْقَافِ وَالرُّبُوعِ تَتَعَاقَبُ فِي الْأَوَّلِيَّاتِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَنَضَعُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ رُوحَ الْمَسْئُورِيَّةِ؛ فَمَا مِنْ يَدٍ تَرْفَعُ حَجَرًا إِلَّا وَهِيَ تُوقِعُ عَلَى مِثَاقٍ.»

أَقْتَرَبَتْ صَفِيَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ وَفِي عَيْنَيْهَا بَصِيرَةٌ تُشِيعُ الثَّقَةَ: «رَفَعُ مِثَاقًا نَقَرُوهُ عَلَيْكُمْ، مَنْ شَهِدَ الْيَوْمَ فَلْيُبَلِّغْ غَدًا: نَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ الْأَرْضَ أَمَانَةٌ، وَأَنَّ الْمَاءَ حَقٌّ مُشَاعٌ يُقَسَّمُ بِالْقِسْطِ، وَأَنَّ الثَّمَرَ يُخْرَجُ مِنْهُ نَصِيبٌ لِلضَّعْفَاءِ قَبْلَ أَنْ يُوزَنَ فِي السُّوقِ، وَأَنَّ كُلَّ مُتَسَبِّبٍ فِي فُسَادٍ عَلَيْهِ إِصْلَاحٌ وَتَحْمَلٌ.» تَحَرَّكَتِ الْقُلُوبُ كَأَنَّهَا جَمْرٌ نَفَخَتْ فِيهِ كَلِمَاتُهَا، وَهَزَّتِ الرُّءُوسُ إِفْرَارًا.

بَدَأَ الْعَمَلُ، فَانْقَسَمَ النَّاسُ أَزْوَاجًا وَثَلَاثَ وَرُبَاعًا. حَمْرَةٌ يُدِيرُ فِرْقَةَ الْحَفْرِ، يَحْفَرُونَ بِقَدْرِ يَرَعَى تَجْوِيفَ الثَّرْبَةِ وَمَسَارَ السَّيْلِ. لُبْنَى تُرَاقِبُ الْمَيْلَ، تُرِيدُهُ قَدْرَ شِعْرَةٍ ثُمَّ تُنْقِصُهُ قَدْرَ شِعْرَةٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ الْجَرَيَانُ. صَاحِبُ الْقِيَّاسِ يَضَعُ سِجَلًا لِلدَّوَارِ وَالزَّمَنِ؛ فَالْعُمُودُ الْأَوَّلُ لِلْأَسْمَاءِ، وَالثَّانِي لِسَاعَاتِ الْعَمَلِ، وَالثَّلَاثُ لِلْأَدَاءِ، وَالرَّابِعُ لِلْمَلَاخِظَاتِ. أَمَتُهُ الْبَصِيرِيَّةُ تُدَبِّرُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَتُرْتَّبُ لِلصَّبِيَّانِ دَوْرَاتٍ يَتَعَلَّمُونَ فِيهَا أَدَبَ الْمَاءِ وَرَفَقَ الزَّرْعِ. مَرِيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ

تَجْمَعُ الْأَنَاشِيدَ، فَتَرْتِّلُهَا الْجَمَاعَةُ لِتُعِينَهُمْ عَلَى الطُّولِ وَتَرُدَّ عَنِ النَّفْسِ مَلَالًا.

وَبَيْنَمَا الْأَمْرُ عَلَى نِظَامِهِ، إِذْ ظَهَرَتْ قَافِلَةٌ رِجَالٍ يَعْرضُونَ صَفْقَةً مُعْرِيةً: يَشْتَرُونَ نِصْفَ مَاءٍ الْمَجْرَى لِمُدَّةٍ، عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا ثَمَنًا مَجْزِيًّا. عَادَ الْخِلَافُ يَتَرَفَّقُ كَالْمَاءِ فِي الصُّدُورِ. قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «فِي ذَلِكَ فُرْصَةٌ تَفْتَحُ أَبْوَابًا لِلتَّجَارِ».

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً تُسَاوِي بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِنذارِ: «اتَّبِعْ أَمَانَةً لَسْتَ تَمْلِكُهَا أَلْمَاءُ هُنَا حَقٌّ مُشَاعٌ، وَقَدْ جَعَلْنَا لِلضُّعْفَاءِ نَصِيبًا فِيهِ. مَنْ بَاعَ حَقَّ غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَ الْأَمِيثَاقَ وَنَقَضَ الْأَسْتِخْلَافَ».

تَقَدَّمَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَفِي يَدِهِ السَّجِلُّ: «لَوْ فَرَضْنَا الصَّفْقَةَ رِبْحًا عَاجِلًا، فَإِنَّ نُقْصَانَ الْمَاءِ سَيُفْضِي إِلَى قِلَّةِ الزَّرْعِ، وَقِلَّةُ الزَّرْعِ سَتُفْضِي إِلَى ارْتِفَاعِ الْأَسْعَارِ، وَارْتِفَاعِ الْأَسْعَارِ سَيَمْنَعُ الضُّعْفَاءَ مِنَ الشَّرَاءِ، وَتَسْتَحِيلُ الْمُنْفَعَةُ خَسَارَةً مُتَدَاوِلَةً. وَإِذَا انْكَسَرَ الْمِيزَانُ فِي حَقِّ الْجُمْهُورِ لَمْ تَسْلَمْ دُكَّانَاتُ الْأَفْرَادِ».

هَزَّ حَبِيبُ الدُّنْيَا رَأْسَهُ، وَقَالَ بِصَرَاحَةٍ تَشِي بِتَغْيِيرِ يَتَخَلَّقُ: «قَدْ عَلِمْتُ».

وَصَادَفَ أَنْ جَاءَتْ لَيْلَةٌ مَطَرٍ غَزِيرٍ، فَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ كَأَنَّهَا وَعَاءٌ مُمْتَلِئٌ يَصُبُّ فِيهِ الْمَاءُ صَبًّا. أَنْهَدَتِ الْوُدْيَانُ وَأَنْدَفَعَ السَّيْلُ، وَتَوَهَّمَ النَّاسُ أَلْهَلَغَ. صَاحَ

حَمَزَةٌ: «إِلَى السُّدُودِ، إِلَى الْمَصَافِّ.» وَقَادَتْ لُبْنَى فِرْقَةً تُصْلِحُ مَوْضِعًا ضَعْفَ فِيهِ الْحَاجِزُ، وَأَقَامَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ مَرَاقِبَ تُسَجَّلُ الْمُنْسُوبُ، وَنَظَّمَتْ صَفِيَّةُ النِّسَاءَ لِإِسْعَافِ مَنْ يَتَعَبُ.

وَقَفَ الْإِمَامُ يَقْرَأُ فِي قُلُوبِ الْقَوْمِ قِصَّةَ الْإِسْتِخْلَافِ وَهِيَ تَتَجَلَّى: «مَنْ اسْتَعْمَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أَعْطَاهُمْ عَقْلاً يُدَبِّرُ وَقَلْبًا يُثَبِّتُ، وَإِذَا جَاءَ الْإِمْتِحَانُ ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ.» تَحَامَلُوا، فَصَبَرُوا، فَسَلِمَ الْمَجْرَى، وَأَذَنَ الْفَجْرُ بِنُقْطَةِ ضَوْءٍ تَطُلُ مِنْ أَعْلَى الْجِدَارِ.

فِي أَثَرِ السَّيْلِ تَغْيِيرَ طَعْمٍ بِثَرٍّ صَغِيرَةٍ فِي الطَّرَفِ الشِّمَالِيِّ؛ مَرَارَةً خَفِيَّةً تَتَسَلَّلُ إِلَى الْمَاءِ. تَنَادَوْا إِلَيْهَا. فَحَلَّلَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ الذَّوْقَ قَائِلًا: «الْمُلُوحَةُ دَخَلَتْ بِثُقْبٍ فِي الْقِعَارِ، نَجَعَلُ لَهَا حَوْضًا قَبْلِيًّا يَرْتَاحُ فِيهِ الْمَاءُ، وَنُرَكِّبُ طَبَقَاتٍ مِنْ طِينٍ مَصْلُولٍ تُصَفِّيهِ.» وَرَسَمَتْ لُبْنَى حَوْضًا مُدْرَجًا، وَوَضَعَ جَابِرٌ لَوْحَةً تُسَجَّلُ مَنْسُوبُ النِّقَاطِ كُلِّ صَبَاحٍ. كَانَ الْعِلْمُ يَتَزَاوَرُ مَعَ الْإِيمَانِ، وَكَانَتْ الْمَسْئُورِيَّةُ تُقَوِّدُ الْجَمِيعَ كَأَنَّهَا رَائِدٌ يَقُومُ فِي اللَّيْلِ.

وَقَعَتْ مَنَازَعَةٌ فِي الْمَرَاحِ بَيْنَ أَهْلِ الرَّعْيِ وَأَهْلِ الزَّرْعِ؛ هَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ تَوْسِيعَ الْمَرْعَى عَلَى حِسَابِ الطَّرِيقِ الْجَدِيدَةِ، وَأُولَئِكَ يَخْشَوْنَ عَلَى شَتَلَاتِ الْغَرْسِ. جَمَعَهُمُ الْإِمَامُ تَحْتَ سِدْرَةٍ وَارِفَةٍ، وَقَالَ: «مِنْ سُنَنِ الْإِسْتِخْلَافِ أَنْ يَكْتُبَ الْمُخْتَلِفُونَ صُلْحًا يَرَعَى الْحَقَّيْنِ، فَنَجْعَلُ لِلرَّعْيِ أَيَّامًا مَعْلُومَةً، وَلِلزَّرْعِ

أُسْبُوعًا فِي الشَّهْرِ يُمنَعُ فِيهِ الدُّخُولُ حَتَّى تَقْوَى الْأُصُولُ. مَنْ حَفِظَ الْحُدُودَ أَحْيَا
الْمَرَاعِي وَالزُّرُوعَ مَعًا.» وَسَطَّرَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْعُهُودَ، وَرَسَمَتْ لُبْنَى خَارِطَةً
تُبَيِّنُ دَوَرَاتِ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ.

كَانَ الْأَطْفَالُ يَتَعَلَّمُونَ مَعَ الْعَمَلِ مَعَانِيَ الْمَسْئُورِيَّةِ؛ يَحْمِلُونَ غُصُونًا
صَغِيرَةً، وَيَرْتَبُونَ حِجَارَةً عَلَى الْحَافَةِ، وَيَتَعَاقَبُونَ عَلَى سِجِلٍّ يَكْتُبُونَ فِيهِ «صَبَاحُ
الْوَادِي» كَمَا يَرُونَهُ. وَفِي الْمَسَاءِ تَقْصُ «أَمْنَةُ» قِصَصًا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَنِدَاءِ
الْعِمَارَةِ، فَتَرْتَسِمُ فِي أَذْهَانِهِمْ صُورٌ لِقُلُوبٍ كَبِيرَةٍ تُعْمَرُ حَتَّى إِذَا أَنْطَوَتْ أَعْمَالُهَا
بَقِيَتْ أَثَارُهَا.

وَبَيْنَ حِينَ وَآخَرَ كَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَرْجِعُ إِلَى سُؤَالِهِ الْأَوَّلِ وَهُوَ يُرَاقِبُ
التَّغْيِيرَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ: «أَتَرَى أَنَّ الْمَسْئُورِيَّةَ تُغَيِّرُ طَبَائِعَ الْأَسْوَاقِ»

فَيَقُولُ الْإِمَامُ: «تَهْدِيهَا. الشُّوقُ الَّتِي تُقَامُ عَلَى الْأَمَانَةِ تَرْتَفِعُ فِيهَا الثَّقَّةُ،
وَإِذَا ارْتَفَعَتِ الثَّقَّةُ طَالَ الرَّبْحُ وَالْبَقَاءُ. وَقَدْ تَرَى الرَّبْحَ الْعَاجِلَ فِي خِيَانَةِ صَغِيرَةٍ،
وَلَكِنَّهُ يُؤَلِّدُ زُورًا وَيَمُوتُ سَرِيعًا، أَمَّا الرَّبْحُ الَّذِي يُؤَلِّدُ مِنْ أَمَانَةٍ فَيَكْبُرُ مَعَ الْأَيَّامِ
كَبْرُومَةِ النَّخْلَةِ.»

وَعَلَى مَرِّ الْأَسَابِيعِ تَشَكَّلَتْ «دَارُ الْعِمَارَةِ»، بَيْتٌ صَغِيرٌ عَلَى جَانِبِ
الْمَجْرَى تُعَلِّقُ فِيهِ الْخَرَائِطُ وَالصُّورُ، وَتُحَفَظُ فِيهِ الْأَدَوَاتُ، وَيُسَجَّلُ فِيهِ «مِثَاقُ

الْإِسْتِخْلَافِ» بِأَسْمَاءِ الْمُشَارِكِينَ. كَانَ الدُّخُولُ إِلَيْهَا يُشَبِّهُ الدُّخُولَ إِلَى مِصْنَعِ قُلُوبٍ، تُصَاغُ فِيهِ الْعَادَاتُ عَلَى قَدِّ الْوَعْيِ. وَفِي صَدْرِ الدَّارِ لَوْحَةٌ خَشَبِيَّةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا: «مَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَفِي عَنْقِهَا سِلْسِلَةٌ مَسْئُولِيَّةٌ».

وَقَدْ حَدَّثَ أَنَّ تَعَطَّلَتْ رَحَى صَغِيرَةٌ كَانَتْ تَدُورُ بِمَاءِ الْمَجْرَى، فَتَرَجَعَ الطَّحِينُ فِي السُّوقِ. قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «هَذَا ضَرَرٌ يُصِيبُنِي مُبَاشَرَةً». فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: «إِصْلَاحُهَا وَزُرُّ مُشْتَرِكٍ؛ فَلَا اسْتِخْلَافَ يَقْتَضِي أَنْ نَرَى الْحَلَقَةَ كُلَّهَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ أُعِيدَ نَظْمُهَا». وَجَاءَ خَالِدٌ يُصْلِحُ الْمَحَاوِرَ، وَأَعَانَهُ حَمْرَةٌ بِفَرْقَتِهِ، وَاجْتَمَعَ الشُّجَارُ عَلَى تَحْمِيلِ نَفَقَةٍ، فَعَادَتِ الرَّحَى تَدُورُ وَعَادَ الطَّحِينُ يَبْيَضُ فِي الْأَكْفِ.

وَفِي مَوْسِمِ آخَرٍ اشْتَدَّ الْحَرُّ وَقَلَّ هُطُولُ الْمَطَرِ، فَانْخَفَصَ الْمَنْسُوبُ. جُمِعَ النَّاسُ لِلنَّظَرِ فِي «صَحِيفَةِ التَّنَادِيرِ». قَالَ الْإِمَامُ: «نُقُلُّ السَّحْبَ عَلَى التَّدْرِيجِ، وَنُقَدِّمُ الْأَوَّلَى مِنَ الْحَاجَاتِ، وَنَمْنَعُ الْأَسْرَافَ فِي الْعَسَلِ وَالتَّنْظِيفِ، وَنَضْعُ أَوْقَاتًا لِلسَّقْيِ لِكُلِّ حَيٍّ. مَنْ عَرَفَ حَقَّ الْمَاءِ عَلَيْهِ حَفِظَ لِنَفْسِهِ حَقًّا فِي غَدٍ». وَقَالَتْ صَفِيَّةُ: «نُذَكِّرْكُمْ أَنَّ التَّقْلِيلَ فِي الْيَوْمِ شُكْرٌ يَبْقَى لِلْغَدِ».

وَكَانَ مِنْ ثِمَارِ هَذَا النِّظَامِ أَنْ انْبَسَطَ الْعَدْلُ فِي الْأَسْعَارِ؛ فَالْفَائِضُ يُحْفَظُ لِمَوَاسِمِ الْقَلَّةِ، وَتُقَامُ «مَوَائِدُ الشُّكْرِ» عِنْدَ أَوَّلِ حَصَادٍ، يُدْعَى إِلَيْهَا ابْنُ السَّبِيلِ قَبْلَ أَنْ يُنَادِيَ الدَّلَّالُ فِي السُّوقِ. وَكَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَغْفُ فِي الْمَجْلِسِ

يَقُولُ: «عَلِمْتُ أَنَّ الْعَمَلَ إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ مَنْفَعَتِي الْخَاصَّةِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ مَنْفَعَتِي؛ بَلْ يَرْجِعُ إِلَيَّ فِي أَمْنٍ وَرَبْحٍ، وَقَدْ كُنْتُ لَا أَرَى ذَلِكَ.»

وَتَعَلَّمَ النَّاسُ لُغَةً جَدِيدَةً لِلْمِلْكِيَّةِ؛ فَمَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ أَصْبَحَ «عَارِيَّةَ مَسْئُولَةٍ» تُسَلَّمُ إِلَى الزَّمَنِ كَمَا تُسَلَّمُ الْغُھُودُ. وَكَانَ الْإِمَامُ كُلَّمَا مَضَى شَهْرٌ جَمَعَهُمْ وَقَالَ: «انْظُرُوا فِي الْأَرْضِ كَيْفَ تَشْهَدُ عَلَيْكُمْ. هَلْ زَادَتْ خُضْرَتُهَا هَلْ خَفَّ الْهَدْرُ فِيهَا هَلْ طَابَ هَوَاؤُهَا فَهَذِهِ شَهَادَةُ الْأَسْتِخْلَافِ.» وَيَتَابِعُ: «مَنْ أَهْمَلَ نُقْطَةَ مَاءٍ فِي قَفْصِ صَدْرِهِ، أَهْمَلَ مِثْلَهَا فِي الْأَرْضِ، فَلَنْسْتَكْمِلَ نِظَافَةَ الْقُلُوبِ بِنِظَافَةِ الْمَجَارِي.»

وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَشْرُوعُ لِابْتِلَاءٍ آخَرَ؛ رَجُلٌ أَطْلَقَ مَخْلَفَاتِ وَرْشَتِهِ فِي الْمَجْرَى لَيْلًا. أَمْسَكُوا بِهِ فِي الصَّبَاحِ وَالْآثَرُ بَاقٍ. قِيلَ: «نُعَاقِبُهُ غَلِيظًا.»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «نُؤَدِّبُ وَنُرَبِّي. لَا نَكْسِرُ الرَّجُلَ وَلَكِنْ نَكْسِرُ عَادَتَهُ، فَجَعَلْ عَلَيْهِ سَاعَاتٍ فِي الصِّيَانَةِ وَنَفَقَةٍ فِي التَّعْوِيضِ وَدُرُوسًا فِي الْمَسْئُورِيَّةِ. مَنْ أَفْسَدَ وَكُلَّ بِالْإِصْلَاحِ حَتَّى يَذُوقَ مَعْنَى الْأَمَانَةِ.» فَتَغَيَّرَ الرَّجُلُ، وَصَارَ مِنْ أَحْفَظِ النَّاسِ لِلنِّظَامِ.

وَأَقَامُوا يَوْمًا لِلْوَعْدَةِ، يَقِفُ فِيهِ الْجَمِيعُ عَلَى ضِفَّةِ الْمَاءِ وَيَتَعَاهَدُونَ. قَرَأَ الْإِمَامُ مَرَّةً أُخْرَى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾،

ثُمَّ قَالَ: «اسْتَعْمَرَكُمْ أَيَّ طَلَبٍ مِنْكُمْ الْعِمَارَةُ، فَهُوَ أَمْرٌ لَا تَنْقُلُ فِيهِ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْكُمْ الْعِمَارَةَ طَلَبَ مِنْكُمْ الْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ وَقِيَامَ الْحُدُودِ. فَمَنْ عَمَرَ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْسَدَ، وَمَنْ عَمَرَ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ جَفَّ، وَمَنْ عَمَرَ بِغَيْرِ مَسْئُولِيَّةٍ هَدَمَ مَا بَنَى.»

وَتَقَدَّمَتْ صَفِيَّةُ فَقَالَتْ: «نُجَدِّدُ مِيثَاقَنَا بِأَنْ نَجْعَلَ الْأَرْضَ فِي مَقَامِ الْأُمِّ؛ مَنْ رَعَاهَا زَادَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَتْهُ.»

وَحِينَ انْتَمَرَتِ الْأَرْضُ أَوَّلَ أَثْمَارِهَا، أَقَامُوا مَوْسِمًا لِلشُّكْرِ. تَمَدُّ «أَمِنَةُ» سُفْرَةٌ عَلَى حَافَةِ الْوَادِي، وَتَجْلِسُ مَرْيَمُ تُنْشِدُ، وَيَقُولُ حَمْزَةُ لِلصَّبِيَّانِ: «هَذَا الشَّمْرُ لَيْسَ لَنَا وَحْدَنَا؛ فِيهِ حَقٌّ لِمَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ وَلَكِنْ دَعَا، وَلِمَنْ لَمْ يَحْفَرْ وَلَكِنْ حَفِظَ، وَلِمَنْ لَمْ يَغْرِسْ وَلَكِنْ عَلَّمَ.» وَيَقِفُ حَبِيبُ الدُّنْيَا يُقَبِّلُ يَدَيِ طِفْلِ يَسْتَقِيهِ قِطْفًا مِنْ رُمَّانٍ، فَيَقُولُ: «هَذَا رِبْحِي الْيَوْمَ؛ أَنْتِسَامَةٌ فِي وَجْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي، وَأَمَّنْ يَمْشِي فِي السُّوقِ كَأَنَّهُ رَائِحَةُ خُبْزٍ دَافِيٍّ.»

وَفِي لَيْلَةٍ سَاكِنةٍ، جَلَسَ الْإِمَامُ مَعَ جَابِرٍ يَقْرَأُ مَا كُتِبَ فِي الدَّفَاتِرِ. قَالَ جَابِرٌ: «رَأَيْتُ يَا سَيِّدِي كَيْفَ يَتَغَيَّرُ النَّاسُ إِذَا نُقِلُوا مِنْ لُغَةٍ أَلَمَلِكِ إِلَى لُغَةٍ الْأَمَانَةِ. كَانَ الْقَلْبُ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ كَانَ مُسَدَّدًا.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «ذَلِكَ مَعْنَى

الْإِسْتِخْلَافِ؛ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّكَ لَسْتَ فَوْقَ الْأَرْضِ فَقَطْ وَلَكِنْ فِيهَا، وَلَسْتَ فِيهَا
فَقَطْ بَلْ لَهَا. مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ تَحَوَّلَ عَمَلُهُ عِبَادَةً..»

وَلَمَّا انْقَضَى الْمَوْسِمُ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ يَخْتِمُ الدَّرْسَ كَمَنْ يَضَعُ
حَجَرَ الْقِمَّةِ عَلَى قَبْوٍ ارْتَفَعَ: «يَا أَصْحَابَ الْقُلُوبِ، قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ
مَنْفَعَةً وَحْدَهَا، بَلْ هُوَ رِعَايَةٌ، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ مِلْكًا تُنْفِقُونَهُ كَيْفَ شِئْتُمْ، بَلْ
أَمَانَةٌ تُسْأَلُونَ عَنْهَا. مَنْ قَالَ: أَيْنَ رَبِّي قُلْنَا لَهُ: رَبُّكَ فِي الْأَمْنِ وَفِي الْبَرَكَةِ
وَفِي الْأَثَرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ. وَمَنْ قَالَ: لِمَ نَعْمَلُ إِذَا لَمْ نَمْلِكْ قُلْنَا لَهُ: نَعْمَلُ لِأَنَّ
اللَّهَ اسْتَعْمَرَنَا، فَمَنْ أَجَابَ الْأَمْرَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِمَارَةِ، وَمَنْ أَعْرَضَ كَانَ مِنْ أَهْلِ
الْخَسَارَةِ وَلَوْ كَثُرَتْ أَرْصِدَتُهُ..»

ثُمَّ أَطَالَ النَّظَرَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَقَالَ بِهَيْدٍ يُشْبِهُ خِتَامَ دُعَاءٍ: «عِمَارَةُ
الْأَرْضِ اسْتِجَابَةٌ لِأَمْرِ إِلَهِيٍّ، لَيْسَتْ مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ مَادِّيَّةٍ تُقَاسُ بِلَفَائِثِهَا وَمَرَاجِحِهَا.
هِيَ صَلَاحُ نَفْسٍ وَقِيَامُ قِيَمَةٍ وَسَيْرٌ إِلَى اللَّهِ عَلَى طَرِيقٍ يَعْمُرُ مَعَكُمْ، فَإِذَا مِتُّمْ بَقِيَ.
فَاحْفَظُوا الْأَمَانَةَ بِقُلُوبِكُمْ قَبْلَ أَيْدِيكُمْ، وَأَذْكُرُوا أَنَّ «الْمَسْئُولِيَّةَ» كَلِمَةٌ تُكْتَبُ
بِنُورِ الْوَعْيِ وَدَمْعِ الرَّحْمَةِ وَعَرَقِ الْجِدِّ..»

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْقَمَرُ عَلَى رَأْسِ الْوَادِي مِصْبَاحٌ بَيِّضَاوِيٍّ،
يَنْسَابُ مَعَهُ الْمَاءُ فِي الْقَنَوَاتِ هَامِسًا كَأَنَّهُ يُرَاجِعُ مَا تَعَلَّمَهُ مِنْ مِيزَانِ
الْإِسْتِخْلَافِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ. وَكَانَ كُلُّ يَحْمِلُ فِي جَيْبِهِ قِصَّةً صَغِيرَةً لِمَكَانٍ أَصْبَحَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لَهُ مَعْنَى، وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالًا لِعَمَلٍ إِذَا ابْتَدَأَ لَمْ يَنْقَطِعْ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ، وَهُوَ
الَّذِي أَسْتَعْمَرَ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: مَلْحَمَةُ الْقِيمِ

يَفْتَحُ الصَّبَاحُ عَيْنَيْهِ عَلَى الْوَادِي، وَيَتَسَلَّلُ ضَوْءُ الشَّمْسِ بَيْنَ سَعَفِ النَّخِيلِ كَأَنَّهُ أَصَابِيغُ رَحْمَةٍ تَمْسَحُ جَبِينَ الْأَرْضِ، وَتَحْمِلُ الرِّيحُ أَصْوَاتًا مُتَبَاعِدَةً لِحَدِيدٍ يُطْرَقُ فِي الْوَرُشَةِ وَخَشْخَشَةَ سِقَاءٍ يَتَأَرَّجِحُ عَلَى كَيْفِ فَتَى صَغِيرٍ وَنَقَرَ حَمَامٍ عَلَى جُذُرَانِ ثُبُوتٍ طِينِيَّةٍ. وَفِي الْمَسْجِدِ تَتَجَمَّهُرُ الْحَلَقَةُ عَلَى سَجَادَةِ عَتِيقَةٍ تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الزَّمَنِ وَدَمْعُ الدُّعَاءِ، وَيَجْلِسُ الْإِمَامُ وَجْهَهُ كَالْقِبْلَةِ وَتَتَشَعَّبُ مِنْ صَوْتِهِ سُبُلٌ مِنْ هُدًى كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ ضَوْءٍ تَنْصِلُ بِالسَّمَاءِ. وَعَنْ يَمِينِهِ حَمْرَةٌ الْأَنْصَارِيِّ وَفِي عَيْنَيْهِ نَهْرٌ مِنَ الْحَمَاسِ، وَعَنْ شِمَالِهِ صَفِيَّةُ الْوَائِقَةِ وَسَكِينَتُهَا تُشْبِهُ حِضْنَ أُمِّ يَضْمُ الصَّغَارَ، وَبَيْنَ الْحَلَقَةِ جَابِرٌ يَفْتَحُ دَفْتَرَهُ كَصَحْرَاءَ تَسْتَقْبِلُ الْمَطَرَ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُهَنِّهِمْ وَهُوَ يَزِنُ الْأَلْفَاظَ كَمَا تُوزَنُ الْجَوَاهِرُ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُحَرِّكُ سُبْحَتَهُ وَيُلْقِي نَظْرًا نَاحِيَةَ الْبَابِ كَأَنَّ فِي الْخَارِجِ صَفْقَةً تَنْتَظِرُهُ.

وَيَجْمَعُ الْإِمَامُ نَفْسًا طَوِيلًا كَمَنْ يَسْتَوْعِبُ سَعَةَ الْأَفْقِ، وَتَنْطَلِقُ مِنْ شَفَتَيْهِ جُمْلَةٌ تَتَدَرَّجُ هَوِيًّا: «الْيَوْمَ نَحْشُدُ الْحِكَايَاتِ فِي حِكَايَةٍ، وَنَجْمَعُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْحِجَارَةَ فِي قَبْوٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ وَالْمَسْئُولِيَّةَ وَجْهَانِ لِدَرْهَمٍ وَاحِدٍ، مَنْ أَضَاعَ وَجْهًا سَقَطَتِ الْعُمْلَةُ، وَمَنْ جَمَعَهُمَا جَرَى الرِّزْقُ فِي حَيَاتِهِ كَمَجَرَى الْمَاءِ». وَيَتَشَفَّعُ الْإِمَامُ بِآيَةٍ تَسْتَفِيرُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْمِيزَانِ الْمَنْصُوبِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠).

وَيَرْفَعُ حَمْرَةَ كَفِّهِ وَعَلَيْهَا خُشُونَةُ الْعَمَلِ وَعَفْرُ التُّرَابِ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ اسْتِفْهَامَةٌ تَبْحَثُ عَنِ الطَّرِيقِ: «يَا سَيِّدَنَا، يَتَفَاوَتْ النَّاسُ فِي الْبَذْلِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ بِمَالٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ بِيَدٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ بِكَلِمَةٍ، فَهَلِ الْوَجْهُ وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَبْوَابُ»

وَتَلْمَعُ عَيْنَا الْإِمَامِ وَتَلِينُ نَبْرَتُهُ وَهُوَ يُقَرِّبُ الْجَوَابَ كَمَنْ يَضَعُ كَأْسًا رَقِيقَةً عَلَى مَائِدَةٍ مُهَيَّأَةٍ: «الْوَجْهُ وَاحِدٌ وَالْأَبْوَابُ كَثِيرَةٌ، وَمِيزَانُهَا النَّيَّةُ وَالصَّبْرُ، وَقَدْ نُودِينَا لِتُقِيمَ الْوَزْنُ بِالْفِسْطِ،

﴿وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٧-٩)،

وَإِذَا اسْتَوَى الْمِيزَانُ اسْتَوَتْ الْقُلُوبُ».

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَتُسْنِدُ صَفِيَّةُ ظَهَرَهَا إِلَى الْعُمُودِ وَتَنْثُرُ خَبْرَتَهَا نَثْرَ عِطْرِ يَسْرِي: «لَا يَقِفُ الْإِحْسَانُ عِنْدَ الْعَطَاءِ، بَلْ يَدْخُلُ بَيُوتَ الصَّنَاعَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ، فَمَنْ جَوَّدَ صَنْعَتَهُ فَقَدْ أَحْسَنَ، وَمَنْ وَفَّى الْكَيْلَ فَقَدْ أَحْسَنَ،

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام ١٥٢)».

وَيُوقِعُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ مُوَافَقَتَهُ وَهُوَ يُثَبِّتُ الْمَعْنَى فِي سَجِلِ الْوَاقِعِ: «وَتُصَيِّرُ الْمَسْئُولِيَّةُ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ نِظَامًا يَمْنَعُ الظُّلْمَ وَالْهَذَرَ،

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الأنعام ٣٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء ٥٨)».

وَيَلُوحُ عِنْدَ الْبَابِ رَكْبُ أَحْمَالٍ وَجِرَارٍ، وَيَدْخُلُ غَرِيبٌ يَعْرِضُ سِلْعَةً بِسِعْرِ يُفْسِدُ الشُّوقَ إِنْ اسْتَجِيبَ لَهُ، وَتُرَدُّ الِهَمَّهَمَاتُ فِي الْمَجْلِسِ كَأَنَّهَا نَبْضُ إِثَارَةٍ، فَرَبْحٌ سَرِيعٌ يُغْرِي وَلَكِنَّهُ يَكْسِرُ ضِلْعَ الثَّقَةِ. وَيَمِيلُ حَبِيبُ الدُّنْيَا نَحْوَ حَمْزَةٍ وَتَلْمَعُ فِي صَوْتِهِ ذِكْرَى التَّرَدُّدِ الْقَدِيمِ: «هَلْ نَأْخُذُهَا» وَيَثْبُتُ حَمْزَةُ كِمِيزَانٍ لَا يُرَجِّحُهُ رِيحٌ: «إِنْ أَخَذْنَاهَا كَسَرْنَا جَنَاحَ جَارٍ، وَمَنْ كَسَرَ جَنَاحًا فِي قَرْنَيْهِ لَا يَطِيرُ وَحْدَهُ بَعِيدًا،

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

(الْأَعْرَافُ ٨٥)،

وَوَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣١﴾ (الْمُطَفِّفِينَ ٣-١)».

وَتُتِمُّ صَفِيَّةُ الْمَعْنَى وَهِيَ تُثَبَّتُ النَّظَرَ فِي عُيُونِ الْحَاضِرِينَ: «الرِّبْحُ الَّذِي يَأْكُلُ قِيَمَتَكَ خُسْرَانٌ مُتَنَكِّرٌ،

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ» (النِّسَاءُ ٢٩)».

وَيَمَسُّحُ الْإِمَامُ أَلْوَجُوهَ بِنَظَرَةٍ تُسَافِرُ بَيْنَ الصُّدُورِ، وَتَنَسَابُ مِنْهُ عِبَارَةٌ تَفْرِقُ بَيْنَ مِيزَانَيْنِ: «يَحْسِبُ مِيزَانُ الْمَنْفَعَةِ الْآيَةَ بِالثَّانِيَةِ وَالسَّاعَةِ، وَيَحْسِبُ مِيزَانُ الْقِيَمِ بِالْعُمُرِ وَالْآثَرِ، وَإِذَا اخْتَلَفَا قَدَّمْنَا الَّذِي يَجْمَعُ مَنَفَعَتَنَا وَمَنَفَعَةَ غَيْرِنَا،

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ» (الْمَائِدَةُ ٢)،

وَوَاحِسُنَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (الْبَقَرَةُ ١٩٥)».

وَيَخْرُجُ الْقَوْمُ إِلَى السُّوقِ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ سَمَّوْهُ «مَلْحَمَةُ الْقِيَمِ»، وَتَتَرَاصُّ الْأَكْشَاكُ كَالْحُبُوكِ وَتَتَدَلَّى عَلَى كُلِّ كِشْكٍ لَوْحَةٌ خَشِيبَةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«الْعَدْلُ مِيزَانِي وَالْإِحْسَانُ زِينَتِي وَالْمَسْئُولِيَّةُ عَهْدِي»، وَتَرَفَّعَ لُبْنَى أَدَوَاتِ الرَّيِّ
الْمَصْنُوعَةِ بِقِيَاسٍ وَتَحَرَّى وَتُفَسِّرُ لِلصَّيَّانِ كَيْفَ يُصَاحِبُ الْحِسَابَ الرَّحْمَةَ فَيُؤْخَذُ
مِنَ النَّهْرِ قَدْرٌ وَيُتْرَكُ لِلْأَرْضِ مَا يُحْيِيهَا، وَتُشِيرُ إِلَى آيَةِ الْمُنِيرَةِ:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾
(الْإِسْرَاءُ ٣٥).

وَيُقَدِّمُ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ بُدُورًا مَحْفُوظَةً فِي أَكْيَاسٍ صِغَارٍ وَعَلَى كُلِّ قِصَّةٍ
نَبَاتٍ نَمَا بِرِفْقٍ وَمَاءٍ مَقْسُومٍ بِالْقِسْطِ، وَيَقِفُ جَابِرٌ عَلَى رَحَى تَدُورُ بِمَاءِ الْمَجْرَى
وَيُوزَنُ كُتَيْبًا جَمَعَ فِيهِ مَوَازِينَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيَخْتِمُ كُلَّ قِسْمٍ بِآيَةٍ، فَيَجْعَلُ
لِلْمَعْنَى جِسْرًا إِلَى الْعَمَلِ.

وَيَشْتَدُّ الرَّحَامُ وَيُقُومُ الدَّلَالُ يُنَادِي بِأَسْعَارٍ مُنْصِفَةٍ، وَيَمُرُّ فَقِيرٌ فَيَضَعُ يَدَهُ
عَلَى كَيْسٍ حَبٍّ ثُمَّ يَتَرَاوَعُ، وَيَلْتَقِطُهُ بَصْرٌ حَيِّبٍ الدُّنْيَا وَتَدُوبُ فِي عَيْنِهِ بَقَايَا
تَرْدُدٍ قَدِيمٍ، وَتَنْفَتِحُ شَفَتَاهُ عَلَى بَدَلٍ سَمِينٍ: «خُذْ نَصِيبَكَ، فَالْرَّيْحُ يَكْثُرُ
بِالرَّحْمَةِ»، وَتُزْغَرُ فِي الْمَجْلِسِ آيَةٌ كَأَنَّهَا بُشْرَى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ (الْبَقَرَةُ ٢٧٦)،

وَتَتَّبِعُهَا أُخْرَى تُسِنِدُ النَّفْسَ إِلَى الْعُلُوِّ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آلِ عِمْرَانَ ٩٢).

وَيَهْتَفُ صَبِيٌّ يَقِفُ قُرْبَ الْمَجْرَى يَسْمَعُ قِصَّةَ مَرْيَمَ بِنْتِ صَفْوَانَ عَنِ
الطَّائِرِ الْكَسِيرِ فَيَسْأَلُ: «أَيُّ ثَابِ الْمَرْءِ عَلَى رِفْقِهِ بِالضَّعِيفِ» وَتَأْتِي الْجَابَةُ فِي
صَدَى الْآيَةِ كَأَنَّهَا نَدَى يُقْبَلُ جَبِينًا صَغِيرًا:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزَّلْزَلَةُ ٧)

و﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ (الْأَنْعَامُ ١٦٠).

وَيُفَرِّدُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ لِلْقَوْمِ مِيزَانَيْنِ يَضَعُ عَلَيْهِمَا الْيَوْمَ: «لِنُزْنِ مَا
نَصْنَعُهُ عَلَى مِيزَانِ الْمَنْفَعَةِ الْآيَةِ وَمِيزَانِ الْقِيَمِ الْعُلْيَا، فَإِنْ رَجَحَتْ الْقِيَمُ
وَحَفِظَتْ الْمَنْفَعَةُ فَذَلِكَ الْفَوْزُ، وَإِنْ رَجَحَتْ الْمَنْفَعَةُ وَأَسْقَطَتْ الْقِيَمَ فَذَلِكَ
الْخُسْرَانُ»، وَتَخْتِمُ الْعِبَارَةُ بِنَبْرَةِ الْإِمَامِ وَهُوَ يُثَبِّتُ سَلَامًا فِي الْقُلُوبِ: «تُصَيِّرُنَا
الْقِيَمُ جَمَاعَةً تُدِيرُ شُؤْنَهَا بِشُورَى رَاشِدَةٍ،

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشُّورَى ٣٨)،

وَتَجْعَلُ أَيْدِيَنَا مُنْفِقَةً بِقَصْدٍ وَقَسْطٍ،

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الْفُرْقَانُ ٦٧)

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾
(الْإِسْرَاءُ ٢٩)».

وَيَمْنُدُ نَهَارُ «مَلْحَمَةِ الْفَيْمِ» كَأَنَّهُ سِجَالُ بَرَكَةٍ يَتَدَاوَعُ، وَيُرْتِّلُ الشُّجَارُ
تَعَاهُدَهُمْ عَلَى الْإِنْصَافِ، وَتَتَرَنَّمُ الْأَكْفُفُ بِالتَّعَاوُنِ، وَتَنْطِقُ الْأَلْوَاخُ بِالْآيَاتِ فِي
نَاصِيَاتِ الْأَكْشَاكِ، فَهَذِهِ لَوْحَةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: 152)،

وَتِلْكَ أُخْرَى تُذَكِّرُ:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النَّحْلُ ١٢٨).

وَيَمُرُّ الرِّزْقُ عَلَى الْفَرَى كَأَنَّهُ سَحَابَةٌ وُدٌّ وَمَطَرُهَا مُبَارَكٌ، وَتُسْنِدُ الْقُلُوبِ
رَجَاءَهَا إِلَى وَعْدٍ صَرِيحٍ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ (الْأَعْرَافُ ٩٦).

وَعِنْدَ الْغُرُوبِ تَتَعَالَى رَائِحَةُ الْخُبْزِ وَتَسْتَرِيحُ الصَّغَرَى فِي حِجُورِ
أُمَّهَاتِهِنَّ، وَيَقِفُ حَيْبُ الدُّنْيَا إِلَى جَانِبِ الْإِمَامِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَادِي وَقَدْ صَارَ
كَالشَّرَايِينِ تَجْرِي فِيهَا الْحَيَاةُ، وَتَنْفَتِحُ مِنْهُ عِبَارَةٌ تُشَبِّهُ الْإِعْتِرَافَ: «ظَنَنْتُ أَنَّ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

الرَّيْحُ يَجِيءُ مِنْ سُرْعَةِ الصَّفَقَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يَجِيءُ مِنْ سُرْعَةِ الرَّحْمَةِ إِلَى الْقَلْبِ، وَكُنْتُ أَرَى الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ فَصِرْتُ أَرَى الْأَمَانَةَ وَالْبَرَكَةَ. وَتَنَزَّلُ عَلَى مَسْمَعِهِمَا آيَتَانِ كَأَنَّهُمَا تَوْقِيعُ خِتَامٍ:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ١٩٧)

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٠).

وَيَضَعُ الْإِمَامُ كَفَّهُ عَلَى كَتِفِهِ وَيَهْمِسُ بِمَا يُثْبِتُ الطَّرِيقَ: «يَجْرِي الْمَالُ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَجْرِي الْقِيَمَةُ فِي الْقُلُوبِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا طَالَ الْعُمُرُ بِآثَرِهِ، وَتَمَّ الْمِيزَانُ لَا يَمِيلُ».

وَيَعُودُ الْقَوْمُ لَيْلًا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالْمَصَابِيحُ تُضِيءُ وَجْهَ الْحَجَرِ كُنُجُومٍ نَزَلَتْ، وَيُجْمِلُ حَمْزُهُ مَا تَبَوَّأَ فِي الصُّدُورِ كَمَنْ يُعِيدُ نَصْلًا إِلَى غَمْدِهِ: «يَنْعَقِدُ الْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ عَمَلًا لِلَّهِ، وَتَتَكَثَّفُ الْأَكْتَافُ فَتَحْمِلُ جِبَالًا، وَتَتَرَاخُمُ الْقُلُوبُ فَتَسْكُنُ». وَيَتَقَدَّمُ الْإِمَامُ بِبَرَّةٍ تَجْمَعُ دَفْءَ آبٍ وَحَزْمَ قَائِدٍ وَيُفِيضُ كَلَامًا يَسْقِي الرُّوحَ كَأَسَا صَافِيَةً: «مَا سَمِعْتُمُوهُ لَيْسَ حَبْرًا عَلَى وَرَقٍ، بَلْ نَبْضًا عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا جَرَى فِي قُرْبَتِنَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْرِيَ فِي أَلْفِ قَرْيَةٍ إِذَا أَقْتَامَ النَّاسُ مِيزَانَ الْإِحْسَانِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ،

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

(الْقَصَصُ ٧٧)

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الشُّعَرَاءُ ١٨٣)».

وَتَمَنُّدُ الْعِبَارَةِ وَهِيَ تُثَبِّتُ الْعَهْدَ: «مَنْ طَلَبَ الْمَنْفَعَةَ الْآيَةَ وَحَدَهَا أَضَاعَ قِيَمَتَهُ، وَمَنْ جَعَلَ الْقِيَمَةَ مِيزَانًا جَمَعَ مَنَفَعَتَهُ وَمَنْفَعَةَ النَّاسِ، وَيَتِمُّمُ اللَّهُ لَهُ الْبَرَكَةَ،

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (الْبَقَرَةُ ٢١٥ جُمْلَتُهُ)

﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: 195)».

وَيَسْكُنُ الْمَسْمُوعُ إِلَّا مِنْ هَمْسِ الدَّعَاءِ، وَيَخْرُجُونَ وَالْقَمَرُ يَصْعَدُ كَمِيزَانٍ مِنْ فِصَّةٍ مُعَلَّقٍ فِي السَّمَاءِ يَقِيسُ فِي الصُّدُورِ مَا بَقِيَ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَمْشِي حَبِيبُ الدُّنْيَا مُتَوَدِّيًا ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى حَمْزَةٍ وَجْهَهُ يَلْمَعُ بِمَاءٍ فَهَمَّ جَدِيدٍ: «مَنْ يَبْنِ لِنَفْسِهِ يَهْدِمُهَا بِمَعُولِ الزَّمَنِ، وَمَنْ يَبْنِ لِلنَّاسِ يَبْنِ لِنَفْسِهِ بَيْتًا فِي الْقُلُوبِ لَا تَهْدِمُهُ الْأَيَّامُ»، وَتَرْتَدُّ عَلَيْهِمَا آيَةٌ تُثَبِّتُ وَعْدًا لَا يَخِيبُ:

﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الْبَقَرَةُ ١١٠).

وَيَرُبُّتُ حَمْزَةٌ عَلَى كَتِفِ صَاحِبِهِ وَيَرْفَعُ بَصَرُهُ نَحْوَ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ يَقْتَسِمُ خِتَامًا مِنْ نُورِهَا: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَبْنُونَ الْأَرْضَ وَيَرْفَعُونَ الْقِيَمَةَ فَيَسْتَوِي فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَيَّدِينَا الرَّبَّحُ وَالْبُرُّ.

وَفِي صَبَاحِ الْعَدِ يَجْرِي أَلْوَادِي وَيَكْتُبُ الصَّبِيَانُ عَلَى لَوْحَةِ «دَارِ
الْعِمَارَةِ»: «الْيَوْمَ نُزْهِرُ قِيَمَتَنَا»، وَتَسْتَقِرُّ تَحْتَ الْعِبَارَةِ تَوْقِيعَاتُ صِغَارٍ مَطْمُوسَةٍ
بِالطِّينِ كَأَنَّهَا بُدُورٌ سَتَكْبُرُ، وَتَتَرَنَّمُ الْأَصْوَاتُ بِآيَةٍ تُودِّعُ الْمَلْحَمَةَ وَتَفْتَحُ طَرِيقًا
لِمَا بَعْدَهَا:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (الرَّحْمَنُ ٩)

﴿وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الْمَائِدَةُ ٩٣ مَعْنَى)،

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
(الْأَنْعَامُ ٣-٢)،

فَيَقُومُ مِنَ الْجَمِيعِ مَسِيرٌ جَدِيدٌ تَحْمِلُهُ الْقِيَمُ كَمَا تَحْمِلُ الْأَنْهَارُ سَفِينَةً
تَعْرِفُ مَرَافِقَهَا وَلَا تَضِلُّ.

الفصل الثالث: نُورُ التَّقْوَى وَعُمَرَانُ الْأَرْضِ

• المَوَازِينُ:

○ التَّعَارُفُ وَالْعُمَرَانُ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: 13) و ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ

فِيهَا﴾ (هود: 61).

○ التَّقْوَى وَالْعُبُودِيَّةُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:

13).

• الشَّخْصِيَّاتُ الْمُحَوَّلَةُ: تُنَاقَشُ رُفِيقَةُ الْفَقِيهَةِ وَسَلَمَى الْأُصُولِيَّةِ سُبُلَ

التَّعَاوُنِ بَيْنَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ. يُوضَّحُ الْإِمَامُ أَنَّ الْعِمْرَانَ الْحَقَّ لَا

يَكُونُ إِلَّا بِالتَّوَاصُلِ الْقَائِمِ عَلَى التَّقْوَى. يَنْظُرُ حَبِيبُ الدُّنْيَا إِلَى الْعِلَاقَاتِ

بِنَاءً عَلَى النِّفْعِ فَقَطْ، فَيُبَيِّنُ لَهُ تَمَامَ السَّالِكِ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الْمِيزَانُ

الْأَصْحَحُ لِلْعِلَاقَاتِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّعَارُفِ وَالْعُمَرَانِ

كَانَ الصَّبَاحُ يَتَفَتَّحُ عَلَى الْوَادِي فَتَنَحَسَّرُ عَنْهُ سُدُولُ اللَّيْلِ هَوِيًّا، وَتَلُوحُ ذُرَى الْجِبَالِ كَأَنَّهَا أَكْفٌ مَمْدُودَةٌ لِلدُّعَاءِ. وَفِي الْمَسْجِدِ الْعَتِيقِ الَّذِي يَقْعُدُ عَلَى رُكْبَتَيْ بَطْحَاءِ الْقَرْيَةِ كَجَدِّ مُهَابٍ، انْعَقَدَتِ الْحَلَقَةُ عَلَى سَجَادَةٍ مُسْتَعْمَلَةٍ تَحْمِلُ رَائِحَةَ الزَّمَنِ وَأَصْوَاتَ مَنْ مَرُّوا قَبْلَنَا. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِبُرُوقٍ مِنْ بَصِيرَةٍ، وَحَوْلَهُ وَجْهُ أَلْفِ السَّمَاعِ وَتَعَلَّمَتْ كَيْفَ تَلْتَقِطُ مِنَ الْكَلِمَةِ سُورَةَ أَلْمَعْنَى. وَفِي الْطَّرَفِ الْقَرِيبِ تَجْلِسُ رُقِيَّةُ الْفَقِيهَةِ وَمَحْبَرَتُهَا تُلْمَعُ كَعَيْنِ طَيْرٍ سَاهِرٍ، وَإِلَى جَانِبِهَا سَلَمَى الْأُصُولِيَّةُ قَدْ بَسَطَتْ دَفْطَرًا وَسَطَّرَتْ فِيهِ مَسَائِلَ وَفُرُوعًا كَأَنَّهَا شَجَرٌ يَتَفَرَّغُ. وَثُمَّ جَابِرُ الَّذِي لَا يَفْتُرُ قَلَمُهُ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَنْحَتُ الْحُجَجَ كَمَا يُنْحَتُ الْحَجَرُ، وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يُحَرِّكُ شُبْحَتَهُ وَيَرْمُقُ الْبَابَ كَأَنَّ تِجَارَةً تُنَادِيهِ مِنْ خَارِجِ الْمَسْجِدِ.

أَطَالَ الْإِمَامُ نَفْسَهُ ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَنْسَابُ كَالْمَاءِ فِي مَجْرَى مُمَهَّدٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِیُبَيِّنَ لَهُمْ بِمِيزَانِ التَّعَارُفِ قَبْلَ مِيزَانِ التَّفَاخُرِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي قَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: 13)،

وَأَنْزَلَ فِي سِفْرِ الْعُمَرَانِ:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61).

هَاهُوَ الْيَوْمَ نَضْعُ الْآيَتَيْنِ عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ لِنَرَى كَيْفَ تَقُومُ الْأَرْضُ بِقُلُوبٍ تَتَعَارَفُ قَبْلَ أَنْ تَتَجَاوَرَ الْحِجَارَةُ فِي جِدَارٍ وَاحِدٍ.

أَرْتَسَمَ صَمْتُ جَمِيلٍ كَأَنَّهُ عِقْدٌ مِنْ إِنْصَاتٍ، ثُمَّ رَفَعَتْ «رُقِيَّةٌ» يَدَهَا وَقَالَتْ: «يَا سَيِّدِي، كَيْفَ نَضْعُ لِلتَّعَارُفِ قَاعِدَةً تَصْلُحُ لِقُرَيْبِنَا وَجَوَارِنَا، وَقَدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ خِلَافَاتٌ فِي الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَالطَّرِيقِ أَفِي الْأَصْلِ عِلَّةٌ تَفْسِدُ، أَمْ فِي الْفُرُوعِ حَيْثُ الْأَهْوَاءُ تَتَشَابَهُ» فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «الْخِلَافُ إِذَا خَرَجَ مِنْ رَحِمِ الْجَهْلِ كَبُرَ وَأَشْتَدَّ، وَإِذَا وُلِدَ مِنْ رَحِمِ الْمَعْرِفَةِ صَارَ طِفْلاً لَطِيفاً يُرَبَّى بِالرَّفْقِ. أَمَّا عِلَّةُ الْأَصْلِ فَهِيَ ظَنٌّ يُصَوِّرُ لِكُلِّ طَرَفٍ أَنَّ نَفْسَهُ هِيَ الْكُلُّ، فَإِذَا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَى الْأُصُولِ الْمُشْتَرَكَةِ سَقَطَ التَّوَهُّمُ، وَإِذَا سَقَطَ التَّوَهُّمُ سَهَّلَ حُلُّ الْفُرُوعِ».

وَقَدْ مَالَتْ سَلْمَى إِلَى الْأَمَامِ تَسْتَأْذِنُ الْقَوْلَ: «إِنِّي أَرَى أَنَّ التَّعَارُفَ يَبْدَأُ بِالْكَلِمَةِ الْعَادِلَةِ قَبْلَ الْعَقْدِ وَالصَّفَقَةِ، أَيُصْلِحُ أَنْ نَضْعَ لِقُرَيْبِنَا دِيَوَانًا يُسَجَّلُ فِيهِ الْأَنْسَابُ وَالْجُرُفُ وَالْحَقُوقُ وَالْمَرَافِقُ وَالْمَوَاسِمُ، لِنَعْرِفَ أَنْفُسَنَا وَيَعْرِفَنَا

الْجِيرَانُ» فَقَالَ الْإِمَامُ وَفِي صَوْتِهِ بَشَارَةٌ: «ذَاكَ هُوَ الْمِيزَانُ الْأَوَّلُ لِلْعُمَرَانِ، أَلَا تَكُونُ الْأَرْضُ عُمِيَاءَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَا تَكُونُ الْقُلُوبُ غَرِيبَةً عَنِ الْأَرْضِ. لِنَسْمِهِ دِيْوَانُ التَّعَارُفِ.»

خَرَجَ الْقَوْمُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَنُورُ الصَّبَاحِ يَتَسَّعُ كَأَنَّهُ كِسَاءٌ يُفَرِّشُ لِضُيُوفِ قَادِمِينَ. وَفِي السَّاحَةِ الْأَوْسَطَى احْتَشَدَ النَّاسُ، فَنُصِبَتْ طَاوِلَةٌ طَوِيلَةٌ مِنْ نَخْلِ قَدِيمٍ وَوُضِعَ عَلَيْهَا صُحُفٌ وَقَنَادِيلُ حَبِرٍ، وَعُلِّقَ عَلَى جِدَارٍ قَرِيبٍ لَوْحٌ خَشَبِيٌّ كُتِبَ عَلَيْهِ: «دِيْوَانُ التَّعَارُفِ». أَمَّا جَابِرٌ فَقَدْ تَوَلَّى الْكِتَابَةَ، وَسَلَّمَى تَرَاجُعَ الْأَلْفَاظِ لِتَكُونَ مُنْصَفَةً لَا تُسْقِطُ حَقًّا وَلَا تُدْخِلُ ظُلْمًا، وَ«رُفِيَّةٌ» تَسْأَلُ الْقَوْمَ عَنْ مَذَاحِلِ الْخِلَافِ لِتَقْفِلَهَا الْعِبَارَةُ قَبْلَ أَنْ يَقْفِلَهَا الْقَاضِي.

وَقَبْلَ الظُّهْرِ بَقِيلٍ تَقَدَّمَتْ وَفُودٌ مِنْ قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ اشْتَهَرَ أَهْلُهَا بِالرَّعْيِ وَتَرْبِيَةِ الْخَيْلِ. كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَجْرَى يَتَفَرَّغُ عَنِ النَّهْرِ، فَإِذَا قَلَّ الْمَطَرُ احْتَدَمَ الْخِلَافُ عَلَى قَدَرِ السَّحْبِ. تَقَدَّمَ الْإِمَامُ وَعَلَى وَجْهِهِ طِفْلٌ مِنْ بَشَاشَةٍ وَحِكْمَةٍ شَيْخٍ، وَقَالَ: «مَرَحَبًا بِمَنْ تَجَمَّعْنَا وَإِيَّاهُمْ الْأَرْضُ وَنَجْمُ الْقِبْلَةِ. نُرِيدُ الْيَوْمَ أَنْ نَقِيسَ الْمَاءَ بِقُلُوبِنَا قَبْلَ أَنْ نَقِيسَهُ بِالْأَدَوَاتِ، فَإِذَا رَضِيتِ الْقُلُوبُ سَهَلَتْ الْأَدَوَاتُ.» فَقَالَ شَيْخُ الْوَفْدِ وَفِي صَوْتِهِ صَفْحَةٌ صَحْرَاءَ: «جِئْنَاكُمْ نَطْلُبُ كَلِمَةً تَجْعَلُ الْوَجْهَ وَاحِدًا، فَإِنَّ الْخَيْلَ لَا تَسْقَى بِالْقَسْرِ، وَالزَّرْعُ لَا يَشْرَبُ بِالْغَضَبِ.»

جَلَسُوا جَمِيعًا حَوْلَ اللَّوْحِ، فَسَطَّرَ جَابِرٌ جُمْلَةً كَأَنَّهَا عَقْدُ صُلْحٍ فِي

صَدَرَ الرِّمَانُ: «يُقَسَّمُ الْمَجْرَى قِسْمَتَيْنِ عَلَى مَذَارِ الْأُسْبُوعِ، يَوْمَانِ لِلرَّعْيِ وَيَوْمَانِ لِلزَّرْعِ وَيَوْمٌ لِلتَّنْقِيَةِ وَيَوْمٌ لِلسَّقْيِ الْمَشْتَرَكِ وَيَوْمٌ لِلرَّاحَةِ لِأَنْفَاسِ النَّهْرِ. وَإِذَا أَمْسَكَ السَّمَاءُ الْقَطَرُ رَجَعْنَا إِلَى الْقِسْطِ فَتَقَسَّمْنَا بِحَاجَةِ الصَّبِيَةِ قَبْلَ الْأَنْعَامِ، وَبِذَلِكَ تَسَلَّمَ الْقَرِيَتَانِ.» لَمَّا فُرِثَتِ اللُّوْحَةُ أَنْفَرَجَتْ أُلُجُوهُ، وَسَجَّلَ كُلُّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ اسْمَهُ وَأَشْهَدَ.

وَفِي الْمَسَاءِ أُوقِدَتْ مَشَاعِلُ الْفَرْحِ عَلَى الْحِجْرِ الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ الْقَرِيَتَيْنِ، وَصُنِعَتْ سَرَادِقُ ضِيَافَةٍ سُمِّيَتْ «بَيْتَ التَّرْحَابِ». كُلُّ مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ تُقَدَّمُ لَهُ كَأْسُ مَاءٍ مِنَ الْمَجْرَى الْمَشْتَرَكِ كَأَنَّهَا بَيْعَةٌ قَلْبٍ لِقَلْبٍ. خَطَبَ الْإِمَامُ فِيهِمْ وَقَالَ: «لَا عُمرَانَ بِغَيْرِ تَعَارُفٍ، وَلَا تَعَارُفَ بِغَيْرِ أَمَانٍ، وَلَا أَمَانَ بِغَيْرِ عَدْلِ. مَنْ بَنَى حِجَارَةً وَخَرَبَ قَلْبًا فَقَدْ هَدَمَ، وَمَنْ عَمَرَ قَلْبًا وَلَمْ يَجِدْ حَجَرًا فَقَدْ بَدَأَ الْبِنَاءَ مِنْ مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ.»

وَبَيْنَمَا الْأَنْشِيدُ تَعْلُو وَالصَّبِيَةُ يَرْفُضُونَ حَوْلَ النَّارِ بِفَرْحِ بَرِيءٍ، قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا لِصَاحِبِ الْقِيَاسِ: «أَيْنَفَعُنَا كُلُّ هَذَا الْكَلَامِ إِذَا جَاءَ الْقَحْطُ إِنِّي أَرَى أَنَّ الْعُمُرَانَ مَعْقُودٌ بِيَدِ الْمَاءِ وَالْقُوَّةِ، لَا بِيَدِ الْكَلِمَاتِ.» فَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «الْكَلِمَةُ الْعَادِلَةُ سِقَايَةُ الْقُلُوبِ، فَإِذَا ارْتَوَتْ الْقُلُوبُ صَحَّ التَّقَاسُمُ وَالرَّعَايَةُ، وَسَارَ الْمَاءُ فِي جَدَائِلِهِ بِلا خِصَامٍ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُطِيلُ نَفْسَ الْعُمُرَانِ.»

حَلَّ الْغَدُ وَمَعَهُ خَبْرٌ سَيِّئٌ؛ سَدَّدَتْ سُيُولُ بَعِيدَةٍ مَخَارِجَ الْمَجْرَى فَأَرْتَفَعَ

الْمَاءُ فِي مَوْضِعٍ وَأَنْحَسَرَ فِي آخَرَ. أَهْتَاجَ النَّاسُ لَكِنَّ التَّعَارُفَ الَّذِي غُرِسَ أُمْسِ
أَنْتَمَرِ هَادِمًا لِلْهَيْجَانِ. اجْتَمَعَتِ الْقُرَيْتَانِ عَلَى الْجِسْرِ، وَقَالَ الْإِمَامُ: «سَنَقْسِمُ
الْعَمَلَ كَمَا قَسَمْنَا الْمَاءَ؛ أَهْلُ الرُّعْيِ يَنْزِلُونَ لِرَفْعِ الصُّخُورِ فِي الْمَخَارِجِ، وَزُرَّاعُ
الْقَمْحِ يَسِيرُونَ مَعَ الْمَجْرَى لِتَصْفِيَةِ الْوَحْلِ، وَالصَّيَّيَةُ يَحْمِلُونَ الْقُرْبَ لِمَنْ
يَعْمَلُ، وَالنِّسَاءُ يُعِدُّنَ الْخُبْزَ وَالْمَاءَ، وَنُصْبِحُ بَعْدَ الْعَصْرِ عَلَى وَعْدٍ مِنْ
الْجَرَيَانِ.» انْحَدَرَ الرِّجَالُ إِلَى الْمَجْرَى كَأَنَّهُمْ وَادٍ مُنْسَابٍ، وَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ
الْمَعَاوِلِ تَقْطَعُ صَمْتَ الصُّخُورِ، وَعِنْدَ الْغُرُوبِ سَمِعُوا أَوَّلَى زَغَارِيدِ الْمَاءِ وَهُوَ
يَعُودُ إِلَى سَرِيرِهِ.

فِي اللَّيْلِ ائْتَمَدَ «مَجْلِسُ الْبَيَانِ» فِي الْمَسْجِدِ؛ مَجْلِسٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ
الْجَوَارُ لِتَبَادُلِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ وَتَجَارِبٍ. تَكَلَّمَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْلِ عَنْ
«قِسْمَةِ الْمَرْعَى عَلَى الدَّوْرِ»، وَرَوَتْ سَلَمَى خُبْرَتَهَا فِي «نَقْيِيدِ الْحُقُوقِ» كَيْفَ
يَمْنَعُ الثَّقَّةَ مِنْ أَنْ تَتَبَدَّدَ، وَتَحَدَّثَتْ جَابِرٌ عَنْ «عُدُولِ الزَّرْعِ» بَيْنَ الْحُقُولِ لِكَسْرِ
الْمَرَضِ. كَانَ كُلُّ كَلَامٍ يَبْنِي حَجَرًا، وَكُلُّ حِكْمَةٍ تَرْفَعُ قَيْسَارَةً فِي حَائِطِ الثَّقَّةِ.

وَمَعَ الْأَيَّامِ أُقِيمَ «بَيْتُ اللَّقَاءِ»، وَهُوَ سَرَادِقٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْقُرَيْتَيْنِ، فِيهِ
مَوْضِعٌ لِمَنْ يَتَقَدَّمُ مِنْ بَعِيدٍ، وَرَكْنٌ لِتَعْلِيمِ الصَّبِيَّةِ لُغَةَ الْجِرَانِ، وَمِثْدَنَةٌ صَغِيرَةٌ
تُقَامُ فِيهَا الصَّلَاةُ إِذَا نَزَلَ الْمُسَافِرُونَ. وَقَدْ كَانَتْ «رُقِيَّةٌ» تَجْلِسُ مَعَ النِّسَاءِ تُسَطِّرُ
لَهُنَّ قِصَصَ التَّعَارُفِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي التَّارِيخِ، كَيْفَ تَعَاوَنَ جَارَانِ عَلَى رَفْعِ

ظَلَمَ، وَكَيْفَ بَنَى قَرِيَانِ جِسْرًا مِنْ ثِقَةٍ قَبْلَ أَنْ يُقِيمَا جِسْرًا مِنْ حَجَرٍ.

وَفِي يَوْمٍ مَطِيرٍ جَاءَ الْخَبْرُ بِأَنَّ قَافِلَةً ضَلَّتِ الطَّرِيقَ فِي الْفَقْرِ الْقَرِيبِ.
هُرِعَ الرِّجَالُ، وَانْطَلَقَتْ نِسَاءٌ بِالْقُرْصَانِ وَالْمَاءِ، وَتَحَرَّكَتِ الْخَيْلُ كَأَنَّهَا سِهَامُ
رَحْمَةٍ. لَمَّا رُدَّتِ الْقَافِلَةُ إِلَى الْوَادِي قَالَ رَئِيسُهَا وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى وَجْهِهِ الصَّبِيَّةَ:
«مَا كُنَّا لِنَسْلَمَ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ قَدْ تَعَارَفَتْ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاوَنَ.» فَقَالَ الْإِمَامُ:
«هَكَذَا يَصْنَعُ التَّعَارُفُ؛ يَجْعَلُ الْغَرِيبَ قَرِيبًا، وَيَجْعَلُ الْقَرِيبَ وَلِيًّا.»

تَغَيَّرَتْ مَعَالِمُ الْوَادِي مَعَ مَرِّ الْمَوَاسِمِ؛ سُوقٌ مُشْتَرَكٌ تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ
الْتَمَرِ وَالْقَهْوَةِ وَالْعِطْرِ، وَمَعْمَلٌ لِصَيَانَةِ الْأَدَوَاتِ تُدِيرُهُ أَيْدٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ، وَمَدْرَسَةٌ
صَغِيرَةٌ تَقْرَأُ فِيهَا الصَّبِيَّةُ: «التَّعَارُفُ جِسْرٌ، وَالْعَدْلُ قَاعِدَتُهُ، وَالرَّحْمَةُ قَبْتُهُ.» وَفِي
كُلِّ جُمُعَةٍ تَتَبَادَلُ الْقَرِيبَتَانِ الْخُطْبَةَ، فَيَخْطُبُ سَيِّدَنَا عِنْدَهُمْ، وَيَخْطُبُ شَيْخُهُمْ
عِنْدَنَا، فَيَتَذَوَّقُ النَّاسُ لَهْجَةَ الْآخَرِ كَمَا يَتَذَوَّقُونَ خُبْرَهُ.

وَمَا كَانَ لِهَذِهِ الصُّورِ أَنْ تَقُومَ لَوْلَا أَنَّ سَلْمَى وَرُقَيْيَةَ وَ«جَابِرًا» وَصَاحِبَ
الْقِيَاسِ وَحَبِيبَ الدُّنْيَا قَدْ تَعَلَّمُوا مَعًا كَيْفَ يُمَسْكُونُ بِطَرَفِي الْمِيزَانِ؛ طَرَفِ
الْكَلِمَةِ الْكَارِمَةِ وَطَرَفِ الْعَمَلِ الْمُتَقِنِ. كَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَذْهَبُ كُلَّ صَبَاحٍ إِلَى
«بَيْتِ التَّرْحَابِ» يَسْأَلُ عَنِ الزُّوَارِ، فَإِذَا وَجَدَ غَرِيبًا حَامِلًا بَضَائِعَ قَالَ لَهُ: «أَدْخُلْ
السُّوقَ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَهُنَا تَجِدُ الْمِيزَانَ قِسْطًا وَالْقُلُوبَ وُدًّا.» وَكَانَ جَابِرٌ يَسِيرُ
عَلَى الْمَجْرَى كُلِّ عَشِيَّةٍ يَكْتُبُ مِلْفَ السَّقْيِ، فَإِذَا زَادَ مَوْضِعٌ قَالَ: «هُنَا قَلْبٌ

قَوِيٌّ، فَاقْسِمُوا لَهُ مِنْ فَضْلِ الْمَاءِ»، وَإِذَا نَقَصَ آخَرُ قَالَ: «هُنَا قَلْبٌ يَحْتَاجُ، فَزِيدُوا لَهُ مِنْ نَصِيبِ الْمَشْتَرِكِ.»

وَفِي مَوْعِدِ مَشْهُودٍ دَعَا الْإِمَامُ إِلَى «يَوْمِ الْعُمْرَانِ»، يَوْمٍ تُقْرَأُ فِيهِ الْآيَاتُ وَتُشْرَحُ فِيهَا الْحُكْمُ وَتُوضَعُ فِيهِ أَحْجَارٌ فِي مَوَاضِعِهَا. افْتَتَحَ الْحَدَّثَ بِقِرَاءَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ثُمَّ قَالَ: «لَا يَصْلُحُ أَنْ نَبْنِيَ جِسْرًا يَعْبُرُهُ الْمَاءُ وَنَنْسَى جِسْرًا يَعْبُرُهُ الْقَلْبُ. ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَضَعَ لِلْحَجَرِ قَلْبًا، وَلِلْقَلْبِ حَجْرًا.» ثُمَّ تَقَدَّمَتْ سَلَمَى فَحَكَتْ كَيْفَ أَنَّهَا إِذَا دَخَلَتْ بَيْتًا مِنْ قَرْيَةِ الْحِجْرَانِ لَا تَبْدَأُ بِالْكَلَامِ عَمَّا يُخَالِفُ، وَلَكِنْ تُسَلِّمُ عَلَى الْمَشْتَرِكِ الَّذِي يَجْمَعُ، ثُمَّ تَتَدَرَّجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْإِخْتِلَافِ كَمَنْ يَسِيرُ فِي بُسْتَانٍ يَجْمَعُ الْأَلْوَانَ وَلَا يُؤْذِي زَهْرَةً.

وَقَامَتْ «رُقَيْةٌ» فَأَمْسَكَتْ بِالْمِيزَانِ الَّذِي كَانَ يُسْتَعْمَلُ فِي الشُّوقِ، وَقَالَتْ: «هَذَا الْمِيزَانُ إِذَا اعْتَدَلَ فِي الْبَيْعِ، مِنْ حَقِّهَا عَلَيْنَا أَنْ نُعْتَدِلَ بِمِثْلِهِ فِي الْكَلِمَةِ وَالظَّنِّ وَالْحُكْمِ. مَنْ خَفَّفَ كِفَّةَ جَارِهِ فِي الظَّنِّ رَجَحَتْ كِفَّتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ.» فَتَهَامَسَ الْقَوْمُ بِأَمِينٍ. وَقَامَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ فَضْرَبَ مَثَلًا: «إِذَا دَخَلَ غَرِيبٌ بَيْتَكُمْ فَقَدِّمُوا لَهُ كَأْسًا مِنْ مَاءِ الْمَجْرَى، فَإِنَّ مَنْ شَرِبَ مَاءَكُمْ صَارَ لَهُ فِيكُمْ نَسَبٌ مِنَ الرُّوحِ.»

وَشَهِدَ الْيَوْمَ خَاتِمَةً تُشَبِّهُ بِدَاءَتِهِ؛ صَعِدَ الْإِمَامُ عَلَى دَرَجَةِ الْمِحْرَابِ

وَقَالَ وَالسُّكُونُ يَسْمَعُ: «يَا أَهْلَ الْوَادِي، يَا مَنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْحَجَرَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا إِذَا تَكَلَّمَتِ الْقُلُوبُ، أَعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لَا تُعْمَرُ إِلَّا بِقُلُوبٍ مُحِبَّةٍ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَتَأَلَّفُ إِلَّا بِالتَّعَارُفِ. مَنْ جَعَلَ التَّعَارُفَ مِيزَانًا فَسَمَ لِكُلِّ جَارٍ نَصِيبًا مِنْ كَلِمَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَفْسِمَ لَهُ مِنْ مَائِهِ، وَمَنْ جَعَلَ الْعُمَرَانَ غَايَةً سَمِعَ لِلْحَجَرِ أَنْيْنَ الْمَظْلُومِ فَلَا يَنْبِي عَلَيْهِ، وَرَأَى فِي الْمَاءِ وَجُوهًا فَلَا يَقْطَعُ عَنْهَا. هَذَا هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي نَقِيمُهُ بَيْنَنَا: أَنْ نَعْرِفَ فَنُحِبَّ، وَأَنْ نُحِبَّ فَنَبْنِي.»

خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْقَمَرُ يَرْفَعُ كَفَّهُ فِي السَّمَاءِ كَمِيزَانٍ مُعَلَّقٍ، وَكَانَ صَوْتُ الْمَجْرَى يَنْشُدُ أَنْشُودَتَهُ الْمَعْهُودَةَ. تَمْشَى حَبِيبُ الدُّنْيَا إِلَى جَانِبِ «رُقِيَّةَ» وَقَالَ: «كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعُمَرَانَ لَكُنَّةُ الْحِجَارَةِ، فَإِذَا هُوَ نَبْضُ الْقُلُوبِ. وَكُنْتُ أَحْسِبُ التَّعَارُفَ سَلَامًا عَلَى الْأَسْوَاقِ، فَإِذَا هُوَ عَهْدٌ فِي الصُّدُورِ.» فَقَالَتْ: «وَمَنْ جَعَلَ الْعَهْدَ فِي صَدْرِهِ لَمْ يَخُنْهُ الْحَجَرُ وَلَا الزَّمَنُ.»

وَمَضَتْ الْأَيَّامُ عَلَى النِّظَامِ الْمَشْتَرَكِ كَأَنَّهَا أَقْدَاحٌ تَتَعَاقَبُ عَلَى يَدَيِ سَاقٍ رَفِيقٍ، فَلَا يَعْطَشُ أَحَدٌ وَلَا يُسْرِفُ فِي الشُّرْبِ. وَكُلَّمَا زَارَ الْوَادِي ضَيْفٌ مِنْ قَرْيَةٍ أَبْعَدَ سَمِعَ قِصَّتَنَا فَقَالَ: «إِنَّكُمْ بَنَيْتُمْ جِسْرًا لَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْمَاءُ وَحَسْبُ، بَلْ تَعْبُرُهُ الرَّحْمَةُ وَتَعْرُجُ عَلَيْهِ الْقِيَمُ.» وَإِذَا سُئِلَ الْإِمَامُ عَنِ السَّرِّ قَالَ: «الْأَيَّتَانِ إِذَا اجْتَمَعَتَا انْفَتَحَ الْقَلْبُ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فَتُصْلِحُ الْعِلَاقَاتُ، وَ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ فَيَسِيرُ الْعَمَلُ عَلَى الْقَدَرِ وَالْإِتْقَانِ. فَإِذَا تَعَارَفَ النَّاسُ بَنَوْا، وَإِذَا بَنَوْا

أَحْبُوا، وَإِذَا أَحْبَبُوا دَامَ الْبِنَاءُ.»

وَهَكَذَا أَصْبَحَ مِيزَانُ التَّعَارُفِ وَالْعُمَرَانِ مُحِبًّا لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ تُصْلِحُ الْكَلِمَةُ مَا تُفْسِدُهُ الْقَسْوَةُ، وَكَيْفَ يَصِيرُ الْجَارُ مِفْتَاحَ بَابِكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ حَارِسًا عَلَيْهِ، وَكَيْفَ تُصْبِحَ الْحِجَارَةُ نَاطِقَةً إِذَا حَمَلَتْهَا قُلُوبٌ تَعْرِفُ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ فِي الْإِنْسَانِ. وَكَانَ خِتَامُ الدَّرْسِ كَلِمَةُ الْإِمَامِ وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى رُؤُوسِ الصَّبِيَّةِ: «الْأَرْضُ لَا تُعَمَّرُ إِلَّا بِالْقُلُوبِ الْمُحِبَّةِ، وَالْقُلُوبُ لَا تَتَأَلَّفُ إِلَّا بِالتَّعَارُفِ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ جِدَارًا قَوِيًّا فَالْتَمِسُوا قَلْبًا بَنَاهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ قَلْبًا مُنِيرًا فَاعْلَمُوا أَنَّ بَيْتًا سَيُنْشَأُ عَلَى ضَوْئِهِ.»

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ

كَانَ الصُّبْحُ يَنْفُضُ عَنْ جَنَاحَيْهِ بَقَايَا اللَّيْلِ، وَالرَّيْحُ تُمْشِطُ سَعَفَ النَّخْلِ عَلَى حَافَةِ الْوَادِي، وَالطُّيُورُ تَرْفَعُ أَذَانَهَا قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهُ الْمُؤَذِّنُ. دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْعَتِيقَ وَقَدْ أَنْسَابَ مِنْ سُقُوفِهِ نَوْرٌ خَجُولٌ يَغْسِلُ الْحِصَى، وَالْقُلُوبُ تَتَهَيَّأُ لِكَلِمَةِ تَهْدِي وَقِسْطَاسٍ يُقِيمُ مَا أَعْوَجَّ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الصَّدْرِ، وَحَوْلَهُ «تَمَامُ السَّالِكِ» وَجَابِرٌ وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَ«رُقِيَّةٌ» وَسَلَمَى، وَفِي الطَّرَفِ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَقْلُبُ خَرَائِطَ رِبْحِهِ وَيَنْظُرُ إِلَى أَلْبَابٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْظُرُ إِلَى الْمِحْرَابِ.

تَنْفَسَ الْإِمَامُ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَسِيلُ كَالْمَاءِ عَلَى صَخْرَةِ الْقُلُوبِ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
(الحجرات: 13).

ثُمَّ أَطْرَقَ قَلِيلًا وَقَالَ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ تَضَعُ الْمِقْدَارَ فِي مَوْضِعِهِ، فَمَا الْكَرَامَةُ بِمَالٍ وَلَا نَسَبٍ وَلَا سِيَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا بِمِيزَانٍ يُقَامُ فِي الصُّدُورِ قَبْلَ

الْأَسْوَاقِ، يُسَمَّى التَّقْوَى. وَالتَّقْوَى لَيْسَتْ لَفْظًا يُتَلَّى، بَلْ حَالًا تُرَاقَبُ وَمَنْهَجًا يُسَلِّكُ وَمِيزَانًا يَزِنُ كُلَّ خَطْوَةٍ وَنَظَرَةٍ وَكَلِمَةٍ.»

رَفَعَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَدَهُ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُفَاوِضَ قَاعِدَةَ الْقِيمِ كَمَا يُفَاوِضُ ثَمَنَ سِلْعَةٍ، وَقَالَ وَفِي نَبَرَتِهِ حَذَقُ التَّاجِرِ: «إِنْ كَانَتْ الْقِيَمَةُ بِالتَّقْوَى فَأَيْنَ مَوْضِعُ الْمَنْفَعَةِ نَحْنُ بَنِي الْعَلَقَاتِ عَلَى الرَّبْحِ، فَمَنْ نَفَعْنَا فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا، وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْنَا فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَنَا مَقَامٌ. هَلْ تَضْمَنُ لِي التَّقْوَى سُوقًا رَائِجًا وَمَالًا مُتَكَثِّرًا؟» فَالْتَفَتَ «تَمَامُ السَّالِكُ» إِلَيْهِ وَعَيْنَاهُ تُشْعَانِ بِسَكِينَةٍ تَفْدَحُ الْفِكْرَ: «يَا أَخَانَا، الْمَنْفَعَةُ الَّتِي تُقِيمُ عَلَيْهَا الْعَلَقَاتِ كَظُلٍّ يَتَحَوَّلُ مَعَ الشَّمْسِ، فَإِذَا زَالَ سَقَطَتِ الصُّحْبَةُ. أَمَّا الْعَلَاقَةُ الَّتِي تُبْنَى عَلَى التَّقْوَى فَهِيَ كَجِبَالٍ لَا تُزْحِرُهَا رِيحُ الرِّيَّاحِ، لِأَنَّهَا تُرْضِي اللَّهَ قَبْلَ أَنْ تُرْضِيَ الْإِنْفُسَ، وَتَطْلُبُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.»

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَلْمَسُ قَلْبَ الْكَلَامِ بِلَفْظٍ لَيْنٍ: «التَّقْوَى هِيَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَحْمِي التَّعَارُفَ مِنَ الْأَغْرَاضِ، وَتَجْعَلُ الْعُمُرَانَ عِبَادَةً لَا صَنْعَةً مَجْرَدَةً. مَنْ عَمَرَ الْأَرْضَ وَقَصَدَ وَجْهَ اللَّهِ فَقَدْ عَبْدَ، وَمَنْ عَمَرَهَا لِنَفْعِهِ الْعَاجِلِ وَأَغْفَلَ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ فَقَدْ غَرَسَ فِي تُرَابٍ يَبِسٍ، يَظْهَرُ زَهْرُهُ سَاعَةً ثُمَّ يَهْوِي.»

تَقَدَّمَ جَابِرٌ بِدِفْتَرِهِ، وَفِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى سُؤَالٌ كَتَبَهُ قَبْلَ الْفَجْرِ: «كَيْفَ أَرِنُ نَفْسِي بِمِيزَانِ التَّقْوَى؟» فَقَالَ الْإِمَامُ: «انْظُرْ إِلَى قَلْبِكَ عِنْدَ الْخَفَاءِ، فَإِنْ وَجَدْتَهُ

يَرْقُبُ اللَّهُ كَمَا يَرْقُبُهُ عِنْدَ الظُّهُورِ فَتِلْكَ عَلَامَةٌ. وَزِنَ لِسَانَكَ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، فَإِنْ حَفِظْتُهُ عَنِ الْبُهْتَانِ فَتِلْكَ عَلَامَةٌ. وَانْظُرْ إِلَى يَدَيْكَ عِنْدَ الصِّقِّ، فَإِنْ عَدَلْتَ فِي الْأَوْزَنِ وَالْكَيْلِ فَتِلْكَ عَلَامَةٌ. وَأَسْأَلُ عَمَلَكَ: لِمَنْ فَإِنْ قَالَ لِلَّهِ وَوَافَقَهُ الْخَيْرُ فَتِلْكَ عَلَامَةٌ.»

وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ الدَّرَسَ عَلَى الْمَحَكِّ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ يَسْتَعِيثُ: «الْبِئْرُ الَّتِي تَسْقِي الْأَوْدِي قَدْ نَزَلَ مَاؤُهَا وَتَخَاصَمَ النَّاسُ فِي الدَّوْرِ، وَكُلُّ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَحَقُّ.» نَهَضَ الْقَوْمُ كَانَهُمْ خِيْطٌ وَاحِدٌ، وَسَارُوا إِلَى الْبِئْرِ وَالشَّمْسُ تَصْعَدُ عَلَى جَبِينِ الصَّخْرِ. نَظَرَ حَبِيبُ الدُّنْيَا إِلَى الطَّابُورِ فَقَالَ لِبَعْضِ رِجَالِهِ خُفِيَّةٌ: «إِنْ أَشْتَرَيْنَا الدَّوْرَ بِدُونِ صَخَبٍ سَقَيْنَا مَزْرَعَتَنَا قَبْلَ الْغُرُوبِ.» فَلَمَّا هَمُّوا بِذَلِكَ أَحْسَوْا يَدًا تَمْسُهُمْ بِرَفْقٍ، إِذْ هُوَ «تَمَامُ السَّالِكُ» يَقُولُ وَحَبِيبُهُ يُشِيعُ بِالْمُرَاقَبَةِ: «الْمَاءُ مِلْكُ اللَّهِ، وَقِسْمَتُهُ أَمَانَةٌ، وَالْتَفَوُّي تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْخُذَ مَا لَا يُقَسِّمُهُ الْحَقُّ. إِنْ شَرِبْتُمْ الْيَوْمَ ظُلْمًا شَرِبْتُمْ غَدًا غُصَّةً.»

وَقَفَ الْإِمَامُ عَلَى حَافَةِ الْبِئْرِ وَقَالَ: «مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَحَقُّ فَلْيَأْتِ بِحُجَّةٍ، فَالْحُجَّةُ تَكْشِفُ الْهَوَى. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَلنَرْجِعْ إِلَى الْمِيزَانِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ: الضَّعِيفُ قَبْلَ الْقَوِيِّ، وَحَقُّ الْعِيَالِ قَبْلَ فَضْلِ الْمُوسِرِ.» ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «اكْتُبْ مِثَاقًا لِلدَّوْرِ يَبْدَأُ بِحُقُوقِ الرُّضْعِ وَالْمَرْضَى وَزَمَرِ الشُّيُوخِ، ثُمَّ يَقْسِمُ الْفَضْلُ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ.» فَتَحَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ وَخَطَّ سَطُورًا قَصِيرَةً كَأَنَّهَا عُرُوقُ مَاءٍ تَجْرِي

بِالْعَدْلِ فِي جَسَدِ الْوَادِي.

لَمَّا مَالَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْعَرْبِ أَنْفَضَ النَّاسُ فِي الْوُجُوهِ طُمَأْنِينَةً نَبَتَتْ مِنْ ظِلِّ التَّقْوَى. وَفِي اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ يَسْبَحُ فِي فَلَكِهِ كَثُوبٌ يَبْضَاوِيٌّ مُعَلَّقٍ عَلَى سَاعَةِ الْخَلْقِ، أَخَذَ الْإِمَامُ بِيَدِ حَبِيبِ الدُّنْيَا إِلَى حَافَةِ الصَّحْرَاءِ. قَالَ لَهُ: «أَتَعْرِفُ لِمَذَا لَا تَصْطَلِدُمُ الشَّمْسُ بِالْقَمَرِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَبْدٌ فِي مَسَلِكِهِ، يَطُوفُ حَيْثُ أَمَرَهُ مَوْلَاهُ، وَيَقِفُ حَيْثُ حَدَّ لَهُ الْقَدَرُ. هَكَذَا أَلْقَلْبُ إِذَا عَرَفَ مَوْلَاهُ وَقَامَ عَلَى مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ، سَارَ فِي فَلَكَ التَّقْوَى، لَا يَجُورُ وَلَا يَطْغَى. أَمَّا إِذَا تَحَكَّمَ فِيهِ أَلْهَوَى خَرَجَ مِنْ فَلَكِهِ فَاصْطَلَمَ بِالْخَلْقِ وَأَفْسَدَ الْمِيزَانَ.»

سَكَتَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَنَفْسُهُ يَغْلُو وَيَهْبِطُ كَمَنْ يَسْمَعُ نَبْضًا جَدِيدًا فِي صَدْرِهِ. قَالَ: «إِذَا فَالْمَالُ خَادِمٌ، وَإِذَا صَارَ سَيِّدًا أَهْلَكَ الْقَلْبَ وَالسُّوقَ.» فَأَبْتَسَمَ الْإِمَامُ: «قَدْ قُلْتَ كَلِمَةَ الْفَضْلِ. التَّقْوَى تُعَلِّمُكَ أَنْ تُسَخِّرَ النِّعَمَ لِبَاعَةِ اللَّهِ، لَا أَنْ تُسْتَرْفِكَ النِّعَمَ.»

فِي الصَّبَاحِ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فِي «بَيْتِ الْلِقَاءِ»، وَقَدْ كَانَ «تَمَامُ السَّالِكِ» قَدْ أَعَدَّ دَفْتَرًا سَمَّاهُ «حِسَابُ الْقُلُوبِ». قَالَ: «لِكُلِّ تَاجِرٍ دَفْتَرُهُ يَعُدُّ فِيهِ الرَّبْحَ وَالْخَسَارَةَ، وَحَرِيٌّ بِكُلِّ عَابِدٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ دَفْتَرٌ يَعُدُّ فِيهِ نِيَّاتِهِ وَالْأَعْمَالُ الْخَفِيَّةَ. اكْتُبُوا هَذَا الْيَوْمَ ثَلَاثَ سَطُورٍ: لِمَنْ عَمِلْتُ، وَمَاذَا أَخَذْتُ، وَمَاذَا أُعْطِيتُ» جَلَسَ النَّاسُ كَانْتَهُمْ فِي مَجْلِسِ حِسَابِ يَوْمِيٍّ، يَنْظُرُ كُلُّ إِلَى بَاطِنِهِ نَظْرَتَهُ إِلَى

كَيْسِ نَقْدِهِ، وَتَسْقِطُ فِي الصُّدُورِ أَوْرَاقُ الْخَجَلِ كَأَوْرَاقِ الشَّجَرِ فِي مَوْسِمٍ بَارِدٍ. قَالَتْ «رُقِيَّةٌ»: «وَاللَّهِ إِنَّمَا يُصْلِحُ التَّعَارُفَ هَذَا الْمِيزَانُ الْخَفِيُّ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُنَا أَنْ نَسْتَخْدِمَ الْكَلِمَةَ لِعَرَضٍ وَنَدَّعِي الْوُدَّ وَنُخْفِيَ الطَّمَعَ».

وَقَبْلَ الظُّهْرِ دَخَلَ الشُّوقَ فَتَى يُرِيدُ بَيْعَ طَحِينٍ، فَرَأَاهُ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدَّ مَالَتْ كِفَّةُ مِيزَانِهِ إِلَى زُبُونٍ مُعَيَّنٍ لِمَعْرِفَةِ بَيْنَهُمَا. تَقَدَّمَ وَقَالَ: «أَعْدِلْ يَا غُلَامُ، فَإِنَّ الْمِيزَانَ أَمَانَةٌ، وَالْقَلْبَ إِذَا خَانَ فِي حَبَّةِ قَمْحٍ خَانَ فِي صَفْقَةِ عُمَرِ». هَزَّ الْغُلَامُ رَأْسَهُ وَأَعَادَ الْوِزْنَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى حَبِيبِ الدُّنْيَا نَظْرَةً مَنْ تَعَلَّمَ دَرْسًا مِنْ رَجُلٍ كَانَ يَرَاهُ أَسْتَاذًا فِي الرِّبْحِ فَإِذَا هُوَ أَلْيَوْمَ أَسْتَاذٌ فِي التَّقْوَى.

وَقَدْ جَاءَتْ غَيْمَةٌ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ تَسُوقُهَا الْحِكْمَةُ، إِذْ وَقَعَ خَبْرُ ضَيْفِ ثَرِيٍّ يَطْلُبُ أَنْ يَسْتَأْجِرَ «بَيْتَ التَّرْحَابِ» خَاصًّا لِأَهْلِهِ، عَلَى أَنْ يُسَدِّدَ أَجْرًا مُضَاعَفًا وَيُعْلِقَ الْأَبَابَ فِي وَجْهِ الْمُسَافِرِينَ الْبُسْطَاءِ لِيَلْتَمِسْنَ. تَحَرَّكَ فِي حَبِيبِ الدُّنْيَا تَاجِرٌ قَدِيمٌ يَقُولُ: «سُوقٌ سَاحِحَةٌ لَا تُرَدُّ». وَنَظَرَ «تَمَامُ السَّالِكُ» نَظْرَةً مَنْ يَرَى الْإِخْتِبَارَ وَرَاءَ الْعَرَضِ. اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَا رَأَيْكُمْ؟» قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «نَأْخُذُ الْأَجْرَ، فَفِي ذَلِكَ مَنَفَعَةٌ لِلْبَيْتِ». فَقَالَ «تَمَامُ»: «وَفِي ذَلِكَ قَطْعٌ لِدَابَّةِ التَّقْوَى، فَإِنَّ هَذَا الْبَيْتَ أُسِّسَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَلْجَأً لِمَنْ لَا مَلْجَأَ لَهُ. إِنْ أَسْتَوَحَدَهُ الْأَمَالُ فَقَدْ نَسِيَ مَوْلَاهُ». تَنَاهَدَ حَبِيبُ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ: «أَرَى أَنْ تَرِكَ الْعَرَضَ هُوَ الرِّبْحُ هُنَا، لِأَنَّهُ يُثَبِّتُ لَنَا الْمَعْنَى الَّذِي قُمْنَا لِأَجْلِهِ». فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ:

«هَكَذَا تُصْلِحُ اتَّقَوَى نِيَّةَ التَّاجِرِ، فَيَصِيرُ رِبْحُهُ فِي رِضَا اللَّهِ وَثِقَةِ النَّاسِ وَلَا يَنْقَطِعُ.»

وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ دَخَلَتْ سَلَمَى بِفَتَاةٍ صَغِيرَةٍ وَأُمُّهَا، قَالَتْ: «هَتَانِ جَاءَتَا مِنْ قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ وَقَدْ تَعَبَتْ رَجُلَا الْفَتَاةِ، فَاطْلُبُوا لَهَا مَعُونَةً.» نَهَضَ حَبِيبٌ الدُّنْيَا أَوَّلَ النَّاهِضِينَ وَقَالَ: «عَلَيَّ نَفَقَتُهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَدَوَاؤُهَا غَدًا.» فَنَظَرَ «تَمَامٌ» إِلَيْهِ وَفِي النَّظَرَةِ بَرَقَةُ بُشْرَى: «مَنْ خَدَمَ خَلَقَ اللَّهُ خَدَمَ اللَّهِ.» تَمَالَكَ حَبِيبٌ الدُّنْيَا دَمَعَتُهُ وَقَالَ: «كَانَتْ الْمَنْفَعَةُ تُدِيرُنِي، فَإِذَا الْيَوْمَ تَدَوَّرُ قَلْبِي كَلِمَةُ أَقْوَى: أَتَقِي رَبِّي فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ.»

وَفِي مَسَاءٍ آخَرَ اسْتَحْضَرَ «الْإِمَامُ» قِصَّةً لِيَجْعَلَهَا سُلَّمًا إِلَى الْمَعْنَى، فَقَالَ: «مَرَّ رَاعٍ عَلَى مَدِينَةٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَعِنْدَهُ قِطْرَاتُ لَبَنٍ. قَالَ لِبَنِيهِ: امْزُجِي اللَّبَنَ بِالْمَاءِ لِنَزِيدَ الْكَيْلِ. فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ، أَيْرَانَا أَلْوَالِي قَالَ: لَا. قَالَتْ: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرَانَا. فَأَرْتَعَدَ قَلْبُهُ وَكَسَرَ الْإِنَاءَ عَلَى الْأَرْضِ. هَكَذَا تَصْنَعُ اتَّقَوَى فِي الْخَفَاءِ، تُقِيمُ الْفُسْطَ لَوْحَةً فِي الصَّدْرِ لَا تَنْكَسِرُ.»

قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَجْمَعُ الْحُجَجَ كَمَا تُجْمَعُ الْحَبَّاتُ فِي سِلَّةٍ: «إِذَا كَانَ مِيزَانُ اتَّقَوَى هُوَ الْقَاعِدَةُ، فَالْعُبُودِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّتِي تُحَرِّكُهَا. فَالْعَبْدُ يَرَى نَفْسَهُ مُلْتَمِّمًا بِأَمْرِ مَوْلَاهُ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ، فَلَا يَبْخَسُ وَلَا يَبْطِشُ وَلَا يَرِيدُ عَلَى قَدْرِهِ.» فَاجَابَ الْإِمَامُ: «صَدَقْتَ، وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ لِمَاذَا كَانَ اتَّقَانُ الْعَمَلِ عِبَادَةً،

وَلَمَّاذَا كَانَ الْغَشُّ هَذِمًا لَبِنَتِ الْقَلْبِ. مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي السِّرِّ أَعْطَاهُ اللَّهُ نُورًا فِي الْعَلَانِيَةِ، وَمَنْ نَسِيَ الْمُرَاقَبَةَ قَادَهُ هَوَاهُ إِلَى التَّرْتِينِ لِلنَّاسِ وَالْإِفْسَادِ فِي الصَّفَقَةِ وَالصَّحْبَةِ.»

تَتَالَتِ الْأَيَّامُ، وَكُلَّمَا عَرَضَتْ فِتْنَةٌ صَغِيرَةٌ أَخَذَ الْقَوْمُ مِنْهَا دَرْسًا كَبِيرًا. نَزَلَ مَوْسِمُ الْحَصَادِ وَالْأَيْدِي تَعْرِقُ وَالْقُلُوبُ تُسَبِّحُ. سَقَطَتْ شَمْسَةٌ فِي حَقْلِ حَبِيبِ الدُّنْيَا، فَدَاسَهَا أَجِيرٌ خَطَأً، فَاحْمَرَ وَجْهُهُ وَانْتَظَرَ الْوَبَالَ. دَنَا مِنْهُ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَالَ: «الطَّعَامُ يَعْوضُهُ اللَّهُ، أَمَّا قَلْبُكَ فَإِنْ كَسَرْتُهُ فَلَنْ أَجِدَ لَهُ جَابِرًا. أَجْعَلْ دِقَّتَكَ غَدًا أَكْبَرَ، وَاجْعَلْ نِيَّتَكَ لِلَّهِ.» وَتَبَسَّمَ الْأَجِيرُ وَفِي الْعَيْنَيْنِ دَمْعَةُ الرَّاحَةِ. قَالَ «تَمَامٌ» بَعْدَ ذَلِكَ: «هَذِهِ ثَمَرَةُ التَّقْوَى فِي الْمَعَامِلَةِ، تَحْفَظُ الْحُقُوقَ وَتَزْرِعُ الرَّحْمَةَ وَتُؤَدِّمُ الْعُمُرَانَ.»

وَفِي خِتَامِ مَجْلِسٍ مِنَ الْمَجَالِسِ، قَالَ الْإِمَامُ وَالْكَلِمَةُ كَسْفِيًا لِأَرْضِ ظَمَأَى: «إِنَّ التَّعَارُفَ الَّذِي بَنَيْنَاهُ بِالْأَمْسِ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى مِيزَانِ التَّقْوَى وَمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ. مَنْ رَأَى فِي الْآخِرِ مَخْلُوقًا لَهُ رَبٌّ يُحِبُّهُ وَيَرْزُقُهُ خَافَ عَلَيْهِ كَمَا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ رَأَى النَّاسَ دَرَجَاتٍ بِحَسَبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ هَدَمَ جِسْرَ الْقُلُوبِ وَإِنْ بَنَى أَعْلَى الْقِصَاعِ. اْعْلَمُوا أَنَّ الْعِلَاقَةَ الَّتِي لَا تُبْنَى عَلَى التَّقْوَى لَيْسَتْ إِلَّا تَعَاوُنًا مُؤَقَّتًا يَنْقَطِعُ بِانْقِطَاعِ الْمُنْفَعَةِ، وَأَنَّ الَّتِي تُقَامُ عَلَيْهَا فَهِيَ بِنَاءٌ قَائِمٌ لِلْآخِرَةِ، يَبْقَى ذِكْرُهُ وَتَدْوُمُ بَرَكَتُهُ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ قَامَ وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمِحْرَابِ كَمَنْ يُرِيدُ الْأَمْرَ إِلَى الْمَصْدَرِ الْأَوَّلِ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، وَقَرَأَ فِيهِمَا مِمَّا يُثْبِتُ الْمَعْنَى:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: 27)

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

فَلَمَّا سَلَّمَ انْتَفَتَ إِلَيْنَا وَقَالَ: «أَجْعَلُوا لِكُلِّ يَوْمٍ نَصِيبًا مِنْ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ فِي الْخَفَاءِ، فَإِنَّ التَّقْوَى إِذَا سَكَنَتْ السِّرَّ أَصْلَحَتِ الْعَلَنَ، وَإِذَا اسْتَقَامَتِ الْعُبُودِيَّةُ فِي الْقَلْبِ اسْتَقَامَتِ الْحِجَارَةُ فِي الْبُنْيَانِ.»

خَرَجْنَا مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْغُيُومُ تَجْمَعُ أَذْيَالَهَا عَلَى كَتِفِ السَّمَاءِ، وَمِنْ قَبْلِ الْمَجْرَى كَانَ صَوْتُ الْمَاءِ يُسَبِّحُ تَسْبِيحًا خَفِيًّا. دَنَا حَبِيبُ الدُّنْيَا مِنْ «تَمَامٍ» وَقَالَ: «أَشْعُرُ بِأَنَّ الْقَلْبَ قَدْ وَجَدَ لَهُ مِيزَانًا، فَهَلْ مِنْ عَهْدٍ أَعْقَدُهُ عَلَى نَفْسِي» قَالَ «تَمَامٌ»: «أَعْقِدْ عَهْدًا أَنْ تَسْتَحْضِرَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ لَوْ لَمْ يَرْكُ فِيهِ أَحَدٌ، وَأَنْ تَجْعَلَ لِنَفْسِكَ سِرًّا مِنْ خَيْرٍ لَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ، فَذَلِكَ زَادَ التَّقْوَى وَرَوْحَ الْعُبُودِيَّةِ.» هَزَّ حَبِيبُ الدُّنْيَا رَأْسَهُ وَقَالَ: «أَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي سَازِنُ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَزِنَ سِلْعَتِي، وَسَأَطْلُبُ الرِّضَا قَبْلَ الرِّيحِ، فَإِنْ جَاءَ الرِّيحُ عَلَى طَرِيقِ التَّقْوَى أَخَذْتُهُ، وَإِنْ لَمْ يَجِئْ تَرَكْتُهُ وَلَا حَسْرَةَ.»

وَتَدَافَعَ النَّهَارُ بِاللَّيْلِ، وَالْوَادِي يَكْبُرُ كَأَنَّهُ قَلْبٌ يُرَبِّي عَلَى الرَّعَايَةِ. وَفِي

كُلُّ بَيْتٍ حَدِيثٌ عَنِ الْمِيزَانِ الْجَدِيدِ: أُمُّ تُعَلِّمُ ابْنَتَهَا أَنْ تُخْفِيَ صَدَقَتَهَا، وَأَبُّ يُوصِّي ابْنَهُ أَنْ لَا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَى خَادِمٍ، وَتَاجِرٌ يُرِيدُ زَائِدًا أَخَذَهُ الْمِيزَانُ خَطَأً، وَفَلَّاحٌ يَقْدُمُ سِقَايَةَ لِحْقَلِ جَارِهِ لِأَنَّ «نَفْسًا عَفِيفَةً عِنْدَ اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ حَبَّةِ قَمْحٍ يَزِيدُهَا الظُّلْمُ».

وَعِنْدَ الْخِتَامِ وَالنُّجُومِ تُعَلِّقُ فَوْقَ الْوَادِي مَصَابِيحَهَا، جَمَعْنَا الْإِمَامَ وَقَالَ كَلِمَةً خَتَمِيَّةً تَسْتَقَرُّ فِي الصُّدُورِ كَحَبَّةٍ بِذَرٍ صَالِحَةٍ: «إِنَّ مِيزَانَ التَّقْوَى وَالْعُبُودِيَّةِ لَيْسَ زِينَةً خَطَابٍ، بَلْ هُوَ طَرِيقَةُ حَيَاةٍ. مَنْ جَعَلَهُ أَصْلًا فِي بَيْتِهِ وَسُوقِهِ وَحَقْلِهِ، أَمِنَ مِنَ الظُّلْمِ وَحَصَلَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ. وَعَلِمُوا أَنَّ الْقِيَمَةَ لَيْسَتْ فِيمَا تَمْلِكُهُ الْأَيْدِي، بَلْ فِيمَا تَحْمِلُهُ الْقُلُوبُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَحُبِّهِ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13)،

فَاجْعَلُوا لِهَذِهِ الْآيَةِ نَصِيبًا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ، وَسَتَرَوْنَ كَيْفَ تَصِيرُ الْعَلَاقَاتُ دَائِمَةً لِأَنَّهَا قَامَتْ لِأَجْلِ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَثْبُتُ الْعُمْرَانُ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ لَا مَصْلَحَةَ عَابِرَةً».

سَكَتَ الْكَلَامُ، وَلَكِنَّ صَدَاهُ كَانَ يَدُقُّ فِي جُذُرَانِ الصُّدُورِ دَقًّا لَطِيفًا، وَمِنْ فَوْقِنَا الْقَمَرُ يَرْسُمُ فِي الْمَاءِ طَرِيقًا بَيَاضَهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ التَّقْوَى بَلَغَ مَرَافِقَ الطُّمَأْنِينَةِ، وَمَنْ قَامَ عَلَى مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ حُمِيَ مِنْ رِيَّاحِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَلْهَوَى، وَصَارَ لِلتَّعَارُفِ جِسْرًا، وَلِلْعُمَرَانِ عَمُودًا، وَلِرِضَا اللَّهِ طَالِبًا وَمَطْلُوبًا.»

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: الْعُمَرَانُ الْمُسْتَدَامُ

كَانَ الصُّبْحُ يَنْفُضُ ثَوْبَهُ عَنِ الْوَادِي، وَتَنْهَضُ النَّخْلَاتُ كَأَنَّهَا مَنَارَاتُ
تُرْسُلُ فِي الْهَوَاءِ تَسْبِيحًا خَفِيًّا، وَالْمِيَاهُ فِي السَّاقِيَةِ تَجْرِي عَلَى قَدَرٍ مُعَلَّمٍ
كَالْخُطُوطِ النَّقِيَّةِ فِي دَفْتَرِ جَابِرٍ. دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْعَتِيقَ، وَفِي الْقُلُوبِ رَجْفَةٌ
أَنْتَظَارٍ لِكَلِمَةٍ تَرْفَعُ الْحِجَارَةَ مِنْ صُدُورِنَا فَتُصْبِحُ بُيُوتًا، وَتَرْفَعُ الرَّغْبَةَ مِنْ أَيْدِينَا
فَتُصْبِحُ عِمَارَةً. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الصَّدْرِ، وَحَوْلَهُ رُقِيَّةُ الْفَقِيهَةِ وَ«تَمَامُ السَّالِكِ»
وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَجَابِرٌ، وَفِي الْإِطْرَفِ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَقْلُبُ نَظْرَهُ بَيْنَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ كَمَنْ يَسْتَقْرئُ بَيْنَ الرَّبِّحِ وَالْبَرْكََةِ لُغَةً جَدِيدَةً.

أَسْتَفْتَحَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَمْشِي عَلَى الْقُلُوبِ مَشْيَ الْمَطَرِ عَلَى
الرَّمْلِ:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: 2)،

ثُمَّ قَالَ وَالْهُدُوءُ يُطَوَّقُ الْمَجْلِسَ: «الْعُمَرَانُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَقُومُ عَلَى حَجَرٍ
وَخَشَبٍ فَقَطْ، بَلْ يَقُومُ عَلَى قُلُوبٍ تُقَامُ فِيهَا الْمَوَازِينُ: التَّقْوَى وَالتَّعَارُفُ

وَأَلْقِسطُ وَالرَّحْمَةُ. مَدِينَةُ تُشَيِّدُ بِغَيْرِ هَذِهِ الْأُصُولِ كِبْنَاءٍ عَلَى سَفْحِ سَيْلٍ؛ يَجْمَعُ الرِّجَالُ وَيَفْرِقُهُمُ الْعَدُوُّ، وَتَلْمَعُ جُذُرَانُهُ سَاعَةً ثُمَّ تَتَخَلَّعُ مَعَ أَوَّلِ الرِّيحِ.»

رَفَعَتْ «رُفْيَةً» يَدَهَا وَقَالَتْ بِنَبَرَةٍ تُشَبِّهُ نَفْرَ الْعُصْفُورِ عَلَى زُهْرَةٍ: «يَا سَيِّدَنَا، كَيْفَ يَبْقَى الْعُمَرَانُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمَادَّةِ نَرَى دُوْلًا عَظِيمَةً زَالَتْ وَبَقِيَ ذِكْرُهَا حَسَنًا أَوْ فَيِّحًا؛ أَفَالذِّكْرُ هُوَ الْبَقَاءُ» فَقَالَ الْإِمَامُ: «الْبَقَاءُ بَقَاءَانِ: بَقَاءُ أَحْجَارٍ وَآثَرٍ، وَبَقَاءُ قِيَمٍ وَآثَرٍ فِي الْقُلُوبِ. الْأَوَّلُ تَأْكُلُهُ الرِّيَّاحُ وَتَطْمِسُهُ الرَّمَالُ، وَالثَّانِي يَسْكُنُ الصُّدُورَ فَيَسْرِى فِي الْأَجْيَالِ. وَمَنْ أَقَامَ عُمَرَانَهُ عَلَى التَّقْوَى وَأَلْقِسطِ بَقِيَ ذِكْرُهُ خَيْرًا، وَمَنْ أَقَامَهُ عَلَى الْأَثَرَةِ وَالظُّلْمِ بَقِيَ عِبْرَةً.»

قَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ لَانَتْ فِي صَوْتِهِ نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ: «أُقْرِ بِأَنَّ السُّوقَ لَا يَثْبُتُ بِالْغَشِّ وَالْغَلَاءِ، وَأَنَّ الرَّبْحَ الَّذِي لَا تَصْحَبُهُ ثِقَةٌ يَتَبَدَّدُ. وَلَكِنْ هَلْ تَسْعُنَا هَذِهِ الْقِيَمُ فِي الْأَزْمِنَةِ الصَّعْبَةِ إِذَا قَلَّ الْمَطَرُ وَكَثُرَ الطَّلَبُ» فَأَبْتَسَمَ الْإِمَامُ: «الْقِيَمُ تُخْتَبَرُ عِنْدَ الشَّدَّةِ لَا عِنْدَ الرِّخَاءِ. مَنْ أَقَامَ مِيزَانَهُ عَلَى التَّقْوَى رَجَعَ فِي الشَّدَّةِ إِلَى الْقِسطِ وَالرَّحْمَةِ، فَازْدَادَ قُرْبًا وَاتِّحَادًا، وَمَنْ أَقَامَهُ عَلَى الْمُنْفَعَةِ انْفَرَطَ عِنْدَ أَوَّلِ اخْتِبَارٍ.»

خَرَجْنَا مَعَ الْإِمَامِ إِلَى الْحُقُولِ، فَإِذَا بِالسَّاقِيَةِ تَحْمِلُ مِنَ الْمَاءِ مَا يَكْفِي لِالرِّيِّ إِلَّا قَلِيلًا، وَوَجْهُ الْأَرْضِ يَطْلُبُ غَيْمًا كَطِفْلِ يَنْحَثُ عَنْ صَدْرِ أُمِّهِ. قَالَ الْإِمَامُ: «الْيَوْمَ نَكْتُبُ مِثَاقَ الرِّيِّ، فَنَقْسِمُ الْمَاءَ بِالْقِسطِ عَلَى الْحُقُولِ، نُقَدِّمُ

قُوَّةَ الْقَرْيَةِ عَلَى الزِّيَادَةِ، وَنَجْعُلُ لِلضُّعْفَاءِ قِسْمًا مَصُونًا لَا يُمَاسُّهُ النَّزَاعُ». وَنَادَى «جَابِرًا»: «اَكْتُبْ يَا بُنَيَّ: يَبْدَأُ الدَّوْرُ بِحَقْلِ الْقَمْحِ، ثُمَّ يُتْبَعُ بِحَقْلِ الشَّعِيرِ، ثُمَّ تُسْقَى الْبَسَاتِينُ عَلَى قَدَرٍ مَا يُبْقِي أَصُولَهَا حَيَّةً، وَيُؤَخَّرُ مَا زَادَ عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى سَعَةٍ». وَقَدْ كَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا يَتَمَعَّنُ فِي الْكَلِمَاتِ كَمَنْ يَرَى فِي كُلِّ حَرْفٍ مِيزَانًا، فَقَالَ: «لِنَفْعَلْ، فَإِنَّ الرِّيحَ لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَا بَقَاءَ لِغَيْرِ الْقِسْطِ».

عَادَ النَّاسُ إِلَى السُّوقِ، وَقَدْ نَفَضَتِ الْأَكْفُ غُبَارَ الْخَلَافِ، وَوُضِعَ فِي مُقَدِّمَةِ الْمَمَرِّ لَوْحٌ كُتِبَ عَلَيْهِ: «الْوَزْنُ بِالْقِسْطِ، وَالرِّيحُ بِالرِّضَا، وَالصَّفْقَةُ عَلَى التَّقْوَى». وَكَانَ حَبِيبُ الدُّنْيَا أَوَّلَ مَنْ عَلَّقَ هَذَا اللَّوْحَ عَلَى بَابِ مَنْجَرِهِ، وَأَضَافَ تَحْتَهُ صَفًّا صَغِيرًا بِخَطِّ جَابِرٍ: «مَنْ نَقَصَ الْمِيزَانَ نَقَصَ مِنْ قَلْبِهِ قِسْطًا». وَدَخَلَتْ «رُقِيَّةٌ» تَحْمِلُ سُؤَالَ جَدِيدًا: «كَيْفَ نُشِيتُ أَنْ هَذَا الْعُمَرَانُ يَبْقَى إِذَا ذَهَبَ مَالُهُ» فَقَالَ الْإِمَامُ: «نُشِيتُهُ بِمَا يَبْقَى بَعْدَ الْمَالِ: عَهْدُ الْقُلُوبِ، وَمُرَابَطَةُ الْجِيرَانِ، وَمَجَارِي الرَّحْمَةِ فِي الْبُيُوتِ. أَطْلُبِي فِي كُلِّ بَيْتٍ سِرًّا مِنْ خَيْرٍ، وَفِي كُلِّ طِفْلِ بَذْرَةَ أَدَبٍ، وَفِي كُلِّ حَانُوتٍ قَاعِدَةَ قِسْطٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ بَقِي الْوَادِي وَإِنْ فَنِيَتْ بَعْضُ أُمُورِهِ».

جَاءَتْ سَنَةٌ شَحِيحَةُ الْمَطَرِ كَأَنَّ السَّمَاءَ تُمَسِكُ خَزَائِنَهَا لِتَمْتَحِنَ مَا أَصْلَحَ نَاحَهُ. تَحَرَّكَ التُّجَّارُ الْغُرَبَاءُ بِثَمَنِ مُضَاعَفٍ، وَعَلَتْ أَصْوَاتُ فِي طَرَفِ السُّوقِ تُبَشِّرُ بِرِنَحٍ سَرِيعٍ لِمَنْ يَحْمِلُ قَمَحَهُ إِلَى بَلَدَةٍ أُخْرَى. وَوَقَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا عِنْدَ

بَابُ مَنْتَجَرِهِ كَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى أَمْتِحَانٍ مَفْتُوحٍ. قَالَ لِ«تَمَامٍ»: «قَدْ يَذْهَبُ عَنِّي رِبْحٌ كَثِيرٌ إِنْ لَمْ أَبْعَ لِلْعُرَبَاءِ، فَمَا تَرَى» فَقَالَ «تَمَامٌ»: «أَرَى مِيزَانًا بَيْنَ يَدَيْكَ، إِنْ وَزَنْتَ فِيهِ الرِّبْحَ الْعَاجِلَ ثَقُلْتَ الْكَفَّةَ يَوْمًا وَخَفَّتْ سِنِينَ، وَإِنْ وَزَنْتَ فِيهِ ثِقَةَ أَهْلِكَ وَقُوتَ صَبِيَّانِ قَرَيْتِكَ رَجَحْتَ كَفَّةً لَا تَخْفُ». فَدَخَلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَكَتَبَ عَلَى لَوْحٍ صَغِيرٍ: «الْمَيْعُ لِأَهْلِ الْوَادِي أَوَّلًا، وَالزِّيَادَةُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ». وَفِي الْمَسَاءِ طَرَقَتْ بَابُهُ عَجُوزٌ تَحْمِلُ سَلَّةً فَارِغَةً، فَدَفَعَ إِلَيْهَا مِنْ كَيْلِهِ بِغَيْرِ ثَمَنِ، وَقَالَ: «هَذَا مِيزَانُ الرَّحْمَةِ، وَاللَّهُ خَلْفُ النَّافِعِينَ.»

تَحَوَّلَ السُّوقُ إِلَى مَدْرَسَةٍ، يُعَلِّمُ فِيهَا الْقُدُورَةُ مَا لَا تُحْسِنُهُ الْخُطْبُ. أَصْبَحَ الصَّغَارُ يَرَوْنَ رُجُوعَ حَبِيبِ الدُّنْيَا عَنْ بَيْعَةِ مُرْبِحَةٍ لِأَجْلِ مِيثَاقِ الْقَرْيَةِ، فَيَحْفَظُونَ فِي صُدُورِهِمْ بَيِّنًا مِمَّا يَقُولُهُ الْإِمَامُ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَلَا هَلَكَ مَنْ بَاعَ لَوَجْهِ اللَّهِ». وَكَانَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْصُدُ الْأَثَرَ عَلَى الْأَسْعَارِ وَالْأَنْفُسِ؛ فَالْتَفَتُ زَادَتْ، وَالْخِصَامُ قَلَّ، وَالْحَاجَةُ قُضِيَتْ بِأَقَلِّ كَلَامٍ وَأَدْنَى جَهْدٍ.

وَقَامَتْ «رُقَيْيَةُ» فِي الْمَسْجِدِ تَقْرَأُ فِي كِتَابِ التَّارِيخِ كَمَنْ يَقْرَأُ فِي مُرَاقَةٍ: «هَذِهِ دُورٌ بُنِيَتْ وَأَنْهَدِمَتْ، كَانَتْ تَمْلِكُ أَلْعَدَّةَ وَالْأَعْدَدَ، وَلَكِنَّهَا فَقَدَتْ مِيزَانَ الْقِيَمَةِ، فَزَالَتْ كَالرَّغْوَةِ يَحْمِلُهَا السَّيْلُ. وَهَذِهِ قُرَى بَسِيطَةٌ بَقِيَ ذِكْرُهَا لِأَنَّهَا أَقَامَتْ أَلْعَدْلَ وَرَبَطَتْ أَلْأَيْدِيَ بِالرَّحْمَةِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «الْعُمَرَانُ الْمُسْتَدَامُ هُوَ مَا

يَبْقَى إِذَا انْقَطَعَتْ الْأَسْبَابُ، وَمَا يَصْمُدُّ إِذَا هَبَّتِ الرِّيَّاحُ، وَمَا يُذَكِّرُ بِخَيْرٍ إِذَا غَابَ رِجَالُهُ. وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِمِيزَانِ التَّقْوَى وَالتَّعَارُفِ وَالْقِسْطِ..»

وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ، هَبَّ سَيْلٌ فِي اللَّيْلِ كَمَا تَهْبُ الْفِتَنُ، فَانْدَفَعَ الْمَاءُ فِي الْوَادِي كَجَيْشٍ مِنْ زُبْدٍ يُرِيدُ أَنْ يَهْدِمَ الْجُدْرَانَ. تَنَادَى النَّاسُ، وَخَرَجَ حَيْبُ الدُّنْيَا يَحْمِلُ الْحَبَالَ، وَ«تَمَامٌ» يَقُودُ الصَّبِيَّانَ إِلَى الْأَعَالِي، وَجَابِرٌ يُثَبِّتُ الْأَوْتَادَ فِي مَجَارِي الْمِيَاهِ. وَقَفَ الْإِمَامُ عَلَى الرَّبْوَةِ يَدْعُو وَيُوجِّهُ كَمَنْ يَجْمَعُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِحَبْلِ مِنْ ثِقَةٍ. لَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ كَانَ السَّيْلُ قَدْ خَضَعَ لِمَسَارَاتٍ صَنَعَهَا الْقَوْمُ قَبْلَ سِنِينَ حِينَ قَالَ الْإِمَامُ: «ضَعُوا لِلْمَاءِ طَرِيقًا يَمْضِي فِيهِ كَرِيمًا وَلَا يَظْلِمُ.» فَسَلِمَتِ الْبُيُوتُ إِلَّا قَلِيلًا، وَوَقَفَ حَيْبُ الدُّنْيَا يَنْظُرُ إِلَى الْبَقَايَا، فَقَالَ: «هَذَا أَثَرُ الْقِيمِ فِي الْحِجَارَةِ؛ لَوْ كُنَّا بَنَيْنَا فَقَطْ لِهَدَمِ السَّيْلِ، وَلَكِنَّا بَنَيْنَا قَبْلَ ذَلِكَ مِثَاقًا فَثَبَّتَ الْبِنَاءُ.»

وَحِينَ هَذَا الْوَادِي جَمَعَ الْإِمَامُ النَّاسَ فِي سَاحَةِ الْمَسْجِدِ، وَعَلَى الْأَرْضِ آثَارُ مَاءٍ وَأَقْدَامٌ تَشْهَدُ بِأَنَّ الْقَلْبَ إِذَا عَمِلَ نَطَقَ التُّرَابُ. قَالَ: «تَرَوْنَ كَيْفَ حَمَتُكُمْ أَعْمَالُكُمْ ذَلِكَ لِأَنَّكُمْ جَعَلْتُمْ الْعَمَلَ عِبَادَةً، وَالتَّجَارَةَ أَمَانَةً، وَالْمَاءَ قِسْمًا بِالْقِسْطِ. هَكَذَا تَصِيرُ الْحِجَارَةُ نَاطِقَةً بِالتَّقْوَى، وَتَصِيرُ الْمَجَارِي رُقُوعًا فِي ثَوْبِ الرَّحْمَةِ، وَتَصِيرُ الْأَسْوَاقُ مَجَالِسَ ذِكْرِ لَأَنَّهَا تَحْفَظُ الْقِسْطَ.» وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى الْمَشْهَدِ: «قَدْ صَحَّ الْإِعْتِبَارُ؛ مَا بُنِيَ عَلَى مِيزَانٍ يَدُومُ، وَمَا

بُنِيَ عَلَى الْمَنْفَعَةِ يَزُولُ مَعَ أَوَّلِ رِيحٍ.»

ثُمَّ تَوَجَّهَ الْكَلَامُ إِلَى حَبِيبِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: «قَدْ أَعَدْتُ النَّظَرَ فِي عَادَاتِي، وَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي لَا أَقْدِمُ صَفْقَةً عَلَى مِيثَاقٍ، وَلَا رَبْحًا عَلَى قِسْطٍ، وَلَا رَغْبَةً عَلَى رَحْمَةٍ. إِنْ بَقِيَ لِي مِنَ الْمَالِ شَيْءٌ فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ، وَإِنْ ذَهَبَ فَقَدْ بَقِيَ لِي مِنَ الْمَعْنَى مَا لَا تَأْكُلُهُ الرِّيَّاحُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا يَكْمُلُ الْعُمَرَانُ: قَلْبٌ يُصْلِحُ نَيْتَهُ، وَيَدٌ تُحْسِنُ صَنْعَتَهَا، وَمِيزَانٌ يَنْهَى عَنِ الطُّغْيَانِ، وَمُجْتَمَعٌ يَتَعَارَفُ عَلَى الْقِيَمِ قَبْلَ الْأَسْعَارِ.»

وَسَارَتْ الْأَيَّامُ تُثَبِّتُ مَا قِيلَ، فَانْتَضَمَتْ دَوَابِرُ الْقَرْيَةِ: «سِجِلُّ الرَّحِمَاتِ» يُقَيِّدُ فِيهِ مَا خَفِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْمَعْرُوفِ بِغَيْرِ أَسْمَاءٍ، وَ«كُنَاشَةُ الْقِسْمَةِ» تُرَاجِعُ قَبْلَ كُلِّ مَوْسِمٍ، وَ«دَفْتَرُ الْحَرْفِ» يُعَلِّمُ الصَّغَارَ أَنَّ الْإِثْقَانَ عِبَادَةٌ. وَكَانَ «تَمَامٌ» يَقُومُ قَبْلَ الْفَجْرِ فَيَجْمَعُ الشَّبَابَ لِعَمَلٍ صَغِيرٍ يُسَمِّيهِ «نَوَافِلَ الْعُمَرَانِ»: غَرْسُ شَجَرَةٍ، رَفْعُ حَجَرٍ عَنْ طَرِيقٍ، تَرْقِيعُ جِدَارٍ مَرْقِقٍ لِلضَّعْفَاءِ، فَتَكْبِيرُ فِي الْقُلُوبِ مَعَانِي الدَّقَّةِ وَالرَّفْقِ.

وَفِي سَهْرَةٍ عَلَى الرُّوَابِي قَالَ الْإِمَامُ وَالْقَمَرُ يَصْقِلُ الْكَلِمَةَ كَمَا يُصْقِلُ الْحَدِيدُ فِي الْمِدْقَةِ: «يَا أَصْحَابِي، لَيْسَ الْعُمَرَانُ كَثْرَةَ الْمَبَانِي، وَلَكِنَّهُ قِيَامُ الْمَعَانِي فِي الْقُلُوبِ ثُمَّ ظُهُورُهَا فِي الْأَعْمَالِ. مَنْ عَمَرَ قَلْبَهُ بِالتَّقْوَى عَمَرَ اللَّهُ يَدَهُ بِالْبِرِّ، وَمَنْ عَمَرَ يَدَهُ بِالْبِرِّ عَمَرَ اللَّهُ حَيَاتَهُ بِالْبَقَاءِ الْحَسَنِ.» وَاتَّبَعَ قَوْلَهُ بِمِسْكَ

الْخِتَامُ: «اعْلَمُوا أَنَّ الْحَضَارَاتِ الَّتِي أَنْهَارَتْ لَمْ تَفْتَقِرْ إِلَى مَالٍ، وَلَكِنَّهَا افْتَقَرَتْ إِلَى قِيمٍ. فَإِذَا حَضَرَ الْقِسْطُ وَالتَّقْوَى وَالتَّعَارُفُ، حَضَرَ مَعَهَا الْبَقَاءُ وَإِنْ قَلَّ الْمَالُ، وَإِذَا غَابَتْ ذَهَبَ الْبَقَاءُ وَإِنْ كَثُرَتْ الْخَزَائِنُ.»

وَقَفْتُ «رُقِيَّةً» فِي آخِرِ الْمَجْلِسِ تُلَخِّصُ لِبَّ الْحِكْمَةِ بِلِسَانٍ رَقِيقٍ: «إِنَّ الْعُمَرَانَ الْمُسْتَدَامَ هُوَ الَّذِي يَبْقَى حِينَ تَنْطَعِمُ الْأَفْوَاهُ وَتَسْكُنُ الْأَيْدِي. هُوَ الَّذِي يَتْرُكُ فِي الطَّرِيقَاتِ أَثَرَ رَفَقٍ، وَفِي الْحُقُولِ أَثَرَ قِسْطٍ، وَفِي الْقُلُوبِ أَثَرَ تَقْوَى.» فَهَرَّ الْقَوْمُ رُؤُوسَهُمْ كَانَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْ عُمَقِهِمْ آيَةً تُتْلَى.

وَلَمَّا أَذِنَ الْمَغْرِبُ وَانْسَابَ الثُّورُ عَلَى الْوَادِي شَرِيبًا قَشْدِيًّا، قَامَ الْإِمَامُ يَخْتِمُ الْفَصْلَ كَمَا يَخْتِمُ نَجَّارٌ صَنْعَتَهُ بِمَسْحَةٍ أَخِيرَةٍ تُبْدِي الْعُرُوقَ الْمُخْتَبِتَةَ فِي الْخَشَبِ: «يَا أَهْلَ الْوَادِي، نُورُ التَّقْوَى هُوَ الَّذِي يُضِيءُ لَنَا طَرِيقَ الْعُمَرَانِ الْحَقِيقِيِّ، وَهُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ الْأَعْمَالَ الْبَشَرِيَّةَ إِلَى قُرْبَةٍ لِلَّهِ؛ فَمَنْ عَمِلَ الْيَوْمَ لَوَجْهِهِ أَبْقَى اللَّهُ لَهُ أَثَرًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَيَّامُ، وَمَنْ عَمِلَ لِنَفْعِهِ الْعَاجِلِ فَقَدْ رَمَى بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلٍ يَحْمِلُهُ ثُمَّ يَرْمِيهِ.» ثُمَّ سَكَتَ قَلِيلًا وَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْقُلُوبِ: «أَحْفَظُوا الْمِيزَانَ فِي الدَّاحِلِ لِيَسْتَقِيمَ الْبِنَاءُ فِي الْخَارِجِ؛ فَإِذَا اسْتَقَامَتِ التَّقْوَى وَالتَّعَارُفُ وَالْقِسْطُ، أَصْبَحَ الْحَجَرُ ذَا لِسَانٍ، وَأَصْبَحَ الْمَاءُ ذَا عَهْدٍ، وَأَصْبَحَ الشُّوقُ ذَا ذِكْرِ يَسْتَمِرُّ بَعْدَ النَّاسِ وَيَبْقَى.»

خَرَجْنَا نَتَّبِعُ الشُّعَاعَ الْأَخِيرَ، وَكُلُّ مَنْ يَحْمِلُ فِي جَوْفِهِ لَوْحَةً صَغِيرَةً

كُتِبَ فِيهَا مَا يُلْخِصُ الدَّرْسَ: «الْعُمَرَانُ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى التَّقْوَى وَالتَّعَارُفِ
عُمَرَانُ زَائِفٌ، يَنْهَارُ بِمُجَرَّدِ انْقِطَاعِ الْمُنْفَعَةِ؛ وَأَمَّا الَّذِي يَقَامُ عَلَى الْمَوَازِينِ
الْقُرْآنِيَّةِ فَهُوَ بَاقٍ يَسْكُنُ الصُّدُورَ قَبْلَ الدُّورِ، وَيُمِطِرُ بَرَكَهَ قَبْلَ الْمَطَرِ، وَيُثْمِرُ
مَعْنَى قَبْلِ الثَّمَرِ.» ثُمَّ تَوَارَى الْمَسَاءُ كَمَا تَتَوَارَى الْمَخَافُ إِذَا حَضَرَ الْيَقِينُ،
وَتَرَكَ فِي الْوَادِي وَعْدًا صَامِتًا بِأَنَّ مَا بُنِيَ بِنُورِ التَّقْوَى لَا تُطْفِئُهُ الرِّيَاحُ.

الْمَحْوَرُ الرَّابِعُ: خَرِيطَةُ الْعَمَلِ

يُحَوَّلُ هَذَا الْمَحْوَرُ الرَّؤْيِيَّةَ إِلَى خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ مِيزَانِ الْمَعْنَى وَمَقْيَاسِ الْإِنْجَازِ، وَيَرَسُمُ مَعَالِمَ الْإِنْطِلَاقِ وَمَرَاجِلَ التَّنْفِيدِ وَمُؤَشِّرَاتِ الْمُرَاجَعَةِ. نَبْدًا بِتَثْبِيثِ الْمَبَادِيِ الْحَاكِمَةِ: الْعَدْلُ مِيعَارًا، وَالرَّحْمَةُ نَفْسًا، وَالشُّورَى طَرِيقًا، وَالْإِحْسَانُ زِينَةً لِلْعَمَلِ. ثُمَّ نُنْزِلُهَا عَلَى مَجَالَاتٍ أَرْبَعَةٍ مُتَكَافِئَةٍ: التَّرْبِيَّةُ وَالْمَعْرِفَةُ، وَالْحُكْمُ وَالْمُؤَسَّسَاتُ، وَالْإِقْتِصَادُ وَالْعُمُرَانُ، وَالْمُجْتَمَعُ وَصِيَانَةُ الْبَيْتَةِ. يَتَشَعَّبُ عَنْ كُلِّ مَجَالٍ بَرَامِجٌ مَرَحَلِيَّةٌ: بَرَامِجُ تَأْسِيسِ لِبْنَاءِ الْكِفَايَاتِ، ثُمَّ بَرَامِجُ تَوْسِيعِ لَتَعْمِيمِ الْمَنْفَعَةِ، فَبَرَامِجُ تَمْكِينِ لِتَأْصِيلِ الْإِسْتِقْلَالِ وَتَعْظِيمِ الْأَثَرِ.

وَتَضْمَنُ «خَرِيطَةُ الْعَمَلِ» الْإِرْتِكَازَ إِلَى أَدَوَاتٍ وَاضِحَةٍ: مَحْوَرَاتُ الْأَهْدَافِ، وَجَدَاوِلُ الزَّمَنِ، وَمُؤَشِّرَاتُ الْقِيَاسِ، وَمَنَاطِقُ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَدَوَائِرُ التَّقْوِيمِ الدَّوْرِيِّ. كَمَا تُرَسِّمُ مَعَايِرَ التَّنَاسُقِ بَيْنَ الْبَحْثِ وَالتَّطْبِيقِ، وَبَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمُؤَسَّسَةِ، وَبَيْنَ الْمَحَلِّيِّ وَالدَّوْلِيِّ، حَتَّى يَسِيرَ الْعَمَلُ عَلَى خُطَى مُتَرَنِّةٍ لَا أَفْرَاطَ فِيهَا وَلَا تَفْرِيطَ. هُنَا يَنْتَقِلُ الْمِيزَانُ مِنْ نَصِّ مُهْتَدٍ إِلَى مَشْرُوعٍ مُحْسُوبٍ، وَتَنْتَقِلُ الرَّؤْيِيَّةُ مِنْ مَبَادِيٍّ جَامِعَةٍ إِلَى أَعْمَالٍ شَاهِدَةٍ؛ فَيَبْلُغُ الْمَقْصِدُ: عُمُرَانُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

يَحْمِلُ الْمَعْنَى، وَمَعْنَى يُهْدَبُ الْعُمَرَانِ.

الفصلُ الأوَّلُ: دَلِيلُ الْمُجَرَّبِ وَالْبَاحِثِ

يَضَعُ هَذَا الْفَصْلُ يَدَ الْمُجَرَّبِ وَالْبَاحِثِ مِفْتَاحًا لِلدُّخُولِ إِلَى مَلَكُوتِ الْأَشْيَاءِ بِعَقْلِ مُتَوَاضِعٍ وَقَلْبٍ مُوقِنٍ، فَيُوجِّهُ حَسَبَ الْمِيزَانِ الرَّاشِدِ تَعَاوَنَ الْحَوَاسِّ وَالْأَفْعِدَةِ، وَيَرُسِّمُ مِنْهَا يَبْدَأُ بِالْإِسْتِنْبَاحِ، ثُمَّ يَمْضِي إِلَى الْإِخْتِبَارِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى التَّكْرَارِ لِلتَّشْيِيتِ وَالتَّقْوِيمِ. فَلَا مَعْرِفَةَ صَحِيحَةٍ دُونَ سَمْعٍ يَتَلَقَّى، وَبَصَرٍ يَتَبَيَّنُ، وَفُؤَادٍ يَعْقِلُ وَيَحْكُمُ. وَإِذَا سَأَلَ الْقَلْبُ زِيَادَةَ الْيَقِينِ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ هُوَ التَّجَرُّبَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْمُتَكَرِّرَةُ، حَيْثُ يَتَصَافَى الْحُكْمُ مِنْ غَبَشِ الظَّنِّ، وَتَنَكُّشِ لِلنَّاطِرِ «كَيْفِيَّةُ» الْأُمُورِ لَا مَجَرَّدُ «إِنَّ» الدَّعَاوَى. هَكَذَا يَنْعَقِدُ الزَّوْاجُ بَيْنَ حَسِّ مُرَاقِبٍ وَقَلْبٍ مُتَبَصِّرٍ وَعَقْلٍ مُحَاسِبٍ، فَيَتَخَلَّقُ مِيثَاقُ الْبَحْثِ الْأَمِينِ: نُزْهَةٌ فِي الْآيَاتِ، وَتَأْدُبٌ مَعَ الْحَقِّ، وَتَثَبُّتٌ لَا يَمَلُّ مِنَ الْعُودِ وَالْإِعْتِمَادِ.

تَجْتَمِعُ مَوَازِينُ هَذَا الْفَصْلِ فِي مِيزَانٍ وَاحِدٍ يُؤَلَّفُ بَيْنَ أَدَوَاتِ الْإِدْرَاكِ وَمَرَاتِبِ الْيَقِينِ؛ فَالْمَنْهَجُ التَّجْرِبِيُّ يُبْتَدِئُ بِتَسْخِيرِ الْحَوَاسِّ وَالْفُؤَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (السَّجْدَةُ: ٩)،

ثُمَّ يَطْلُبُ الْكَيْفِيَّةَ الْمُبْصَرَةَ لِتَزْدَادَ الطَّمَأْنِينَةُ، عَلَى سُنَّةِ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، فَيَقُولُ:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البَقَرَةُ: ٢٦٠)،

ثُمَّ يَرْجِعُ الْبَصَرَ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ لِتَثَبُّتِ وَالتَّحْقِيقِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (الْمُلْكُ: ٤)؛

فَيَتَحَقَّقُ بِذَلِكَ زَوَاجُ الْمُلَاحَظَةِ وَالْإِخْتِبَارِ وَالْإِعَادَةِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ عَلَى
بَصِيرَةٍ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: أَسَاسُ الْمَنْهَجِ التَّجْرِبِيِّ

كَانَ الصَّبَاحُ يُفْتَحُ كَزَهْرَةٍ عَلَى حَافَةِ الْوَادِي، وَتَتَدَلَّى الضِّيَاءَاتُ مِنْ كُؤَاتِ الْمَسْجِدِ كَخُيُوطٍ دَافِقَةٍ تَتْرُكُ عَلَى الْحَصَى لُمَعًا صَغِيرَةً. دَخَلْنَا فَإِذَا بِالْإِمَامِ قَدْ جَلَسَ فِي الصَّدْرِ، وَحَوْلَهُ جَابِرٌ بِدَفْتَرِهِ، وَرُبَابٌ بِنْتُ مَزِيدٍ وَفِي يَدِهَا عُدَّةٌ دَقِيقَةٌ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ فِي الْأَوَاحِ مِنْ خَشَبٍ مَرْقُومَةٍ بِالْأَعْدَادِ، وَقَرِيبًا مِنَ الْبَابِ حَبِيبٌ الدُّنْيَا يَرُصُّدُ الْوُجُوهَ كَمَنْ يَقِيسُ الرَّبْحَ بِالنَّظَرَةِ الْأُولَى. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَنْسَابُ عَلَى الْقُلُوبِ:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (الملك: 23)،

ثُمَّ سَكَتَ سَكْتَةً كَأَنَّهَا بَابٌ يُفْتَحُ عَلَى سَاحَةِ رَحْبَةٍ، وَقَالَ: «هَذِهِ هِبَاتٌ ثَلَاثٌ، مِفْتَاحُ الْكُونِ وَأَقْفَالُ الْوُحْمِ: سَمْعٌ يَلْتَقِطُ الْأَثَرَ، وَبَصَرٌ يُمَيِّزُ الصُّورَ، وَفُؤَادٌ يَجْمَعُ الْمَعَانِي وَيَزِينُهَا. مَنْ أَحْسَنَ الْإِسْتِعْمَالَ بَلَغَ الْحَقِيقَةَ، وَمَنْ أَهْمَلَ اخْتَطَبَ مِنْ شُعَاعِ الْهَوَى وَخُضْرَةِ الظَّنِّ.»

أَنْحَنَى جَابِرٌ عَلَى دَفْتَرِهِ وَقَالَ بِحَيَاءٍ يَمْتَرِجُ بِالْحِمَاسِ: «يَا سَيِّدِي، لِي

فِكْرَةٌ فِي الْكِيمِيَاءِ، أَرَى أَنَّ مَاءَ الْمِلْحِ إِذَا مُزِجَ بِرَمَادٍ مَخْصُوصٍ ثُمَّ سُخِّنَ عَلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، أَوْلَدَ بُلُورًا يُصْلِحُ لِلتَّنْقِيَةِ. لَكِنَّهَا عِنْدِي فَرَضٌ مَكْتُومٌ، لَا يَرَقَى إِلَى الثُّبُوتِ». فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «أَحْسَنْتَ التَّسْمِيَةَ؛ فَالْفَرَضُ فَرْعٌ يَطْلُبُ أَصْلًا، وَالْأَصْلُ هُوَ الْبُرْهَانُ الْمَصُوغُ مِنْ سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَفُؤَادٍ فِي مِيزَانٍ مُسْتَقِيمٍ».

رَفَعَتْ رُبَابُ بِنْتُ مَرْيَدٍ كَيْسًا صَغِيرًا، وَأَخْرَجَتْ مِنْهُ قَصَبَاتٍ مَعْلُومَةٍ الطُّولِ، وَمَكْبَلًا دَقِيقًا، وَسِلَاقًا لِعَدِّ الزَّمَنِ يَقْطُرُ عَلَى حَجَرَةٍ صُلْبَةٍ: «هَذِهِ أَدَوَاتٌ لَيْسَتْ زِينَةً، بَلْ هِيَ لِتَحْفَظَ الْمِقْدَارَ، فَلَا يَطْغَى فِي الْقِيَاسِ الظَّنُّ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَنْ أَحْسَنَ الْأَدَاةَ أَمِنَ الْخَلَلَ فِي الْمَعْنَى؛ فَالْعَيْنُ تَنْظُرُ، وَالْأَدَاةُ تُثَبِّتُ، وَالْفُؤَادُ يَرِنُ مَا ثَبَتَ، فَتَجْتَمِعُ الْمَرَاتِبُ ثَلَاثًا كَمَا اجْتَمَعَتِ الْآيَةُ فَقَالَتْ: سَمْعٌ وَأَبْصَارٌ وَأَفْئِدَةٌ».

خَرَجْنَا إِلَى السَّاحَةِ الْمُلْحَقَةِ بِالْمَسْجِدِ، فَفَرَشَ الْقَوْمُ رَحْلَهُمُ التَّجَرِبِيِّ عَلَى أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ. نَصَبْتُ «رُبَابٌ» قَدْرًا نَحَاسِيًّا صَغِيرًا، وَوَضَعْتُ تَحْتَهُ نَارًا مُهَذَّبَةً، وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نُثِبْتُ الْمُشْتَرَكَاتِ وَتُغَيِّرُ وَاحِدًا وَاحِدًا، لِنَرَى أَيُّهَا يُؤَثِّرُ فِي النَّبِيْجَةِ. هَذَا هُوَ سَلَمُ الْفِكْرِ». وَتَقَدَّمَ جَابِرٌ يُمْلِي خُطُوبَاتٍ عَلَى دَفْتَرِهِ: «نَمْرُجُ الْمِلْحِ بِالرَّمَادِ، نُسَجِّلُ الْأَوْزَانَ، نَرْفَعُ الدَّرَجَةَ قَلِيلًا قَلِيلًا، نُثِبْتُ الزَّمَنَ بِقَطْرَاتِ السَّلَاكِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَأَحْذَرُوا أَنْ تُسْرِفَ الْعَيْنُ فِي الْحُكْمِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْمِيزَانُ؛ فَكَمْ مِنْ لَوْنٍ خَادِعٍ لَا يَقُومُ لَهُ رَائِحَةٌ وَلَا قِيَاسٌ».

تَصَاعَدَ الْبُخَارُ، وَتَرَكَ عَلَى جَانِبِ الْقَدْرِ نُقْطًا بَيَاضًا. قَالَ جَابِرٌ: «نُخَفِّضُ النَّارَ شِعْرَةً». فَقَالَتْ «رُبَابٌ»: «وَنُثِبْتُ الزَّمَنَ، فَالْفَوْرَةُ السَّرِيعَةُ تُفْسِدُ تَمَاهِي الْمَوَادِّ». وَطَالَ الْإِنْتِظَارُ، ثُمَّ تَجَمَّعَ فِي الْقَعْرِ بُلُورٌ دَقِيقٌ كَثَلَجٍ صَغِيرٍ. فَهَتَفَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «هَذَا رِبْحٌ جَمِيلٌ!» فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ قَائِلًا: «لَا تَعْجَلْ بِالْحُكْمِ؛ فَالْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ شَاهِدٌ، وَالتَّكَرُّارُ بُرْهَانٌ. أَعِيدُوا التَّجَرُّبَةَ، وَغَيِّرُوا الْمُؤَثَّرَ الْوَاحِدَ لِنَعْرِفَ الْعِلَّةَ مِنَ التَّصَادُفِ».

أَعَدْنَا الْخُطُوبَ مَرَّاتٍ، نَرْفَعُ الدَّرَجَةَ ثُمَّ نُخَفِّضُهَا، وَنُبَدِّلُ قِسْمًا مِنَ الرَّمَادِ، وَنُثِبْتُ الزَّمَنَ. وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ الْحُصُولُ عَلَى النَّبِيْجَةِ زَادَ الْأَمْرُ ثُبُوتًا فِي الصُّدُورِ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «هَكَذَا يَتَحَوَّلُ الْفَرَضُ إِلَى قَاعِدَةٍ، وَهَكَذَا نَفَرَقُ بَيْنَ مَا يَتَخَيَّلُهُ الْوَهْمُ وَمَا يُثَبِّتُهُ الْمِيزَانُ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ عَرَفَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، فَلَا تَثْبُتُ قَاعِدَةٌ حَتَّى تُقَاسَ عَلَى مِقْدَارٍ، وَلَا يَصِحُّ بَحْثٌ حَتَّى تُحْفَظَ فِيهِ الْحُدُودُ».

تَقَدَّمَتْ «رُبَابٌ» فَجَمَعَتِ الْعُدَدَ، ثُمَّ قَالَتْ: «الْأَدَاةُ مِنْ غَيْرِ نَفْسٍ تَحْدِمُ الْوَهْمَ، وَمَنْ غَيَّرَ قَلْبَ تَخْدِيمِ الرَّغْبَةِ؛ فَلَنَجْعَلَ قُلُوبَنَا حَارِسَةً لِلْقِيَاسِ كَمَا تَحْرُسُ الْغُيُوثُ الْمَنْظَرِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَبِهَذَا تَكْتَمِلُ الدَّائِرَةُ؛ فَالْحَاسَةُ تَتَلَقَّى، وَالْأَدَاةُ تُقَسَّنُ، وَالْعَقْلُ يَنْسُجُ، وَالْقَلْبُ يُزَكِّي. مَنْ أَفْلَحَ فِي هَذَا رَأَى الْخَلْقَ آيَاتٍ تُدَلِّلُ عَلَى الصَّانِعِ، وَمَنْ قَصَرَ رَأَى الْخَلْقَ صُورًا بَغِيرِ مَعَانٍ».

ثُمَّ نَقَلَ الْإِمَامُ الْحَوَارَ مِنْ الْقَدْرِ إِلَى السَّاقِيَةِ، فَقَالَ: «لِنَجْرِبَ الْقَاعِدَةَ فِي الْمَاءِ كَمَا جَرَيْنَاهَا فِي الْمِلْحِ. هَذَا مِيلُ الْقَنَاقَةِ، وَهَذِهِ قَصَبَاتُ نَقِيسٍ بِهَا الْإِنْجِدَارُ، وَهَذَا مِكْيَالٌ نُسَجِّلُ بِهِ مَا يَمُرُّ فِي زَمَنِ مُعَيَّنٍ». جَرَيْنَا وَرَاءَ الْمَاءِ وَهُوَ يَطْرُقُ الطِّينَ بِنَقْرِ مُنْعَمٍ، وَنَظَرْنَا كَيْفَ تَزِيدُ سُرْعَتُهُ حِينَ نَزِيدُ الْمِيلَ، وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ جَرْيَانُهُ حِينَ تُقَوِّمُ الْعَقَبَاتُ. قَالَ جَابِرٌ: «إِذَا نُشِيتُ فِي الدَّفْتَرِ أَنَّ كُلَّ تَغْيِيرٍ فِي السَّبَبِ يُظْهِرُ أَثَرَهُ فِي الْمُسَبَّبِ، وَمَنْ لَمْ يَرْصُدِ التَّغْيِيرَ لَمْ يَعْرِفِ أَلْعَلَّةَ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا مَعْنَى قَدْ سَبَقْنَا إِلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُنَنِهِ؛ فَالْتَدَرُّجُ وَالْمَقْدَارُ وَالْقَطْعُ عَلَى شَاهِدٍ مُتَكَرِّرٍ؛ كُلُّهَا مَوَازِينُ تُصْلِحُ أَلْعَقْلَ كَمَا تُصْلِحُ الْقَنَاقَةَ.»

وَإِذْ رَأَى حَبِيبُ الدُّنْيَا مَا رَأَى، قَالَ وَفِي صَوْتِهِ شَيْءٌ مِنْ مُرَاقَبَةِ نَفْسِيَّةٍ: «أَرَى أَنَّكُمْ تُطِيلُونَ الطَّرِيقَ؛ أَلَا يَكْفِي أَنْ نَبْلُغَ إِلَى النَّتِيجَةِ سَرِيعًا الزَّبُونُ لَا يَنْتَظِرُ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «النَّتِيجَةُ السَّرِيعَةُ الَّتِي لَا ظَهَرَ لَهَا تُسْقِطُ صَاحِبَهَا مَعَ أَوَّلِ سُؤَالٍ. وَمَا لَمْ يَبْنِهِ اَلْتَّشَبُّثُ يَهْدِمُهُ اَلْمَتَحَانُ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111)؛

فَمَنْ لَا بُرْهَانَ لَهُ لَا صِدْقَ لَهُ. فَاطْرَقَ حَبِيبُ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: «أَتَعَلَّمَ أَنَّ الرَّبَّحَ الصَّادِقَ يَحْتَاجُ إِلَى قَلْبٍ صَادِقٍ وَقِيَاسٍ صَادِقٍ.»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

عُدْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ فِي الْمَسَاءِ، وَأَصْوَاتُ الْعَصَافِيرِ تُرْسَلُ فِي الْهَوَاءِ
أَنَاشِيدَ الرَّاحَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ، وَأَمَامَهُ دَفْتَرُ جَابِرٍ قَدْ أُمْتَلَأَ صَفَحَاتٍ بِخُطُوطٍ
دَقِيقَةٍ. قَالَ: «اَكْتُبُوا قَاعِدَةَ الْيَوْمِ: الْعِلْمُ رِحْلَةٌ تَبْدَأُ مِنَ الْحَوَاسِّ، فَتَتَنَقَّى
بِالْأَدْوَاتِ، وَتَرْتَقِي بِالْعَقْلِ، وَتَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ؛ فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ صَارَتْ بَصِيرَةً،
وَإِذَا صَارَتْ بَصِيرَةً أَثْمَرَتْ عَمَلًا صَالِحًا. مَنْ قَطَعَ الرِّحْلَةَ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى
الْقَلْبِ بَقِيََتْ عِنْدَهُ مَعْلُومَاتٌ بِلا هِدَايَةٍ.» ثُمَّ أَخَذَ يَضْرِبُ الْأَمْثِلَةَ؛ فَيَذْكُرُ رَائِحَةَ
الْتُّرْبَةِ بَعْدَ الْمَطَرِ كَشَاهِدٍ عَلَى تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ، وَخُطُوطَ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ كَمِيزَانَ
لِلرَّيْحِ، وَصَوْتَ الْمَاءِ فِي الْقَنَازَةِ كَمَقْيَاسٍ لِلسَّرْعَةِ. ثُمَّ يَرِبُطُ ذَلِكَ بِالْآيَةِ:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ﴾ (العنكبوت: 20)؛

فَالنَّظَرُ مَأْمُورٌ بِهِ، وَالنَّشْأَةُ صَابِغَةٌ، وَالتَّقْوَى نُورُهُ.

وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نُتِمَ الْمَنْهَجُ بِعَرَضِ النَّتِيجَةِ عَلَى أَهْلِ الْخَبَرَةِ؛
فَإِنْ أَقْرَوْهَا زَادَتْ وَثَاقَتُهَا، وَإِلَّا رَجَعْنَا فَأَصْلَحْنَا وَأَعَدْنَا. هُكَذَا نَحْفَظُ الْعِلْمَ مِنْ
زَلَلِ النَّفْسِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَفِي الْكِتَابِ:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43)؛

فَعَرَضُ الْقَوْلِ عَلَى أَهْلِهِ جِزْءٌ مِنْ أَمَانَةِ الْبَحْثِ.»

أَمَّا «رُبَابُ» فَقَالَتْ وَهِيَ تُقَلِّبُ الْأَدَوَاتِ: «يَا سَيِّدَنَا، كَيْفَ نَحْفَظُ الدَّقَّةَ فِي الْأَدَاةِ لِكَيْ لَا تَخُونَ الْقِيَاسَ» فَقَالَ: «بِمِيزَانَيْنِ: تَنْقِيَةُ الْأَدَاةِ بِالصَّنَاعَةِ، وَتَنْقِيَةُ النَّفْسِ مِنَ الْعَجَلَةِ وَالرَّغْبَةِ. فَإِذَا خَانَتِ الْأَدَاةُ أَصْلَحْنَاهَا، وَإِذَا خَانَتِ النَّفْسُ رَدَدْنَاهَا إِلَى التَّقْوَى.»

ثُمَّ نَقَلَ الْكَلَامَ إِلَى السُّوقِ؛ فَقَالَ: «لِنَضِعِ الْمَنْهَجَ فِي التَّجَارَةِ؛ نُجَرِّبْ سِلْعَةً، نُثَبِّتْ جَوْدَتَهَا، نَقِيسُ رِضَا النَّاسِ بِهَا، نُصَحِّحِ الْخَلَلَ، ثُمَّ نُعْلِنَ عَمَّا ثَبَتَ لَا عَمَّا وَقَعَ صُدْفَةً. هَكَذَا يَسْلُمُ السُّوقُ مِنَ الدَّعَاوَى وَيَقُومُ عَلَى الْبُرْهَانِ.» فَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «أَرَى أَنَّ الْقَوْلَ يَصِيرُ فِعْلًا إِذَا سَطَرَ فِي مِثَاقٍ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «اكْتُبُوا مِثَاقَ التَّثَبُّتِ: لَا نَقْدِّمُ سِلْعَةً حَتَّى نَجَرِّبَهَا، وَلَا نَرْفَعُ ثَمَنًا حَتَّى نُقِيمَ بُرْهَانًا عَلَى جَوْدَةِ أَوْ قِلَّةِ، وَلَا نَدَّعِي فَضْلًا حَتَّى نَشْهَدَ بِهِ الْأَعْمَالُ.»

وَقَدْ طَالَ الْمَجْلِسُ، وَطَالَتْ مَعَهُ الْأَنْفَاسُ كَأَنَّهَا تَتَعَلَّمُ الصَّبْرَ فِي مَحْرَابِ التَّثَبُّتِ. قَامَ الْإِمَامُ يَخْتِمُ وَصَوْتُهُ يَحْمِلُ نَبْرَةً مِنْ نُورٍ: «يَا أَصْحَابِي، لَا تَظُنُّوا أَنَّ الْمَنْهَجَ التَّجْرِبِيَّ يَقِفُ عِنْدَ الْعَيْنِ؛ فَقَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ وَلَا يَعْقِلُ، وَقَدْ يَقِيسُ وَلَا يَهْتَدِي. إِنَّمَا الْهُدَى أَنْ تَسِيرَ الْمَعْلُومَاتُ فِي طَرِيقٍ مِنَ التَّقْوَى، فَتَبْلُغَ الْقَلْبَ فَيُصْبِحَ لَهَا نُورٌ. وَإِذَا نُورَتِ الْقُلُوبُ صَارَ الْعِلْمُ عِبَادَةً، وَصَارَ الْبَحْثُ قُرْبَةً، وَصَارَ الْمِيزَانُ حَافِظًا لِأَعْمَالِنَا مِنْ زَلِّ الظَّنِّ.»

ثُمَّ تَلَا مَرَّةً أُخْرَى وَبَصَرُهُ يَسْبَحُ فِي الْمَعَانِي:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (الملك: 23)،

وَقَالَ: «مَنْ شَكَرَ هَذِهِ الْمَوَاهِبَ اسْتَعْمَلَهَا فِي الْحَقِّ، وَمَنْ كَفَرَ بِهَا جَعَلَهَا خَادِمَةً لِأَلْهَوَى. فَاجْعَلُوا سَمْعَكُمْ مِرْهَفًا لِلْحَقَائِقِ، وَأَبْصَارَكُمْ مُنْصِفَةً فِي الْمَنْظَرِ، وَأَفْئِدَتَكُمْ حَافِظَةً لِلْمِيزَانِ؛ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبُرْهَانِ لَا مِنْ أَهْلِ الدَّعَاوَى.»

خَرَجْنَا وَقَدْ حَفِظَ كُلُّ مَنَا قَاعِدَةً فِي صَدْرِهِ كَأَنَّهَا سِوَارٌ لَا يَسْقُطُ:
«أَلْعِلْمُ رِحْلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ حَوَاسِّكَ، وَتَصِلُ إِلَى قَلْبِكَ.» فَمَنْ جَعَلَ بَيْنَ الْمَبْدَأِ
وَالْمُنْتَهَى مِيزَانًا قَامَ عَلَيْهِ بِنَاءُ الْحَقِّ، وَمَنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ هَاوَى مَعَ أَوَّلِ رِيحٍ.
وَكَانَتْ خُطَانَا عَلَى حَصَى الرِّقَاقِ كَأَنَّهَا تُرَدُّدُ مَا سَمِعَتْهُ الْقُلُوبُ: تَثَبَّتْ تَعْرِجُ،
وَأَعْدِلْ تَبْقُ، وَأَزِنْ تَهْتَدِ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ قَدْرِ الْأَشْيَاءِ

هَذَا هَمْسُ الْحَلَقَةِ، فَتَرَا جَعَتْ أَصْوَاتُ الْأَقْدَامِ فِي الرِّوَاقِ، وَسَكَنَتْ
الرَّيْحُ خَلْفَ الشَّبَاكِ الْمَشْرَبِ، ثُمَّ رَفَعَ الْإِمَامُ بَصَرَهُ إِلَى الْقَوْمِ فَأَشْرَقَ الْفَضَاءُ
بِسَكِينَةٍ لَطِيفَةٍ كَأَنَّهَا نَفْحَةٌ فَجْرٍ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْطِيقَ، كَانَتْ الْأَنْفَاسُ تَتَوَزَّعُ عَلَى
إِقَاعٍ وَاحِدٍ، وَالْعُيُونُ تَرْتَقِبُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَفْتَحُ بَابَ الْمَعْنَى.

تَقَدَّمَ جَابِرٌ قَلِيلًا، وَقَالَ وَجَفَنَاهُ يَرْتَعِشَانِ مِنْ فَوْرَةِ الشَّوْقِ: «يَا سَيِّدِي،
أَتَعْنِي أَنَّنَا نَجْعَلُ لِكُلِّ عَمَلٍ مِقْدَارًا مَعْلُومًا، كَمَا لِلْمَعْدِنِ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ»

فَالْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ بِطَرَفٍ حَانٍّ، وَأَشَارَ بِكَفِّهِ إِشَارَةً مُعَلِّمٍ يُدْنِي الْحَقِيقَةَ
مِنْ قَلْبِ تَلْمِيذِهِ، ثُمَّ قَالَ وَالشُّكُونُ يَتَفَتَّحُ مَعَ كُلِّ حَرْفٍ: «نَعَمْ. أَرَأَيْتَ الْخَبَازَ،
إِذَا أَكْثَرَ الْمَاءَ فِي الْعَجِينِ سَالَتِ الرُّغْفَةُ وَضَعُفَتْ، وَإِذَا قَلَّلَ الْمَاءَ تَفَتَّتَ الْخُبْزُ
ذَاكَ مِثَالُ لِقَدْرِ إِذَا اعْتَدِيَ عَلَيْهِ فَسَدَ الصُّنْعُ. وَكَذَلِكَ الْجَدَادُ، إِنْ رَفَعَ التَّسْخِيحُ
حَتَّى يَحْمَرَ الْحَدِيدُ قَبْلَ سَاعَتِهِ تَفَلَّتْ، وَإِنْ قَصَرَ التَّسْخِيحُ لَمْ يَلِنْ الْمَعُولُ
لِلطَّرْقِ. لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ، وَبِالْقَدْرِ تَقُومُ الدِّيمُومَةُ وَالْإِسْتِمْرَارِيَّةُ وَالسَّكِينَةُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَالْإِسْتِدَامَةُ.»

وَأَرْسَلَ الْإِمَامُ بَصْرَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ تَلَا بِصَوْتٍ خَاشِعٍ يَنْحَدِرُ كَالْمَاءِ عَلَى صَخْرَةٍ صَمَاءٍ، فَيَلِينُهَا:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

فَاهْتَزَّتْ الْقُلُوبُ لِنَعْمِ الْآيَةِ، وَسَكَتِ النُّفُوسُ لَوَعْدِ النَّظَامِ. ثُمَّ قَالَ وَالرَّحْمَةُ تَسْرِي فِي كَلِمَاتِهِ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، تُعَلِّمُكُمْ أَنَّ الْقَدَرَ لَيْسَ قَيْدًا يُضَيِّقُ، بَلْ هُوَ مِفْتَاحٌ يُنْظِمُ. بِهِ تَسْتَمِرُّ الْأَشْيَاءُ وَلَا تَتَبَدَّدُ، وَبِهِ تَسْكُنُ الْقُلُوبُ لِأَنَّهَا تَعْرِفُ طَرِيقَهَا.»

وَمَالَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْحَلَقَةِ، فَاتَّبَعَ:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

ثُمَّ بَيَّنَّ: «فَإِذَا عَرَفْنَا الْمِقْدَارَ لِكُلِّ عَمَلٍ، اسْتَقَامَ الْوَاقِعُ، وَإِذَا طَعَيْنَا عَلَيْهِ فَسَدَ الْمَصْنَعُ وَالسُّوقُ وَالْحَقْلُ.»

تَطَلَّعَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ، وَأَصَابِعُهُ تَرَسُّمُ خُطُوطًا دَقِيقَةً عَلَى طَرَفِ الْوَرَقِ، ثُمَّ عَقَّبَ وَفِي صَوْتِهِ جِدٌّ: «إِذَا فَالْقَدَرُ قَاعِدَةٌ تَمْنَعُ التَّنَاقُضَ فِي الْأَعْمَالِ، فَلَا يَجُوزُ لِعَامِلٍ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا يَنْقُضُ طَرِيقَ غَيْرِهِ فِي

الأُصُولُ.

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ، وَأَشَارَ إِلَى السَّقْفِ حَيْثُ تَتَدَلَّى قَنَادِيلُ الزَّيْتِ: «أَرَأَيْتَ
الْفَتِيلَ فِي الْقِنْدِيلِ إِنْ زِيدَ الزَّيْتُ فَوْقَ الْحَاجَةِ انْسَكَبَ وَخَبَا النُّورُ، وَإِنْ نَقَصَ
الزَّيْتُ ضَعُفَ الضِّيَاءُ. وَهَكَذَا كُلُّ شَأْنٍ فِي الْحَيَاةِ لَهُ مِقْدَارٌ إِذَا حُفِظَ دَامَ النُّورُ.»

وَحَرَّكَ جَابِرٌ قَلَمَهُ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ: «كَيْفَ نُقَرِّبُ هَذَا لِعُقُولِ الصُّنَّاعِ يَا

سَيِّدِي»

فَأَوْمَأَ الْإِمَامُ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُ خُطَوَاتٍ، ثُمَّ تَلَا وَصُوتُهُ يَخْتَلِطُ بِالرَّقَّةِ
وَالْحَزَمِ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن 9-7).

ثُمَّ شَرَحَ وَيَدُهُ تُشَكِّلُ فِي الْهَوَاءِ مِقْدَارًا مُتَخَيَّلًا: «الْمِيزَانُ هُنَا لَيْسَ
صَفًّا الْكِفَّتَيْنِ فِي الشُّوقِ فَحَسْبُ، بَلْ قَاعِدَةُ الْإِعْتِدَالِ كُلُّهُ: فِي الْقَوْلِ، وَفِي
الْعَمَلِ، وَفِي التَّصْرِيفِ، وَفِي الزَّرَاعَةِ، وَفِي الصَّنَاعَةِ. إِذَا قَامَ الْمِيزَانُ قَامَتِ
الْأُمُورُ، وَإِذَا طَغَى فَسَدَ الْكُلُّ.»

وَأَنْبَرَى حَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ يَتَمَطَّى وَيُدَاوِرُ خَاتَمَهُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثُمَّ قَالَ بِنَفْسٍ مُسْتَخِفَّةٍ: «أَمَّا أَنَا، فَلِي مَا يَنْفَعُنِي. مَا لِي وَلِهَذِهِ الْقِيُودِ الرَّبْحُ يُحَسِّنُ كُلَّ شَيْءٍ!»

فَحَدَّقَ فِيهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً تَجْمَعُ الشَّفَقَةَ وَالْحَزَمَ، ثُمَّ تَلَا وَصُوتُهُ يَسْكُنُ فِيهِ
الْوَعِيدُ وَالرَّحْمَةُ:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥).

ثُمَّ بَيَّنَّ: «مَنْ تَرَكَ الْمِيزَانَ لِمَكْسَبِ نَفْسِهِ أَفْسَدَ الشُّوقَ وَقَطَعَ سَبِيلَ
الْإِسْتِدَامَةِ، فَالرَّبْحُ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى الْقَدْرِ يَأْكُلُ الْيَوْمَ وَيُجَوِّعُ الْغَدَ.»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ وَمَعَهُ طُمَأْنِينَةٌ مَنْ يَسُوقُ الْعَقْلَ إِلَى الرُّشْدِ:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩).

ثُمَّ قَالَ: «انْظُرُوا إِلَى حُقُولِكُمْ: الْمَاءُ إِذَا زَادَ أَغْرَقَ، وَإِنْ نَقَصَ أَجْدَبَ؛
وَالْبَذْرُ إِنْ كَثُرَ تَزَاحَمَ، وَإِنْ قَلَّ تَبَاعَدَ وَهَانَ الْمَحْصُولُ. هَذَا كُلُّهُ «مَوْزُونٌ»،
وَالْمَوْزُونُ هُوَ الَّذِي يَدُومُ.»

وَأَقْتَرَبَ صَفْوَانُ بْنُ رِبَاحٍ، وَفِي عَيْنَيْهِ لَمَعَانُ الْإِسْتِفْهَامِ: «أَيَا سَيِّدَنَا،
أَفَالْقَدْرُ هُوَ عَيْنُ السَّكِينَةِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَاجَابَ وَالرَّقَّةُ تَتَدَفَّقُ فِي صَوْتِهِ كَمَا الْعَنَبُ: «السَّكِينَةُ ثَمَرَةُ الْقَدْرِ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي النُّفُوسِ وَالْأَعْمَالِ. أَلَا تَسْمَعُونَ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ٤)

فَإِذَا رَاعَى الْعَبْدُ قَدْرَ رَبِّهِ فِي نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ وَصَنَعَتِهِ، نَزَلَتْ السَّكِينَةُ وَدَامَتْ النِّعْمَةُ.﴾

وَأَمَّا جَابِرُ رَأْسُهُ كَمَنْ يَسْتَبْطِنُ الدَّلِيلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَكَيْفَ نَرْبِطُ ذَلِكَ بِالْإِسْتِمْرَارِ فِي أَعْمَالِنَا»

فَاجَابَ الْإِمَامُ وَيْدهُ تَرْسُمُ قَوْسًا فِي الْهَوَاءِ:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق ٣).

ثُمَّ شَرَحَ: «مَنْ عَرَفَ قَدْرَ النِّفَقَةِ لَمْ يُسْرِفْ فَيَفْنَى، وَلَمْ يُمْتَرِ فَيَقْسُو؛ وَهَكَذَا الزَّرَاعَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّعَاوُنُ بَيْنَ النَّاسِ. وَأَسْمَعُوا:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الفرقان ٦٧)؛

فَهَذَا هُوَ قِيَامُ الْإِسْتِدَامَةِ وَسَبِيلُ الدِّيُمُومَةِ.﴾

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَآةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَتَدَاخَلَ صَوْتُ حَمْرَةِ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ طَرَفِ الْحَلَقَةِ، وَهُوَ يَشُدُّ كِفَافَ ثَوْبِهِ: «إِنَّ الْأَمْطَارَ قَدْ تَتَأَخَّرُ، وَالنَّهْرَ قَدْ يَفِضُضُ. فَكَيْفَ نَحَافِظُ عَلَى الْقَدْرِ فِي أَمْرٍ لَا نَمْلِكُهُ»

فَأَجَابَ الْإِمَامُ وَفِي عَيْنَيْهِ بَصِيرَةٌ مَنْ يَعْرِفُ سُنَنَ اللَّهِ:

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت: ١٠)؛

ثُمَّ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمِقْدَارِ فِيمَا تَمْلِكُونَ: قَسِّمُوا الْمَاءَ بِالْعَدْلِ، وَاكْتُبُوا مَوَاسِمَ الزَّرْعِ وَالْحَصَادِ، وَتَرَاصُّوا فِي التَّعَاوُنِ. وَأَسْمَعُوا:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)؛

فَمَنْ طَعَى فِي الْأَسْتِهْلَاكِ أَوْ بَخَسَ الْمِقْدَارَ أَفْسَدَ مَجَارِيَ الرِّزْقِ.»

وَأَنْحَنَى «زَيْدُ الْحَرَاثُ» وَفِي كَفِّهِ قِطْعَةً تُرَابٍ: «يَا سَيِّدِي، نُسِمِدُ الْأَرْضَ، فَيَأْتِينَا نِتَاجُ غَزِيرِ سَنَةٍ، ثُمَّ تَضَعُفُ الْأَرْضُ أُخْرَى؛ أَهْوَى الْقَدْرُ»

فَأَجَابَ وَالْحِكْمَةُ تَتَدَفَّقُ فِي نَبْرَتِهِ: «إِنَّمَا هُوَ الْقَدْرُ إِذَا حُفِظَ. زِيدُوا مَا يَنْقُصُ، وَأَقْتَصِدُوا فِيمَا يَزِيدُ. لَا تُسْرِفُوا فَتُتْلِفُوا، وَلَا تَبْخُلُوا فَتُجْدِبُوا. وَأَسْمَعُوا:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَالْقَدْرُ قَاعِدَةُ التَّوَازُنِ، وَبِهِ تَدْوُمُ الْأَرْضِ وَأَهْلِهَا.

وَهُنَا تَقَدَّمَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَالَ، وَهُوَ يُدْنِي سُبَابَتَهُ مِنْ أَرْزَبَةِ أَنْفِهِ كَعَادَةٍ لَهُ إِذَا عَقَدَ فِكْرَةً: «أَتَرَى أَنْ نَعْلَمَ التُّجَّارَ مِقْدَارَ الرَّبْحِ كَمَا نَعْلَمُ الْحَرْفِيَّ مِقْدَارَ التَّسْخِينِ»

فَأَجَابَ الْإِمَامُ وَيَدُهُ تُؤَكِّدُ الْكَلِمَةَ بِرَفَقَةٍ خَفِيَّةٍ: «نَعَمْ.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

لِلرَّبْحِ قَدْرٌ إِنْ تَعَدَّاهُ التَّاجِرُ أَكَلَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَإِنْ قَصَرَ ضَاعَتْ حُقُوقُ الْعَامِلِينَ. فَالْعَدْلُ قِيَامُ السُّوقِ وَسِرُّ ادِّخَارِ النِّعْمَةِ.

وَأَسْتَأْنَفَ جَابِرٌ حِوَارَهُ، وَقَدْ أَضَاءَ الْوَعْيُ فِي عَيْنَيْهِ: «وَمَا مَوْضِعُ السَّكِينَةِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، فَهَلْ هِيَ نَتِيجَةُ الْقَدْرِ أَمْ سَبَبٌ لَهُ»

فَقَالَ الْإِمَامُ، وَقَدْ هَدَأَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ يُنْزِلُ عَلَى الْقُلُوبِ نَدَى: «هِيَ نَتِيجَةُ وَسَبَبٌ مَعًا. فَإِذَا التَّرَمَّتْ الْقَدْرُ هَدَأَتْ نَفْسُكَ فَأَحْسَنْتِ التَّقْدِيرَ، وَإِذَا هَدَأَتْ نَفْسُكَ بَصَرَكَ اللَّهُ بِمَوَاطِنِ الْقَدْرِ. وَأَقْرَأُوا:

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى ٣)؛

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَالْهُدَايَةُ تَتَّبَعُ التَّقْدِيرَ، وَالتَّقْدِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى هِدَايَةٍ. وَاقْرَءُوا أَيْضًا:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١) ...

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر ٥).

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، نَزَلَ مَعَهُ سَلَامُ النِّظَامِ وَسَكِينَةُ الْمَعْنَى؛
وَمَنْ أَقَامَ قَدْرَ اللَّهِ فِي شَأْنِهِ أَصَابَ مِنْ هَذَا السَّلَامِ نَصِيبًا.

وَتَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا الْمَصْلَحَجِيُّ فِي مَقْعَدِهِ مُتَضَجِّرًا: «وَأِنْ شَدَدْنَا
الْقَدْرَ عَلَى النَّاسِ، أَلَا يَضِيقُونَ»

فَرَدَّ الْإِمَامُ وَفِي صَوْتِهِ بِشَاشَةُ الرَّفْقِ وَقُوَّةُ الْحَقِّ: «لَا نُشَدِّدُ، بَلْ نُقِيمُ
الْإِعْتِدَالَ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ﴾

(الإسراء ٢٩).

فَالْعُلُوُّ فِي التَّشْدِيدِ مِثْلُ الْعُلُوِّ فِي التَّرْخِيسِ، وَكِلَاهُمَا يَقْطَعُ سَبِيلَ
الْدَّيْمُومَةِ.

وَتَقَدَّمَ زَيْنَبُ بِنْتُ مَعْنٍ وَفِي كَفِّهَا قِطْعَةٌ قُطْنٍ مَصْبُوغٍ: «يَا سَيِّدِي، فِي

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

صَبَغَ الْأَقْمِشَةَ نِسْبَ دَقِيقَةٍ: قَدَحَانَ لِلْمَاءِ، قَدَحٌ لِلنَّبْتِ، سَاعَةٌ لِلنَّفْعِ؛ إِنْ زِيدَ شَيْءٌ انْقَلَبَ اللَّوْنُ. أَهَذَا مِمَّا تُرِيدُ»

فَأَشَارَ الْإِمَامُ مُسْتَبْشِرًا: «هَذَا عَيْنُهُ. فِي كُلِّ صَنْعَةٍ «قَدَرٌ»؛ فَمَنْ حَفِظَهُ أَتَقَنَ وَأَدَامَ، وَمَنْ ضَيَّعَهُ أَفْسَدَ وَأَفْنَى. وَأَسْمَعُوا أَبَا آخَرَ يُؤَيِّدُهُ:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (الأنعام ٥٩).

فَمَنْ يَرَعَى قَدَرَ الْأَشْيَاءِ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا، أَفَلَا يَحْرَى بِأَنْ يَرَعَى قَدَرَ الْمِهْنَةِ وَالْمَعَاشِ»

ثُمَّ أَرْسَلَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ فِي الرَّحَابِ كَأَنَّهُ يُسْنِدُ الْبِنَاءَ بِحَجَرٍ آخِرٍ:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى ٢-٣).

ثُمَّ قَالَ: «الْتَّسْوِيَةُ فِي الْخَلْقِ، وَالْتَّقْدِيرُ فِي التَّصْرِيفِ، وَالْهِدَايَةُ فِي التَّطْبِيقِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَتْ قَامَتِ الدَّيْمُومَةُ عَلَى أَرْبَعَةٍ: قَدَرٌ يُنْظَمُ، وَعَدْلٌ يُقِيمُ، وَسَكِينَةٌ تُثَبِّتُ، وَتَعَاوُنٌ يُدِيمُ.»

وَأَطَّلَ «هَشَامُ بْنُ الْعَلَاءِ» وَقَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ: «فَهَلْ لِلْقَدَرِ مَجَالٌ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا لَهُ فِي الْحَرْفِ»

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَرَفَعَ الْإِمَامُ يَدَهُ يُقَسِّمُ الْكَلِمَةَ قِسْمَتَيْنِ: «نَعَمْ.

﴿وَلَا تَجْرِمُنْكُمْ سَنَا قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

(المائدة: ٨).

فَالْعَدْلُ قَدْرُ الْقَلْبِ فِي التَّعَامُلِ، كَمَا أَنَّ الْمِكْيَالَ قَدْرُ الْبَيْعِ فِي الشُّوقِ؛
وَمَنْ أَقَامَ الْعَدْلَ دَامَتْ أَلْفَتُهُ وَسَكِينَتُهُ.»

وَهُنَا قَالَ جَابِرٌ، وَفِي صَوْتِهِ لَهْفَةٌ مَنْ وَكَّلَ بِعَمَلٍ: «أَتَأْذَنُ أَنْ أُثَبِّتَ هَذِهِ
الْقَوَاعِدَ فِي دِفَاتِرِ اللَّصْنَاعِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ صَنْعَةٍ جَدَاوِلَ لِلْمِقْدَارِ، كَمِقْدَارِ الْمَاءِ
فِي الْعَجِينِ، وَمِقْدَارِ التَّسْخِينِ فِي الْحَدِيدِ، وَمِقْدَارِ التَّسْمِيدِ فِي الْحَقْلِ»

فَاسْتَبْشَرَ الْإِمَامُ وَقَالَ وَهُوَ يُقَرِّبُ كَفَّهُ مِنْ صَدْرِ جَابِرٍ: «هَذَا مَرَادُنَا.
اكْتُبْ، وَاسْتَمِدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ نُورَهَا؛ فَبِالتَّوَثُّيقِ يَدُومُ الْعِلْمُ، وَبِالْقَدْرِ تَدُومُ
النَّعْمَةُ. وَلِيَكُنْ فِي صَدْرِ كُلِّ بَابٍ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد ٨)،

وَفِي خَاتِمَتِهِ قَوْلُهُ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر ٤٩)،»،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

لِيَعْلَمَ الصَّانِعُ أَنَّ الْقَدَرَ دِينٌ وَمِهْنَةٌ وَسَبِيلُ الدِّيْمُومَةِ.»

ثُمَّ سَكَنَ الْمَجْلِسُ سُكُونًا مُهَابًا، وَرَاحَ نَفْسُ الْإِمَامِ يَتَرْتَّلُ مَعَ آخِرِ الْبَيَانِ
كَأَنَّهُ يَضَعُ الْخَاتِمَةَ عَلَى صَكِّ مُحْكَمٍ:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق ٣).

ثُمَّ قَالَ وَالْبِشَارَةُ تَلُوحُ فِي وَجْهِهِ: «مَنْ أَقَامَ الْقَدَرَ أَبْلَغَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَمَنْ طَغَى فِيهِ قَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ سَبِيلَ الدِّيْمُومَةِ.»

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ الْمَجْلِسُ، نَهَضَ حَبِيبُ الدُّنْيَا مُتَمَاهِلًا، ثُمَّ تَوَقَّفَ كَأَنَّهُ
يُضْغِي إِلَى نَبْضِ قَلْبِهِ، فَقَالَ بِصَوْتٍ أَخْفَتَ مِمَّا كَانَ: «لَعَلِّي أَجْرُبُ هَذَا الْقَدَرَ
فِي مِيزَانِي، فَإِنْ صَلَحَ الْبَيْعُ، سَلَّمْتُ لَكُمْ.»

فَأَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ، فَإِنْ اسْتَقَامَ قَدْرُهَا، اسْتَقَامَ مِيزَانُكَ.
وَأَتَّقِ الطُّغْيَانَ، فَقَدْ قِيلَ:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن ٨).»

وَخَرَجَ الْقَوْمُ عَلَى هُدُوءٍ، وَفِي قُلُوبِهِمْ نُورُ آيَاتٍ تَتَرَسَّخُ، وَفِي أَكْفِهِمْ
مِقَادِيرُ يُجَرَّبُونَهَا: هَذَا يَرْجِعُ إِلَى فُرْنِهِ يَقْيِسُ قَدَرَ الْمَاءِ فِي الْعَجِينِ، وَذَلِكَ إِلَى

مَجْمَرِهِ يُنْظَمُ قَدْرَ التَّسْحِينِ، وَآخِرُ إِلَى قَنَاتِهِ يَقُومُ مِثْلَ الْأَرْضِ لِيَصِلَ الْمَاءُ بِقَدْرِ،
وَالْتَّاجِرُ إِلَى مِيزَانِهِ يُقِيمُ الْكَئِيلَ بِالْقِسْطِ. وَكَانَ جَابِرٌ آخِرَ مَنْ خَرَجَ، وَدَفَنَتْهُ مَلِيَّةٌ
بِالْقَوَاعِدِ وَالْآيَاتِ، وَفِي صَدْرِهِ سَكِينَةٌ كَسَلَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. هَكَذَا تَجَلَّى لَهُمْ أَنَّ
«الْقَدْرَ» أَسَاسُ الدِّيْمُومَةِ وَالْإِسْتِمْرَارِيَّةِ وَالسَّكِينَةِ وَالْإِسْتِدَامَةِ؛ فِيهِ يَبْقَى الشَّيْءُ
عَلَى صِلَاحِهِ، وَبِهِ يُصْلَحُ مَا تَفَسَّدَ، وَعَلَيْهِ يَقُومُ عُمْرَانُ الْقُلُوبِ وَعُمْرَانُ الْأَرْضِ.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: التَّجَرُّبَةُ وَالْبَحْثُ عَنِ الْإِطْمِئْنَانِ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَلَطَّفُ بِنُورٍ خَفِيٍّ يَتَسَلَّلُ مِنْ فُرَجِ الشَّبَاكِ
كَخُيُوطٍ مُذْهَبَةٍ تَتَنَازَّرُ عَلَى الْحَصَى، وَتَتَرَاوَعُ الْهَمَسَاتُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ
حَتَّى يُسْمَعَ خَفَقُ الْقُلُوبِ كَأَنَّهُ دُقَاتُ مِيزَانٍ دَقِيقٍ يَطْلُبُ الْإِسْتِقَامَةَ. جَلَسَ الْإِمَامُ
فِي الْوَسْطِ، وَإِلَى جَانِبِهِ جَابِرٌ قَدْ ضَمَّ دَفْتَرَهُ إِلَى صَدْرِهِ كَمَنْ يَحْمِلُ سِرًّا يَخْشَى
أَنْ يَتَبَدَّدَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنَ لَوْحٍ مَرْقُومٍ وَقَصَبَةِ قِيَاسٍ،
وَحَبِيبُ الدُّنْيَا يَحُوكُ نَظْرَهُ فِي أَلْوَجُوهِ كَمَنْ يَفْتَشُ عَنْ رِنَحٍ مُبْتَكِرٍ. رَفَعَ الْإِمَامُ
صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَسِيرُ عَلَى الْأَسْمَاعِ سَيْرَ الْمَاءِ فِي الْقَنَاةِ:

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة: 260)،

ثُمَّ اتَّبَعَهَا بِالتَّمَامِ الْكَرِيمِ الَّذِي تَهْتَرُّ لَهُ الْأَرْوَاحُ:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: 260).

وَأَطَالَ السُّكُوتَ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ يُفْسَحُ لِلْمَعَانِي مَمَرًا فِي الصُّدُورِ، ثُمَّ قَالَ:

«هَهُنَا مِفْتَاحُ الدَّرْسِ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ آمَنَ نَالَ الْإِطْمِئْنَانَ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ صَدَّقَ اسْتَقَرَّ قَلْبُهُ. الْإِيمَانُ يَكُونُ بِالتَّصَدِيقِ، وَالْإِطْمِئْنَانُ يَكُونُ بِالتَّجَرُّبَةِ الْمُهَذَّبَةِ الَّتِي تُحَوِّلُ الْمَعْرِفَةَ الْمُجْمَلَةَ إِلَى شُهُودٍ مُفْصَّلٍ.»

أُنَحْنِي جَابِرٌ وَقَالَ وَفِي صَوْتِهِ رِعْشَةُ الْمُقْبِلِ عَلَى بَابٍ كَبِيرٍ: «يَا سَيِّدِي، قَدْ شَرَعْتُ فِي تَجَرُّبَةٍ فِي الْكِيمِيَاءِ، أُرِيدُ أَنْ أُثْبِتَ أَنَّ مَزْجَ مَاءِ الْمِلْحِ بِرَمَادٍ مُنَقَّى ثُمَّ تَسْخِينُهُ عَلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ يُنتِجُ بُلُورًا يُصْلِحُ لِتَنْقِيَةِ الزُّبُوتِ، وَلَكِنِّي أَتَرَدَّدُ؛ أَنَا عَلَى طَرِيقٍ يُفْضِي إِلَى الْإِطْمِئْنَانِ أَمْ إِلَى ظَنٍّ آخَرَ» فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «أَنْتَ عَلَى طَرِيقٍ مَنْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرْنِي﴾. هَذِهِ سُؤَالِيَّةُ الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ إِذَا طَلَبَ شُهُودًا يَرِيدُهُ أَطْمِئْنَانًا. أَمْضِ، وَلَكِنْ عَلَى مِيزَانٍ. فَالتَّجَرُّبَةُ دُونَ مِيزَانٍ تَمْوُجٌ لَا يُسْكِنُ قَلْبًا.»

قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يَرْفَعُ قَصَبَةَ الْقِيَاسِ كَمَنْ يَرْفَعُ شَاهِدًا: «لَا بُدَّ مِنْ فَرَضٍ مَبْنِيٍّ عَلَى أَحْتِمَالٍ مَعْقُولٍ، ثُمَّ خُطُواتٍ مُحْكَمَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ فِيهَا إِلَّا مُؤَثَّرٌ وَاحِدٌ، وَتَكَرَّرَ يَنْفِي الصُّدْفَةِ. فَإِنْ اسْتَقَامَ الْأَثَرُ عَلَى الْمَرَّاتِ اسْتَقَرَّ الْقَلْبُ وَحَصَلَ الْإِطْمِئْنَانُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا جَمَعْتَ الْعَقْلَ إِلَى الْقَلْبِ. فَأَلِطْمِئْنَانُ لَا يَأْتِي مِنَ الْعَيْنِ وَحْدَهَا، وَلَا مِنَ الْقَاعِدَةِ الْمُجَرَّدَةِ، بَلْ مِنْ تَزَاوُجِ الشَّاهِدِ وَالْدَّلِيلِ.»

خَرَجْنَا إِلَى السَّاحَةِ، فَصَبَّ جَابِرٌ قَدْرًا نُحَاسِيًّا صَغِيرًا، وَأَعَدَّ مِلْحًا

مُجَفَّفًا، وَرَمَادًا مُنْخَلًّا، وَمَاءً مَصْفُوعًا، وَقِطْعَةً فَحْمٍ لِلتَّسْحِينِ، وَمَكْيَالًا لِلأَوْزَانِ،
وَسَاعَةً رَمَلِيَّةً تَنْقَلِبُ كُلَّ نِصْفِ دَرَجَةٍ. وَقَالَ الْإِمَامُ: «سَمُّوا الْخُطُواتِ قَبْلَ أَنْ
تَسِيرُوا، فَالْتَّسْمِيَةُ مِقْدَارُ يَضْبُطُ الْعَمَلَ». فَقَالَ جَابِرٌ: «نُذِيبُ الْمِلْحَ فِي الْمَاءِ،
ثُمَّ نَمُزْجُهُ بِالرَّمَادِ، ثُمَّ نَرْفَعُ الدَّرَجَةَ عَلَى قَدَرٍ، وَنُسَجِّلُ مَا يَظْهَرُ فِي كُلِّ مُدَّةٍ».
وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَّاسِ: «وَنُثِبَتْ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْمُؤَثَّرَ الْمُرَادَ اخْتِبَارُهُ، فَإِذَا تَحَوَّلَ
الْأَثَرُ مَعَهُ عِلْمَ الرِّابِطِ».

تَصَاعَدَ الْبُخَارُ، وَتَنَازَرَتْ عَلَى جَانِبِ الْقَدَرِ نُقْطٌ بَيَضَاءُ كَانَهَا بَشَائِرُ
صَبَاحٍ عَلَى زُرْقَةٍ أَفْقٍ بَعِيدٍ. هَمَسَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «إِنَّهُ يَنْجَحُ، فَلْنَعْلَنِ الْمُنْتَجَحَ
وَنَبْعُهُ». فَلَاحَ فِي عَيْنِي الْإِمَامُ وَمِيزُ مَنْ حِرْصٍ وَرَفَقٍ، وَقَالَ: «الْإِطْمِئْنَانُ لَا
يُصْنَعُ فِي عَجَلَةٍ، وَلَا يُبَاعُ وَلَا يُشْتَرَى. أُعِيدُوا التَّجَرُّبَةَ. غَيِّرُوا قَدَرَ الرَّمَادِ مَرَّةً، ثُمَّ
قَدَرَ الدَّرَجَةَ مَرَّةً، وَأَثْبِتُوا الزَّمَنَ. ثُمَّ أَقْلِبُوا الْحَالَ، فَاثْبِتُوا الدَّرَجَةَ وَغَيِّرُوا الزَّمَنَ.
هَكَذَا تُفْصِلُونَ بَيْنَ صُدْفَةٍ تَتَكَرَّرُ وَسُنَّةٍ تَسْتَقِرُّ، وَمَعَ كُلِّ تَكَرَّرٍ يَزِيدُ الْقَلْبُ
أَطْمِئْنَانًا».

وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَخْبَرِ الْمَفْتُوحِ تَهَبُّ نَسَمَاتٌ بَارِدَةٌ، كَانَ الْإِمَامُ يَسْرُدُ
قِصَّةَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَنْ يُهْدِي قَلْبًا طَرِيقَ الطُّمَأْنِينَةِ: «قِيلَ لَهُ: ﴿أَوَلَمْ
تُؤْمِنْ﴾. فَقَالَ: ﴿بَلَى﴾، وَهَذِهِ دَرَجَةُ التَّصَدِيقِ، ﴿وَلَكِنْ لَيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾، وَهَذِهِ
دَرَجَةُ الشُّهُودِ. فَنُودِيَ إِلَى تَجَرُّبَةٍ مُبَاشِرَةٍ يَنْجَلِي فِيهَا الْأَمْرُ لِلْحِسِّ عَلَى قَدَرٍ

يُنَاسِبُ بَشَرِيَّتَهُ. فَفَهَمْنَا أَنَّ التَّجَرُّبَةَ لَيْسَتْ خُصُومَةً لِلْإِيمَانِ، بَلْ جِسْرًا يَزِيدُهُ أَطْمِئْنَانًا.»

سَجَّلَ جَابِرٌ مَرَّاتٍ التَّسْحِينَ وَأَوْزَانَ الْمِلْحِ وَمِنْسَاءَ الزَّمَنِ فِي دَفْتَرٍ قَدْ تَكَثَّرَتْ فِيهِ الْأَعْمَدَةُ وَالْأَرْقَامُ. وَكُلَّمَا تَطَابَقَتِ النَّتِيجَةُ زَادَ وَجْهُهُ نُورًا. مَعَ الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ قَالَ وَقَلْبُهُ يَخْفِقُ بِرَقَّةٍ: «الآنَ أَجِدُ فِي صَدْرِي سَكِينَةً لَمْ أَعْهَدْهَا قَبْلُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذِهِ بَذْرَةُ الْأَطْمِئْنَانِ، غَرَسْنَاهَا بِالتَّسْمِيَةِ، وَسَقَيْنَاهَا بِالْخُطُوبِ، وَحَفِظْنَاهَا بِالتَّكْرَارِ، فَأَثْمَرَتْ سَكِينَةً. لَا تَسْتَهِنُ بِهَا، فَإِنَّهَا تَحْمِلُكَ عَلَى الْإِنْصَافِ إِذَا اخْتَلَفْتَ، وَعَلَى الصَّبْرِ إِذَا أَتَيْتَ، وَعَلَى الْعُدُولِ عَنِ الْهَوَى إِذَا زَيَّنْتَ لَكَ نَفْسًا.»

تَقَدَّمَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُدَقِّقُ فِي الدَّفْتَرِ، ثُمَّ قَالَ: «بَقِيَ شَيْءٌ يَا سَيِّدِي. لَا يَتِمُّ الْأَطْمِئْنَانُ حَتَّى نَعْرِضَ مَا بَلَّغْنَاهُ عَلَى أَهْلِ الْخَبَرَةِ، فَيَشْهَدُوا أَنَّ الْخُطُوبَ سَلِيمَةً وَالْمُشَاهَدَاتِ مُطَرَّدَةً.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا تَمَامُ الْمِيزَانِ. فَإِنْ أَقْرَأْتُمْ زِدْتُمْ سُكُونًا، وَإِنْ أَقَامُوا لَكُمْ عِلَّةً رَجَعْتُمْ فَأَصْلَحْتُمْ، وَمَنْ رَجَعَ لِلْحَقِّ زَادَهُ اللَّهُ بَصِيرَةً وَأَطْمِئْنَانًا.»

وَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ لَانَ صَوْتُهُ: «كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ التَّطْوِيلَ يُضَيِّعُ الرَّبِّحَ، فَإِذَا هُوَ يُؤَمِّنُهُ. أَرَى الْآنَ أَنَّ الْأَطْمِئْنَانَ يُنْقِذُنَا مِنْ صَفَقَاتِ تَضْيِيعٍ مَعَ أَوَّلِ شُبْهَةٍ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «الصَّدَقُ فِي الْعِلْمِ يُنْتِجُ صِدْقًا فِي التَّجَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ

الْإِطْمِئْنَانُ فِي مِيزَانِ الْبَحْثِ أَفَاضَهُ اللَّهُ عَلَى مِيزَانِ الْبَيْعِ وَالْشَّرَاءِ.»

ثُمَّ حَوَّلَ الْإِمَامُ الْحَدِيثَ إِلَى الْحَقْلِ وَالسَّاقِيَةِ لِيَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ مَخْبِرِ الْمَوَادِّ وَمَخْبِرِ الْحَيَاةِ. قَالَ وَهُوَ يَدْخُلُ الْمَمَرَّ الْمُؤَدِّي إِلَى الْحُقُولِ: «نَقِيسُ الْإِطْمِئْنَانِ فِي الْمَاءِ كَمَا قَسْنَاهُ فِي الْمِلْحِ. نَزِيدُ الْمِلَّ شَعْرَةً، فَنَرُصِدُ جَرَيَانًا أَسْرَعَ، ثُمَّ نَنْقُصُهُ فَنَرُصِدُ سُكُونًا أَكْثَرَ. نُثَبِّتُ الزَّمْنَ وَنَقِيسُ مَا يَمُرُّ مِنَ الْمَاءِ فِي قَدَحٍ مَعْلُومٍ. فَإِذَا طَرَدَتِ الْعَلَاقَةُ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا، طَابَتِ النَّفْسُ، فَهَذَا مِنْ شُعَاعِ الْإِطْمِئْنَانِ.» وَقَالَ جَابِرٌ وَهُوَ يَكْتُبُ: «أَتَعَلَّمُ أَنَّ أَسْمِي كُلَّ شَيْءٍ وَأَقِيدُ كُلَّ خُطْوَةٍ؛ فَالْتَّسْمِيَةُ تُطْفِئُ الْآرْتِبَاكَ، وَالتَّقْيِيدُ يُغْلِقُ أَبْوَابَ الظَّنِّ.»

عِنْدَ الْمَسَاءِ، عُدْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَقَدْ أَمْتَلَأَ الْهَوَاءُ بِعَطْرِ ثُرَابٍ بَعْدَ سَقْيٍ، وَسَكِينَةٌ تَتَخَلَّلُ الْأَنْفَاسَ كَأَنَّهَا نَعْمَةٌ خَفِيَّةٌ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِالْقَلْبِ. جَلَسَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «مَا فَرَّقَ مَا بَيْنَ مَنْ آمَنَ وَقَلْبُهُ قَلِقٌ، وَمَنْ آمَنَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ الْأَوَّلُ يَتَحَرَّكُ مَعَ كُلِّ هَوًى، وَالثَّانِي يَسِيرُ عَلَى جَادَةٍ لَا تُزَاحِمُهُ الظُّنُونُ. وَمَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ فَتَحَ لَنَا بَابَ التَّجَرُّبَةِ لِنَزِيدَ إِيْمَانَنَا أَطْمِئْنَانًا، فَنَكُونُ أَعْدَلَ فِي الْحُكْمِ، وَأَصْدَقَ فِي الْقَوْلِ، وَآتَقَنَ فِي الْعَمَلِ.»

ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «اُكْتُبْ خَاتِمَةَ الدَّرْسِ فِي صَفْحَتِكَ الْأَخِيرَةِ. اُكْتُبْ أَنَّ التَّجَرُّبَةَ الْمُهْدَبَةَ تَنْقِذُ الْعَقْلَ مِنْ تَقَلُّبِ الْأَهْوَاءِ، وَتَنْقُلُهُ مِنْ مَعْرِفَةٍ مُجْمَلَةٍ إِلَى شُهُودٍ يُبَيِّنُ الصَّدْرَ، فَيَوْلَدُ مِنْ ذَلِكَ الْإِطْمِئْنَانُ الَّذِي يَثْبُتُ عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ.»

فَاطَاَعَ جَابِرٌ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «أَجِدُ أَلَانَ أَنِّي لَا أَكْتَفِي بِأَنْ أَعْلَمَ، بَلْ أَحْتَاجُ أَنْ أَطْمَئِنَّ. وَأَفْهَمُ أَنَّ الْإِطْمِئْنَانَ يَحْفَظُنِي مِنَ التَّسَاهُلِ وَيَحْمِينِي مِنَ الْغُرُورِ.»

وَقَفَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ كَأَنَّهُ يَخْتِمُ بَابًا فِي كِتَابٍ فَقَالَ: «إِنَّا إِذَا جَمَعْنَا بَيْنَ فَرْضٍ مَعْقُولٍ، وَخُطُوبَاتٍ مُسَمَّاةٍ، وَتَكَرَّرٍ يُسْقِطُ الصَّدْفَةَ، وَعَرَضٍ عَلَى أَهْلِ الْخَبِيرَةِ، ثُمَّ تَوَاضَعَ يَرْجِعُ عِنْدَ الْخَطَا، وَلَدَ فِي الصُّدُورِ الْإِطْمِئْنَانَ الَّذِي يَجْعَلُنَا أَثَبَّتَ فِي الْقَوْلِ وَأَقْوَمَ فِي الْعَمَلِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذِهِ خِيْطَةُ الدَّرْسِ قَدْ اكْتَمَلَتْ. أَحْفَظُوهَا فِي صُدُورِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْفَظُوهَا فِي دِفَاتِرِكُمْ.»

وَقَامَ وَقَامَ أَلْقَوْمُ خَلْفَهُ، ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْنَا وَقَالَ وَنَبَرْتُهُ تَحْمِلُ مِنْ وَقَارِ الْآيَةِ وَعَطْفِ الْمُرْشِدِ: «لَا تَقُولُوا إِنَّ الْعِلْمَ يَقُودُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ فَقَطْ، بَلْ قُولُوا إِنَّ الْعِلْمَ يَقُودُ إِلَى الْإِطْمِئْنَانِ، وَالْإِطْمِئْنَانُ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي تَجَرُّبَةِ مُسَمَّاةٍ عَلَى مِيزَانِ مُسْتَقِيمٍ. مَنْ قَالَ رَبِّ أُرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قِيلَ لَهُ سِرِّ فِي سَبِيلِ التَّسْمِيَةِ وَالتَّثْبِيتِ وَالتَّكْرَارِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ قَلْبُكَ. هَكَذَا تُصْلِحُونَ عُلُومَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ، وَهَكَذَا يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ سَكَنٌ لَا تُزْعِرُهُ الطُّنُونُ.»

فَخَرَجْنَا نَمْشِي وَصَدَانَا يُرَدِّدُ الْخَاتِمَةَ كَأَنَّهُمَا نَشِيدٌ مَخْفِيٌّ يَجْرِي فِي الْأُرُوقِ: «الْعِلْمُ يَهْدِي إِلَى الْإِطْمِئْنَانِ، وَالْإِطْمِئْنَانُ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي التَّجَرُّبَةِ الْمُهَذَّبَةِ عَلَى مِيزَانٍ عَادِلٍ.» هَكَذَا عَرَفْنَا أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى سُكُونِ الصُّدُورِ مَرْكُوبُهُ التَّسْمِيَةُ وَالتَّقْيِيدُ وَالتَّكْرَارُ وَعَرَضُ الْقَوْلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ عَلَى هَذَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمِيزَانِ حَبَّةُ رَمْلِ تُشَيِّدُ قَلْعَةَ الطَّمَانِينَةِ فِي الْقَلْبِ.

الدَّرْسُ الرَّابِعُ: قُوَّةُ التَّكْرَارِ (جَرِيُّ الْعَادَةِ) وَالتَّوَثُّيقِ

تَسَلَّلَ الضِّيَاءُ الرَّقِيقُ قَبْلَ الْعَصْرِ إِلَى صُفُوفِ الْمَسْجِدِ، يَجْرِي عَلَى الْحَصَى كَأَنَّهُ مَاءٌ نَقِيٌّ يَلْمَسُ الْقُلُوبَ فَيَهْدِيهَا. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَيَمِينِهِ جَابِرٌ يَحْمِلُ دَفْتَرًا سَمِيكًا يُلُوحُ عَلَيْهِ أَثَرُ الْأَسْتِعْمَالِ، وَبِشِمَالِهِ صَاحِبُ الْقِيَاسِ قَدْ نَصَبَ قَصَبَتَهُ وَوَضَعَ قُسْطَاسَهُ، وَخَلْفَهُمَا نَاصِرُ السُّنَنِ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ رُقْعٍ وَقَلَمٍ وَدَوَاةٍ كَمَنْ يُهَيِّئُ لَوَثِيقَةً سَتَعْبُرُ الزَّمَانَ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ، فَتَدَفَّقَتِ الْآيَةُ كَسِيلٍ بَارِدٍ مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ:

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (الملك: 4)،

ثُمَّ سَكَتَ هُنِيهَةً، وَاتَّبَعَهَا بِالتَّلَاوَةِ كَامِلَةً لِمَا بَعْدَهَا، فَاهْتَرَّتِ النَّفُوسُ لَوَفْعِ التَّكْلِيفِ: رُجُوعٌ بَعْدَ رُجُوعٍ، وَنَظَرٌ بَعْدَ نَظَرٍ، حَتَّى يَنْقَلِبَ الْبَصَرُ إِلَى صَاحِبِهِ وَقَدْ عَرَفَ حَدَّهُ وَحَدَّ مَا يَنْظُرُ فِيهِ.

قَالَ الْإِمَامُ وَصَوْتُهُ يَسْرِي بِرِفْقٍ: «التَّكْرَارُ (جَرِيُّ الْعَادَةِ) مِنْ سُنَنِ النَّظَرِ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ لَا تُسَلَّمُ أَسْرَارَهَا لِمَنْ نَظَرَ نَظْرَةً وَاحِدَةً ثُمَّ أَنْصَرَفَ. مَنْ عَادَ كَرَّتَيْنِ

ثَبَّتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ عَادَ عَشْرًا اسْتَقَرَّ الطُّمَآنِينَةُ فِي صَدْرِهِ. وَالتَّوَثُّيقُ صِنُو التَّكْرَارِ؛ فَمَا لَمْ يُكْتَبْ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَمَا لَمْ يُسَمَّ وَيُحَدَّ بِأَوْقَاتٍ وَمَقَادِيرَ ضَاعَ فِي الرِّيَّاحِ.»

تَقَدَّمَ جَابِرٌ وَفِي عَيْنَيْهِ لَمَعَانُ مُتَعَلِّمٍ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْمُحَاوَلَةِ، وَقَالَ: «قَدْ أَعَدَدْنَا يَا سَيِّدِي خُطَّةَ تِكْرَارٍ لِّلتَّجَرُّبَةِ الَّتِي بَنَيْنَاهَا فِي الدَّرْسِ السَّابِقِ، وَسَنُغَيِّرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مُؤَثَّرًا وَاحِدًا وَنُثَبِّتُ سَائِرَ الْأَحْوَالِ.» فَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَهُوَ يُقَلِّبُ قَصَبَتَهُ: «الْوَقْتُ وَالْمِقْدَارُ وَالِدَّرَجَةُ وَوَسِيلَةُ التَّسْخِينِ وَوَعَاءُ الْخَلِيطِ، كُلُّهَا تُسَمَّى وَتُحَدَّدُ. فَإِنْ اخْتَلَّتِ الْأَسْمَاءُ اخْتَلَّتِ النَّتِيجَةُ.»

قَالَ نَاصِرُ السُّنَنِ وَقَدْ بَسَطَ أَمَامَهُ صَفَحَاتٍ بَيَضًا مُرَقَّمةً: «سَأُثَبِّتُ الْخُطُوبَاتِ كُلَّهَا، وَأَكْتُبُ مَوَاقِيتَ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِنْتِهَاءِ، وَأَذْكُرُ الْأَوْزَانَ وَالْكَيْلَ، وَأُفَرِّقُ بَيْنَ مَا رَأَيْنَاهُ بِالْعَيْنِ وَمَا قَدَّرْنَاهُ بِالْأَدَاةِ، ثُمَّ أَضَعُ خَاتِمَ الْمَكَانِ وَتَوْفِيعَ الشُّهُودِ. فَإِنَّ أَلْعِلْمَ إِنْ لَمْ يُرَوْ بِسِنْدٍ صَحِيحٍ ضَاعَ مَعَ ضَيَاعِ أَهْلِهِ.» فَأَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «أَصَبْتَ مَثَلِ الْأَسْلَافِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْفَظُوا كَلِمَةً إِلَّا بِإِسْنَادٍ، وَلَا حِكْمَةً إِلَّا بِشُهُودٍ. وَهَكَذَا التَّجَرُّبَةُ؛ لَا تُقْبَلُ بِلَا إِسْنَادٍ مِنَ التَّكْرَارِ وَالتَّوَثُّيقِ.»

أَنْتَقَلْنَا إِلَى السَّاحَةِ، وَنَصَبْنَا الْقِدْرَ كَمَا فَعَلْنَا قَبْلًا، وَوَضَعْنَا إِلَى جَانِبِهِ قِدْرًا آخَرَ مِثْلَهُ لِنُقَارِنَ، وَأَعَدَدْنَا قِطْعًا مِنَ الْفَحْمِ مُتَسَاوِيَةً الْحَجْمِ، وَأَوْزَانًا مُوَحَّدةً لِلْمِلْحِ وَالرَّمَادِ، وَسَاعَتَيْنِ رَمْلِيَّتَيْنِ تُقْلَبَانِ فِي الْآنِ نَفْسِهِ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ:

«نُثِبْتُ الْمَكَانَ أَوَّلًا؛ فَرُطِبَةُ الْهَوَاءِ وَالرَّيْحُ تُؤَثِّرَانِ فِي التَّبَخُّرِ، فَجَعَلُ الْعَمَلِ فِي نَفْسِ الْبُقْعَةِ، وَتَقَارُنُ بَيْنَ قَدَرَيْنِ يَخْتَلِفُ فِيهِمَا مُؤَثَّرٌ وَاحِدٌ فَقَطُ.» فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي دَفْتَرِهِ، وَقَالَ: «الْمَرَّةُ الْأُولَى: نَزَعُ الدَّرَجَةِ عَلَى قَدَرٍ مُسَمًّى وَنُثِبْتُ الزَّمَنَ؛ الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ: نُزِيحُ الزَّمَنِ وَنُثِبْتُ الدَّرَجَةُ؛ الْمَرَّةُ الثَّلَاثَةُ: نُغَيِّرُ نِسْبَةَ الْمِلْحِ إِلَى الرَّمَادِ. وَفِي كُلِّ كَرَّةٍ نَكْتُبُ الْمُشَاهَدَةَ وَنُثِبْتُ الْخَطَأَ الْمُحْتَمَلُ.»

تَصَاعَدَ الْبُخَارُ فِي الزَّوَالِ وَتَرَكَبَ فِي الْهَوَاءِ رَائِحَةُ الْمِلْحِ وَالرَّمَادِ، ثُمَّ بَدَأَتْ نُقْطُ بَيْضَاءُ تَتَكَوَّنُ عَلَى جُذُرَانِ الْقَدَرِ كَمَا لَوْ أَنَّ الصُّبْحَ يَكْتُبُ أَوَّلَ حُرُوفِهِ. قَالَ جَابِرٌ: «فِي الزَّمَنِ الْمُسَمًّى تَكُونُ الْبُلُورُ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ نَقْصِ الزَّمَنِ انْخِفَاضُ الْمِقْدَارِ، وَعِنْدَ زِيَادَةِ الدَّرَجَةِ زَادَ التَّكَوُّنُ وَلَكِنْ ظَهَرَ شَيْءٌ مِنَ السَّوَادِ فِي الْخَلِيطِ.» فَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «التَّكَرُّرُ كَشَافٌ لِلْخَفِيِّ؛ يَكْشِفُ مَوَاطِنَ الْفَسَادِ فِي الْخُطُوبَاتِ وَيُرِيكَ أَيُّ الْمُؤَثَّرَاتِ أَشَدُّ وَقَعًا. لَوْ لَمْ نَكْرِّرْ لَمَا عَرَفْنَا أَنَّ زِيَادَةَ الدَّرَجَةِ تُعْطِي قَدْرًا وَتُفْسِدُ قَدْرًا.»

وَفِيمَا نَاصِرُ السُّنَنِ يُثَبِّتُ فِي رُفْعِهِ: التَّارِيخَ وَالسَّاعَةَ وَالْمَكَانَ وَأَسْمَاءَ الْحَاضِرِينَ وَوَصَفَ الْأَدَوَاتِ وَنَسَبَ الْمَوَادِّ، وَصَفَةَ اللَّوْنَ وَالرَّائِحَةَ وَالْمَلَمَسَ، قَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا يَصِيرُ الْعَمَلُ شَهَادَةً. لَوْ ضَاعَ الرَّاوي ضَبَطَتُهُ الرَّوَايَةُ، وَلَوْ غَابَ الشَّاهِدُ قَامَتْ أَوْصَافُهُ مَقَامَهُ. وَالْعِلْمُ الَّذِي لَا يُوَثَّقُ يَبْقَى أَسِيرًا لِصَاحِبِهِ؛ فَإِذَا مَاتَ مَاتَ مَعَهُ.»

وَحِينَ مَالَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْغُرُوبِ كَانَ قَدْ اكْتَمَلَتْ لَنَا كَرَاتٌ كَثِيرَةٌ؛
كُلُّ كَرَّةٍ تَحْمِلُ دَقِيقًا مِنْ فَوَاتِ التَّسَاهُلِ وَتَوْسِيعًا مِنْ فَهْمِ سُنَّةِ الْأَسْبَابِ. قَالَ
جَابِرٌ: «أَحْصَيْنَا يَا سَيِّدِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ كَرَّةً، وَفِي كُلِّ نَتِيجَةٍ تَقْتَرِبُ مِنَ الْأُخْرَى
حَتَّى صَارَ الْإِخْتِلَافُ يَضِيقُ، وَالصُّورَةُ تَتَضَخُّ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا مِنْ بَرَكَه
التَّكْرَارِ؛ يُضِيقُ مَجَالَ الرَّيَّةِ حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مَا لَا يَضُرُّ بِالْحُكْمِ. وَالطَّمَأْنِينَةُ
تُولَدُ فِي الصَّدْرِ وَقَدْ رَأَى الْقَلْبُ الطَّرِيقَ مُسَمًّى مَوْصُوفًا، لَا أَمْنِيَّةَ ضَعِيفَةً وَلَا
خَيَالًا مُبْهَمًا.»

وَلَمَّا دَنَا مَوْعِدُ الصَّلَاةِ، جَمَعَ نَاصِرُ السُّنَنِ رُقْعَهُ فِي كُرَّاسَةٍ، وَوَضَعَ
عَلَيْهَا عُنْوَانًا مُحْكَمًا وَخَاتِمَ الْمَكَانِ وَأَسْمَاءَ الشُّهُودِ، ثُمَّ قَالَ: «سَأَنْسُخُ هَذِهِ
الْصَّفَحَاتِ نُسْخًا، فَنُوجِّهُهَا إِلَى مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الشَّانَ لِيُقَارِنَ، فَإِنْ طَابَقَتْ
نَتَائِجُهُمْ نَتَائِجَنَا زَادَ الْأَمْرُ ثُبُوتًا.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا هُوَ تَمَامُ التَّوْثِيقِ؛ أَلَّا يَبْقَى
أَعْلَمُ سِرًّا فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَصِيرُ أَمَانَةٌ مُشَاعَةً بَيْنَ الْخُلَصَاءِ. وَكَذَلِكَ كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْحَدِيثِ؛ يَجْمَعُونَ الطَّرِيقَ وَيُقَابِلُونَ الرِّوَايَاتِ حَتَّى يَصِيرَ الْمَعْنَى بَيِّنًا.»

تَحَرَّكَ حَبِيبُ الدُّنْيَا فِي الطَّرَفِ، وَقَالَ بِحَذَرٍ قَدْ لَانَ: «كُنْتُ أَرَى أَنَّ
تِكْرَارَ الْعَمَلِ يُؤَخِّرُ الرِّيحَ، فَإِذَا هُوَ يَعْصِمُنِي مِنْ خَسَارَةِ تَوْلِيدِهَا الْعَجَلَةَ. وَكُنْتُ
أَعُدُّ الْكِتَابَةَ فَضْلَ كَلَامٍ، فَإِذَا هِيَ حِرْزُ الْعِلْمِ وَعِصْمَتُهُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «الْمِيزَانُ
وَاحِدٌ فِي السُّوقِ وَفِي الْمَخْبَرِ؛ مَنْ بَاعَ بِلَا بَيِّنَةٍ ضَيَّعَ حَقَّهُ وَحَقَّ غَيْرِهِ، وَمَنْ

حَكَمَ بِلَا تَكَرَّارٍ أَوْثَقِ صَيِّعَ الْحَقِّ. وَالتَّوْثِيقُ صِيَانَةٌ لِلصِّدْقِ، وَالتَّكَرُّارُ حِرَاسَةٌ لِلطَّرِيقِ مِنْ أَهْوَاءِ النَّفْسِ.»

دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فِي سَكِينَةِ الْمَغْرِبِ، وَبَعْدَ الصَّلَاةِ أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى جَابِرٍ أَنْ يَقُومَ فَيَقْرَأَ خُلَاصَةً مَا كُتِبَ. قَامَ وَصَوْتُهُ يَحْمِلُ نَفْسًا جَدِيدًا: «فِي كُلِّ كَرَّةٍ كَانَ لِلزَّمَنِ قَدْرٌ، وَلِلدَّرَجَةِ قَدْرٌ، وَلِلْمِزَاجِ قَدْرٌ، نُسَمِّيهِ وَنُشِئُهُ، ثُمَّ نُغَيِّرُ مُؤَثَّرًا وَاحِدًا وَحْدَهُ؛ فَإِنْ أَطْرَدَ الْأَثَرُ عَلَى الْأَمْرَاتِ، ثَبَتَ الْحُكْمُ، وَإِلَّا رَجَعْنَا فَصَحَّحْنَا. وَفِي كُلِّ كَرَّةٍ نَكْتُبُ بَيَانًا لِمَا رَأَيْنَا، وَنُمَيِّزُ بَيْنَ شُهُودِ الْعَيْنِ وَقَدْرِ الْأَدَاةِ، وَنَضَعُ تَارِيخًا وَسَاعَةً وَمَكَانًا، وَنُشِئُ أَسْمَاءَ الْحَاضِرِينَ.» ثُمَّ سَكَتَ وَقَالَ: «وَالْآنَ أَجِدُ فِي صَدْرِي سَكِينَةً زَادَتْ عَلَى مَا كُنْتُ أَجِدُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ؛ فَالتَّكَرُّارُ أَزَالَ عَنِّي غِشَاوَةَ التَّرَدُّدِ، وَالتَّوْثِيقُ جَعَلَ مَا عَلِمْتُهُ مُشَاعًا لِمَنْ بَعْدِي.»

قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ يُشْنِي وَيَتَمَّمُ: «وَمِنْ قُوَّةِ التَّكَرَّارِ أَنَّهُ يَهْدُبُ النَّفْسَ كَمَا يَهْدُبُ الْمِنْهَاجُ؛ فَمَنْ لَازَمَ الْإِعَادَةَ عَلَى مِيزَانٍ عَرَفَ مَوَاطِنَ الزَّلَلِ فِي نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَهَا فِي أَدَاتِهِ، وَمَنْ كَتَبَ السَّرَّ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ صَارَ أَمِينًا عَلَيْهِ لَا مُتَمَلِّكًا لَهُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَهَذَا مِفْتَاحٌ لِمَنْ طَلَبَ الطَّمَأْنِينَةَ: لَيْسَتْ فِي قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا فِي نَظَرَةٍ عَاجِلَةٍ، بَلْ فِي كُرَاتٍ مُسَمَّاةٍ، وَصَفَحَاتٍ مَكْتُوبَةٍ، وَقُلُوبٍ تُحَاسِبُ نَفْسَهَا كَمَا تُحَاسِبُ أَدَاتِهَا.»

ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى نَاصِرِ السُّنَنِ وَقَالَ: «إِذَا فَرَعْتَ مِنَ النَّسْخِ فَابْعَثْ بِهِ إِلَى

مَنْ نَعْرِفُ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ، وَدَعُ فِي آخِرِ الصَّفَحَاتِ سُؤلاً مَفْتُوحاً: هَلْ تَطَرَّدُ
النَّيِّجَةُ مَعَكُمْ وَبِمَاذَا تُصَيَّبُونَ مِنْ دَقِيقِ التَّقْيِيدِ مَا لَمْ نُصِبْهُ فَالْعِلْمُ لَا يَكْبُرُ إِلَّا
بِالْمُحَاوَرَةِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِالتَّصْوِيبِ.»

قَامَ الْقَوْمُ عَلَى حَلَقَةٍ صَغِيرَةٍ كَانَهَا تَاجٌ عَلَى رَأْسِ الْمَسْجِدِ، وَقَالَ الْإِمَامُ
حَاتِمًا وَنَبَرْتُهُ تَحْمِلُ سَكِينَةً مَنْ أَتَى عَلَى الطَّرِيقِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ: «التَّكْرَارُ هُوَ
مِيزَانُ التَّكْدُّ، وَبِهِ تَتَحَوَّلُ الْمَعْرِفَةُ مِنْ خَيَالٍ مُرْتَعَشٍ إِلَى صُورَةٍ ثَابِتَةٍ تُنِيرُ الْقَلْبَ
وَتَضْبِطُ الْعَقْلَ، وَالتَّوَثُّيقُ هُوَ جِسْرُ الْعِلْمِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ؛ يَحْمِلُ التَّجَرُّبَةُ مِنْ زَمَانٍ
إِلَى زَمَانٍ، وَمِنْ صَدْرٍ إِلَى صَدْرٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى الْخَيْرُ حَبِيسَ الْبِدَايَةِ بَلْ يَصِيرُ
مِيرَاثًا مُشَاعًا. فَارْجِعُوا الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا وَعَشْرًا، وَاكْتُبُوا مَا تَرَوْنَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ
يَأْمُرْ بِالرُّجُوعِ إِلَّا لِيُولَدَ فِي قُلُوبِكُمُ الطُّمَائِنَةُ، وَلَمْ يَهْدِكُمْ الْقَلَمَ إِلَّا لِيَحْفَظَ لَكُمْ
الْحَقَّ حَتَّى تَلْقَوْهُ.»

ثُمَّ سَادَ الصَّمْتُ قَلِيلًا، صَمْتُ يُسَمَّى فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ، وَيُضْبَطُ فِيهِ
كُلُّ قَدْرٍ بِقَدْرِهِ، وَتَنْبُضُ فِيهِ الْقُلُوبُ عَلَى إِيقَاعِ آيَةٍ عَظِيمَةٍ تَدْعُو النَّاطِرَ أَنْ يَعُودَ،
ثُمَّ يَعُودَ، حَتَّى يَهْدَأَ وَيَسْكُنَ، فَيَقَالَ لَهُ: قَدْ أَحْسَنْتَ، فَقَدْ أَثْبَتَ. وَمِنْ لَيْلَةٍ ذَلِكَ
الْيَوْمِ خَرَجَتْ نُسخُ «كُرَاسَةِ التَّوَثُّيقِ» فِي أَيْدِي طَلَبَةِ وَشُيُوخِ، يَتَنَاقَلُونَهَا كَمَا
تُتَنَاقَلُ دُرَرُ الْحِكْمَةِ، وَيَفْتَحُونَ مَعَهَا طَرِيقًا جَدِيدًا إِلَى الطُّمَائِنَةِ لَا تَنْقَطِعُ مَدَاهُ،
لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى كَرَاتٍ مَعْدُودَةٍ وَصَفَحَاتٍ مَشْهُودَةٍ وَقُلُوبٍ صَادِقَةٍ. هُنَاكَ عَرَفَ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْقَوْمُ أَنَّ مَا بُنِيَ عَلَى التَّكْرَارِ يَبْقَى، وَمَا كُتِبَ بِصِدْقٍ يَنْقُلُ الْخَيْرَ كَابِرًا عَنْ
كَابِرٍ، وَأَنَّ «التَّكْرَارَ مِيزَانُ التَّأَكُّدِ، وَالتَّوْثِيقَ جِسْرُ الْعِلْمِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ».

الفصلُ الثَّانِي: سِحْرُ التَّسْخِيرِ وَالتَّشْكِيلِ

● المَوَازِينُ:

- التَّسْخِيرُ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (النحل: 12).
- التَّحْوِيلُ وَالتَّشْكِيلُ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: 96).
- الشَّخْصِيَّاتُ الْمُحَوَّلَةُ: يَتَحَدَّثُ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ وَعَاصِمُ الْحَرْفِيُّ عَنِ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ قَنْطَرَةٍ جَدِيدَةٍ. يُوضِّحُ الْإِمَامُ أَنَّ قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى تَحْوِيلِ الْمَوَادِّ وَتَسْخِيرِهَا هِيَ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ. يُشَارِكُ سَلْمَى الْأُصُولِيَّةُ وَلُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ فِي النِّقَاشِ، وَيُؤَكِّدَانِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّشْكِيلَ يَجِبُ أَنْ يَهْدَفَ إِلَى الْمَنْفَعَةِ الْعَامَةِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّسْخِيرِ الْإِلَهِيِّ

كَانَ الْمَسْجِدُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ يَتَلَأَلُ فِي سَكِينَةٍ مُشْرِقَةٍ، وَظِلَالُ الرِّوَاقِ تَنْسَابُ كَسْرَائِيلَ رِيحَ لَطِيفَةٍ تَمْسُحُ ظُهُورَ الْقُلُوبِ فَتَهْدَأُ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ، وَحَلَقَ حَوْلَهُ الْقَوْمُ: صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ بِنَظَرَتِهِ الْمُشْرِقَةِ عَلَى سَمَاءِ الْحَرَكَاتِ وَدَوْرَانِ الْأَفْلَاقِ، وَ«عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ» بِيَدَيْهِ الْخَشَنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَا يَزَالُ فِيهِمَا أَثَرُ الْمَعُولِ وَرَائِحَةُ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ، وَجَابِرٌ بِدَفْتَرِهِ الْمَسْطُورِ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ بِقَصَبَتِهِ وَمِقْدَارِهِ، وَنَاصِرُ السَّنَنِ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ صُحُفٍ وَأَقْلَامٍ يُهَيِّئُهَا لِشُهُودٍ وَتَوْقِيعٍ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ عَلَى مَهَلٍ، فَانْسَابَتْ أَلَايَةُ كَأَنَّهَا مَاءٌ بَارِدٌ جَرَى عَلَى صَفْحَةِ حَجَرٍ أَمْلَسَ:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ﴾

(النحل: 12)،

ثُمَّ اتَّبَعَهَا بِمَا يُتِمُّ الْمَعْنَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ التَّسْخِيرَ يَمْتَدُّ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالرِّيَّاحِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ

مِيزَانٌ يُعْرِفُ مِنْهُ مَقَامُ الْإِنْسَانِ بَيْنَ النِّعْمَةِ وَالْأَمَانَةِ.

سَكَتَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ: «يَا أَصْحَابَ الرَّأْيِ وَالْيَدِ، إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَيْسَا دَوْرَتَيْنِ عَمِّيَاوَيْنِ، بَلْ هُمَا سَاعَتَانِ مُسَخَّرَتَانِ لِنُقَاسِ عَلَيْهِمَا الْأَعْمَالُ وَنُقَاسِمْ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ الْمَصَالِحُ. وَإِنَّ الرِّيحَ لَيْسَتْ هَوَاءً يَمُرُّ فَيَذْهَبُ، بَلْ رُوحُ الْحَرَكَةِ وَحَامِلَةُ الْغُيُومِ وَمُقِيمَةُ أَعْلَامِ الْإِبْلَاحِ بَيْنَ الْبَحَارِ وَالْبَرَارِ. فَاعْرِفُوا نِعَمَ اللَّهِ لَتَقُومَ فِي أَيْدِيكُمْ عَلَى مِيزَانِ الشُّكْرِ وَالْعَدْلِ.»

رَفَعَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ يَدَهُ كَمَنْ يَسْتَأْذِنُ الْكَلِمَةَ مِنْ نَفْسِهَا، وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي، هَاهُنَا سَاقِيَةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ ضِفَّتَيْنِ مِنْ أَرْضِنَا، قَدْ زَادَتْ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى عُبُورِهَا، وَرُكْبَانُ الْقَرْيَةِ يُضِيعُونَ الْأَوْقَاتَ فِي الدُّوَارِ، فَهَلْ نَبْنِي قَنْطَرَةً تُوَحِّدُ النَّاسَ كَمَا يُوَحِّدُ النَّهَارُ أَعْمَالَهُمْ وَيَضُمُّهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» وَقَالَ «عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ»: «قَدْ عَدَدْنَا الْحِجَارَةَ وَالْخَشَبَ وَالْجِدْعَ، وَجَمَعْنَا مَا يَلْزَمُ مِنْ طِينٍ وَكِلْسٍ، وَأَنَا أَعْرِفُ مِنْ طِبَائِعِهَا مَا يَنْفَعُ وَمَا يَضُرُّ». فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «هَذَا هُوَ مَعْنَى التَّسْخِيرِ تُرَى بَيْنَ أَيْدِينَا: مَوَادُّ تَتَجَاوَبُ مَعَ مَقَاصِدِ الْخَيْرِ، وَقُلُوبٌ تَسْتَخْضِرُ أَمَانَةَ السِّتَعْمَارِ فِي الْأَرْضِ.»

خَرَجَ الْقَوْمُ إِلَى الضَّفَّةِ، وَالنَّهَارُ يَرْتَقِي فِي سُلْمِهِ حَتَّى أَصْفَرَتِ الشَّمْسُ قَلِيلًا، وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى قَدَرٍ لَا يَغْلِي وَلَا يَجْمَدُ، فَكَأَنَّهُ يَتَأَدَّبُ لِيَتَعَلَّمَ مَعَ الْبَشَرِ مِيزَانَ الْقُوَّةِ وَالْحِلْمِ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نَبْدَأُ بِالتَّسْمِيَةِ وَالتَّقْدِيرِ؛ فَالتَّسْخِيرُ

لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ الْأَشْيَاءُ فِي أَسْمَائِهَا وَمِقَادِيرِهَا. هَذَا عَرَضُ النَّهْرِ، وَهَذِهِ سُرْعَةُ جَرَيَانِهِ نَقِيسُهَا بِقِشَّةٍ تُطْرَحُ فَنَعُدُّ مَا بَيْنَ عَامِدَيْنِ مِنْ زَمَنِ، وَهَذَا الْعُمُقُ نَقِيسُهُ بِسِلْكٍ وَثِقَالٍ مُسَمَّاةٍ، وَهَذَا مَوْضِعُ الْأَرْضِ أَيُّهُمَا أَشَدُّ تَرَبُّهً وَأَثْبَتُ قَاعًا. «فَإَنْحَنَى جَابِرٌ يَدُونُ، وَنَاصِرُ السُّنَنِ يَسْتَكْمِلُ الْأَوْصَافَ وَيَذْكُرُ السَّاعَةَ وَالْجَوَّ وَاتَّجَاهَ الرِّيحِ.

أَشَارَ صَفْوَانُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «سَنَعْمَلُ فِي النَّهَارِ عَلَى قَدْرِ الظَّلَالِ، فَإِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ عَنِ الْغَايَةِ أَشْتَدَّ الْحَرُّ فَانْصَرِفْ الْأَكْثَرُ إِلَى التَّهَيُّةِ وَالصَّنْعِ فِي الظِّلِّ، وَفِي اللَّيْلِ نَنْقُلُ الْحِجَارَةَ عَلَى نُورِ الْقَمَرِ إِذَا اكْتَمَلَ، فَإِنَّ اللَّيْلَ مُسَخَّرٌ لِلْسُّكُونِ وَالتَّرْتِيبِ كَمَا النَّهَارُ مُسَخَّرٌ لِالْإِجْتِهَادِ وَالْحِرَاكِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «قَدْ جَمَعْتَ الْمَعْنَى، فَالْتَّسَخِيرُ لَيْسَ أَنْ نَسْتَبِيحَ الْأَزْمَنَةَ وَالْمَوَادَّ، بَلْ أَنْ نُوفَّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ.»

تَقَدَّمَ «عَاصِمُ الْحَرْفِيِّ» وَأَشَارَ إِلَى رُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَسْتَنْجِدُ بِنَظَرٍ خَبِيرٍ: «هُنَا نُحْفِرُ أَسَاسَ الْقَنْطَرَةِ، نَضَعُ فِيهِ الْحِجَارَةَ الصُّلْبَةَ، ثُمَّ نَخْلِطُ الطِّينَ بِالْكِلْسِ عَلَى قَدْرِ يُشَبِّهُ الْحَلِيبَ الْغَلِيطَ، فَيَمْتَسِكُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ إِذَا جَفَّ عَلَى رِيحِ هَادِئَةٍ». وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نُسَمِّي الْقَدْرَ؛ يَكُونُ الْمَزَاجُ ثُلْثِي طِينٍ وَثُلْثَ كِلْسٍ، فَإِذَا زَادَ الْكِلسُ صَارَ الصَّرِيحُ قَاسِيًا يَنْشَقُّ، وَإِذَا غَلَبَ الطِّينُ ذُبُلَ وَأَضْحَى غُرْضَةً لِلْمَاءِ.» وَفِي الْأَثْنَاءِ كَانَ جَابِرٌ يَقِيسُ طُولَ الْأَلْوَاحِ وَسُمْكَهَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَيَكْتُبُ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ أَسْمًا وَرَقْمًا لِئَلَّا يَخْتَلِطَ الْأَمْرُ عِنْدَ التَّرَكِيبِ.

بَيْنَمَا أَلْعَمَلُ يَجْرِي عَلَى نَفْسٍ وَاحِدٍ، دَنَا حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَالَ بِصَوْتٍ فِيهِ مَكْرٌ وَمَلَا حَظَّةً لِفُرْصَةٍ: «لِمَاذَا لَا نَقْتَصِرُ عَلَى جُذُوعِ رَخِصَةٍ نَضَعُهَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، فَتَبْنَى أَلْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ وَنَسْتَبْدِلَ بِمَا يَبْقَى مِنَ الْحِجَارَةِ بَيْنًا وَرَبْحًا» فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ نَظْرَةً رَاحَ يُحِبُّ الْقَطِيعَ كُلَّهُ، وَقَالَ: «يَا حَبِيبُ الدُّنْيَا، التَّسْخِيرُ لَا يَعْنِي إِلَّا اسْتِحْوَاذًا، بَلْ يُنَاسِبُهُ الشُّكْرُ وَالْعَدْلُ. إِنَّمَا تُبْنَى الْقَنْطَرَةُ لِتَحْمِلَ الْعَابِرِينَ أَعْوَامًا طَوَالًا، لَا لِتُخَفِّفَ عَنَّا سَاعَةَ عَمَلٍ ثُمَّ تُلْقِيَهُمْ فِي النَّهْرِ يَوْمَ سَرِيعٍ. مَنْ اسْتَسْرَعَ الْفَائِدَةَ أَهْمَلَ الْأَمَانَةَ، وَمَنْ ضَيَّعَ الْأَمَانَةَ نَقَضَ مِيزَانَ التَّسْخِيرِ. أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (النحل: 12)

جَعَلَهُمَا لَنَا لَا لِنَبْغِي بِهِمَا، بَلْ لِنَقُومَ بِحَقِّهِمَا فِي الْعِمَارَةِ وَالرِّعَايَةِ.»

عَادُوا إِلَى أَلْعَمَلِ، وَتَقَاسَمُوا الْوُظَائِفَ عَلَى نَحْوِ يُجَسِّدُ مَعْنَى التَّسْخِيرِ فِي الْأَزْمَنَةِ وَالْقُدْرَاتِ: صَفْوَانُ يَنْظُرُ فِي السَّمَاءِ لِيُرَتِّبَ الْأَوْقَاتَ عَلَى دَوْرَةِ النُّورِ وَالظُّلِّ؛ فَعِنْدَ مُقَارَبَةِ الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ يُكْثِرُونَ مِنْ نَقْلِ الْأَحْمَالِ إِذْ تَلِينَ الْأَجْسَادُ وَتَرْقُ صَبْرًا، وَعِنْدَ رَحْمَةِ النَّسِيمِ يُشْعِلُونَ نَارَ الْكِلْسِ لِأَنَّ الدُّخَانَ لَا يَتَحَبَّسُ فِي السَّمَاءِ فَيُؤْذِي، وَعِنْدَ اكْتِمَالِ الْقَمَرِ يَتْرَكُونَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى تَدْقِيقٍ فِي النَّهَارِ

وَيُكْثِرُونَ النُّقْلَ فِي اللَّيْلِ. عَاصِمٌ يَهْدُبُ الْحِجَارَةَ بِالْمِعْوَلِ عَلَى مِيزَانٍ لَا يُفَارِقُهُ، وَجَابِرٌ يَقِيسُ وَيَدُونُ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ يَرْبِطُ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْمَقَادِيرِ كَمَا تُرْبِطُ أَوْتَارُ عُوْدٍ لِيَتِمَّ النِّعَمُ.

مَرَّتْ عِدَّةُ أَيَّامٍ، وَالْقَنْطَرَةُ تَرْتَفِعُ طَبَقَةً فَوْقَ طَبَقَةٍ كَأَنَّهَا سُلَّمٌ يَصْعَدُ فِيهِ الْحَجَرُ إِلَى مَقَامِ الْخِدْمَةِ. جَاءَتْ لُبْنَى وَمَعَهَا سُؤَالٌ مَشْهُودٌ: «كَيْفَ نُجْرِي الْمَاءَ تَحْتَ الْقَنْطَرَةِ عَلَى قَدَرٍ لَا يَجْرِفُ الْأَسَاسُ» فَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «نَصْنَعُ لِلْمَاءِ لِحَامًا وَقَنَاءَ مُهْيَاءَةً؛ فَالْتَّسَخِيرُ أَنْ تُوجَّهَ الْقُوَى لَا أَنْ تُصَادِمَهَا. نَرْفَعُ الْأَسَاسَ شَيْئًا وَنُحْجِمُ مُقَدَّمَ السَّيْلِ بِأَحْجَارٍ تُشَبِّهُ الْأَسْنَانَ، فَيَنْكَسِرُ الْعُتُوُّ إِلَى طَوْعٍ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا تُقَامُ الْعِمَارَةُ عَلَى فَهْمِ التَّسْخِيرِ؛ تُكْرِمُ قُوَى الْكَوْنِ فَتَسْتَعْمِلُهَا فِي مَوَاضِعِهَا وَلَا تُهَيِّنُهَا بِالْعُدْوَانِ».

وَمِنْ مَشَاهِدِ التَّسْخِيرِ الَّتِي رَأَاهَا الْقَوْمُ ذَلِكَ الْمَسَاءَ الَّذِي نَشَفَتْ فِيهِ الْحِجَارَةُ عَلَى نَسِيمٍ بَارِدٍ، فَلَمَّا طَلَعَ الصَّبَاحُ كَانَ التِّصَاقُفُهَا أَحْكَمَ مِمَّا تَوَقَّعُوا. قَالَ جَابِرٌ: «كَأَنَّ اللَّيْلَ حَفِظَ لَنَا التَّرْكِيبَ، وَأَعَانَنَا النَّدَى عَلَى تِمَامِ الْإِمْتِرَاجِ». فَقَالَ الْإِمَامُ مُتَبَسِّمًا: «وَمِمَّا سَخَّرَ اللَّهُ أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ سَاعَةٍ عَمَلًا، فَإِذَا عَرَفْتَ عَمَلَ السَّاعَةِ بَلَغْتَ غَايَتَكَ بِأَقَلِّ كَلْفَةٍ وَأَحْسَنِ انْتِقَانٍ».

وَفِي يَوْمٍ آخَرَ زَادَ مَاءُ السَّاقِيَةِ وَارْتَفَعَ صَوْتُهُ، فَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «نُسْرِعُ الْأَعْمَلَ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ الْمَدُّ فَيُعَوِّقَنَا». فَقَالَ صَفْوَانُ: «بَلْ نَنْتَظِرُ مَوْضِعَ النُّقْصَانِ، فَإِنَّ

لِلْمَاءِ نَفْسًا يَأْخُذُ وَيُعِيدُ، وَقَدْ عَهَدْنَا مِنْ دَوْرَةِ الْقَمَرِ وَنَفْسِ الرِّيحِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُنْخَفَضِ فِي سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ. فَقَالَ الْإِمَامُ: «لَيْسَ التَّسْخِيرُ الْحَقُّ مُسَابِقَةً لِسُنَنِ اللَّهِ، بَلْ مُوَافَقَةٌ لَهَا؛ مَنْ سَابَقَ النَّهَارَ وَعَادَاهُ أَعْيَاهُ، وَمَنْ سَارَ مَعَهُ سَافَهُ اللَّهُ إِلَى مَقَاصِدِهِ بِرَفْقٍ.»

تَتَابَعَتِ الْأَيَّامُ وَالْقَنَطَرَةُ تَقْرُبُ مِنَ التَّمَامِ، وَكَانَ الْقَوْمُ مَعَ كُلِّ طَبَقَةٍ يَقِفُونَ قِيْدَ سَاعَةٍ لِيَتَأَمَّلُوا مَا صَنَعُوا، وَنَاصِرُ السُّنَنِ يَكْتُبُ فِي الصُّحُفِ كَيْفَ انْتَفَعُوا بِاللَّيْلِ فِي الثَّقَلِ، وَبِالنَّهَارِ فِي التَّهَيُّةِ وَالتَّشْيِيتِ، وَكَيْفَ اسْتَعَانُوا بِالنَّسِيمِ فِي التَّجْفِيفِ، وَبِالشَّمْسِ فِي تَصْلِيبِ الْمَوَادِّ، وَبِالظَّلَالِ فِي رَاحَةِ الْأَجْسَادِ، فَكَانَ مَعَ الْقَوْمِ جَيْشًا مِنْ نِعَمٍ مَجْنَدَةٍ لَا تَخُونُ، يَتَقَاسَمُونَ مَعَهُمُ الْعَمَلَ عَلَى مِيزَانٍ. وَكَانَ الْإِمَامُ كُلَّمَا رَأَى عَيْنًا تَتَعَجَّلُ ذِكْرَهَا بِأَنَّ التَّسْخِيرَ عَقْدُ شُكْرٍ؛ فَمَنْ شَكَرَ اسْتَحَقَّ الزِّيَادَةَ، وَمَنْ بَغَى أَوْ طَغَى قَطَعَ النِّعْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ.

وَفِي صَبَاحٍ صَافٍ، جَاءَتْ «سَعَادُ الْعَجُوزُ» تَسْتِنِدُ إِلَى عَصَا، وَقَالَتْ وَالْذُّمُوعُ تَلْمَعُ فِي طَرْفِ الْعَيْنِ: «بَيْنِي وَبَيْنَ الشُّوقِ هَذِهِ السَّاقِيَةُ، كَثِيرًا مَا حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ قُوتِي لِأَنِّي لَا أَقْوَى عَلَى الْإِسْتِدَارَةِ؛ فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَتِمَّ لَكُمْ الْقَنَطَرَةُ، فَإِنَّ فِي التَّسْخِيرِ رَحْمَةً لِلضُّعَفَاءِ.» فَنَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى الْقَوْمِ وَقَالَ: «هَذَا هُوَ مِقْيَاسُ الْعِمَارَةِ؛ أَنْ تُخَفَّفَ عَنْ قَلْبٍ مُتَعَبٍ، وَتُفْتَحَ لِمُحْتَاجٍ طَرِيقًا. مَنْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْكُونَ فَلَيْسَ سَخَّرَ نَفْسَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ.»

لَمَّا تَمَّتِ الْفَنَظَرَةُ، وَقَامَ قَوْسُهَا كَأَنَّهُ رِمَاحٌ تَعْتَبِقُ الْفَضَاءَ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْقُومَ عَلَيْهَا قُبَيْلَ الْمَغْرِبِ. النَّهْرُ تَحْتَهُمْ يُسَبِّحُ بِصَوْتٍ أَخْفَتَ مِنْ هَمْسٍ، وَالسَّمَاءُ فَوْقَهُمْ تَسْتَعِدُّ لِمَصْبَاحِ الشُّهُبِ وَالنُّجُومِ. قَالَ: «أَنْظُرُوا كَيْفَ أَقْتَسَمْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَاسْتَعْمَلْنَا مِنْ كُلِّ حِكْمَتِهِ. وَأَنْظُرُوا كَيْفَ أَطْعَمْنَا نِدَاءَ الْأَسْمَاءِ وَالْمَقَادِيرِ، فَمَا بَغَيْنَا عَلَى حَجَرٍ وَلَا عَلَى فِطْرَةِ مَاءٍ؛ بَلْ وَضَعْنَا كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ. هَذَا مَعْنَى التَّسْخِيرِ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الشُّكْرِ وَيَمْنَعُ مِنَ الْفَسَادِ.»

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الصُّفَّتَيْنِ فَقَالَ: «مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ لَمْ يَعُدْ بُعْدًا؛ الْآنَ صَارَ قُرْبًا. وَهَكَذَا يَصْنَعُ مِيزَانُ التَّسْخِيرِ فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا؛ يَجْمَعُ مَا تَبَدَّدَ، وَيُؤَلِّفُ مَا تَنَافَرَ، وَيَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ ضِفَّةِ الْعَجْزِ إِلَى ضِفَّةِ الْقُدْرَةِ مَا دَامَ يَتَكَيُّ عَلَى الْعَدْلِ وَالشُّكْرِ.» فَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ لَانَتْ نَبْرَتُهُ: «قَدْ تَعَلَّمْتُ الْيَوْمَ أَنَّ التَّسْخِيرَ لَيْسَ بَابًا لِإِلَاسْتِكْثَارٍ، بَلْ سُلْمٌ لِإِلَازِئَانٍ؛ مَنْ رَقِيَهُ بِغَيْرِ شُكْرِ سَقَطَ، وَمَنْ رَقِيَهُ بِالْعَدْلِ بَلَغَ.»

وَقَامَ نَاصِرُ السُّنَنِ فَقَرَأَ مَا كَتَبَ: «ذَكَرْنَا التَّسْمِيَةَ فِي الْمَوَادِّ، وَالتَّقْدِيرَ فِي الْأَوْقَاتِ، وَالتَّوَثُّيقَ لِكُلِّ خُطْوَةٍ، وَقَدْ حَدَثَ الْإِنْتِفَاعُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالرِّيحِ وَالظَّلِّ وَالشَّمْسِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَتَمَّ الْعَمَلُ وَلِلَّهِ الْحِمْنَةُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «إِذَا وَثَّقَ الْخَيْرُ بَقِيٍّ، وَإِذَا شُكِرَ تَمَّ. فَاجْعَلُوا لِكُلِّ عَمَلٍ صَحِيفَةً، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ سُجُودًا، وَلِكُلِّ حَجَرٍ مَوْضِعًا، وَلَا تَنْسُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ، وَأَنْكُمْ أَنْتُمْ

الَّذِينَ تُسْأَلُونَ.»

ثُمَّ أَدَارَ بَصَرَهُ فِي الْوُجُوهِ وَقَالَ خَاتِمًا عَلَى نَفْسٍ يَجْمَعُ حِكْمَةَ الدَّرْسِ كُلِّهِ: «يَا أَصْحَابِي، كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ، مِنْ ذَرَّةٍ إِلَى سَمَاءٍ، مُسَخَّرٌ لَكُمْ؛ اللَّيْلُ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَتُرْتَبُوا أَعْمَالَكُمْ، وَالنَّهَارُ لِتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ، وَالرِّيَاحُ لِتَحْمِلَ الْخَيْرَ إِلَى مَوَاضِعِهِ، وَالْمَطَرُ لِيُحْيِيَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَالْحِجَارَةُ وَالْخَشَبُ وَسَائِرُ الْمَوَادِّ لِتَخْدِمَ مَقَاصِدَكُمْ الْمُبَارَكَةَ. فَاسْتَخْدِمُوهَا بِعَدْلِ وَشُكْرِ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ جَعَلَ التَّسْخِيرَ سَبِيلًا لِلظُّلْمِ قَطَعَ عَنْ نَفْسِهِ سَبَبَ النُّعْمَةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ سُلْمًا إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْقِسْطِ أَذْرَكَ مَعْنَى الْعِمَارَةِ وَتَبَتَّ لَهُ الْبَرَكَةُ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.»

سَكَتَ الْإِمَامُ، وَكَانَ الْغُرُوبُ قَدْ صَبَغَ الْقَنْطَرَةَ بِلَوْنٍ مِنْ ذَهَبٍ هَادِيٍّ، فَمَرَّ عَلَيْهَا النَّاسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَمَا تَمُرُّ الْحُلُمَةُ الْحَسَنَةُ عَلَى قَلْبٍ صَبِيٍّ. سَاعَتَيْذٍ فَهَمُّوا أَنَّ مِيزَانَ التَّسْخِيرِ لَيْسَ حِكَايَةً تُتْلَى، بَلْ طَرِيقَةٌ نَظَرٍ وَعَمَلٍ، تُهْدِبُ الْأَدَوَاتِ وَتُقَوِّمُ النِّيَّاتِ، وَتُحَوِّلُ النِّعَمَ الْمَبْدُولَةَ فِي الْأَكْوَانِ إِلَى مَعَانٍ مَحْمُودَةٍ فِي الْقُلُوبِ وَسُنَنِ رَاسِخَةٍ فِي الْأَعْمَالِ. وَمَنْ يَسْتَقِمَّ عَلَى هَذَا الْمِيزَانِ يَجِدِ الطَّمَأْنِينَةَ تُجَالِسُهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ، لِأَنَّهُ يَرَى الْأَشْيَاءَ كَمَا أَرَادَهَا اللَّهُ: مُسَخَّرَةً لِلْخَيْرِ، مَصُونَةً بِالْعَدْلِ، مُزَيَّنَةً بِالشُّكْرِ.

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ التَّحْوِيلِ وَالْمَنْفَعَةِ

كَانَ الْمَسْجِدُ يَتَنَفَّسُ سَكِينَةً تُشَبِّهُ نَسِيمًا حُلُومًا يَدْخُلُ مِنْ طَاقٍ صَغِيرٍ
فِيْلَامِسْ شُعْلَةٍ سِرَاجٍ ضَعِيفٍ، ثُمَّ يَنْسَابُ عَلَى جِبَاهِ مُنْصِتَةٍ كَأَنَّهُ يَقِيسُ لَهَا نَبْضَ
الْفِكْرِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الدَّرْسَ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي الْوَسْطِ، وَحَوْلَهُ الْحَلَقَةُ الْمَعْهُودَةُ:
صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ وَعَاصِمُ الصَّانِعِ وَجَابِرُ وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ وَنَاصِرُ السُّنَنِ،
وَدَخَلَتْ سَلَمَى الْأُصُولِيَّةُ وَلَبَنَى الْمُهَنْدِسَةُ وَفِي الْعُيُونِ شَوْقٌ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ
الْكَلِمَةَ الْيَوْمَ سَتَشْكَلُ مَعْنَى، وَالْمَعْنَى سَيُشْكَلُ شَيْئًا مَحْسُوسًا. رَفَعَ الْإِمَامُ
صَوْتَهُ عَلَى مَهَلٍ حَتَّى يَسْتَقَرَّ فِي الصُّدُورِ اسْتِقْرَارَ الْمَاءِ فِي الْكُوزِ، وَتَلَا:

﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا
جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: 96)،

ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتًا فَصِيرًا كَمَنْ يَتْرُكُ لِلْقَوْلِ أَنْ يَرُسِمَ حَوْلَهُ هَالَتَهُ، وَقَالَ:
«هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَيْسَتْ صُرَاحًا فِي الْفَرَاغِ، بَلْ نِدَاءٌ لِأَلْيَدَيِ وَالْعُقُولِ؛ إِنَّهَا تَقُولُ
لَنَا: إِنَّ التَّسْخِيرَ لَا يَتِمُّ بِالتَّمَنِّي، وَلَا يَكْفِيهِ أَنْ تَكُونَ الْمَوَادُّ قَابِلَةً، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

تَحْوِيلٍ يَرْفَعُ الْأَخَامَةَ مِنْ سُذُوجَتِهَا إِلَى مَنْفَعَتِهَا.»

تَنَاوَلَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ قَصَبَتَهُ، وَقَالَ: «إِذَا فَالَكَلِمَةُ تَأْمُرُ بِالْاجْتِمَاعِ عَلَى عَمَلٍ: أَتُونِي... ثُمَّ تَسْتَدْعِي الْمَادَّةَ الْمُنَاسِبَةَ: زُبْرُ الْحَدِيدِ... ثُمَّ تَتَوَجَّهُ إِلَى الْمَقْصِدِ الَّذِي يَكْفُ الْفَسَادَ وَيُحَقِّقُ الْمَنْفَعَةَ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «صَدَقْتَ؛ فَالتَّحْوِيلُ فِي مِيزَانِ الشَّرْعِ وَالْحِكْمَةِ لَا يَنْفَكُ عَنِ الْمَقْصِدِ. قَدْ تَأْخُذُ الْحَدِيدَ فَتَجْعَلُهُ سِكِّينًا يَقْطَعُ خُبَرَ الْيَتِيمِ، فَذَلِكَ إِحْسَانٌ؛ وَقَدْ تَجْعَلُهُ سِكِّينًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، فَذَلِكَ فُسَادٌ. فَأَيْنَ وَضَعَ الْحَدِيدُ هُنَاكَ يُوزَنُ أَلْعَمَلُ.»

قَالَتْ سَلَمَى الْأُصُولِيَّةُ: «إِنَّ الْمَنْفَعَةَ هُنَا ظَاهِرَةٌ؛ قَدْ أَتَمَمْنَا الْقُنْطَرَةَ بِالْحَجَرِ وَالْكِلْسِ، وَلَكِنَّ النَّهْرَ إِذَا ارْتَفَعَ فِي مَوْسِمِهِ الشَّتَائِيِّ قَدْ يَأْكُلُ مِنْ حَافَتَيْهَا؛ فَهَلْ نُكْمِلُ الْبِنَاءَ بِحَلَقَةٍ مِنْ زُبْرِ الْحَدِيدِ تُطَوِّقُ جَنْبَيْهَا وَتَحْمِلُ الصَّدْمَةَ» فَقَالَتْ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ: «وَنَصْنَعُ عُرَى وَمَسَامِيرَ تَدْخُلُ فِي الْجَسَدِ الْحَجَرِيِّ، فَيَصِيرُ الْحَدِيدُ رِقَّةً شَدِيدَةً وَرِدَاءَةً مُتَقَنَةً، وَنَجْعَلُ فِي وَسْطِ الْقُنْطَرَةِ بَابًا حَدِيدِيًّا يُرْفَعُ وَيُخَفَضُ، فَإِذَا طَغَى الْمَاءُ حُبْسَ لِحِينٍ ثُمَّ صُرِفَ عَلَى قَدَرٍ.» وَأَشَارَ عَاصِمُ الصَّانِعِ إِلَى السَّاحَةِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ: «قَدْ أَعْدَدْنَا الْكَبِيرَ وَالْمَنَافِخَ، وَجَمَعْنَا الْفَحْمَ الصُّلْبَ، وَفَوْقَهُ زِفَاقٌ يَنْقُلُ الْهَوَاءَ عَلَى مِقْدَارٍ، فَإِذَا أَحْمَرَ الْحَدِيدُ ثُمَّ أَصْفَرَ ثُمَّ أَيْضَ، عَرَفْنَا أَنَّهُ بَلَغَ حَدَّ الشَّكْلِ وَالْإِسْتِجَابَةِ.»

خَرَجُوا جَمِيعًا، وَحَلَقَةُ التَّعْلِيمِ تَتَحَوَّلُ إِلَى وَرْشَةٍ، وَالْكَلِمَةُ الْقُرْآنِيَّةُ

تَتَحَوَّلُ إِلَى نَارٍ تَأْكُلُ الشُّكُونُ لِتَلِدَ شَكْلًا أَنْفَع. أَوْقَدَ عَاصِمُ النَّارَ، وَأَخَذَ يُغَذِّيهَا
بِنَفْسِ الْمَنَافِخِ حَتَّى سَمِعُوا حَسِيصًا كَأَنَّهُ زَفِيرُ الْأَرْضِ وَهِيَ تُسَلِّمُ جُزْءًا مِنْ بَاسِهَا
لِأَيْدِي الْبَشَرِ. وَضَعُوا «زُبَرَ الْحَدِيدِ» فِي بَطْنِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا عَاصِمٌ بِمِلْقَطٍ
غَلِيظٍ فَلَمَعَتْ كَالشَّمْسِ صَغِيرَةً فِي يَدَيْهِ، وَسَمِعُوا صَوْتَ الطَّرْقِ يَتَرَاوَعُ بَيْنَ
الْحِيطَانِ: طَقْ طَقْ طَقْ، يَصْنَعُ لِلْمَعْنَى إِيقَاعًا، وَلِلْمَنْفَعَةِ قَلْبًا يَدُقُّ.

وَقَفَ جَابِرٌ عَلَى طَرَفٍ، وَقَدْ جَهَّزَ قَصَبَةً مَعْلُومَةَ الطُّولِ وَحَصَّى مَعْدُودًا،
فَكَلَّمَا تَشَكَّلَتْ صَفِيحَةٌ قَاسَ سُمْكُهَا وَطُولُهَا وَعَرْضُهَا، ثُمَّ يَضَعُهَا عَلَى دَعَائِمٍ،
وَيُثْقِلُ بَعْضُهَا بِأَحْجَارٍ مَوْزُونَةٍ، وَيَنْظُرُ إِلَى إِنْحِنَائِهَا بِنِسْبَةِ شَعْرَةٍ مَسْمُوعَةٍ فِي
الدَّفْتَرِ: «إِذَا انْحَنَتْ صَفِيحَةٌ سُمْكُهَا كَذَا عَلَى مِقْدَارِ كَذَا مِنْ الثَّقَلِ، فَالْحِلْقَةُ
الْمُرْتَقِبَةُ تُحْتَسَبُ مِمَّا فَوْقَهَا.» وَقَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «هَكَذَا يَكُونُ التَّحْوِيلُ
مَوْزُونًا: نَارٌ تُدِيرُ الطَّبَائِعَ، وَقَلَمٌ يَحْفَظُ الْقَدَرَ، وَمَقْصِدٌ يَمْنَعُ الشَّكْلَ مِنْ أَنْ يَصِيرَ
فَتْنَةً.»

وَبَيْنَمَا أَلْعَمَلُ مَاضٍ، دَنَا حَبِيبُ الدُّنْيَا مُتَحَفِّزًا لِعِيمَةِ قَرِيْبَةٍ، وَقَالَ:
«نَخْصُ هَذِهِ الصَّفَائِحَ لِأَغْنِيَاءِ السُّوقِ، يَدْفَعُونَ فِيهَا سِعْرًا أَعْلَى، وَنَتْرُكُ لِلْقَنْطَرَةِ
مَا دُونَ ذَلِكَ؛ فَالْحَدِيدُ حَدِيدٌ!» فَرَمَقَهُ الْإِمَامُ بِنَظَرَةٍ يَمْتَزِجُ فِيهَا الرِّقَّةُ وَالْحَزْمُ،
وَقَالَ: «لَيْسَ الْحَدِيدُ حَدِيدًا فَقَطْ؛ بَلِ الْحَدِيدُ فِي الْمِيزَانِ مَقْصِدٌ وَبَيَّةٌ وَنَصِيبٌ
ضَعْفَاءٍ وَمَسَاكِينٍ. أَمَّا سَمِعْتَ كَيْفَ جُمِعَ الْقَوْمُ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ عَلَى

أَلْعَمَلِ حَتَّى قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿انْفُخُوا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾. فَمَا تَحَقَّقَ السَّدُّ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ وَصِدْقِ الْمَقْصِدِ وَصَوْنِ الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ. وَإِنَّا إِن بَعْنَا خَيْرَ الصَّفَائِحِ لِمَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ، ثُمَّ وَضَعْنَا لِلْقَنْطَرَةِ مَا دُونَهَا، كُنَّا قَدْ نَقَضْنَا عَقْدَ التَّحْوِيلِ الصَّالِحِ، وَجَعَلْنَاهُ حِيلَةً لِالْخِيَلِاسِ. وَاللَّهُ يَرَى مَا تَعْمَلُونَ.»

هَزَّ حَبِيبُ الدُّنْيَا رَأْسَهُ وَتَأَخَّرَ، وَالْكَلِمَاتُ تَسْتَقِرُّ فِيهِ كَحَبَّاتِ مَطَرٍ تُطْفِئُ نَارَ الْجَشَعِ قَلِيلًا قَلِيلًا. وَأَنْصَرَفَ الْقَوْمُ إِلَى الْعَمَلِ، فَصَارَتْ صَفَائِحُ الْحَدِيدِ أَحْلَقَةً تُعَانِقُ جَنْبِي الْقَنْطَرَةِ، تُشَدُّ بِمَسَامِيرَ مَسْمُوعَةِ الْعَدِّ فِي دِفَاتِرِ نَاصِرِ السُّنَنِ، وَتَحْتَ كُلِّ مِسْمَارٍ قِصَّةٌ قَدْرٍ وَقِسْطٍ وَمَقْصِدٍ. وَكُلَّمَا طَرَقَ عَاصِمٌ مِسْمَارًا قَالَ الْإِمَامُ فِي نَفْسِهِ: «هَذِهِ ضَرْبَةٌ الْمَنْفَعَةِ الْمَشْرُوعَةِ.» وَإِذَا صَارَ الْمِسْمَارُ عَلَى حَدِّهِ قَالَ: «هَذَا حَدُّ الْعَدْلِ لَا زَيْدٌ وَلَا نَنْقِصُ.»

وَحِينَ إِفْتَرَبَ الْمَشْهَدُ مِنْ تَمَامِهِ، قَالَتْ لُبْنَى: «لَا يَكْفِي التَّحْوِيلُ إِلَّا بِالْإِخْتِبَارِ؛ لِنَجْعَلَ جِزْءًا مِنَ الصَّفَائِحِ بَيْنَ عَمُودَيْنِ، ثُمَّ نُثْقِلَهَا وَنَرَى إِلَى مَتَى يَثْبُتُ الشَّكْلُ وَمَتَى يَتَغَيَّرُ، فَالْحَدِيدُ إِنْ لَمْ نَعْرِفْ لَهُ حَدًّا غَلَبَنَا يَوْمَ الصَّدْمَةِ.» فَقَالَ جَابِرٌ: «وَنُجَرَّبُ الْإِطْفَاءَ فِي أَلْمَاءِ وَفِي الرِّيتِ، فَنَرَى أَيُّهُمَا يُعْطِي الصُّلْبَ مَعَ اللَّيُونَةِ، وَنَدُونُ كُلَّ ذَلِكَ عَلَى الْمَقْدَارِ وَالزَّمَانِ.» وَالْإِمَامُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَفِي أَلْقَلْبِ رِضًا؛ لِأَنَّ التَّحْوِيلَ عِنْدَهُ دِينٌ وَمَنْهَجٌ: تَسْمِيَةٌ، فَمَقْدَارٌ، فَتَجَرُّبَةٌ، فَتَوْثِيقٌ،

فَمَنْعَةً عَامَّةً.

وَقَعَتْ حَادِثَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا لِتَيْمِّ التَّعْلِيمِ: غَشِيَ السَّمَاءَ غَيْمٌ ثَقِيلٌ، وَأَقْبَلَ
الْمَطَرُ فَجَاءَهُ، وَارْتَفَعَ النَّهْرُ وَأَصْطَحَبَ صَوْنُهُ كَمَنْ يَتَحَدَّى الْبِنَاءَ الْجَدِيدَ.
فَنَادَى صَفْوَانُ: «ارْفَعُوا أَلْبَابَ الْحَدِيدِيِّ إِلَى نِصْفِهِ لَا إِلَى تَمَامِهِ، لِيَبْقَى لِلْمَاءِ
مَخْرَجٌ مُوزُونٌ فَلَا يَضْغَطُ عَلَى الْجِدَارِ.» وَأَمَرَ عَاصِمٌ بِالْإِثْقَاقِ حَوْلَ الْحَلَقَاتِ
الْجَانِبِيَّةِ، وَوَقَفَ جَابِرٌ يَرْضُدُ إِهْتِرَازَ الصَّفَائِحِ، وَنَاصِرٌ يَكْتُبُ السَّاعَةَ وَقَدَّرَ الْمَطَرُ
وَمَا حَدَثَ مِنْ تَغْيِيرٍ. وَسُرْعَانَ مَا انْكَسَرَتْ شِدَّةُ السَّيْلِ، وَبَقِيَتْ الْقَنْطَرَةُ كَمَا هِيَ،
فَالْحَدِيدُ الْمُحَوَّلُ عَلَى مِيزَانِ الْمَقْصِدِ أَثْبَتَ مِنْ حَجَرٍ بِلَا نِيَّةٍ.

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَفِي الْقُلُوبِ حَمْدٌ، فَقَالَ الْإِمَامُ: «يَا مَعْشَرَ الصُّنَّاعِ
وَالطَّالِبِينَ، هَكَذَا تُفْهَمُ آيَةُ التَّحْوِيلِ. لَيْسَتْ أَلْمَوَادُّ جَامِدَةً فِي حَدِّ ذَاتِهَا؛ إِنَّمَا
هِيَ خَامَاتٌ تُخْفِي وَجُوهًا كَثِيرَةً، تَظْهَرُ بِقَدْرِ مَا تَضَعُونَهُ فِيهَا مِنْ صِدْقِ الْمَعْنَى
وَإِحْكَامِ الْعَمَلِ. وَالْحُسْنُ فِي التَّحْوِيلِ أَنْ لَا يَنْقَلِبَ الشَّكْلُ فِتْنَةً، وَلَا تَصِيرَ
الْقُوَّةُ أَدَى؛ بَلْ يَبْقَى كُلُّ ذَلِكَ جُنْدًا لِلْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ.»

قَالَتْ سَلَمَى: «وَهَلْ لِلتَّحْوِيلِ فِقْهٌ يَضْبِطُهُ» قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ؛ أَوَّلُهُ النَّيَّةُ:
لِمَنْ تُحَوَّلُ أَلْنَفْسُ وَحَدِّكَ أَمْ لِلخَلْقِ مَعَكَ ثُمَّ الْعَدْلُ: اتَّضَعُ الشَّيْءُ فِي مَوْضِعِهِ
وَتُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ ثُمَّ الْإِحْسَانُ: اتَّئِمُّ الصَّنَاعَةَ عَلَى أَتَمِّ مَا تَقْدِرُ، وَلَا
تَرْضَى بِالتَّقْرِيطِ ثُمَّ الْأَمَانَةُ: أَتَكْتُمُ عَيْبًا يُفْسِدُ بَعْدَ حِينٍ أَمْ تُصَارِحُ وَتُصْلِحُ ثُمَّ

التَّوْثِيقُ: أَتَكْتُبُ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ لِئَلَّا يَبْدَأَ مِنَ الصَّغْرِ هَذَا كُلُّهُ دِينَ يَتَجَلَّى فِي الْمِطْرَقَةِ وَالْكَبِيرِ كَمَا يَتَجَلَّى فِي الْمَحْرَابِ وَالتَّلَاوَةِ.»

وَقَفَ صَفْوَانُ يَسْأَلُ: «أَيُّسَمَّى هَذَا الْعَمَلُ عِبَادَةً» فَقَالَ الْإِمَامُ: «إِذَا تَوَجَّهَ لَوَجْهِ اللَّهِ، وَصَانَ الْمَنْفَعَةَ، وَحَفِظَ الْقِسْطَ، وَحَمَى الضُّعْفَاءَ، فَهُوَ عِبَادَةٌ بِلَا رَيْبٍ؛ فَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ لَيْسَتْ حِكَايَةً سَدِّ وَحْدِيدٍ فَقَطُّ، بَلْ مِيزَانُ تَحْوِيلٍ تَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَيْدِي عَلَى الْخَيْرِ، وَتَتَوَرَّعُ فِيهِ الْوُظَائِفُ عَلَى الْقُدْرَاتِ، وَيَعْتَدِلُ فِيهِ الْقُوَّةُ بِالرَّحْمَةِ.»

ثُمَّ مَالَ إِلَى حَبِيبِ الدُّنْيَا وَقَالَ: «قَدْ تَعَرَّكَ الْمَوَادُّ إِذَا رَأَيْتَهَا تَطَاوَعَكَ؛ فَتَظُنُّ أَنَّ الشَّكْلَ أَعْظَمُ مِنَ الْمَعْنَى، وَأَنَّ الْأَدَاةَ أَعْلَى مِنَ النِّيَّةِ. وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الْمَادَّةَ إِنْ لَمْ تُحْمَلْ مَقْصِدًا شَرِيفًا انْقَلَبَتْ سَدًّا يَحْبِسُكَ أَنْتَ قَبْلَ أَنْ يَحْبِسَ عَدُوًّا. إِنَّ الْعِبْرَةَ فِي التَّحْوِيلِ: مَا الَّذِي تَزِيدُهُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ عَدْلًا وَرَحْمَةً»

تَنْفَسُ الْمَسْجِدُ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَدَافَعُ النَّاسُ إِلَى الْقَنْطَرَةِ لِيَمْشُوا عَلَيْهَا قَدَمًا قَدَمًا كَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْقٍ إِلَى سَعَةٍ. كَانَ الْحَدِيدُ يُلْمَعُ لَمَعًا خَفِيفًا فِي الْغُرُوبِ، كَأَنَّهُ يَشْكُرُ مَنْ أَخْرَجَهُ مِنْ ظُلْمَةِ الْمَعَادِنِ إِلَى نُورِ الْمَنْفَعَةِ. وَعَادَ الْإِمَامُ إِلَى الْحَلَقَةِ يَخْتِمُ الْقَوْلَ بِقَوْلٍ يُشْبِهُ الْخَاتَمَ عَلَى الْخَشَبِ الْمُنْحَتِ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى الْمَادَّةِ عَلَى أَنَّهَا جَامِدَةٌ، بَلْ عَلَى أَنَّهَا خَامَةٌ يُمَكِّنُكُمْ تَشْكِيلُهَا لِخَيْرِ الْبَشَرِ. فَإِذَا اجْتَمَعَ الْقَلْبُ الصَّالِحُ مَعَ الْيَدِ الْمُتَّقِنَةِ وَالْقِسْطِ الْمَبْدُولِ، وُلِدَ مِنْ ذَلِكَ

التَّحْوِيلُ الْمُبَارَكُ الَّذِي يَرْفَعُ الْحَيَاةَ وَيُذْهِبُ عَنْهَا رَجْسَ الْفَوَاضِي وَالْفَسَادِ.»

ثُمَّ سَكَتَ، فَسَكَتُوا، وَفِي الصُّدُورِ صَوْتُ خَفِيٍّ يَقُولُ: «إِذَا طَلَبْتَ
الْمَنْفَعَةَ فَأَبْدَأْ بِتَحْوِيلِ نَفْسِكَ: نَوَيْتَ فَأَحْسَنْتَ، فَدَّرْتَ فَعَدَلْتَ، جَرَّبْتَ فَثَبَّتَ،
وَوَثَّقْتَ فَوَرَّثْتَ؛ وَعِنْدَئِذٍ تَصِيرُ زُبُرُ الْحَدِيدِ سُلَّمًا يَصْعَدُ بِهِ النَّاسُ إِلَى مَقَامِ الْخَيْرِ
وَالْعِمَارَةِ.»

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: اِتِّقَانُ الصُّنْعِ

كَسَا الْعَشِيَّ الْمَسْجِدَ نُورًا لَطِيفًا يَتَمَوَّجُ عَلَى الْحِجَارَةِ الْقَدِيمَةِ،
وَتَدَلَّتْ سُرُجٌ صِغَارٌ مِنْ سَقْفِ الْمَمَرِّ الْمُؤَدِّي إِلَى الصَّحْنِ الْوَاسِعِ، فَانْكَسَرَ
لَمَعَانُهَا عَلَى الرُّخَامِ الْأَبْيَضِ كَخُيُوطِ حَرِيرٍ رَقِيقٍ يَتَلَأَلُّ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ
الْمُغْرِبَةِ. وَفِي الْوَسْطِ اسْتَقَرَّ الْإِمَامُ بِهَيْئَةِ الْعَالِمِ الْمُنِيرِ، وَحَوْلَهُ التَّلَامِيذُ يَجْلِسُونَ
عَلَى شَكْلِ قَلْبٍ مُنْفَتِحٍ يَسْتَقْبِلُ الْحِكْمَةَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ الْمُعَمَّارُ
الْمَاهِرُ، وَلُبْنَى الْبِنَاءَةِ الْحَازِقَةُ، وَعَاصِمُ الصَّنَاعِ الْمُجْتَهِدُ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ
الْمُدَقِّقُ، وَجَابِرُ الْفَتَى الْمُتَعَلِّمُ، وَنَاصِرُ السُّنَنِ الْكَاتِبُ الْمُحَافِظُ عَلَى الْأَسَالِيبِ
الْقَدِيمَةِ، وَفِي وَسْطِهِمْ حَبِيبُ الدُّنْيَا الَّذِي قَدْ لَانَتْ فِي عَيْنِهِ حِدَّةُ الرَّبْحِ
الْعَاجِلِ وَحَلَّ مَقَامَهَا شَوْقٌ إِلَى فَهْمٍ أَعْمَقٍ يَتَجَاوَزُ الْمَادَّةَ إِلَى الْمَعْنَى الْبَاطِنِ.

وَرَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ رَفَعٌ مَنْ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ مَشْهَدٍ مُنْتَظَرٍ مِنْذُ أَيَّامٍ،
فَقَالَ بِلَهْجَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْحِمَاسِ: «نَبْلُغُ الْيَوْمَ خَاتِمَةَ تَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ
فِي الدُّرُوسِ الْمَاضِيَةِ؛ هَا هُوَ اِتِّقَانُ الصُّنْعِ، لَيْسَ وَهْمًا وَلَا خِفَّةَ يَدٍ عَابِرَةً، بَلْ سِرٌّ
يَتَجَلَّى إِذَا اِلْتَقَى الْمَعْنَى الشَّرِيفُ بِالشَّكْلِ الْمُحْكَمِ، وَتَصَافَحَتِ الْقِيَمَةُ الْعُلْيَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَالْمَنْفَعَةُ الْيَوْمِيَّةُ فَوَلَدَنَا جَمَالًا يَحْيَا وَيُحْيِي الْقُلُوبَ وَالْأَرْوَاحَ». ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ
الْيُمْنَى إِلَى الْآيَاتِ الْمُقَدَّمَةِ عَلَى الْجَدْرَانِ الْمُزَخْرَفَةِ، وَزَادَ يَقُولُ بَتَأَنٍّ يُشْبِهُ
الْمُدَرِّسَ الْحَكِيمَ: «وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السَّجْدَةِ: ٧)،

وَيَقُولُ أَيْضًا:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الْأَعْلَى: ٢-٣).

فَمِنْ سُنَّةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْإِحْسَانُ وَالتَّسْوِيَةُ وَالْقَدَرُ
الْمُحْكَمُ، وَهَذِهِ الْأَسَالِيبُ الْإِلَهِيَّةُ تَدْعُونَا نَحْنُ الْمَخْلُوقِينَ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهَا فِي
أَعْمَالِنَا الْيَوْمِيَّةِ، سَوَاءً كَانَتْ بِنَاءً لِحِجْرٍ أَوْ صَنْعَةً لِأَدَاةٍ بَسِيطَةٍ».

ثُمَّ التَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ رِيَّاحٍ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْمُعْتَادُ عَلَى الْعَمَلِ
فِي الْبِنَاءِ، فَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الْحِرْصَ عَلَى الْفَهْمِ: «حَدَّثَنَا يَا صَفْوَانُ عَنْ
الْقَنْطَرَةِ الَّتِي بَنَيْتُمَهَا بَعْدَ أَنْ قَامَ حَدِيدُهَا وَحِجَارَتُهَا، هَلْ قُضِيَتْ الْحَاجَةُ
بِمُجَرَّدِ الْبِنَاءِ الْأَوَّلِيِّ»

فَأَجَابَ صَفْوَانُ وَفِي نَبَرَتِهِ فَرَحٌ مُتَرَنَّ مُعْكِسُ الْخَبَرَةِ الطَّوِيلَةِ: «عَبَّرَ
النَّاسُ عَلَيْهَا بِسَلَامَةٍ، وَحُمِلَتِ الْبِضَاعَةُ مِنْ ضِفَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وَكَفَّ النَّهْرُ عَنْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

نَهَشِ الضَّفَّتَيْنِ بِفَضْلِ الْبِنَاءِ الْقَوِيِّ، وَلَكِنْ يَا إِمَامَنَا، تَبَقَّى بَقِيَّةٌ تُنَادِينَا وَتَدْعُونَا إِلَى الْكَمَالِ: جَمَالٌ يَشْهَدُ لِلْمَعْنَى الَّذِي وَرَاءَ الْبِنَاءِ، جَمَالٌ يَجْعَلُ الْفَنَظْرَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِلْعُبُورِ بَلْ شَاهِدًا عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَهِيٍّ».

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً تُشِيرُ إِلَى الرِّضَا عَنِ الْفَهْمِ الْعَمِيقِ، وَقَالَ: «هُنَاكَ يَا أَصْدِقَائِي تَكْمُلُ الْحَرْفَةُ وَتَتَحَوَّلُ مِنْ نَفْعٍ مُجَرَّدٍ يَفْنَى بِفَنَاءِ الْحَاجَةِ إِلَى آيَةٍ تُذَكِّرُ النَّاسَ بِالْخَالِقِ الْمُحْسِنِ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩)،

فَبِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ يَحْسُنُ الشَّكْلُ وَيَصْدُقُ الْمَعْنَى، وَيَصِيرُ الْعَمَلُ مُتَوَازِنًا كَمَا أَرَادَ الْخَالِقُ لِخَلْقِهِ».

ثُمَّ نَطَقَتْ لُبْنَى الْبِنَاءَةِ كَمَنْ يُرْتَلُّ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْعِلْمِ الْقَدِيمِ، وَقَدْ أَمْتَلَأَتْ عَيْنَاهَا بِلَمَعَانِ الْفَهْمِ: «إِنَّ الْبِنَاءَ لُغَةٌ تَنْطِقُ بِالنَّسَبِ وَالْمَقَادِيرِ الْمُحْسُوبَةِ، وَقَدْ رَأَيْتُ فِي الْفَنَظْرَةِ مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةً تَطْلُبُ زَخْرَفَةً مُقْتَصِدَةً تُشَاكِلُ جَرَيَانَ الْمَاءِ الْهَادِي تَحْتَهَا، وَمَوْضِعًا لِكَلِمَةٍ أَوْ آيَةٍ تُبَيِّرُ لِلْسَّائِرِ قَلْبُهُ وَتُذَكِّرُهُ بِعَظَمَةِ الْخَلْقِ». فَاوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ إِوْمَاءً الْمُوَافِقِ الْمُتَأَنِّي، وَقَالَ: «لِيُزَيِّنَ الْعَمَلُ بِقَدْرِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَطْ، فَإِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الزَّيْنَةِ إِسْرَافٌ يُفْسِدُ الْمَعْنَى، وَالنَّقْصَانُ تَفْرِيطٌ يَجْعَلُ الْعَمَلَ نَاقِصًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعْدُ: ٨)،

وَيَقُولُ أَيْضًا:

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الْأَعْرَافُ: ٣١).

فَالْمِقْدَارُ هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَحْفَظُ الْجَمَالَ وَيَحْمِي الْمَنْفَعَةَ مِنَ
الْفَسَادِ.

وَتَقَدَّمَ عَاصِمُ الصَّانِعِ، وَأَثَرُ النَّارِ وَالْحَرَارَةِ وَاضِحٌ عَلَى يَدَيْهِ كَشَاهِدٍ
عَلَى الْجُهْدِ الْمَبْدُولِ، فَقَالَ بِثِقَةِ الْمُمَارِسِ: «نُصَوِّغُ حَاجِزًا دَقِيقًا عَلَى هَيْئَةِ
أَمْوَاجٍ تَتَمَوَّجُ كَمَوْجِ النَّهْرِ، وَنَجْعُلُ فِي الْوَسْطِ مِشْكَاتًا نُحَاسِيَّةً تُوقَدُ لَيْلًا
فَيَنْعَكِسُ نُورُهَا فِي الْمَاءِ كَأَنَّهُ نَجْمٌ سَاقِطٌ مِنَ السَّمَاءِ». فَقَرَّرَ الْإِمَامُ بِصَوْتٍ
يَحْمِلُ التَّشْجِيعَ: «أَمْضُوا فِي عَمَلِكُمْ وَزِنُوا كُلَّ قِطْعَةٍ بِمِيزَانِهَا الْخَاصِّ، فَسِرُّ
الصَّنْعِ الْمُتَقِنِ فِي الْإِعْتِدَالِ وَالتَّوَازُنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الْقَمَرُ: ٤٩).

فَالْقَدَرُ هُوَ الْأَسَاسُ، وَالْإِحْسَانُ هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي يَرْفَعُ الْعَمَلَ إِلَى مَقَامِ
الْعِبَادَةِ.

وَأَنْفَضَ الْمَجْلِسُ إِلَى الْوَرَشَةِ كَالنَّمْلِ الْعَمَالِ يَحْمِلُ كُلُّ نَصِيْبِهِ عَلَى

قَدَرِ قُوَّتِهِ وَمَهَارَتِهِ، وَنَاشَ نَاصِرُ السُّنَنِ تَدْوِينَ الْخُطُوتِ وَالْآلَاتِ وَالزَّمَنِ بِدَقَّةٍ تُشْبِهُ الْكَاتِبَ الْمُحَافِظَ عَلَى التَّارِيخِ، وَقَاسَ جَابِرُ النَّسَبِ بَيْنَ تَمْوِجِ الْحَدِيدِ وَأَنْعِكَاسِ الضَّوِّ بِأَدَوَاتٍ بَسِيطَةٍ وَلَكِنْ دَقِيقَةٍ، وَنَفَّحَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ حُجَجَهُ يُرَدِّدُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ: «إِذَا لَمْ يُوزَنْ الْجَمَالُ بِالْمَنْفَعَةِ انْقَلَبَ تَرْفًا يُفْسِدُ الْغَرَضَ، وَإِذَا عَرِبَتِ الْمَنْفَعَةُ عَنِ الْجَمَالِ صَارَتْ فَسْرًا يَثْقِلُ الْقَلْبَ، وَيَبْنِيهِمَا قِسْطٌ وَعَدْلٌ نَبَغِيهِ لِنَصِلَ إِلَى الْكَمَالِ». وَتَلَا أَحَدُهُمْ مِنْ وَسْطِ الْحَلَقَةِ:

﴿لِيُنَلِّكُمُ اللَّهُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الْمُلْكُ: ٢)،

فَكَانَ الْآيَةُ تُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْمُضِيِّ قُدَمَا فِي الْعَمَلِ الْمُتَقَنِّ.

حَتَّى إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ الْمَوْعُودُ لِإِيقَادِ الْمَشْكَاتِ اجْتَمَعَ الْحَيُّ كُلُّهُ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، وَوَقَفَ الْإِمَامُ عَلَى حَافَةِ الْجِسْرِ وَفِي يَدِهِ مِشْعَلٌ صَغِيرٌ يَتَأَلَّقُ بِنُورٍ خَافِتٍ، فَقَالَ بِصَوْتٍ يَمَلَأُ الْمَكَانَ: «نُوقِدُ الْيَوْمَ نُقْطَةَ ضَوْءٍ فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ، فَلَيْسَ الصَّنْعُ شَكْلًا فَقَطْ يَفْنَى بِفَنَاءِ الزَّمَنِ بَلْ مَعْنَى يُدِيمُ الْمَنْفَعَةَ وَيَرْفَعُهَا إِلَى مَقَامِ الْقِيَمَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَیَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ (التَّوْبَةُ: ١٠٥)».

ثُمَّ نَاولَ الْمِشْعَلَ إِلَى حَبِيبِ الدُّنْيَا، فَأَوْقَدَهُ الْمَشْكَاتَةَ بِيَدٍ ثَابِتَةٍ، فَانْسَاحَ النُّورُ فِي الرُّخْرِفِ الْمُحْكَمِ وَارْتَعَشَ الْمَاءُ تَحْتَ الْجِسْرِ كَأَنَّهُ يُسَبِّحُ بِالنُّورِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْجَدِيدِ، وَتَلَا قَارِئٌ مِنَ الْحَلَقَةِ بِصَوْتٍ عَالٍ:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الْكَهْفُ: ٣٠)،

فَكَانَ الْآيَةُ تُؤَكِّدُ أَنَّ الْإِحْسَانَ فِي الْعَمَلِ لَا يَضِيعُ أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ.

ثُمَّ سَأَلَتْ رُقِيَّةُ الْفَقِيهَةَ، وَهِيَ أُمْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَيِّ تَعْرِفُ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ، فَقَالَتْ: «مَا حَظُّ الْقَلْبِ مِنْ هَذَا الْإِتْقَانِ يَا إِمَامَنَا» فَأَجَابَ الْإِمَامُ بِحِكْمَةٍ يَفِيضُ مِنْهَا أَلْفَهُمُ الْعَمِيقُ: «حَظُّ عَظِيمٌ يَا رُقِيَّةُ، فَالْصَّنِيعُ الْحَسَنُ يَرْفَعُ الْقَلْبَ إِلَى الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا شَكَرَ الْقَلْبُ اسْتَقَامَ الْعَقْلُ وَتَزَيَّنَتْ أَلْيَدُ بِالْعَمَلِ الْمُتَقَنِّ، وَمِنْ قَبْلُ قِيلَ فِي الْقُرْآنِ:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾
(الْفُرْقَانُ: ٦٧).

فَالْقَلْبُ هُوَ الْمَحْوَرُّ، وَالْإِتْقَانُ يُطَهِّرُهُ وَيَرْفَعُهُ».

وَفِي الْعَدِ أَنْتَقَلَ الدَّرْسُ إِلَى الشُّوقِ الْمَجَاوِرِ لِيَتَلَقَّى صَنِيعَ الْأَمْسِ وَيَرَى تَأْثِيرَهُ عَلَى الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ؛ فَنُصِبَتْ دُكَّانَاتُ أَرْبَعَةٍ تُحَاذِي الْقَنْطَرَةَ الْجَدِيدَةَ: نَحَاتٌ يُشَاكِلُ نَقْشَهُ زُخْرُفِ الْحَدِيدِ بِدِقَّةٍ تُذْهِلُ النَّاطِرِينَ، وَصَانِعٌ خَشَبٍ يُهَيِّئُ مَقَاعِدَ لِلْمُرْتَاحِينَ عَلَى الْجِسْرِ بِشَكْلِ يَتَّفِقُ مَعَ الْمَكَانِ، وَخَبَّازٌ يُخْرِجُ رَغِيفًا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

دَافِئًا كَأَنَّهُ يُنْمِ الْوَعْنَى بِرِزْقٍ حَلَالٍ يُشْبِعُ الْجِسْمَ وَالرُّوحَ، وَخَطَاطٌ يَكْتُبُ فِي
أَعْلَى الْفَنَطَرَةِ كَلِمَاتٍ مِنَ الْحِكْمَةِ: «أَصْنَعْ جَمِيلًا تَرُ جَمِيلًا». وَأَنْدَمَجَ النَّفْعُ
وَالْقِيَمَةُ فِي مَشْهَدٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْوَعْنَى الرُّوحِيَّةِ، وَتُوَلَّدَ رِبْحٌ
حَلَالٌ يَفِيضُ عَلَى الْجَمِيعِ وَسَكِينَةٌ دَاخِلِيَّةٌ تَمَلَأُ الْقُلُوبَ، وَتَلَا وَاعٍ مِنَ
الْحُضُورِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ (النحل: ٩٠)،

فَكَانَ الْآيَةُ تُلَخِّصُ مَا رَأَوْهُ مِنْ إِتْقَانٍ.

وَفِي زَاوِيَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الشُّوقِ تَأْمَلُ حَيْبُ الدُّنْيَا وَجُوهَ النَّاسِ الْمُتَبَسِّمَةِ
وَهُمْ يَعْبُرُونَ الْجِسْرَ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنَ الْإِمَامِ وَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ يَعْكِسُ التَّغْيِيرَ
الدَّخِلِيَّ: «كُنْتُ أَحْسِبُ الرِّبْحَ عَدَدًا فِي دَفْتَرٍ مِنَ الْأَرْقَامِ الْبَارِدَةِ، فَإِذَا هُوَ مَعَانٍ
فِي الصُّدُورِ تَمَلَأُ الْقُلُوبَ سَكِينَةً. رِبْحْتُ الْيَوْمَ سَكِينَةً مَا دُقْتُ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ».
فَأَكَّدَ الْإِمَامُ بِرِضًا وَاضِحًا: «مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْقِيَمَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْمَادِّيَّةِ حَصَلَ
الرِّبْحُ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى، وَقَدْ قِيلَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾
(الأنكبوت: ٤٣)».

وَوَقَفَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ رَافِعًا دَفْتَرَهُ الْمَمْلُوءَ بِالْحِسَابَاتِ وَالْمَلَاخِظَاتِ،

فَقَالَ بِثِقَةِ الْمُفَكِّرِ: «خَلَصْنَا يَا إِمَامَنَا إِلَى أَنَّ الصَّنِيعَ بِلَا قَصْدٍ شَرِيفٍ صَرَفُ طَاقَةٍ عَابَثَةٍ لَا تَبْنِي شَيْئًا دَائِمًا، وَأَنَّ الْقَصْدَ بِلَا إِتْقَانٍ أُمْنِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ لَا تَبْنِي وَاقِعًا، وَأَنَّ الْمَنْفَعَةَ إِذَا اُنْغَلَقَتْ عَلَى نَفْسِهَا فَسَدَتْ وَأَفْسَدَتْ، وَإِذَا تَفَاسَمَتْ مَعَ الْجَمِيعِ اسْتَدَامَتْ وَنَمَتْ، وَأَنَّ الْجَمَالَ لَا يُؤْتِي ثَمَرَهُ إِلَّا مَعَ الْقِسْطِ فِي الْمَقْدَارِ وَالتَّوَازُنِ». فَأَجَازَ الْإِمَامُ قَوْلَهُ وَقَالَ: «تِلْكَ خَرِيطَةُ السَّحْرِ الْحَلَالِ فِي الْعَمَلِ، فَاحْفَظُوهَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاسْتَحْضِرُوا دَائِمًا قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (هُود: ٨٨)،

فَالنَّجَاحُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ».

تَهَافَتَ النُّورُ فِي الصَّخْنِ الْمَسْجِدِيِّ كَأَنَّهُ يَنْسُجُ لِلدَّرْسِ سِتَارًا مِنْ سَكِينَةٍ وَهْدُوٍّ، وَتَقَدَّمَ الْإِمَامُ خُطُوبَتَيْنِ لِيَتِمَّ مَا بُدِئَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. أَشَارَ يَدِهِ إِلَى الْجِسْرِ الْمُنَارِ بِالنُّورِ، فَانْسَاخَتْ فِي الْقُلُوبِ ذِكْرَى اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ وَمَا حَمَلَتْهُ مِنْ دُرُوسٍ. أَنْصَتَ الْحَلَقَةُ بِكَامِلِهَا، فَأُطْلِقَ الْإِمَامُ كَلِمَاتِ الْخِتَامِ كَمَنْ يُثَبِّتُ مِيزَانًا عَلَى طَاوِلَةِ الصَّنَاعِ الْمَاهِرِينَ: «يَنْفُذُ الْمَعْنَى الْعَمِيقُ إِذَا اسْتَقَامَ الْقَدْرُ وَالْمَقْدَارُ، وَيَبْقَى الصَّنُوعُ دَائِمًا إِذَا لَازَمَهُ الْإِحْسَانُ وَالْكَمَالُ، وَتَصْدُقُ الْأَشْيَاءُ وَتَصِيرُ حَقًّا إِذَا شَهِدَ لَهَا الْجَمَالُ وَالْمَنْفَعَةُ مَعًا فِي وَحْدَةٍ مُتَكَامِلَةٍ».

ثُمَّ تَقَدَّمَ نَاصِرُ السُّنَنِ فِي يَدِهِ دَفْتَرٌ أَسْفَرَتْ حَوَافِيهِ مِنْ كَثْرَةِ

أَلْمَلَاخِطَاتِ وَالتَّنْذِيرِيَّاتِ، فَتَلَا عَلَى الْجَمْعِ مَا سَمَّاهُ «عَهْدَ الْإِتْقَانِ» وَالصَّوْتُ
يَجْرِي هَادِئًا كَنَهْرٍ تَحْفَظُهُ ضِفَّتَاهُ مِنَ الْفَيْضَانِ: «نُلْزِمُ الْأَيْدِي أَنْ تُصِيبَ الْقَدَرُ
الْمُنَاسِبَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ، وَنُلْزِمُ الْعُقُولَ أَنْ تُحْكِمَ الْخُطَّةَ وَتُدَقِّقَهَا قَبْلَ الْبَدْءِ،
وَنُلْزِمُ الْقُلُوبَ أَنْ تَصْدُقَ فِي الْمَقْصِدِ وَتَبْحَثَ عَنِ الْخَيْرِ الْعَامِّ؛ فَالْعَمَلُ شَهَادَةٌ
لَنَا أَمَامَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، وَالْإِتْقَانُ عِبَادَةٌ تَقْرُبُنَا إِلَى الْخَالِقِ، وَالْجَمَالُ ذِكْرٌ يَذْكُرُنَا
بِجَمَالِ الْخَلْقِ الْإِلَهِيِّ». فَهَزَّ الْقَوْمَ رُءُوسَهُمْ عَلَى إِيقَاعِ الرِّضَا وَالْقَبُولِ،
وَأَنْطَبَعَتْ فِي الصُّدُورِ آيَةُ الْمُلْكِ

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الْمُلْكُ ٢)،

كَانَهَا وَصِيَّةً تُلَازِمُهُمْ فِي كُلِّ عَمَلٍ.

وَجَاءَ الْعَدُوُّ بِاخْتِبَارٍ آخَرَ يُعَمِّقُ الدَّرْسَ، فَدَخَلَ أَبُو زَيْدٍ النَّجَّارُ وَهُوَ يَحْمِلُ
سِلَّةً مِنَ الْأَوَاحِ دَقِيقَةٍ مُصَنَّعَةٍ بِمَهَارَةٍ، فَتَبِعَهُ الصَّبِيَّانُ كَانَهُمَا عَصَافِيرُ تَتَّبَعُ زَرَاعًا
يَبْدُرُ الْبَذَرُ. نَصَبَ الْأَلْوَاخَ عِنْدَ أَسْفَلِ الْجِسْرِ بِدِقَّةٍ، وَالْعُيُونُ تَنْتَظِرُ مَا
سَيَحْدُثُ. خَاطَبَهُ الْإِمَامُ بِلُطْفٍ يَقُومُ عَلَى نُكْتَةِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّعْلِيمِ: «تُظْهِرُ
الْأَلْوَاخَ حُسْنًا إِذَا سَكَنْتَ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُنَاسِبَةِ، فَهَلْ أَحْسَنْتَ الْقَدَرَ وَالْمَقْدَارَ
يَا أَبَا زَيْدٍ» فَأَشَارَ أَبُو زَيْدٍ إِشَارَةً مَنْ يَرْضَى عَنِ الْمِيزَانِ وَالْحِسَابِ، ثُمَّ دَقَّ
الْمَسَامِيرَ عَلَى إِيقَاعٍ رَتِيبٍ يَسْتَحْضِرُ قَوْلَهُ تَعَالَى:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى ٢-٣).

تَنَازَرَ الْقَوْمُ فِي التَّشْيِيتِ الْمُحْكَمِ، فَانْتَضَمَتِ الْأَلْوَا حُ كَأَنَّهَا سُلَّمٌ صَغِيرٌ
لِلنُّورِ يَصْعَدُ بِالنَّاسِ إِلَى الْجَمَالِ.

وَأَنْفَرَدَ جَابِرُ الْفَتَى بِطَرَفِ الْمَشْكَاةِ يُرَاجِعُ نِسْبَ الضَّوِّءِ إِلَى التَّمَوُّجِ
بِعَنَايَةٍ فَائِقَةٍ، فَتَرَكَ الْقِيَاسَ عَلَى صَفْحَةٍ مِنْ دَفْتَرِهِ ثُمَّ رَفَعَ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ
الْصَّافِيَةِ وَتَلَا فِي سِرِّهِ:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرَّعد ٨).

أَدْرَكَ الْفَتَى أَنَّ جَمَالَ الْعِلْمِ يَظْهَرُ حِينَ يَخْضَعُ لِلْقَدْرِ وَيَرْتَقِي بِالْقَصْدِ
الشَّرِيفِ، وَأَنَّ الْإِتْقَانَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حِسَابَاتٍ بَلْ رُوحٌ تَحْيَا بِالْإِيمَانِ.

وَأَنْحَنَى صَاحِبُ الْقِيَاسِ عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْجِسْرِ لِيَرُصِدَ أَثَرَ
الْحَرَكَةِ فِي سَيْرِ الرَّاكِبِينَ وَالْمَاشِينَ، فَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ سَعَةَ الْمَمَرِّ قَدْ تَنْقُصُ فِي
سَاعَةِ الرَّحَامِ الشَّدِيدِ. أَلْمَحَ الْإِمَامُ الْمُلَاحَظَةَ الدَّقِيقَةَ، فَأَذِنَ لِلْبُنَى أَنْ تُزِيدَ فِي
الْحَافَةِ عَرْضًا يُقَوِّي السَّلَامَةَ وَيَحْفَظُ النَّاسَ مِنَ الْخَطَرِ. أَتَمَمْتَ لُبْنَى الْإِصْلَاحَ
بِرَقَّةٍ وَحَذَرٍ تَحَرُّسُهَا آيَةُ الْقَدْرِ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر ٤٩)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

فَصَارَ الْجِسْرُ أَكْثَرَ أَمَانًا وَجَمَالًا.

وَتَرَاحَمَ النَّاسُ قُرْبَ الْمَاءِ الْجَارِي، فَارْتَفَعَتْ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ تَسْتَأْنِسُ بِالسُّؤَالِ
وَتَطْلُبُ الْإِرْشَادَ: «كَيْفَ نَحْفَظُ هَذَا الْإِتْقَانَ فِي دُكَّانٍ صَغِيرٍ أَوْ حِرْفَةٍ مُتَبَسِّطَةٍ لَا
تَمْلِكُ الْأَدَوَاتُ الْكَبِيرَةَ» فَأَجَابَ الْإِمَامُ وَعَلَى وَجْهِهِ نُورُ التَّعْلِيمِ وَالْحِكْمَةِ:
«نَحْفَظُهُ إِذَا جَعَلْنَا أَلَوْقَتَ مِيزَانًا لَا يُضِيعُهُ الْكَسَلُ، وَالْمَادَّةَ أَمَانَةً لَا تُبْذَرُ فِي
الْبَاطِلِ، وَالصَّبْرَ عُدَّةً لَا تَنْفَدُ فِي الْأَصْغُوبَاتِ، وَاسْتَحْضَرْنَا دَائِمًا شَاهِدَ آيَةٍ:

﴿قُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَی اللّٰهُ عَمَلْکُمْ﴾ (التَّوْبَةُ ١٠٥)،

فَلَا يَزِيدُنَا النَّظَرُ إِلَيْهِ إِلَّا ضَبْطًا وَاحْكَامًا، وَلَا يَنْقُصُنَا النَّظَرُ إِلَى النَّاسِ إِلَّا
رِيَاءً نَتَرُكُهُ وَنَتَجَنَّبُهُ».

وَأَنْصَرَفَ الْجَمْعُ بَعْدَ النَّهَارِ إِلَى دُورِهِمْ وَحِرْفِهِمْ كَمَنْ يَحْمِلُ عَلَى كَتِفِهِ
لَوْحَ وَصِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ. زَيْنَ حَبِيبِ الدُّنْيَا غِلَافَ بَضَاعَتِهِ بِكَلِمَةٍ تَخْدِمُ الصَّدَقَ وَلَا
تَسْتُرُ عَيْبًا أَوْ خَدَاعًا، وَنَفَشَ أَبُو زَيْدٍ عَلَى أَدَاةِ قِيَاسِهِ آيَةَ التَّشْرِيفِ وَالْوَعْدِ:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الْكَهْفُ ٣٠)،

وَتَبَّتْ جَابِرٌ فِي صَدْرِ دَفْتَرِهِ آيَةُ الْخَلْقِ الرَّاشِدِ وَالْمُحْسِنِ:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السَّجْدَةُ ٧).

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَعَادَ الْإِمَامُ آخِرَ الْمَسَاءِ إِلَى الصَّحْنِ الْمَسْجِدِيِّ، فَافْتَرَبَ مِنَ الْمَشْكَاةِ
وَأَشْعَلَ فِيهَا زَيْتًا جَدِيدًا كَمَنْ يُجَدِّدُ الْعَهْدَ مَعَ الْخَالِقِ، ثُمَّ رَفَعَ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ
وَتَلَا فِي خُفْوٍ يَجْمَعُ الدَّرْسَ كُلَّهُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ:

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾
(النمل ٨٨).

فَسَكَنَ الْمَكَانَ عَلَى ضَوْءٍ هَادِيٍّ يَمْلَأُ الْفَضَاءَ، وَسَكَنَتْ مَعَهُ الصُّدُورُ
بِسَكِينَةِ الْإِيمَانِ، وَأَنْطَوَى الدَّرْسُ عَلَى مِيزَانٍ يُعَلِّمُ كُلَّ صَنِعٍ أَنَّ يَطْلُبَ مَقَامَ
«الْإِحْسَانِ» الَّذِي يَرْفَعُ الْعَمَلَ إِلَى الْكَمَالِ، وَعَلَى شَاهِدٍ يَهْدِي كُلَّ قَلْبٍ أَنْ يَرَى
فِي الْإِتْقَانِ سَبِيلَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْقُرْبِ مِنْهُ.

الفصل الثالث: ميراث البيان والخلف

• المَوَازِينُ:

- التَّوْثِيقُ وَالْبَيَانُ: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ (البقرة: 282) و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: 4).
- الْمَقْدُورُ وَالتَّفْصِيلُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49).

- الشَّخْصِيَّاتُ الْمُحَوَّلَةُ: يَقُومُ جَابِرٌ بِنَشْرِ نَتَائِجِ تَجَارِبِهِ فِي «دَفْتَرِهِ». تُنَاقَشُ هِنْدُ بِنْتُ عُمَيْرٍ وَرُقِيَّةُ الْفَقِيهَةِ أَهَمِيَّةَ تَوْثِيقِ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ. يُبْرَزُ يَاسِرُ بْنُ سُحَيْمٍ أَهَمِيَّةَ التَّفْصِيلِ فِي الْمَسَائِلِ الْمَعْقَدَةِ. يَخْتَتِمُ الْإِمَامُ الْقِصَّةَ بِأَنْ تَوْثِيقَ الْمَعْرِفَةِ وَبَيَانَهَا هُوَ مِيزَانٌ يَضْمَنُ اسْتِدَامَةَ الْحَضَارَةِ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: مِيزَانُ التَّوْثِيقِ وَالْبَيَانِ

أَنْسَدَلَ الْعَصْرُ عَلَى الْمَسْجِدِ كَثُوبٍ مِنْ سَكِينَةٍ رَقِيقَةٍ، وَتَدَلَّتْ سُرُجُ الزَّيْتِ عَلَى الْأَعْمَدَةِ فَالْقَتْ خُيُوطًا مِنْ ضِيَاءٍ عَلَى وُجُوهِ الْحَالِقِينَ حَوْلَ الْإِمَامِ. جَلَسَ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي نِصْفِ دَائِرَةٍ، وَأَمَامَ الْإِمَامِ رُقْعٌ وَأَسْفَارٌ وَأَقْلَامٌ مَبْرِيَّةٌ وَمَحْبَرَةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهَا عَيْنٌ تَسْتَعِدُّ لِلشُّهُودِ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَجْرِي كَالْمَاءِ فِي الْأَوْدِيَةِ، فَقَالَ:

﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ (البقرة: 282)،

ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتًا قَصِيرًا كَأَنَّهُ يَرْفَعُ لِالْقُلُوبِ سِتَارًا، وَقَالَ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ قُرْآنِيَّةٌ تَجْعَلُ التَّوْثِيقَ عِبَادَةً، وَتَجْعَلُ الْبَيَانَ أَمَانَةً، فَلَا تَسْأَلُوا مِنَ الْكِتَابَةِ وَلَا تَسْتَكْثِرُوا دَقِيقَ التَّفَاصِيلِ، فَإِنَّ الْحَقَّ يَسْكُنُ فِي الْجُزْئِيَّاتِ كَمَا يَسْكُنُ فِي الْكُلِّيَّاتِ.»

أَنْحَنَى جَانِبًا عَلَى دَفْتَرٍ غَلِيظٍ الْغِلَافِ، وَفَتَحَهُ فَبَانَتْ صَفَحَاتُ مَرْقُومَةٍ بِتَوَارِيخٍ دَقِيقَةٍ وَعَنَاوِينُ صَغِيرَةٍ فِي أَعَالِي الصَّفَحَاتِ، وَخُطُوطٌ دَقِيقَةٌ لِلْجَوَارِ،

وَعَلَى الْهَامِشِ مُلَاحَظَاتٌ بِجَبْرِ أَخْفَتْ. قَالَ وَفِي صَوْتِهِ نَشْوَةٌ مَنْ أَمْسَكَ مِفْتَاحًا لِبَابِ مُوصِدٍ: «هَذَا دَفْتَرِي، فِيهِ تَجَارِيبي فِي الْمَعَادِنِ وَالزُّيُوتِ وَالنَّبَاتِ. كُنْتُ أَفْقِدُ نَتِيجَةَ التَّجَرُّبَةِ بِسَبَبِ سَهْوَةٍ أَوْ إِخْلَالٍ فِي التَّسْجِيلِ، فَلَمَّا إِتَّخَذْتُ الْكِتَابَةَ مِيزَانًا لِكُلِّ خُطْوَةٍ تَجَلَّى لِي الطَّرِيقُ، وَعَرَفْتُ مَوَاطِنَ الْخَطَا وَالصَّوَابِ.»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَأَشَارَ بِأَصْبُعِهِ إِلَى الْمَحْبِرَةِ، وَقَالَ: «الْمَحْبِرَةُ شَاهِدَةٌ، وَالْقَلَمُ شَاهِدٌ، وَالصَّفْحَةُ مَشْهُودٌ عَلَيْهَا، وَأَنْتُمْ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ أَمَنَاءُ. الْكِتَابَةُ لَيْسَتْ زِينَةً لِلدُّرُوسِ، وَلَا تَذْكَارًا عَابِرًا، بَلْ هِيَ حِفْظٌ لِلْحَقِّ وَمَنْعٌ لِلنِّزَاعِ وَسَدٌّ لِبَابِ الرِّيبِ. وَالْبَيَانُ أَنْ تَجْعَلُوا مَا كَتَبْتُمُوهُ مُفْهَمًا لِكُلِّ قَارِيٍّ، فَلَيْسَ التَّوَثُّيقُ نَقُوشًا مُغْلَقَةً، بَلْ هُوَ كَلَامٌ يُبَيِّرُ.»

رَفَعَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُمَيْرٍ يَدَهَا وَفِي عَيْنَيْهَا جِدٌّ وَخَزَمٌ، وَقَالَتْ: «نَحْنُ أَهْلُ الْفِقْهِ نُدُونُ الْمَسَائِلَ وَنُقَيِّدُ الْأَحْكَامَ، وَنُسَمِّي الْقَوْلَ وَنُشِيرُ إِلَى الدَّلِيلِ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا لَمْ يُحْفَظْ فِي الصَّحِيفَةِ تَخَطَّفَتْهُ الظُّنُونُ. وَقَدْ تَعَلَّمْنَا أَنْ نَسْأَلَ عَنِ الْمَصْدَرِ وَسِلْسِلَةِ النَّقْلِ وَصِدْقِ الرَّاوي وَضَبْطِهِ، فَهَلْ فِي الصَّنَائِعِ مِثْلُ هَذَا التَّحْرِيٍّ»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ. مِيزَانُ التَّوَثُّيقِ فِي الصَّنَائِعِ كَمِيزَانِ الرَّوَايَةِ فِي الْعِلْمِ. فِي الْأَوَّلِ تُسَمُّونَ الرَّوَاةَ وَسِلْسِلَتَهُمْ، وَفِي الثَّانِي نُسَمِّي الْأَدَوَاتِ وَأَوْقَاتِ التَّسْخِينِ وَالتَّبْرِيدِ وَمَقَادِيرَ الْمَوَادِّ وَحَالَ الْجَوِّ. وَكَمَا أَنَّ الرَّوَايَةَ تَصِحُّ بِالضَّبْطِ

وَالثَّقَّةُ، كَذَلِكَ التَّجَرُّبَةُ تَصِحُّ بِالتَّكْرَارِ وَالتَّحَقُّقِ وَحُسْنِ التَّبَيُّنِ.»

أَطَلَّتْ رُقِيَّةُ الْفَقِيهَةُ بِوَقَارٍ، وَقَالَتْ: «إِنَّا نَحْشَى التَّحْرِيفَ، فَضَعُ لِلنُّصُوصِ حُرُوزًا: تَنَاسُبًا بَيْنَ أَلْمَنِ وَسَنَدِهِ وَمُقَارَنَةً بَيْنَ الرُّوَايَاتِ. فَهَلْ لِلسَّجَلِ الصَّنَاعِيِّ حُرُوزٌ مِثْلُهَا» قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ وَقَدْ أَخَذَ يَرَسُمُ بِقَلَمِ الْفَحْمِ جَدَاوِلَ صَغِيرَةً: «نَضَعُ تَارِيخًا وَسَاعَةً، وَنُثَبِّتُ الْمَكَانَ، وَنَصِفُ الْأَدَوَاتِ وَقَدَرِ دَقَّتِيهَا، وَنُحَدِّدُ مَا يُمَكِّنُ الْأَخْتِلَافَ فِيهِ مِنْ حَالِ الْجَوِّ أَوِ الرُّطُوبَةِ، ثُمَّ نَكْتُبُ الْخُطُوبَاتِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً دُونَ قَفَرٍ أَوْ إِجْزَازٍ مُخِلٍّ. وَنَجْعَلُ نِهَآيَةَ الصَّفْحَةِ لِالتَّوَقُّعِ وَالشُّهُودِ مِمَّنْ حَضَرَ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا هُوَ الْبَيَانُ. فَلَيْسَتْ الْكِتَابَةُ رُقُومًا يَنْهَتْ النَّاطِرُ فِيهَا، بَلْ هِيَ قَوْلٌ بَيْنٌ يُحَسِّنُ الْإِشَارَةَ وَيَدْفَعُ الْإِشْتِبَاهَ.»

مَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَفِي وَجْهِهِ قَلَقٌ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ كُلِّ مَا يُؤَخِّرُ رَبِّحًا عَاجِلًا، وَقَالَ: «أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّوَثُّيقِ إِطَالَةٌ وَتَكْلِيفَةٌ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي كُلَّ يَوْمٍ، فَلَوْ كَتَبْنَا كُلَّ شَيْءٍ ضَاعَتِ السَّاعَاتُ.» قَالَ الْإِمَامُ وَعَلَى شَفَتَيْهِ بَشَاشَةٌ رَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ: «الْكِتَابَةُ الَّتِي تَحْفَظُ الْحَقَّ لَا تُضَيِّعُ الزَّمَانَ، بَلْ تَحْفَظُهُ مِنْ نِزَاعِ مُسْتَقْبَلِي يَأْكُلُ مِنْ أَعْمَارِكُمْ أَضْعَافًا. وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الدِّينِ مَا قَالَ. كَتَبُوا الدِّينَ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، لِأَنَّ الصَّغِيرَ إِذَا أَهْمَلَ تَرَكَمُ وَأَنْقَلَبَ كَبِيرًا، وَالْكَبِيرَ إِذَا كُتِبَ سَهْلٌ أَلْفَوَاءُ بِهِ وَزَالَتْ الرِّيَّةُ.»

ثُمَّ نَظَرَ الْإِمَامُ فِي الْحَلَقَةِ فَقَالَ: «سَتَجْرِي مَشْهَدًا. نُرِيدُ بَيْعًا مُؤَجَّلًا.

لَيْكُنْ هُنَاكَ بَائِعٌ وَمُشْتَرٍ وَكَاتِبٌ وَشَاهِدَانِ.» قَامَ يَاسِرُ بْنُ سُحَيْمٍ بَائِعًا، وَقَامَ حَبِيبُ الدُّنْيَا مُشْتَرِيًا، وَتَقَدَّمَ نَاصِرُ السَّنَنِ كَاتِبًا، وَوَقَفَ صَفْوَانُ وَسَلَمَى الْأُصُولِيَّةُ شَاهِدَيْنِ. قَالَ الْإِمَامُ لِلْكَاتِبِ: «اُكْتُبْ بِالْحَقِّ وَلَا تَبْخَسْ مِنْ شَيْءٍ. أَثْبِتِ الْأَسْمَاءَ وَالْمَقَادِيرَ وَالْأَجَلَ وَحَالَ الْمَبِيعِ، وَسَلِّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أَنْ يُمْلِيَ وَيَتَّقِيَ رَبَّهُ فَلَا يَنْقُصَ شَيْئًا.» وَأَنْطَلَقَ نَاصِرٌ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ عَلَى الطَّرَفَيْنِ، فَإِذَا اسْتَوَى الْكَلَامُ قَالَ الْإِمَامُ: «اقْرَأْ عَلَيْنَا مَرَّةً أُخْرَى.» فَقَرَأَ، ثُمَّ قَالَ لِلشَّاهِدَيْنِ: «هَلْ تَرَوْنَ فِيهِ الْعَدْلَ وَالْبَيَانَ» فَقَالَا: «نَعَمْ.» فَقَالَ: «هَكَذَا تَسْلُمُ الْمُعَامَلَةُ، وَتَسْكُنُ النُّفُوسُ، وَيَبْقَى لِلزَّمَانِ خَيْرُهُ.»

ثُمَّ انْتَقَلَ الْكَلَامُ إِلَى بُنَى الْمُهَنْدِسَةِ، فَقَالَتْ: «فِي الْعُمُرَانِ لَنَا رُسُومٌ وَمَقَاطِيعٌ وَنِسَبٌ وَعَلَامَاتٌ لِلْإِرْتِفَاعِ وَالْمِيلِ وَالْعُرْضِ. وَقَدْ كُنَّا نُخْطِئُ فِي التَّنْفِيدِ لِسُوءِ الْبَيَانِ فِي الرَّسْمِ، فَجَعَلْنَا لِكُلِّ رَسْمٍ قَائِمَةً تُسَمَّى الْعُنَاصِرَ وَالْمَقَادِيرَ وَالْمَرَاجِعَ، وَحِينَ وَضَعْنَا هَذَا الْمِيزَانَ صَارَ الْعَامِلُ يَفْهَمُ رُوحَ الْمَشْرُوعِ كَمَا يَفْهَمُ خُطُوطَهُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «الْبَيَانُ جِسْرٌ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْأَدَاءِ، فَإِذَا انْقَطَعَ الْجِسْرُ سَقَطَ الْمَعْنَى وَضَاعَ الْأَدَاءُ.»

وَأَشَارَ رَبَابُ بِنْتُ مَزِيدٍ إِلَى مِيزَانٍ صَغِيرٍ وَقِيَاسِ حَرَارَةٍ، وَقَالَتْ: «وَفِي التَّجَرُّبَةِ لَا يَكْفِي أَنْ نَقُولَ سَخْنًا وَبَرَدْنَا. بَلْ نَقُولُ سَخْنًا إِلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ وَزَمَنٍ مَحْسُوبٍ، وَعِنْدَ كَمِ دَرَجَةٍ بَدَأَ الْمَادَّةُ تَلِينُ وَمَتَى جُمِدَتْ. فَالْتَّوَثِيقُ يَحْفَظُ لَنَا

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِئَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الطَّرِيقَ لِكَيْ لَا نُعِيدَ ضَلَالًا قَدْ سَلَكَنَاهُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَكَذَلِكَ أَلْفَقَهُ يَحْفَظُ
الطَّرِيقَ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُحْكَمِ وَغَيْرِهِ، فَيَتَضَحُّ لِلْعَامِلِ مَا يَثْبُتُ وَمَا يَتَغَيَّرُ.»

ثُمَّ جَاءَتْ سَلْمَى الْأُصُولِيَّةُ فَقَالَتْ: «إِنِّي أَرَى فِي دَفَاتِرِ بَعْضِ الطُّلَّابِ
جُمْلًا تُشَكِّلُ عَلَى الْقَارِئِ لِسُوءِ التَّرْتِيبِ أَوْ لِاخْتِصَارِ الْمُخِلِّ. أَفَلَيْسَ الْبَيَانُ
مَطْلُوبًا كَمَا التَّوْثِيقُ» قَالَ الْإِمَامُ: «نَعَمْ. التَّوْثِيقُ يَمْنَعُ الضِّيَاعَ، وَالْبَيَانُ يَمْنَعُ
الِاشْتِبَاهَ. فَإِذَا كَتَبْتُمْ فَتَحَرَّوْا الْكَلِمَةَ الْوَاضِحَةَ وَالتَّرْتِيبَ الْمُيسَّرَ، وَجَعَلُوا لِكُلِّ
مَعْنَى مَقَامَهُ، وَلِكُلِّ خُطْوَةٍ رَقْمَهَا، وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ زِيَادَةَ سَطْرِ تَكْلِفَةً، بَلْ هِيَ
جِسْرٌ لِقَارِئِ سَيَحْيِي بَعْدَكُمْ.»

هَذَا نَهَضَ نَاصِرُ السُّنَنِ وَقَدْ بَسَطَ صَحِيفَةً كَبِيرَةً فِيهَا فِهْرُسٌ لِدَفَاتِرِ
الْحَلَقَةِ، وَقَالَ: «جَعَلْنَا لِلدَّفَاتِرِ فِهْرَسًا يَدُلُّ عَلَى الْمَوَاضِعِ وَالتَّوَارِيخِ، وَالْحَقَقْنَا
بِكُلِّ تَجْرِئَةٍ خَاتِمًا يَثْبُتُ أَنَّهَا قُرِئَتْ عَلَى الْحَلَقَةِ وَأُقِرَّتْ. فَأَصْبَحَ لِعِلْمِنَا شَاهِدَانِ:
الْصَّفْحَةُ وَالْجَمَاعَةُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ. هَذَا مِنْ تَكْمِيلِ الْبَيَانِ، فَإِنَّ
الْعِلْمَ إِذَا تَعَدَّدَ شُهُودُهُ قَوِيَ وَارْتَفَعَ.»

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَعَا الْإِمَامُ إِلَى رِحْلَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى «خِزَانَةِ السَّجَلَاتِ»
فِي طَرَفِ السُّوقِ، وَهِيَ بَيْتٌ مِنْ طِينٍ مُتَقَنٍ فِيهِ رُفُوفٌ عَالِيَةٌ وَدَفَاتِرٌ مَرْقُومَةٌ
وَأَخْتَامٌ وَصَحَائِفُ مَطْوِيَّةٌ. قَالَ لَهُمُ الْقَيِّمُ عَلَيْهَا: «هَذَا تُحْفَظُ يُبَوِّغُ النَّاسُ
وَقُرُوضُهُمْ وَعُقُودُ شِرَاكَتِهِمْ. كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَتَنَازَعُونَ، فَلَمَّا اتَّخَذُوا التَّوْثِيقَ

دُسْتُورًا قَلَّ النَّزَاعُ وَزَادَ الْإِتِّقَانُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَنْ رَأَى أَثَرَ التَّوْثِيقِ فِي الْمَالِ سَهْلَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَثَرِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ.»

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الرِّحْلَةِ اعْتَرَضَهُمْ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي ثَمَنِ حُرْمَةِ قُطْنٍ. قَالَ الْأَوَّلُ: «بِعْتُهُ بِكَذَا.» وَقَالَ الثَّانِي: «بَلْ بِكَذَا.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «أَعِنْدَكُمَا كِتَابٌ» قَالَا: «لَا.» فَقَالَ لَهُمَا: «أُذْهَبَا إِلَى الْكَاتِبِ وَاكْتُبَا مَا تَتَعَمَّلَانِ بِهِ، فَإِنَّ الْكِتَابَ يَقْطَعُ الْخُصُومَةَ وَيَحْفَظُ الْأُلْفَةَ.» فَقَالَ أَحَدُ الطَّلَّابِ: «هَذِهِ آيَةُ الدِّينِ تَتَجَلَّى فِي السُّوقِ كَمَا تَتَجَلَّى فِي الْمَخْبَرِ.»

عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ فِي الْعِشِيِّ، وَقَدْ تَجَمَّعَتْ فِي الْقُلُوبِ قَنَاطِرُ مِنْ مَعَانٍ. قَالَ الْإِمَامُ: «لِنَضْعَ عَهْدًا لِهَذَا الْفَصْلِ: لَا نُهْمِلُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، وَلَا نَكْتُمُ مَلَاخِظَةً لَأَنَّهَا تَبْدُو ضَعِيفَةً، فَقَدْ تَكُونُ هِيَ مِفْتَاحَ الْفَهْمِ. نَجْعَلُ لِكُلِّ دَفْتَرٍ فِهْرِسًا، وَلِكُلِّ تَجَرِبَةٍ خَاتِمًا، وَلِكُلِّ قِرَاءَةٍ شَاهِدِينَ، وَلِكُلِّ مَشْرُوعٍ تَقْرِيرًا مُبَيَّنًا يَفْهَمُهُ الْبَدَوِيُّ كَمَا يَفْهَمُهُ الْمُتَخَصِّصُ. فَالْبَيَانُ إِحْسَانٌ، وَالتَّوْثِيقُ عَدْلٌ، وَمَنْ جَمَعَ الْإِحْسَانَ وَالْعَدْلَ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ فِي عِلْمِهِ وَمَعَاشِهِ.»

وَرَفَعَ جَابِرٌ دَفْتَرَهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَالَ: «سَأُضِيفُ فِي أَعْلَى الصَّفْحَةِ مَوْضِعًا لِلْمَقْصِدِ مِنَ التَّجَرِبَةِ، فَكَمَا نُثَبِّتُ الْمَقَادِيرَ نُثَبِّتُ الْمَقَاصِدَ لِيَكْتَمِلَ الْبَيَانُ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا مِنْ كَمَالِ الْفِعْلِ. فَإِذَا تَحَدَّدَ الْمَقْصِدُ اسْتَقَامَ الطَّرِيقُ، وَإِذَا اسْتَقَامَ الطَّرِيقُ صَارَ التَّوْثِيقُ نُورًا، وَصَارَ الْبَيَانُ بَصِيرَةً.»

ثُمَّ اصْطَفَى الطُّلَّابُ لِيَأْخُذُوا دَفَاتِرَ جَدِيدَةٍ خَطٌّ فِي صُدُورِهَا «مِيزَانُ التَّوْثِيقِ وَالْبَيَانِ». وَعِنْدَمَا مَرَّ حَبِيبُ الدُّنْيَا لِيَأْخُذَ دَفْتَرَهُ، قَالَ لِلْإِمَامِ بِصَدَقٍ لَمْ يَعْتَدُهُ: «سَأَكْتُبُ أَلْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَسْتَحِفُّ بِهِ أَمْسٍ، فَقَدْ رَأَيْتُ كَيْفَ يَسْتَحِيلُ سَطْرٌ صَغِيرٌ جِسْرًا يَعْبُرُ عَلَيْهِ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «أَكْتُبْ وَلَا تَسَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِالْقَلَمِ أَقْوَامًا».

فِي اللَّيْلِ، وَالْقَرْيَةُ تَهْدَأُ تَحْتَ نُجُومٍ تَلْمَعُ كَأَنَّهَا نُقَاطُ حَبَرٍ عَلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ، جَلَسَ الْإِمَامُ وَحْدَهُ فِي الْمِحْرَابِ، وَقَرَأَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «أَلْعِلْمُ صَيْدٌ وَالْكِتَابَةُ قَيْدُهُ»، ثُمَّ قَالَ كَمَنْ يُسْنِدُ خِتَامًا إِلَى بَدَايَةٍ: «وَمَا جَعَلْنَا الْقَلَمَ إِلَّا لِيَشْهَدَ لِلْحَقِّ، وَمَا جَعَلْنَا الْبَيَانَ إِلَّا لِيُقَرِّبَ الْبَرَاهِينَ مِنَ الْقُلُوبِ. فَاكْتُبُوا صَغِيرًا وَكَبِيرًا، وَبَيِّنُوا لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، تَحْفَظُوا الْحَقَّ وَتُطْفِئُوا نِيرَانَ الرَّيْبِ، وَتَبْنُوا جِسُورًا بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ». ثُمَّ سَجَدَ شُكْرًا، وَاسْتَقَرَّ فِي الْمَسْجِدِ هُدُوءٌ يُشَبِّهُ مَحْبَرَةً قَدْ سَدَّتْ فُوهَتَهَا بَعْدَ أَنْ شَهِدَتْ لِلْحَقِّ.

الدَّرْسُ الثَّانِي: مِيزَانُ الْمَقْدُورِ وَالتَّفْصِيلِ

أَنحَدَرَ الشَّمْسُ إِلَى حَافَةِ الْأُفُقِ فَغَمَرَ الْمَسْجِدَ نُورٌ عَنَبْرِيٌّ لَيِّنٌ،
وَرَأَقَصَتْ أَظْلَلَةُ الْأَعْمَدَةِ وَجْهَ الْحَالِقِينَ حَوْلَ الْأِمَامِ كَأَنَّهَا رِقَاعٌ مِنْ وَقَارٍ تُقَلِّبُهَا
رِيحٌ حَلِيمَةٌ. تَقَدَّمَ الْأِمَامُ خُطُوبَتَيْنِ، وَأَجْلَسَ قَلَمَهُ إِلَى جَانِبِ الْمِحْبَرَةِ كَمَنْ يَنْوِي
أَنْ يَخُطَّ نُورًا لِلْقُلُوبِ، ثُمَّ تَلَا بِصَوْتٍ دَافِقٍ كَالْغَيْثِ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)،

وَأَسْدَلَ بَعْدَهَا سُكُوتًا مَحْسُوبًا كَالْمِيزَانِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ كَلِمَةٌ تَفْتَحُ
أَبْوَابَ الْكُنُوزِ، فَتَرِيكُمْ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ رُكُومًا مُتَفَرِّقَةً، وَلَا هِيَ نُتُوءَاتٌ تَطْفُو
عَلَى سَطْحِ عَشَوَائِيٍّ، بَلْ هِيَ نَسِيجٌ مَحْكُومٌ بِقَدَرٍ، مُفَصَّلٌ عَلَى قَدٍّ، مَوْزُونٌ عَلَى
حَدٍّ. فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَعْرِفْ مَوَاطِنَ الْقَدَرِ، وَمَنْ أَرَادَ الْإِتْقَانَ فَلْيُحْسِنِ
التَّفْصِيلَ.»

أَنحَنَى يَاسِرٌ بْنُ سُحَيْمٍ بِجَدٍّ، وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقٌ مَنْ يَقْبِضُ عَلَى خَيْطِ
حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي، إِنَّ الْمَسَائِلَ الْمُعَقَّدَةَ لَا تُفْهَمُ إِلَّا إِذَا احْتَطَّنَا

لَهَا بِالتَّفَاصِيلِ؛ فَالْقَاعِدَةُ تُشِيرُ، وَلَكِنَّ التَّفْصِيلَ يُبْصِرُ. فَقَالَ الْإِمَامُ: «صَدَقَتْ. إِنَّ الْقَاعِدَةَ كَالْخَيْطِ الْأَسَاسِ فِي الْحِكْمَةِ، وَلَا قَبْلَ لَهَا بِالسُّرِّ وَالزَّيْنَةِ دُونَ خُيُوطِ صَغِيرَةٍ تُفَصِّلُهَا وَتُحْكِمُهَا. فَالْعَقْلُ يَطْلُبُ الْأُصُولَ لِيَسْتَقِيمَ، وَيَطْلُبُ التَّفَاصِيلَ لِيَتِمَّ.»

تَحَرَّكَتْ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ وَفِي يَدِهَا فَضِيبٌ رَفِيعٌ مِنْ خَشَبٍ عَلَيْهِ
عَلَامَاتٌ دَقِيقَةٌ، قَالَتْ: «لَمَّا قَسَمْنَا الْقَنَاءَ جَعَلْنَا لِكُلِّ عَشْرِ أَذْرُعٍ وَتَدًّا مَعْلُومَ
الْقَدِّ، فَمَا لَمْ نُثَبِّتْ فِي الدَّقْطِ مِيلَ كُلِّ فَاصِلَةٍ ضَلَّ الْعَامِلُ بَيْنَ عَيْنِهِ وَقَدَمِهِ،
فَتَجَمَّعَ الْمَاءُ هُنَا وَانْقَطَعَ هُنَالِكَ. فَلَمَّا فَصَّلْنَا بِالْأَرْقَامِ، وَسَمَّيْنَا الْمَرَاقِي وَالْمَنَازِلَ،
وَضَعْنَا كُلَّ لَبْنَتِهِ فِي مَوْضِعِهَا، فَجَرَى الْمَاءُ عَلَى قَدَرٍ جَمِيلٍ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا
أَعْلَمُ: إِذَا اسْتَعَارَ مِنَ الْكَوْنِ نِظَامَهُ، وَمِنَ الْقُرْآنِ هِدَايَتَهُ، وَمِنَ التَّفْصِيلِ سُلَّمَهُ،
أُورِقَ وَانْمَرَّ.»

وَأَشَارَ صَاحِبُ الْفِيَّاسِ إِلَى لَوْحَةٍ قَدْ رَسَمَ فِيهَا مَسَارًا لِفِكْرَةٍ، مِنْ مُقَدِّمَةٍ
إِلَى نَتِيجَةٍ، وَمِنْ تَقْرِيرٍ إِلَى تَحْقِيقٍ، وَقَالَ: «الْأُصُولُ تَحْفَظُ الْإِتِّجَاهَ، وَالتَّفَاصِيلُ
تَمْنَعُ الزَّلَلَ. فَلَوْ تَرَكْنَا خُطْوَةً صَغِيرَةً بَيْنَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ لَمَا بَلَّغْنَا النَّتِيجَةَ إِلَّا
وَفِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْعَرَجِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَالْكَوْنُ كَذَلِكَ، لَوْ فَقَدَ فِي حَلَقَتِهِ حَلَقَةً،
أَوْ فِي دَوْرَتِهِ تَفْصِيلًا، لَاخْتَلَّتِ الْمَوَازِينُ وَضَاعَ الْعُمَرَانُ.»

فِي طَرَفِ الْحَلَقَةِ جَلَسَ جَابِرٌ يُقَلِّبُ دَفْترَهُ وَيُرِينَا جَدُولًا دَقِيقًا:

سَاعَاتٍ، دَرَجَاتُ حَرَارَةٍ، أَوْزَانٌ، مَلَا حِظَاتٍ فِي اللَّوْنِ وَالرَّائِحَةِ وَصَوْتِ غَلِيَانٍ. قَالَ: «مَا كُنْتُ أُصِيبُ فِي الْمَعَادِنِ إِلَّا عِنْدَمَا سَمَيْتُ كُلَّ لَوْنٍ وَكُلَّ نَفْطَةٍ غَلِيَانٍ وَكُلَّ زَمَنٍ، فَالْقَدَرُ فِي الْكَوْنِ إِنَّمَا يَنْكَشِفُ لِمَنْ يَفْصِلُ فِي دَفْتَرِهِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَنْ فَصَّلَ أَشْبَهَ الْخَالِقَ فِي سُنَّةِ الْإِتْقَانِ، لَيْسَ تَكَلُّفًا بَلْ شُكْرًا. وَهَذَا التَّفْصِيلُ لَيْسَ تَزِينًا لِلنُّصُوصِ، بَلْ هُوَ حِفْظٌ لِقَدَرٍ فِي الْعَمَلِ».

تَدَخَّلَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ بَعْضُ الضَّجَرِ، وَقَالَ: «أَمَا يَكْفِينَا الْمُجْمَلُ فِي التَّجَارَةِ نَسِيرُ بِالْحَسْبَةِ الْعَامَّةِ، نَبِيعُ وَنَشْتَرِي، وَمَنْ رِبَحَ فَقَدْ أَحْسَنَ». فَقَالَ الْإِمَامُ بِرَفَقٍ: «الْمُجْمَلُ يَدُلُّكَ، لَكِنَّهُ لَا يُسَعِّفُكَ عِنْدَ الْإِخْتِلَافِ. إِحْسِبْ ثَمَنَ سِلْعَتِكَ بِدُونِ تَفْصِيلٍ لِلتَّكْلِيفَةِ وَالْجُهْدِ وَالزَّمَنِ وَحَالِ السُّوقِ، ثُمَّ أَنْظِرْ كَيْفَ تَضِيقُ عَلَيْكَ الْمَذَاهِبُ. وَإِذَا فَصَلْتَ رَأَيْتَ مَوَاطِنَ الْخَسَارَةِ وَمَفَاتِيحَ الرَّبْحِ، وَصَارَ رَبْحُكَ عَدْلًا لَا غَلًا». وَأَضَافَ يَاسِرٌ: «وَفِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ لَا نَبْلُغُ صَوَابًا حَتَّى نَسْأَلَ عَنِ الْقِيُودِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ، فَالْمُفْصَلُ يَكْشِفُ مَا يُخْفِيهِ الْمُجْمَلُ».

خَرَجُوا بَعْدَ الْحَلَقَةِ إِلَى الْوَرَشَةِ، فَإِذَا عَاصِمٌ يُضْرِمُ النَّارَ فِي الْكُورِ، وَرُبَابٌ بِنْتُ مَزِيدٍ تُرَاقِبُ لَوْنَ اللَّهَبِ وَتَقُولُ: «هَذَا الْحُمْرَةُ الرَّيِّقَةُ تُبَشِّرُ بِالْبَلِّينِ، وَهَذِهِ الصُّفْرَةُ الْمُتَّفِدَةُ تُنْذِرُ بِالْأَنْصَهَارِ، فَلْنَسَمِّ كُلَّ لَوْنٍ بِاسْمٍ، وَلْنَجْعَلَ لِكُلِّ اسْمٍ قَدْرًا مِنَ الزَّمَنِ وَالدرَجَةِ». فَضَحِكَ عَاصِمٌ وَقَالَ: «كُنَّا نَقُولُ: إصْبِرْ حَتَّى يَلِينِ،

فَصِرْنَا نَقُولُ: إِصْبِرْ حَتَّى تَبْلُغَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ بَعْدَ الْحُمْرَةِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَكَذَا التَّفْصِيلُ، يُخْرِجُ الْحَرْفَةَ مِنْ حَدِّ الظَّنِّ إِلَى حَدِّ الْعِلْمِ، وَيَجْعَلُ الْإِتْقَانَ حُجَّةً لَا هَوًى.»

وَأَقَامُوا فِي السُّوقِ مِيزَانًا جَدِيدًا لِلْحُبُوبِ، فَسَمَوْا صَحْنَهُ إِلَى خُطُوطٍ دَقِيقَةٍ، وَوَضَعُوا كُتُبًا صَغِيرَةً عِنْدَ كُلِّ بَائِعٍ يُثَبِّتُ فِيهَا الْوِزْنَ وَالسَّعَرَ وَالتَّارِيخَ وَأَسْمَ الْمُشْتَرِي. فَأَنْقَطَعَتْ شَكْوَى النَّاسِ مِنْ خَلَلِ الْكَيْلِ، وَصَارَ الْبَائِعُ يَفْرَحُ أَنْ يُثَبِّتَ فِي دَفْتَرِهِ صَفْحَةً نَقِيَّةً تُشَبِّهُ وَجْهَهَا صُقْلَ بِالْعَدْلِ. وَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا وَهُوَ يَتَأَمَّلُ صَحِيفَتَهُ: «مَا ظَنَنْتُ أَنَّ سَطْرًا يَكْتُبُهُ الْمَرْءُ يُرِيحُ عَنْ صَدْرِهِ هَذَا الْقَدَرِ مِنَ الرَّيْبِ، فَإِذَا بِالتَّفْصِيلِ يُطْمَئِنُّ النَّفْسُ كَمَا تُطْمَئِنُّهَا الصَّلَاةُ.»

ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَسْجِدِ لَيْلًا، وَقَدْ رَكِبَ فِي الْقُلُوبِ مَا يُشَبِّهُ قَافِلَةً مِنَ الْمَعَانِي: مِيزَانُ الْقَدْرِ يَقُودُ التَّفْصِيلَ، وَالتَّفْصِيلُ يَكْشِفُ عَنْ سِرِّ الْقَدْرِ. قَالَ الْإِمَامُ: «تَعَالَوْا نُجَرِّبْ مُحَكَّمًا صَغِيرًا. سَنَصُبُّ قَطْرَاتٍ مِنَ الْمَاءِ فِي وَعَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا نُثَبِّتُ فِيهِ الزَّمْنَ وَالْحَرَارَةَ وَحَالَ الْهَوَاءِ، وَالْآخَرُ نَدْعُهُ لِلتَّقْدِيرِ الْعَامِّ. ثُمَّ نَنْظُرُ فِي الْإِخْتِلَافِ.» فَفَعَلُوا، فَكَانَ الْأَوَّلُ يُعْطِي نَتِيجَةً تَتَكَرَّرُ إِذَا أُعْتَبِرَتْ الشُّرُوطُ، وَالثَّانِي يَتَلَوَّنُ كَأَنَّهُ يَمْشِي فِي ضَبَابٍ. فَقَالَ: «هَكَذَا الْعِلْمُ، مَا لَمْ تُسَمِّ الْأَحْوَالَ وَتَضْبِطِ الْمَوَاقِيتَ تَتَفَلَّتِ النَّتِيجَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ.»

وَكَانَ فِي الْقَرْيَةِ قَنْطَرَةٌ صَغِيرَةٌ عَلَى جُدُولٍ، مَالَتْ مِنْهَا حَجَرَةٌ فَصَارَ

الْمَاءُ يَحُثُّ خُطَاهُ نَاحِيَةً وَاحِدَةً وَيُبْطِئُ فِي الْأُخْرَى. جَاءُوا لِيُصْلِحُوهَا، فَوَجَدُوا أَنَّ الَّذِي وَضَعَ الْحَجَرَ نَسِيَ سَطْرًا وَاحِدًا فِي الدَّفْتَرِ يَذْكُرُ فِيهِ الِارْتِفَاعَ فِي الصَّفَةِ الشَّمَالِيَّةِ، فَانْحَرَفَ الْعَمَلُ بِقَدْرِ شِعْرَةٍ. قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يُثَبِّتُ الْحَجَرَ: «شِعْرَةٌ مِنَ التَّفْصِيلِ تَرْنُ جِسْرًا مِنَ الْحَجَرِ، وَسَطْرٌ فِي الدَّفْتَرِ يَمْنَعُ سَنَةً مِنَ الْهَدْرِ.» ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ لِكُلِّ عَمَلٍ «خَاتِمٌ تَدْقِيقٍ» يَضَعُهُ مُشْرِفٌ قَبْلَ الْإِنْصِرَافِ، فَيَقْرَأَ التَّفَاصِيلَ كُلَّهَا، وَيُثَبِّتَ مَا قُرِئَ وَمَا عُدِّلَ.

وَفِي دَارِ هِنْدُ بِنْتُ عُمَيْرٍ عَقَدُوا مَجْلِسًا لِدِ «مَثَالِ التَّفْصِيلِ»، جَاءَتْ بِصَحَائِفَ فِيهَا أَبْوَابٌ صَغِيرَةٌ وَتَحْتَ كُلِّ بَابٍ فُرُوعٌ مُرْتَبَةٌ، وَقَالَتْ: «كَانَ الْمُجْمَلُ يُورِثُ الْخِلَافَ، فَلَمَّا فَرَعْنَا وَفَصَّلْنَا قَلَّ النَّزَاعُ وَابْتَهَجَ التَّطْبِيقُ.» فَقَالَ يَاسِرٌ: «وَهَذَا بِعَيْنِهِ مَعْيَارُ الْعَقْلِ فِي الْقَضَايَا الْمُسْتَبْهَةِ: مَنْ لَمْ يَتَتَبَعَ الْفُرُوعَ أَضَاعَ الْأَصْلَ.» وَأَضَافَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «لَيْسَ التَّفْصِيلُ إِكْثَارَ كَلَامٍ، بَلْ إِبْصَالٌ مَعْنَى مُحْكَمٍ فِي سُلَمٍ مُنْظَمٍ.»

تَمَشَّوْا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقْلِ، وَقَدْ تَخَفَّفَتِ الرِّيحُ وَتَنَنَّى الْقَمَرُ عَلَى الْمَاءِ كَأَنَّهُ خَيْطُ فِصَّةٍ. وَقَالَتْ لُبْنَى: «سَنَضَعُ عَلَامَاتٍ كُلَّ عَشْرِ خُطَوَاتٍ، وَنُسَمِّي كُلَّ مَقَامٍ: مَنْزِلَ الْحَجَرِ، مَنْزِلَ الْقَصَبِ، مَنْزِلَ الثَّرَابِ الْمَضْغُوطِ، ثُمَّ نُثَبِّتُ فِي الدَّفْتَرِ مَا تَقُولُهُ الْأَرْضُ: هُنَا تَعْهَدُ الْمَاءُ، وَهُنَا تَكْفِي شِعْرَةٌ مِنَ الْمِيلِ، وَهُنَا لَا بُدَّ مِنْ حَاجِزٍ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «إِنَّ الْأَرْضَ لَهَا لِسَانٌ يُتَرَجِّمُ عَنْهُ التَّفْصِيلُ،

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ لِسَانِهَا أَعْرَضَ عَنْ فِقْهِ الْخَلْقِ.»

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ جَاءَهُمْ خَبَرُ تِجَارَةِ خَسِرَتْ لِسَبَبٍ صَغِيرٍ: مُوعِدٌ لَمْ يُثَبَّتْ، أَوْ وَزَنٌ لَمْ يُسَمَّ. فَدَعَا الْإِمَامُ أَصْحَابَ السُّوقِ، وَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَسْقُطُ شَجَرَةٌ عَتِيقَةٌ بِمِنْشَارِ غَفَلَةٍ شَوْكَةٍ صَغِيرَةٍ فِي جَذْعِهَا أَهْمَلْتُمُوهَا فَتَسَلَّلَتْ أَلْفُسَحَةٌ مِنْهَا حَتَّى أَنْكَسَرَ الْجِسْمُ. فَالْتَفَصِيلُ حِرَاسَةٌ، وَالْقَدَرُ حُدُودٌ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْحُدُودَ ضَيَّعَ الثَّمَارَ.» فَقَالَ حَبِيبُ الدُّنْيَا: «أَعْتَرِفْ، لَمْ أَحْسِبْ وَقْتَ التَّسْلِيمِ فِي الصَّفْقَةِ فَفَسَدَتْ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَهَذَا دَرْسٌ: الْمَالُ يَأْكُلُهُ الْهَوَى وَيَحْفَظُهُ التَّفْصِيلُ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ يُفْسِدُهُ التَّسَاهُلُ وَيُقَوِّمُهُ التَّحْقِيقُ.»

وَتَحْتَ سَقْفِ الْمَسْجِدِ أَقْرَأُوا «دَفَاتِرَ الْمَقَادِيرِ»: صُحُفًا يُكْتَبُ فِي أَعْلَاهَا الْمَقْصِدُ، ثُمَّ الْأَدَوَاتُ وَقَدَرُ دِقَّتِهَا، ثُمَّ الْخُطُوبَاتُ مَرْقُومَةٌ، ثُمَّ «مَوَاطِنُ الْإِحْتِمَالِ» وَ«مَوَاضِعُ الْمُرَاجَعَةِ». وَجَعَلُوا لِكُلِّ دَفْتَرٍ «فَهْرِسًا» يَقُودُ إِلَى مَا فِيهِ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ «شُهُودًا» يَقْرَءُونَ أَنَّهُمْ قَرَأُوا وَتَثَبَّتُوا. فَسَارَ الْعِلْمُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدٍ: نَفْسِ التَّفْصِيلِ الْمُبْنِيِّ عَلَى قَدَرٍ.

ثُمَّ رَفَعَ الْإِمَامُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ لَيْلًا، وَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى مَجَرَّةٍ تَسِيحُ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الدَّوَرَانَاتِ مَا مِنْ كَوْكَبٍ إِلَّا وَفِي مَسِيرِهِ قَدَرٌ، وَمَا مِنْ جَسَدٍ إِلَّا وَفِي خِلَاةِ قَدَرٍ، وَمَا مِنْ بَذْرَةٍ إِلَّا وَفِي شُعَيْرَاتِهَا قَدَرٌ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ التَّفْصِيلَ فِي الْكَوْنِ فَلَا تَسْتَكْثِرُوهُ فِي الدَّفْتَرِ؛ فَالْدَفْتَرُ مِرَاةٌ تَظْهَرُ مَا فِي الْكِتَابِ الْمَنْشُورِ.» وَأَضَافَ:

«لَيْسَ التَّفْصِيلُ إِغْرَاقًا، وَلَا هُوَ التَّكْلُفُ الَّذِي يُعَمِّي عَنِ الْمَقْصِدِ؛ بَلْ هُوَ قَدْرٌ فِي مَوْضِعِهِ، يَزِيدُ مَعَ الْحَاجَةِ وَيَقِلُّ عِنْدَ الْبَيَانِ. وَكَمَا أَنَّ الْمِلْحَ إِذَا زَادَ أَفْسَدَ الطَّعَامَ، كَذَلِكَ التَّفْصِيلُ إِذَا زَادَ عَنْ مَوْضِعِهِ أَضَاعَ الْمَعْنَى. فَاقْتَصِدُوا، وَلَكِنْ لَا تُفَرِّطُوا.»

وَأَقَامَ نَاصِرُ السُّنَنِيِّ دَوْرَسَ «الْمُعَايَنَةِ بَعْدَ التَّفْصِيلِ»، فَيَجْلِسُ مَعَ كُلِّ طَالِبٍ يَقْرَأُ لَهُ مَا كَتَبَ، ثُمَّ يَسْأَلُ: «أَيْنَ مَوْضِعُ الْخَلَلِ إِنْ حَدَثَ أَيْنَ جِسْرُ الرَّجُوعِ إِذَا تَبَيَّنَ الْخَطَأُ» فَيُثَبِّتُ الطَّالِبُ فِي آخِرِ الصَّفْحَةِ «سَبِيلَ التَّصْحِيحِ»، كَيْفَ يَرْجِعُ وَمَا الَّذِي يَسْتَدْرِكُهُ. فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا مِنْ تَمَامِ الْقَدْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَلِكُلِّ قَدْرٍ تَجَدُّدًا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِعِلْمِهِ طَرِيقَ الرَّجُوعِ جَعَلَ لَهُ طَرِيقَ الْهَوَى.»

وَفِي خِصْمِ هَذِهِ التَّرْسِيمَاتِ جَاءَتْ سَلَمَى الْأُصُولِيَّةُ تَحْمِيلُ قِرْطَاسًا فِيهِ بَيَانُ «مَرَاتِبِ التَّفْصِيلِ»: «تَفْصِيلٌ لِلْفَهْمِ، وَتَفْصِيلٌ لِلتَّطْبِيقِ، وَتَفْصِيلٌ لِلتَّوْثِيقِ». وَشَرَحَتْ: «فَلِلْفَهْمِ نَضْعُ رُسُومًا تُبَصِّرُ بِهَا الْعَلَاqَاتِ، وَلِلتَّطْبِيقِ نَكْتُبُ خُطُوتَ تُنْقِذُ كَمَا هِيَ، وَلِلتَّوْثِيقِ نُثَبِّتُ مَا وَقَعَ وَمَا تَغَيَّرَ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَنْ فَرَّقَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ أَمِنَ الْإِلْتِبَاسَ، وَمَنْ خَلَطَهَا أَرَبَكَ الْقَارِئُ وَأَتَعَبَ الْعَامِلَ.»

وَعِنْدَ الْخِتَامِ، جَمَعَ الْإِمَامُ الْحَلَقَةَ وَقَالَ وَجْهَهُ يَلْمَعُ كَأَنَّ عَلَيْهِ سِقَاطًا مِنْ نُورِ آيَةِ الْأُولَى: «أَعْلَمُوا أَنَّ التَّفْصِيلَ لَيْسَ زِيَادَةً كَلَامٍ، بَلْ هُوَ شُهُودُ الْقَدْرِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

فِي مَحَالِّهِ. إِذَا كَتَبْتُمْ التَّفَاصِيلَ فَقَدْ شَكَرْتُمْ نِعْمَةَ الْمِيزَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِي الْخَلْقِ. وَإِذَا أَهْمَلْتُمُوهَا فَقَدْ أَغْلَقْتُمْ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْإِتْقَانِ.» ثُمَّ تَلَا مَرَّةً أُخْرَى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)،

وَاتَّبَعَهَا قَائِلًا: «فَكُونُوا أَنْتُمْ شُهَدَاءَ هَذَا الْقَدَرِ فِي دَفَاتِرِكُمْ وَمَصَانِعِكُمْ وَأَسْوَاقِكُمْ وَحُقُولِكُمْ.»

تَقَدَّمَ يَاسِرُ بْنُ سَحِيمٍ يُلَخِّصُ مَا فِي الصُّدُورِ: «قَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ التَّفْصِيلَ يَأْخُذُ بِيَدِ الْعَقْلِ مِنَ التَّخْمِينِ إِلَى التَّيَيُّنِ، وَأَنَّ الْقَدَرَ يَحْرُسُ التَّفْصِيلَ لِئَلَّا يَنْفَلِتَ.» فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ: «الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ لَيْسَ فَقْطُ فِي الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ، بَلْ فِي دِقَّةِ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَبْنِي الْقَاعِدَةَ.» ثُمَّ أَطْرَقُوا جَمِيعًا كَأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ حِكْمَةً تَمْشِي فِي الْمَسْجِدِ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهَا، وَمِنْ وَرَاءِ الصَّمْتِ كَانَتْ آيَةُ تَتَأَلَّقُ فِي الْهَوَاءِ: قَدَرُ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَلَّا تَقَعَ، وَتَفْصِيلُ يُمْسِكُ الْكَلِمَةَ أَلَّا تَزِيغَ، وَقُلُوبٌ تُحَاوِلُ أَنْ تَكُونَ عَلَى مِيزَانِهِمَا.

الدَّرْسُ الثَّلَاثُ: مِيزَانُ الْبَيَانِ وَمِيرَاثُ الْخَلْفِ

اِنْسَدَلَ الْمَسَاءُ عَلَى الْقَرْيَةِ كَثُوبٌ مِنْ نَسِيمٍ رَطْبٍ، وَتَخَطَّفَ الصَّوُّ عَنْ الْأَزَقَّةِ إِلَّا مِنْ سُرْجٍ صَغِيرَةٍ تُشْعِلُهَا أَيْدٍ مُوقِرَةٌ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْحَلَقَةِ. جَلَسَ الْإِمَامُ فِي صَدْرِ الدَّارِ، وَعَلَى يَمِينِهِ رُقِيَّةٌ الْفَقِيهَةُ بِصَحَائِفَ مَشْدُودَةٍ بِسِيرٍ دَقِيقٍ، وَعَلَى شِمَالِهِ جَابِرٌ يَقْلِبُ دَفْتَرَهُ الْعَتِيقَ وَيُلْمِلِمُ فَلَمَهُ الْقَصْبِيُّ كَمَنْ يَسْتَعِدُّ لِقَبْضِ نُورٍ هَارِبٍ. رَفَعَ الْإِمَامُ صَوْتَهُ تِلَاوَةً تَسْرِي فِي الصُّدُورِ سَرِيانَ الْمَاءِ فِي الْعُرُوقِ:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

(الرحمن: 1-4)،

ثُمَّ أَسْنَدَ كَفَّهُ إِلَى قَلْبِهِ وَقَالَ هَادِئًا: «هَذِهِ الْآيَاتُ تَجْمَعُ الْخَلْقَ وَالتَّعْلِيمَ وَالْبَيَانَ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ فَقَدَ آخِرَهَا لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِأَوَّلِهَا. الْبَيَانُ نِعْمَةٌ وَمِيزَانٌ، بِهِ يَظْهَرُ الْحَقُّ مِنَ الْخَلْطِ، وَبِهِ يَثْبُتُ الْعِلْمُ عَلَى الْأَيْدِي فَلَا تَذُرُّهُ الرِّيَّاحُ.»

أَهْتَرَّتْ «رُفْيَةُ» إِجْلَالًا لِلنُّصُوصِ الْمُوثُوقَةِ، وَقَالَتْ: «يَا سَيِّدَنَا، لَوْلَا الْبَيَانُ مَا انْتَفَعَ الْخَلْفُ بِفِقْهِ السَّلَفِ، وَلَوْلَا التَّوْثِيقُ مَا اسْتَقَامَتِ الْمَذَاهِبُ وَلَا انْتَقَلَ الْعِلْمُ بَيْنَ الْقُرُونِ. إِنِّي إِذَا قَيَّدْتُ الْمَسْأَلَةَ بِنُصُوصِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَفُيُودِهَا كَأَنِّي أَرْسِلُ إِلَى الْقَادِمِينَ جِسْرًا مِنْ وَرَقٍ لَا تَأْكُلُهُ الْأَسْنَةُ وَلَا النِّسْيَانُ.» فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «وَبِالْبَيَانِ يُصْبِحُ الْعِلْمُ أَمَانَةً مُشَاعَةً لَا رَهْنَ سَرَائِرٍ وَلَا أَدْعَاءٍ.»

كَسَرَ حَبِيبُ الدُّنْيَا هَيْبَةَ الصَّمْتِ بِسَعَالٍ خَفِيٍّ، ثُمَّ قَالَ بِفَكِهَةٍ تُجَاوِرُ الْأَسْتِخْفَافَ: «وَمَا فَايِدَةُ هَذَا التَّطْوِيلِ فِي الْكَلَامِ نَيْعٌ وَنَشْتَرِي وَنَمْضِي، فَإِنْ رَبِحْنَا فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الصَّنِيعِ، وَالْحَسْبُ كَافٍ.» فَالْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ كَمَنْ يُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ، وَقَالَ: «يَا حَبِيبُ الدُّنْيَا، الرَّبْحُ الْيَوْمَ لَا يَشْهَدُ لَكَ غَدًا، وَالْأَسْوَاقُ بِلَا بَيَانَ مِثْلُ عَيْنٍ بِلَا جَفْنٍ تُصَابُ بِالْغُبَارِ فَلَا تَذُبُّهُ. مِيزَانُ الْبَيَانِ يَحْفَظُ الْحُقُوقَ وَيُقِيمُ الثَّقَةَ وَيَضُنُّ الْعِلْمَ مِنَ التَّبْدِيدِ. أَمَّا الْحَسْبُ الْعَاجِلُ فَقَدْ يَخْدَعُكَ بِبَارِقَةِ سَاعَةٍ.»

وَضَعَ نَاصِرُ السُّنَنِ أَمَامَ الْحَلَقَةِ صُنْدُوقًا صَغِيرًا فِيهِ أَقْلَامٌ فَصِيَّةٌ، وَقِنَاعَاتُ مِدَادٍ، وَرُفُوقٌ مَبْلُولَةٌ بِمَاءِ الصَّمْغِ. قَالَ وَهُوَ يَفْتَحُ الصُّنْدُوقَ: «هَذِهِ عُدَّةُ الْبَيَانِ، بِهَا نَسْتَخْرِجُ مِنَ الْمَعَانِي صُورًا تَمْشِي فِي الزَّمَنِ. وَكَمَا نَقِيمُ الْمِيزَانَ لِلْحُبُوبِ نَقِيمُهُ لِلْكَلِمَاتِ: نُحَسِّنُ الْأَمْلَاءَ، نَتَقِنُ النَّقْطَ وَالشَّكْلَ، نَضَعُ عَلَامَاتٍ تَهْدِي الْقَارِئَ بَيْنَ الْأَبْوَابِ وَالْفُصُولِ، وَنَجْعَلُ لِلشَّاهِدِ مَوْضِعًا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَنْ

بَعْدَنَا». فَهَرَّ صَاحِبُ الْقِيَاسِ رَأْسَهُ رَضًى، وَقَالَ: «وَبِذَلِكَ يَسْتَوِي الْمَعْقُولُ عَلَى أَرْضٍ صُلْبَةٍ، فَلَا يُبْنَى حُكْمٌ عَلَى ظَنٍّ مُطْلَقٍ، وَلَا تُكْتَبُ نَتِيجَةٌ بِلَا شَاهِدٍ».

دَخَلَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُمَيْرٍ تَحْمِلُ سِفْرًا قَدِيمًا لِحَدَّهَا، عَلَيْهِ آثَارُ أَصَابِعٍ وَنُقْطُ مِدَادٍ قَدْ تَفَرَّقَتْ كَالنُّجُومِ فِي لَيْلٍ شَتَوِيٍّ. قَالَتْ وَالْحَنِينُ يَخُحُّ صَوْنَهَا: «كَانَ جَدِّي رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا لَمْ تُقَيِّدِ الْفِكَرَ ضَاعَ كَمَا يَضِيعُ الْوَحْشُ فِي الْفَلَاةِ، وَإِذَا قَبِدْتِهِ صَارَ إِبِلًا مَوْسُومًا يَعْرِفُهُ صَاحِبُهُ وَيَعُودُ إِلَيْهِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «وَهَذَا هُوَ مِيرَاثُ الْخَلْفِ: لَا الدَّارُ وَلَا الْعَرَضُ، بَلْ كِتَابٌ مُبَيَّنٌ يَحْمِلُ مَعَ الْقِيَمَةِ الطَّرِيقَ. فَمَنْ وَرَثَ طَرِيقًا لَمْ يَتَّيْهِ فِي الْمَفَازَةِ».

تَقَدَّمَ جَابِرٌ وَفِي يَدِهِ صَفْحَةٌ كَبِيرَةٌ قَسَمَهَا أَرْبَاعًا، وَعَلَّمَ فِي كُلِّ رُبْعٍ مَوْضِعَ الْخُطُواتِ وَالْمَلَا حِظَاتٍ وَالْعِلَلِ وَالْأَسْئَلَةِ. قَالَ: «تَعَلَّمْتُ مِنْ تِجَارِيي أَنْ أَسْأَلَ الصَّفْحَةَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي: لِمَاذَا فَعَلْتَ كَيْفَ فَعَلْتَ مَتَى مَا أَلْعَلُّهُ مَا الْإِحْتِمَالُ فَإِذَا كَتَبْتُ الْجَوَابَ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ سَبَقْتُ الْخَلْفَ إِلَى حَاجَتِهِمْ». فَقَالَتْ «رُفِيقَةُ»: «وَفِي الْفِقْهِ نَصْنَعُ مِثْلَ ذَلِكَ، نُثَبِّتُ الْمَسْأَلَةَ، ثُمَّ نَذْكُرُ الْأَدْلَةَ، ثُمَّ نَقْيِدُ بِالشُّرُوطِ وَالْمَوَانِعِ، ثُمَّ نُبَيِّنُ مَوَاضِعَ الْإِخْتِلَافِ وَسَبَبَهَا، فَيَقَعُ الْقَارِئُ عَلَى مَطْلُوبِهِ بِلَا عَنَتٍ».

اسْتَأْذَنْتْ لُبْنَى الْمُهَنْدِسَةُ فَقَالَتْ: «إِنَّا وَنَحْنُ نَرْسُمُ الْقَنَاظِرَ لَا نَكْتَفِي بِالْخَطِّ الْعَامِّ، بَلْ نَضْعُ الْأَقْطَارَ وَالسُّمُوكَ وَمَوَاضِعَ الْأَحْجَارِ وَأَوْرَازَهَا وَمِيزَانَ الرَّافِدِ

وَمَجَارِي الْمَاءِ، ثُمَّ نُثِبْتُ لِكُلِّ ذَلِكَ بَيَانًا يُقْرَأُ كَمَا تُقْرَأُ الْآيَةُ، فَلَا يَتَأَوَّلُهُ الْعَامِلُ عَلَى هَوَاهُ. وَإِذَا سَقَطَتْ كَلِمَةٌ سَقَطَ مَعَهَا حَجَرٌ، وَإِذَا اضْطَرَبَ الْبَيَانُ اضْطَرَبَ الْقَنْطَرُ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا التَّشْبِيهِ، فَالْكَلِمَةُ فِي الْأَوْرَاقِ كَالْحَجَرِ فِي الْقَطْرِ، وَمَنْ خَانَ الْبَيَانَ فَقَدْ خَانَ الْعَمَلَ».

أَشَارَ صَفْوَانُ بْنُ رِيَّاحٍ إِلَى كَبِيرِ الْحَدِيدِ فِي الطَّرَفِ، وَقَالَ: «كُنَّا نُسَلِّمُ أَسْرَارَ الصَّنَاعَةِ بِالْمُشَافَهَةِ، فَإِذَا مَاتَ الشَّيْخُ ضَاعَ نِصْفُ الطَّرِيقِ. أَمَّا الْآنَ فَكَتُبْتُ: كَيْفَ نَقْطَعُ الْقَصَبَ لِلْأَقْلَامِ، كَيْفَ نَخْلِطُ الدُّهْنَ بِالسُّكَّرَةِ لِلْمِدَادِ، كَيْفَ نَجْفِفُ الصَّفْحَةَ عَلَى السَّنَادِ، كَيْفَ نَقِيسُ الصَّلَابَةَ بِصَوْتِ الطَّرْقِ. فَإِذَا جَاءَ الْخَلْفُ وَجَدُوا طَرِيقًا يَسِيرُونَ فِيهِ». فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: الْبَيَانُ مِيرَاثٌ. لَيْسَ الْمِيرَاثُ سِلَاحًا تُرْفَعُ بِهِ يَدٌ عَلَى يَدٍ، بَلْ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي تَتَوَاصَلُ عَلَيْهِ الْقُدَرَاتُ وَالْقُلُوبُ».

فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ دَعَا الْإِمَامُ إِلَى إِنْشَاءِ «خِزَانَةِ النَّبِيِّ»، فَجُمِعَتْ الدَّفَاتِرُ، وَفُتِّمَتِ الصُّحُفُ عَلَى أَبْوَابٍ: بَابُ الْفِقْهِ، بَابُ الصَّنَاعَةِ، بَابُ الزَّرَاعَةِ، بَابُ النُّجُومِ، بَابُ الْحِسَابِ، بَابُ الْأَدَبِ. وَجُعِلَ لِكُلِّ بَابٍ لَوْنٌ فِي طَرَفِ الصَّفْحَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَرُقِّمَتِ الْأَوْرَاقُ تَرْقِيمًا لَا يَلْتَبِسُ، وَكُتِبَ فِي أَوَّلِ كُلِّ دَفْتَرٍ «سِلْسِلَةُ الْأَيْدِي»: مَنْ كَتَبَ، وَمَنْ قَرَأَ، وَمَنْ نَقَحَ، وَمَنْ أَجَازَ. وَالْحَقُّ بِكُلِّ دَفْتَرٍ «وَرَقَّةُ الزِّيَادَةِ» لِمَا يُسْتَجَدُّ مِنْ تَصْحِيحٍ أَوْ تَمَامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَوْا قَالَ الْإِمَامُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاءُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَوَجْهُهُ يَسْفَحُ سُورَرًا: «هَكَذَا يُصَانُ الْعِلْمُ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى حِكَايَاتٍ تُغَيِّرُهَا الْأَلْسُنُ وَتُضَيِّعُهَا الْعَادَاتُ.»

غَابَ الشَّهْرُ ثُمَّ رَجَعَ، وَفِي الْقَرْيَةِ حَدِيثَانِ تُظْهِرَانِ قُوَّةَ الْبَيَانِ: حَرِيقٌ صَغِيرٌ أَتَى عَلَى زَاوِيَةٍ فِي الْوَرِشَةِ فَاتَّلَفَ عُدَّةً، فَمَا ضَاعَ الْعِلْمُ لِأَنَّ نَاصِرًا كَانَ قَدْ تَيَدَّ الطَّرِيقَةَ سَطْرًا سَطْرًا؛ وَرَجُلٌ بَذَلَ مَالًا فِي صَنْعَةٍ بِلَا بَيَانٍ فَفَشِلَتْ وَانْقَطَعَتْ أَسْبَابُهَا. فَقَالَ الْإِمَامُ لِأَهْلِ السُّوقِ: «شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَخِفُّ الْقَلَمَ عَلَى الْعِلْمِ فَيَبْقَى، وَمَنْ يَسْتَخِفُّ التَّخْمِينَ فَيَذْهَبُ.»

وَفِي مَجْلِسٍ آخَرَ جَلَسْتُ سَلَمَى الْأُصُولِيَّةَ تُفَصِّلُ مَعَ «رُقِيَّةَ» مَعَانِي الْبَيَانِ: قَالَتْ سَلَمَى: «الْبَيَانُ لَيْسَ سِحْرَ أَلْفَاظٍ، بَلْ هُوَ حُضُورُ الْمَعْنَى عَلَى وَجْهِ يَمْنَعُ الْإِلْتِبَاسَ. فَإِذَا سَكَتَ الْإِلْتِبَاسُ تَكَلَّمَ الْحَقُّ مِنْ غَيْرِ صِيَاحٍ.» فَقَالَتْ «رُقِيَّةُ»: «وَفِي الْفِقْهِ نَقُولُ: مَنْعُ الْأَحْتِمَالِ يُثَبِّتُ الْحُكْمَ. وَمَنْ مَنْعَ الْأَحْتِمَالِ فِي كَلَامِهِ كَانَهُ أَقَامَ لِكَلِمَاتِهِ سُورًا يَحْرُسُهَا.»

عَلَى طَرَفِ الْحَلَقَةِ كَانَ «تَمَامُ السَّالِكِ» يُصْغِي، ثُمَّ قَالَ فِي تَوَاضُعٍ يَلْمَعُ: «الْبَيَانُ أَيْضًا أَدَبٌ: لَا نَسْرِقُ فِكْرَةَ غَيْرِنَا فَنَنْسِبُهَا إِلَيْنَا، وَلَا نَجَاوِزُ الْحَقَّ بَرِينَةَ الْعِبَارَةِ، وَلَا نَقْطَعُ سَنَدَ الْمَعْرِفَةِ فَنُظْهِرُ كَأَنَّنَا الْبَادِئُونَ. مَنْ نَقَلَ فَلْيَذْكُرْ، وَمَنْ زَادَ فَلْيُبَيِّنْ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا مِنْ تَمَامِ الْأَمَانَةِ، وَبِهِ يَسْلَمُ مِيرَاثُ الْخَلْفِ مِنْ أَلْفَاتٍ.»

خَرَجُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَدْرَجِ الصَّغِيرِ خَلْفَ الْمَسْجِدِ، فَصَبُّوا مَجْلِسًا يُسَمَّى «مَجْلِسَ التَّسْمِيَةِ»، فِيهِ يُسَمُّونَ الْأَشْيَاءَ لِكَيْ لَا تَتَشَابَهَ عَلَى الْحِفَاطِ. قَالَ صَاحِبُ الْقِيَاسِ: «إِذَا اشْتَبَهَ الْأَسْمُ ضَاعَ الْمُسَمَّى. سَمُّوا الْأَدْوَاتِ وَالْمَقَادِيرَ وَالْأَلْوَانَ وَأَحْوَالَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، حَتَّى لَا يَقَعَ الْخَلْفُ فِي شَرِكِ التَّأْوِيلِ». فَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ بُدُورًا فِي أَكْفِهِ: «سَمَّيْنَا كُلَّ حَبَّةٍ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي تُنَبِّتُ فِيهِ وَقَدَرِ مَائِهَا، فَلَمَّا زَارَنَا الْقَوْمُ مِنْ قَرْيَةٍ أُخْرَى وَجَدُوا عَلَى الْأَسْمَاءِ طَرِيقًا، وَعَلَى الطَّرِيقِ ثَمَرًا».

وَحَدَّثَ أَنَّ قَدِمَ فَتَى مِنْ بَعِيدٍ يُقَالُ لَهُ «آدَمُ بْنُ نَاهِدٍ»، يَطْلُبُ عِلْمَ النَّجَارَةِ، فَجَلَسَ أَمَامَ عَاصِمٍ يَنْظُرُ وَيُدَوِّنُ. قَالَ لَهُ عَاصِمٌ: «لَا تُكْثِرِ النَّظَرَ وَتَقِلَّ الْكِتَابَةَ، فَإِنَّ النَّظَرَ يَخُونُكَ وَالْكِتَابَةَ تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِذَا غَابَ الْمَشْهُدُ». ثُمَّ أَعْطَاهُ صَفْحَةً فِيهَا رُسُومُ «مِفْصَلِ الْقَفْلِ» وَخُطُوتُ صَنْعِهِ، فَقَالَ الْفَتَى: «لَوْ لَا هَذَا الْبَيَانُ لَمَا صَنَعْتُ فِي بَلَدِي مِثْلَهُ، وَلَوْ شَاهَدْتُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ». فَضَحِكَ صَفْوَانُ وَقَالَ: «هَذَا بَلَاغُ الْبَيَانِ إِلَى الْبِلَادِ، وَبِهِ نَصَبُحُ أُمَّةً تَتَوَارَثُ الصَّنَائِعَ كَمَا تَتَوَارَثُ الْأَنْسَابَ».

وَفِي وَقْفَةٍ جُمُعَةٍ قَالَ الْإِمَامُ لِلنَّاسِ بَعْدَ الصَّلَاةِ: «إِنَّ أَلْكَلِمَةَ الْمُبَيِّنَةَ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ. مَنْ عَلَّمَ الْبَيَانَ وَأَحْسَنَ التَّبْيِينَ كَأَنَّهُ بَنَى سَقْفًا لِلْعِلْمِ يَحْمِيهِ مِنْ مَطَرِ النَّسْيَانِ. لَا تَسْتَحَقِرُوا سَطْرًا، فَقَدْ يُخَلِّدُ الْمَعْرِفَةَ كَمَا تُخَلِّدُ الْأَوْقَافُ الْبِنَاءَ».

وَتَلَا مَعَ ذَلِكَ:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: 1)

لِتَهْتَدِيَ الْقُلُوبُ إِلَى جَلَالِ مَا يَجْرِي عَلَى رُءُوسِ الْأَقْلَامِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، تَجَمَّعُوا فِي «خَزَانَةِ الْبَيَانِ»، وَقَدْ عُلِّقَتْ فَوْقَ الرُّفُوفِ
قَنَادِيلُ صَغِيرَةٍ تُفَرِّقُ الظُّلَالَ، وَتَشُقُّ لِأَسْطُرِ الْكُتُبِ طَرِيقًا مِنْ نُورٍ. قَالَتْ «أَمِينَةُ
الْبَصِيرِيَّةُ» وَهِيَ ثَقَلْبُ سَفَرًا: «إِنَّ الْبَيَانَ يَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ التَّزْيِينِ
وَالْتَّمَكِينِ. نَصِفُ الْأُمُورَ كَمَا هِيَ، ثُمَّ نَجْعَلُ لَهَا سُلَّمًا يَرْفَاهُ الْقَارِئُ. فَإِذَا زَيْنَّا
دُونَ أَنْ نُمْكِّنَ ضَلَّ الطَّالِبُ فِي مَدِينَةِ الْأَفَاطِ جَمِيلَةٍ وَلَا يَبْتَ فِيهَا.» فَقَالَ الْأَمَامُ:
«صِدْقُ الْبَيَانِ أَمَانَةٌ، وَقُوَّتُهُ تَكْمِيلٌ، وَجَمَالُهُ عِبَادَةٌ، فَاجْمَعُوا هَذِهِ الْخِصَالَ تَنْجُوا
مِنْ آفَاتِ الْكَلَامِ.»

تَرَكُوا لِحِمْرَةِ الْأَنْصَارِيِّ مَجَالًا يُرْتَّلُ فِيهِ شِبْهُ أَنْشُودَةٍ لِلْكِتَابِ: «يَا
صَاحِبَ الْقَلَمِ، لَا تَكْتُبْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُورَثَ، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ
يَدِكَ رَكِبَتْ ظَهَرَ الزَّمَنِ، فَمَا أَنْ تُكْرِمَكَ وَإِمَّا أَنْ تَفْضَحَكَ. وَادْكُرْ أَنَّكَ تَصْنَعُ
لِمَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِكَ جِسْرًا، فَاجْعَلْهُ رَاسِخًا، وَاجْعَلْ عَلَيْهِ الْأَمَارَاتِ.»

وَقَدْ بَلَغَ الْخَبَرُ قُرَى مُجَاوِرَةً أَنَّ فِي بَلَدَتِنَا «خَزَانَةَ» الْبَيَانِ تُفْتَحُ صَبَاحًا
وَمَسَاءً، فَجَاءَ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ يَحْمِلُونَ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ فُرُوعٍ وَتَجَارِبٍ،

وَيَمْتَحُونَ لَهَا أَبْوَابًا فِي الصُّحُفِ. رَأَيْتَ رَبَّابُ بِنْتُ مَزِيدٍ تَكْتُبُ «كَيْفَ يُزَيَّتُ
الْمَحُورُ لَا يَصْطَلِمُهُ إِلَّا حِتْكَالُ»، وَسَلَمَى تُقَيِّدُ «طَرِيقَ الْأَسْتِدْلَالِ مِنَ الْعِلَّةِ إِلَى
الْمَعْلُولِ»، وَ«جَابِرًا» يُثَبِّتُ «سَبِيلَ التَّجَرُّبَةِ وَالتَّكْرَارِ». كَانَ الْمَكَانُ يَنْبُضُ كَأَنَّهُ
قَلْبُ أُمَّةٍ تُعَدُّ دَمَهَا لِأَجْيَالٍ قَادِمَةٍ.

ثُمَّ رَوَى يَاسِرُ بْنُ سُحَيْمٍ قِصَّةً صَارَتْ مَثَلًا: «خَلَفَ رَجُلٌ عَالِمٌ بَيْتًا وَسِعَةً
غِلَّةً وَسَفَرًا مُفَصَّلًا. فَأَخَذَ الْوَرَثَةُ الْبَيْتَ وَالْغِلَّةَ فَنَفِدَتْ، وَأَمَّا السَّفَرُ فَقَدْ عَمَّرَ لَهُمْ
دُورًا كَثِيرَةً. قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: لِأَنَّهُ عَلَّمَهُمُ الطَّرِيقَ، وَمَنْ مَلَكَ الطَّرِيقَ لَمْ يَحْتَجْ
إِلَى الصَّدْفَةِ.» فَتَمَائِلَ حَبِيبِ الدُّنْيَا فِي مَقَامِهِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ سَمْعًا لَا يُسْمَعُ:
«لَعَلَّ رِبْحَ الْكَلِمَةِ أَبْقَى مِنْ رِبْحِ السَّلْعَةِ.»

وَفِي صَبَاحٍ بَعِيدٍ، جَاءَتْ مَرِيَمُ بِنْتُ صَفْوَانَ تَسْأَلُ الْإِمَامَ: «أَيَجُوزُ أَنْ
يَنْقُلَ الْخَلْفُ الْكِتَابَ فَيُضِيفُوا وَيُصَوِّبُوا» فَقَالَ: «بَلْ هَذَا هُوَ مَعْنَى الْمِيرَاثِ:
لَيْسَ الْكِتَابُ تِمَثَالًا يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ، بَلْ طَرِيقَةٌ تُسَلِّكُ. يُقَدِّمُ السَّلَفُ أُسُسًا،
وَيَأْتِي الْخَلْفُ فَيَبْنُونَ عَلَيْهَا مَا يَلِيقُ بِزَمَانِهِمْ؛ عَلَى أَنْ يَحْفَظُوا السَّنَدَ وَيُبَيِّنُوا
الزِّيَادَةَ، فَلَا يَلْتَمِسُ الْقَدِيمُ بِالْمُسْتَجَدِّ.» ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَبْسُطُ كَفَّهُ فَوْقَ الصَّحَائِفِ:
«هَذِهِ الْأُورَاقُ أَشْبَاهُ أَرْضٍ فَلَاحَةٍ: تَأْخُذُ الْبَذَرُ مِنَ السَّلَفِ، وَتَتَفَعَّلُ بِمَطَرِ الزَّمَانِ،
فَتَنْتَبِثُ لِلْخَلْفِ حَصَادًا جَدِيدًا.»

جَاءَ الْقَائِلُونَ بِالْإِقْتِصَارِ يُحَاجُّونَ: «أَقْتِصَارُ الْكَلَامِ أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ وَأَبْلَغُ.»

فَقَالَ الْإِمَامُ: «لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. قَدْ يَكُونُ الْأَجْمَالُ لِلتَّذْكِيرِ، وَلَكِنَّ التَّعْلِيمَ يُحِبُّ التَّفْصِيلَ. وَالْبَيَانُ الصَّالِحُ يَعْرِفُ مَوْضِعَ الْأَجْمَالِ وَمَوْضِعَ التَّفْصِيلِ، وَمَوْضِعَ التَّمْثِيلِ وَمَوْضِعَ التَّعْلِيلِ.» ثُمَّ أَتْبَعَ قَائِلًا: «لَا تُكَثِّرُوا الْكَلِمَةَ لِتُخَفُوا فَقْرَ الْمَعْنَى، وَلَا تُقْصِرُوهَا حَتَّى تُضَيِّعُوا الطَّرِيقَ.»

تَحَرَّكَتْ صَفِيَّةُ الْوَاتِقَةِ وَقَالَتْ: «نُرِيدُ لِلْبَيَانِ عَهْدًا يَضْمَنُ الْأَمَانَةَ: أَلَّا نُقَدِّمَ الرَّأْيَ عَلَى الشَّاهِدِ، وَلَا نَحْذِفَ مَا يُخَالِفُ هَوَانَا، وَلَا نَزَيِّنَ حَيْثُ يَجِبُ التَّصْرِيحُ، وَأَنْ نَذْكَرَ الْمَصَادِرَ وَمَنْ نَقَلْنَا عَنْهُ، وَأَنْ نُرَاجِعَ قَبْلَ الْخَتْمِ.» فَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا «مِيثَاقُ الْبَيَانِ»، بِمِثْلِهِ يَسْلَمُ الْمِيرَاثُ مِنَ التَّبْدِيلِ.»

وَفِي الْخِتَامِ جَمَعَ الْإِمَامُ الْقَوْمَ وَقَالَ وَالنَّفُوسُ قَدْ سَاكَتَتْ كَلِمَاتِهِ: «لَوْ لَا الْبَيَانُ مَا أَعْتَنَقَتِ الْقُلُوبُ الْقُرْآنَ، وَلَا سَارَ الْعِلْمُ فِي الْأَرْضِ كَالْمَاءِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: 4)،

فَجَعَلَ الْبَيَانَ مِنْ عِلْمِهِ الْمَمْنُوحِ لِلْإِنْسَانِ، فَمَنْ شَكَرَ النِّعْمَةَ أَتَقَنَّ لَفْظُهُ، وَأَمَانَتُهُ، وَإِحَالَتُهُ، وَتَوْثِيقُهُ. مَنْ شَاهَدَ كَيْفَ يَنْتَقِلُ الْعِلْمُ بِالْبَيَانِ عَلِمَ أَنَّ الْعُمَرَ يَقْصُرُ وَالْكَلِمَةَ تَطُولُ.» ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ تَلْمِيذَتِهِ وَتَلْمِيذِهِ، وَقَالَ فِي جُمْلَةٍ كَأَنَّهَا خَاتَمٌ يُطْبَعُ عَلَى صَدْرِ الْمَجْلِسِ: «الْقُدْرَةُ عَلَى الْبَيَانِ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْخُلُودُ؛ فَالْكِتَابَةُ مِيرَاثُ الْأُمَمِ، وَمَنْ ضَيَّعَ بَيَانَهُ ضَيَّعَ نَسَبَهُ فِي الْعِلْمِ.»

خَرَجُوا إِلَى اللَّيْلِ، وَالْقَمَرُ يُطَالِعُ الْقَرْيَةَ كَعَيْنٍ حَانِيَةٍ، وَفِي الصُّدُورِ وَقَعُ
كَلِمَةٌ تَدُقُّ كَالْمِطْرَقَةِ عَلَى سِنٍّ مِنْ صَخْرٍ: إِنْ تَرَكْتُ الْعِلْمَ بِلَا بَيَانٍ ذَهَبَ، وَإِنْ
تُقَيِّدُهُ عَاشَ وَأَنْتَ مَعَهُ. وَفِي الْأَرْضِ شَجَرَةٌ صَغِيرَةٌ غَرَسُوهَا قُرْبَ «خِزَانَةِ الْبَيَانِ»،
كَتَبُوا عِنْدَ جَذْعِهَا رُقْعَةً: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ تُسْقَى كُلَّ صَبَاحٍ، مِقْدَارُ الْمَاءِ قَدَحٌ،
فَإِذَا كَبُرَتْ ظَلَّتْ الْخِزَانَةَ وَأَبْنَاءَهَا.» كَانَ ذَلِكَ مَثَلًا لِكُلِّ كَلِمَةٍ صَادِقَةٍ مَوْثُوقَةٍ:
تُسْقَى بِالْأَمَانَةِ فَتُظِلُّ الْعَالَمِينَ.

الدَّرْسُ الرَّابِعُ: مِيزَانُ الْأُسْتِدْلَالِ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ

تَبْسُطُ الشَّمْسُ أَكْفَهَا عَلَى الْوَادِي، فَتَتَرَفَّصُ الظَّلَالُ بَيْنَ النَّحِيلِ كَأَنَّهَا
أَحْلَامٌ تَتَرَجَّحُ بَيْنَ يَقْظَةِ النَّهَارِ وَغَفْوَةِ الصَّبَاحِ. تَهْبُّ رِيحٌ خَفِيفَةٌ تَحْمِلُ عَبَقَ
الطِّينِ وَرِذَاذِ الْمَاءِ مِنْ جَدُولٍ قَرِيبٍ، وَتَعْلُو أَصْوَاتُ الْغَنَمِ تَخْتَرِقُ سَكِينَةَ الْقَرْيَةِ،
مُمْتَرِجَةً بِصَدَى مِطْرَقَةٍ تَنْقُرُ حَدِيدًا فِي بَيْتِ حَدَادٍ. فِي الْمَسْجِدِ، تَتَرَاوُشُ
الْحَلَقَةُ عَلَى سَجَادَةِ مَهْرُوسَةٍ بِأَقْدَامِ الْعَابِدِينَ، تَحْمِلُ فِي نَسِيجِهَا ذِكْرَى
صَلَوَاتٍ وَدُعَاءَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ. يَجْلِسُ الْإِمَامُ فِي وَسْطِ الْمَجْلِسِ، وَجْهُهُ كَمِرَاقَةٍ
تَعْكِسُ نُورَ الْحِكْمَةِ، وَصَوْتُهُ يَهْتَرُّ بِرَجْعٍ يُشْبِهُ صَدَى جَبَلٍ يُجِيبُ سَائِلًا. عَنْ
يَمِينِهِ عُمَرُ الْبَصِيرِ، عَيْنَاهُ تَقْرَأُ الْوُجُوهَ كَأَنَّهَا تَقْرَأُ كِتَابًا، وَعَنْ شِمَالِهِ فَاطِمَةُ
الْحَكِيمَةُ، تَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهَا تَرَى فِيهَا أَسْرَارَ الْخَلْقِ، وَبَيْنَهُمَا يَجْلِسُ
يُوسُفُ الْمُتَفَكِّرُ، قَلَمُهُ يَرْفُصُ عَلَى دَفْتَرِهِ كَرَاقِصَةٍ تَتَّبِعُ إِيقَاعَ نَغْمَةٍ خَفِيفَةٍ، وَخَالِدُ
الْمُحَاجِّجِ يَزِنُ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُوزَنُ الذَّهَبُ فِي كِفَّةٍ مِيزَانٍ. وَعَلَى الْبَابِ يَقِفُ
سَالِمٌ، يَدَاهُ مُتَشَابِكَتَانِ، يَنْظُرُ إِلَى الْأَفُقِ كَأَنَّهُ يَرَى فِيهِ جَوَابًا لِسُؤَالٍ لَمْ يُطْرَحْ
بَعْدُ.

تَنَفَّسَ الْإِمَامُ نَفْسًا عَمِيقًا كَمَنْ يَسْتَعِدُّ لِعَوْصٍ فِي بَحْرِ الْمَعْرِفَةِ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَمْلُؤُهُ الْوَقَارُ: «الْيَوْمَ نَضْعُ مِيزَانَ الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ، فَإِنَّ الْكَوْنَ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ، وَآيَاتُهُ تَتَكَلَّمُ لِمَنْ يَعْقِلُ، وَالْحَيَاةُ دَلِيلٌ يَقُودُ إِلَى الْحَقِّ إِذَا أَحْسَنَ الْإِنْسَانُ النَّظَرَ. قَالَ تَعَالَى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

(فصلت: 53)،

فَالشَّاهِدُ فِي الْخَلْقِ يَدُلُّ عَلَى الْغَائِبِ فِي الْخَالِقِ.

تَلَا لَأَتْ عُيُونُ الْحَاضِرِينَ كَأَنَّهَا نُجُومٌ تَسْتَقْبِلُ ضَوْءَ قَمَرٍ، وَتَسَاءَلَتْ قُلُوبُهُمْ: كَيْفَ نَضْعُ هَذَا الْمِيزَانَ

رَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ بِهُدُوءٍ، وَفِي صَوْتِهِ رَزَانَةٌ مَنْ رَأَى أَيَّامًا طَوِيلَةً: «يَا سَيِّدِي، إِنِّي أَرَى الشَّمْسَ تَضِيءُ، وَالنَّخْلَ يُثْمِرُ، وَالْمَاءُ يَجْرِي، فَكَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَى مَا لَا نَرَى»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ كَأَنَّهُ يَرَى فِي سُؤَالِهِ بُدْرَةً فَهَمَّ تَنْتَظِرُ الْمَاءَ، وَقَالَ: «إِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ النَّظَامُ الْمُحَكَّمُ فِي الْخَلْقِ، فَلَا تَرْتَفِعُ الشَّمْسُ إِلَّا بِأَمْرِ، وَلَا تُثْمِرُ النَّخْلَةُ إِلَّا بِحِكْمَةٍ، وَلَا يَجْرِي الْمَاءُ إِلَّا بِقَدَرٍ. قَالَ تَعَالَى:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)،

فَالنَّظَامُ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَحِكْمَتِهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي الشَّاهِدِ رَأَى الْغَائِبَ كَأَنَّهُ مُنْكَشِفٌ. وَأَصَافَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ: «إِنَّ الْكَوْنَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الْعَقْلِ، وَالْعَقْلُ يَسْتَدِلُّ عَلَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية: 17-18)،

فَكُلُّ مَخْلُوقٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى خَالِقِهِ.

نَظَرَتْ فَاطِمَةُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا وَقَالَتْ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ سَكِينَةَ الْمَعْرِفَةِ: «يَا سَيِّدَنَا، إِنِّي أَرَى الْبَذْرَةَ تَنْبُثُ مِنَ الطِّينِ، وَالطَّائِرَ يَبْنِي عُشَّهُ بِدِقَّةٍ، وَالنَّهْرَ يَجْرِي فِي مَسَارِهِ دُونَ زَيْغٍ. أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى عِلْمٍ يَحْكُمُ الْكَوْنَ»

فَهَزَّ الْإِمَامُ رَأْسَهُ مُوَافِقًا، وَقَالَ: «نَعَمْ، يَا فَاطِمَةُ، فَالْبَذْرَةُ تَحْمِلُ سِرَّ الْحَيَاةِ، وَالطَّائِرُ يَبْنِي بِفِطْرَةٍ، وَالنَّهْرُ يَسِيرُ بِحِكْمَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِ الْخَالِقِ وَتَذْيِيرِهِ. قَالَ تَعَالَى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: 14)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

فَالْعِلْمُ الْإِلَهِيُّ يَظْهَرُ فِي دِقَّةِ الْخَلْقِ، وَالْعَقْلُ يَسْتَدِلُّ عَلَى أَلْغَائِبٍ مِنْ خِلَالِ الشَّاهِدِ. «وَأَضَافَ بِصَوْتٍ يَمْلُؤُهُ الْعَجَبُ: «إِنَّ الْكَوْنَ مَعْرِضٌ لِلآيَاتِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ يَهْتَفُ بِأَسْمِ خَالِقِهِ، فَانْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
(الذاريات: 20-21)،

فَالْإِبْصَارُ هُوَ مِفْتَاحُ الْإِسْتِدْلَالِ.

قَامَ يُوسُفُ الْمُتَفَكِّرُ، وَدَفْتَرُهُ مَفْتُوحٌ كَأَرْضٍ تَنْتَظِرُ الْمَطَرَ، وَقَالَ: «إِنِّي أَسْأَلُ، يَا سَيِّدَنَا، كَيْفَ نَمْنَعُ أَنْفُسَنَا مِنَ الزَّيْغِ عِنْدَ الْإِسْتِدْلَالِ فَقَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ مَا يُرِيدُهُ هَوَاهُ، وَيَظُنُّهُ دَلِيلًا.» فَرَفَعَ الْإِمَامُ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ كَأَنَّهُ يَرَى فِيهِ سَمَاءً مُنْكَشِفَةً، وَقَالَ: «يَا يُوسُفُ، إِنَّ مِيزَانَ الْإِسْتِدْلَالِ يَحْتَاجُ إِلَى قَلْبٍ صَافٍ وَعَقْلٍ مُنْضَبِطٍ. مَنْ تَبَعَ هَوَاهُ ضَلَّ، وَمَنْ تَأَمَّلَ بِصِدْقٍ وَجَدَ. قَالَ تَعَالَى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾
(الحج: 46)،

فَالْقَلْبُ هُوَ مِفْتَاحُ النَّظَرِ، وَالْعَقْلُ هُوَ مِيزَانُهُ. فَإِذَا صَفَا الْقَلْبُ وَأَنْضَبَطَ الْعَقْلُ، رَأَى الْإِنْسَانُ الْحَقَّ فِي كُلِّ شَاهِدٍ. «وَأَضَافَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى يُوسُفَ بِرَحْمَةٍ: «تَذَكَّرْ قَوْلَ اللَّهِ:

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: 65)،

فَحَتَّى الْعَذَابُ دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَالْمُؤْمِنُ يَسْتَدِلُّ بِالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ
مَعًا.

قَالَ خَالِدُ الْمُحَاجِّجِ وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ كَأَنَّهُ يَزِيلُ غُبَارَ شَيْءٍ: «لَكِنْ يَا
سَيِّدَنَا، إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَرَوْنَ الشَّاهِدَ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَيَنْسَوْنَ الْغَائِبَ
الَّذِي خَلَقَهُ». فَرَدَّ الْإِمَامُ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ حَزْمَ الْحَقِّ: «إِنَّ مَنْ رَأَى الشَّاهِدَ بِذَاتِهِ
أَعْمَى عَقْلُهُ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ مَخْلُوقٌ، وَالْمَخْلُوقُ يَحْتَاجُ إِلَى خَالِقٍ. قَالَ
تَعَالَى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35)،

فَالْخَلْقُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِخَالِقٍ، وَمَنْ نَسِيَ هَذَا ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ الْإِسْتِدْلَالِ.
وَأَضَافَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْأَرْضِ: «إِنَّ الطِّينَ وَالْمَاءَ وَالنَّبَاتَ كُلَّهُمَا تَشْهَدُ عَلَى
وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: 22)،

فَلَوْ كَانَ هُنَاكَ خَالِقٌ آخَرُ لَمَا رَأَيْنَا هَذَا النِّظَامَ الْمُحْكَمَ.

عِنْدَ الْبَابِ تَلُوحُ ظِلَالُ قَافِلَةٍ تَمُرُّ، وَيَدْخُلُ رَجُلٌ غَرِيبٌ يَحْمِلُ كِتَابًا قَدِيمًا، يَقُولُ إِنَّهُ يَخْوِي أَسْرَارَ الْكَوْنِ، لَكِنَّهُ يَدْعُو إِلَى عَقِيدَةٍ تُنْكِرُ الْخَالِقَ. تَتَرَفَّصُ أَلْهَمُهُمَا فِي الْحَلَقَةِ، وَيَنْظُرُ سَالِمٌ إِلَى الْإِمَامِ كَأَنَّهُ يَطْلُبُ جَوَابًا. فَقَالَ الْإِمَامُ بِهَدْوٍ يَحْمِلُ قُوَّةَ الْيَقِينِ: «يَا سَالِمُ، إِنَّ مَنْ يُنْكِرُ الْخَالِقَ يَرَى الشَّاهِدَ وَيَعْمَى عَنْ دَلَالَتِهِ. إِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي يَحْمِلُهُ لَا يُعْنِي إِنْ لَمْ يَقُدْ إِلَى الْحَقِّ. قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ (الأحقاف: 4)،

فَالْخَلْقُ كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ فَقَدْ أَنْكَرَ دَلِيلَ عَقْلِهِ». وَأَضَافَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْغَرِيبِ: «أَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، أَلَيْسَ فِيهِ نِظَامٌ يَدُلُّ عَلَى تَدْبِيرٍ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: 62)،

فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ شَاهِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْغَائِبِ».

خَرَجَ الْقَوْمُ إِلَى السَّاحَةِ، حَيْثُ النَّخِيلُ يَقِفُ شَامِخًا كَأَعْمَدَةٍ مَعْبَدٍ، وَالنَّهْرُ يَجْرِي كَأَنَّهُ يَرَوِي حِكَايَةَ الْحَيَاةِ. وَقَفَتْ فَاطِمَةُ تُشِيرُ إِلَى شَجَرَةٍ تَحْمِلُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

ثَمَرًا، وَقَالَتْ: «نُنْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ، كَيْفَ نَمَتْ مِنْ بَذْرَةٍ صَغِيرَةٍ، أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى قُدْرَةِ تَفُوقِ فَهْمِنَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾
(الأنعام: 99)،

فَالْمَاءُ وَالنَّبَاتُ شَاهِدٌ عَلَى الْغَائِبِ..» وَأَضَافَ عُمَرُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ: «وَأَنْظُرُوا إِلَى النُّجُومِ، كَيْفَ تَسِيرُ فِي مَدَارَاتِهَا، أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى حِكْمَةِ عَظِيمَةِ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: 38)،

فَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْكَوْنِ تَحْمِلُ دَلَالََةً..»

وَقَفَ يُوسُفُ قُرْبَ النَّهْرِ، يَنْظُرُ إِلَى انْعِكَاسِ السَّمَاءِ فِي الْمَاءِ، وَقَالَ: «إِنِّي أَرَى فِي هَذَا الْمَاءِ صُورَةَ السَّمَاءِ، فَكَيْفَ لَا أَرَى فِي الْخَلْقِ صُورَةَ الْخَالِقِ» فَأَبْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ: «نَعَمْ، يَا يُوسُفُ، فَالْمَاءُ يَعْكِسُ السَّمَاءَ، وَالْخَلْقُ يَعْكِسُ صِفَاتِ الْخَالِقِ. قَالَ تَعَالَى:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾
(الشورى: 4)،

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطُ الْقُرْآنِيُّ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

فَكُلُّ مَخْلُوقٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ. « وَأَضَافَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَاضِرِينَ: «إِنَّ الْأَسْتِدْلَالَ لَيْسَ مُجَرَّدَ نَظَرٍ، بَلْ هُوَ تَفَكُّرٌ وَتَذَكُّرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: 24)،

فَالْعَقْلُ هُوَ الْمِيزَانُ، وَالْقَلْبُ هُوَ النُّورُ.»

فِي لَيْلَةِ الْخِتَامِ، اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ تَحْتَ ضَوْءِ الْمَصَابِيحِ، وَالْقَمَرُ يَتَلَأَلُ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ مِنْ نُورٍ. قَالَ عُمَرُ وَهُوَ يُلَخِّصُ بِصَوْتٍ يَمْلُؤُهُ الْيَقِينُ: «إِنَّ الشَّاهِدَ فِي الْكَوْنِ يَدُلُّ عَلَى الْغَائِبِ، كَمَا تَدُلُّ الْأَثَارُ عَلَى صَاحِبِهَا. وَكََمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَكَايْنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: 105)،

فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الشَّاهِدِ أَضَاعَ دَلِيلَهُ. « وَأَضَافَتْ فَاطِمَةُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الصَّبِيَّانِ: «عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى الْكَوْنِ بِعَيْنِ الْعَقْلِ، فَإِنَّ النَّظَرَ بِعَيْنِ الْقَلْبِ يَقُودُ إِلَى الْإِيمَانِ. قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ ﴿آل عمران: 190﴾،

فَالْعَقْلُ هُوَ مِفْتَاحُ الْإِيمَانِ.»

تَقَدَّمَ الْإِيمَانُ، وَصَوْنُهُ يَحْمِلُ دَفْعَ الْأَبِ وَحِكْمَةَ الْعَالِمِ: «يَا أَهْلَ
الْوَادِي، إِنَّ مِيزَانَ الْأَسْتِدْلَالِ هُوَ نُورُ الْعَقْلِ وَصَفَاءُ الْقَلْبِ. مَنْ نَظَرَ إِلَى الشَّاهِدِ
بِعَيْنِ الْحَقِّ، رَأَى الْغَائِبَ بَيِّقِينَ. إِنَّ الْكَوْنَ كِتَابٌ، وَالْآيَاتُ حُرُوفُهُ، وَالْعَقْلُ
قَارِئُهُ. قَالَ تَعَالَى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: 22)،

فَكُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ يَدُلُّ عَلَى خَالِقِهِ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فَازَ بِالْهِدَايَةِ.»
وَأَكْمَلَ وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي دُعَاءٍ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَنْظُرُونَ إِلَى آيَاتِكَ
فَيَسْتَدِلُّونَ، وَيَتَفَكَّرُونَ فَيَهْتَدُونَ. قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: 101)،

فَالنَّظَرُ هُوَ سَبِيلُ الْأَاطِمِينَ.»

سَكَتَ الْمَجْلِسُ إِلَّا مِنْ هَمْسِ الدُّعَاءِ، وَخَرَجُوا تَحْتَ سَمَاءٍ مُرْصَعَةٍ
بِالنُّجُومِ، كَأَنَّهَا آيَاتٌ تَتَلَاأُ فِي كِتَابِ الْكَوْنِ. مَشَى سَالِمٌ بَطْنًا، ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى

مِيزَانُ الْبَيِّنَاتِ: النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيِّنَاتِ

عُمَرَ وَقَالَ: «الْيَوْمَ رَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي أُلُوَادِي يَتَكَلَّمُ، وَكُلُّ كَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ. قَالَ تَعَالَى:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحشر: 1)،

فَالْكُونُ كُلُّهُ تَسْبِيحٌ». فَرَبَّتْ عُمَرُ عَلَى كِتَابِهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَسْمَعُونَ تَسْبِيحَ الْكُونِ، فَيَرَوْنَ فِي كُلِّ شَاهِدٍ دَلِيلًا عَلَى الْغَائِبِ».

وَحِينَ أَعْمَضَ الْمَسْجِدُ عَيْنَيْهِ عَلَى نُورِ الشُّرُجِ، سَمِعْنَا أَلِإِمَامَ يَهْمِسُ فِي الْخِتَامِ كَمَا يَهْمِسُ الْمَطَرُ فِي شَرْقَةِ نَفْسٍ مُشْتَاقَةٍ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا مِنْ آيَاتِكَ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِنَا، وَاجْعَلْ شُهُودَنَا سَبِيلًا إِلَى الْعَمَلِ، وَاحْفَظْنَا مِنَ الدَّعَاوَى بِلَا بَيِّنَةٍ، وَأَقِمْ لَنَا مِيزَانًا نَقِيسُ بِهِ فَلَا نَطْغَى، وَنَرْجِعْ إِلَيْكَ فِي مَا اسْتَأْثَرْتَ بِهِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ».

ثُمَّ خَرَجْنَا وَاللَّيْلُ يُسْدِلُ سِتَارَهُ، وَقَدْ صَارَ فِي صُدُورِنَا مِفْتَاحُ جَدِيدٍ: كَيْفَ نَرَى الْأَثَرَ فَتَهْتَدِي إِلَى السَّبَبِ، وَكَيْفَ نَحْفَظُ حُدُودَنَا فَلَا نُسَاوِي بَيْنَ مَا شَهِدْنَاهُ وَمَا حَجَبَهُ اللَّهُ. وَتَحْتَ سَمَاءِ الْكُوفَةِ الْهَادِيَةِ كَانَ صَدَى الْآيَةِ يَتَرَنَّمُ فِي الْقُلُوبِ:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: 2)؛

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجْرِبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«نَعَمْ، نَعْتَبِرُ، وَنَتَدَبَّرُ، وَنَعْمَلُ، ثُمَّ نَرْجِعُ فَنُصْلِحُ مَا قَصَرْنَا فِيهِ، لِنَدُومَ النِّعْمَةِ وَيَثْبُتَ الْمِيزَانُ».

وَفِي صَبَاحِ الْغَدِ، كَتَبَ الصَّبِيُّ عَلَى لَوْحَةٍ فِي سَاحَةِ الْقَرْيَةِ: «الْيَوْمَ نَنْظُرُ إِلَى الشَّاهِدِ فَنَرَى الْغَائِبَ». وَتَحْتَ الْعِبَارَةِ، تَوْقِيعَاتٌ صَغِيرَةٌ مُبَلَّلَةٌ بِرِذَاذِ النَّهْرِ، كَأَنَّهَا دَلَائِلُ صَغِيرَةٌ سَتَكْبُرُ. كَانَ الْوَادِي يَتَنَفَّسُ بِرُوحِ الْيَقِينِ، وَالنَّخِيلُ يَهْتَرُ كَأَنَّهُ يُسَبِّحُ، وَالنَّهْرُ يَجْرِي كَأَنَّهُ يَرُوي قِصَّةَ الْخَلْقِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَهْتَفُ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ: إِنَّ الشَّاهِدَ يَدُلُّ عَلَى الْغَائِبِ، وَالْعَقْلَ يَهْتَدِي بِنُورِ الْإِيمَانِ، كَمَا يَهْتَدِي النَّهْرُ إِلَى مَصَبِّهِ دُونَ أَنْ يَضِلَّ.

الدَّرْسُ الْخَامِسُ: الْأَسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ فِي

الْعِلْمِ التَّجَرُّبِيِّ

تَتَسَاقَطُ أَشْعَةُ الشَّمْسِ عَلَى الْوَادِي الْخَضِرِ كَأَنَّهَا خُيُوطُ نُورٍ ذَهَبِيَّةٍ
تَنْسُجُ لِبَاسًا لَطِيفًا لِلْأَرْضِ الْمُمتَدَّةِ، فَتَرْفُصُ ظِلَالُ النَّخِيلِ الْعَالِيَةِ بِهْدُوءٍ يُشْبِهُ
حَرَكَةَ الْأَمْوَاجِ الْهَادِئَةِ، وَتَتَلَأَلُّ قَطَرَاتُ الندَى عَلَى الْأَوْرَاقِ الْخَضِرَاءِ كَدُرِّ
مُنْتَشِرَةٍ تَعْكِسُ الضَّوْءَ بِلَمَعَانٍ سَاحِرٍ. تَهْبُ رِيحٌ خَفِيفَةٌ تَحْمِلُ عَبَقَ الطِّينِ الْمُبَلَّلِ
بِالْمَاءِ الْعَذْبِ، مُمْتَزِجَةً بِصَوْتِ مَاءٍ يَتَدَفَّقُ فِي جَدُولٍ قَرِيبٍ يَجْرِي بَيْنَ الْحُقُولِ
الْخَضِبَةِ، وَنَفْرَةٍ مَطْرَقَةٍ حَدَادٍ تَضْطَكُ بِالْحَدِيدِ فِي وَرْشَةٍ بَسِيطَةٍ تَقَعُ عَلَى حَافَةِ
الْوَادِي، حَيْثُ يَعْمَلُ الرِّجَالُ بِجُهْدٍ وَإِخْلَاصٍ لِيَصْنَعُوا أَدَوَاتٍ تُسَاعِدُ فِي الْحَيَاةِ
الْيَوْمِيَّةِ.

فِي سَاحَةِ الْمَسْجِدِ الْقَدِيمِ الْمَبْنِيِّ مِنْ حِجَارَةٍ مُزَخْرَفَةٍ بِزُخْرَفٍ عَرَبِيٍّ
يَعْكِسُ جَمَالَ الْفَنِّ الْقَدِيمِ، تَتَجَمَّهُرُ حَلَقَةٌ مِنَ النَّاسِ تَحْتَ ظِلِّ سِدْرَةٍ عَتِيقَةٍ

كَبِيرَةٍ، أَغْصَانُهَا مَمْدُودَةٌ كَأَذْرُعِ حَكِيمٍ كَرِيمٍ يَحْتَضِنُ أَسْئَلَةَ قُلُوبٍ تَتَوَقُّ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ أَلْعَمِيقَةِ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ الْيَقِينِ. يَجْلِسُ الْإِمَامُ عَلَى حَصِيرَةٍ بَسِيطَةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ قَصَبٍ يَابِسٍ، وَجْهُهُ يَشْعُ بِنُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ الَّذِي يَجْعَلُ النَّاطِرَ إِلَيْهِ يَشْعُرُ بِسَكِينَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، وَصَوْتُهُ يَتَرَدَّدُ كَأَنَّهُ نَسِيمٌ لَطِيفٌ يَحْمِلُ بُدُورَ الْيَقِينِ وَيَزْرَعُهَا فِي الصُّدُورِ. عَنْ يَمِينِهِ يَجْلِسُ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ، مُقَرَّرُ الدَّرْسِ وَالْبَاحِثُ الْمُجْتَهِدُ، يَمْسِكُ دَفْتَرَهُ الْقَدِيمَ كَكَنْزٍ ثَمِينٍ يَنْتَظِرُ حَبْرَ الْحِكْمَةِ لِيَمْلَأَ صَفْحَاتِهِ، وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِشَغَفِ الْبَحْثِ وَالرَّغْبَةِ فِي فَهْمِ أَسْرَارِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ. وَعَنْ شِمَالِهِ يَجْلِسُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيِّ، الْمُتَشَبِّثُ بِفَلَسَفَةِ أَرِسْطُو وَأَفْكَارِهِ الْعَقْلِيَّةِ، يَسْتَخِفُّ بِالتَّجَرُّبَةِ الْحَسِّيَّةِ وَيُمَجِّدُ الْفِكْرَ الْمَجْرَدَ الَّذِي يَعْتمِدُ عَلَى الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُشَاهَدَةِ. بِجَانِبِهِ يَجْلِسُ حَبِيبُ اللَّهِ الْمُصْلَحِجِيُّ، التَّاجِرُ الْغَنِيُّ الَّذِي يَرَكُزُ عَلَى الْمَصَالِحِ الْمَادِّيَّةِ، يَجْلِسُ بِثَوْبِهِ الْفَاخِرِ الْمُزِينِ بِالْحَرِيرِ، يُحَرِّكُ سُبْحَتَهُ بِأَصَابِعِ مُتَعَجِّلَةٍ كَأَنَّهُ يَعُدُّ دَرَاهِمَهُ، يَرَى الْقِيمَ الرُّوحِيَّةَ عَبَثًا وَالَّذِينَ أَمْرًا خَاصًّا بَيْنَهُ وَرَبَّهُ دُونَ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي حَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ. فِي الْحَلَقَةِ يَجْلِسُ عُمَرُ الْحَدَّادُ، يَدَاهُ مُلَطَّخَتَانِ بِالْفَحْمِ وَالْحَدِيدِ مِنْ عَمَلِهِ الْيَوْمِيِّ، وَخَالِدُ الْمَزَارِغِ، يَحْمِلُ بَذْرَةً صَغِيرَةً فِي كَفِّهِ كَأَنَّهُا رَمْزٌ لِلْحَيَاةِ وَالنُّمُوِّ، وَفَاطِمَةُ الْمُهَنْدِسَةُ، تَرَسُّمُ خُطُوطِ جِسْرِ عَلَى وَرَقَةٍ بَسِيطَةٍ بِدَقَّةٍ وَحَذَقٍ، وَسَلْمَى الصَّنَاعَةُ، تَحْمِلُ أَدَاةَ لِقْيَاسِ الْمَاءِ فِي الْأَنْهَارِ وَالْجَدَاوِلِ، تَنْظُرُ إِلَى الْإِمَامِ بِعَيْنَيْنِ مَلِيئَتَيْنِ بِالْفَضُولِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْفَهْمِ.

يَبْدَأُ الْإِمَامُ دَرْسَهُ، وَصَوْتُهُ يَتَدَفَّقُ كَجَدُولٍ هَادِيٍّ يَرْوِي الْأَرْضَ
الْعَطَشَى، فَيَقُولُ بِلَهْجَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْبَسَاطَةِ: «يَا أَهْلَ الْوَادِي الْكَرِيمِ،
إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ عَالَمٌ وَاحِدٌ مُتَّصِلٌ، يَجْمَعُ الشَّاهِدَ الَّذِي نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا
وَنَلْمُسُهُ بِأَيْدِينَا وَالْغَائِبَ الَّذِي يَخْفَى عَنْ حَوَاسِنَا وَلَكِنَّهُ يَظْهَرُ مِنْ خِلَالِ الدَّلَائِلِ
وَالْآيَاتِ، فِي نِظَامٍ مُتَرَابِطٍ مُنْسَجِمٍ يَشْهَدُ لِعَظَمَةِ الْخَالِقِ. إِنَّ الْمُلَاحَظَةَ الْحَسِّيَّةَ
وَالْتَّجَرُّبَةَ الْيَوْمِيَّةَ تَكْشِفَانِ الشَّاهِدَ الْمَرْيِيَّ، وَالشَّاهِدُ بِدَوْرِهِ يَقُودُنَا إِلَى الْغَائِبِ
الَّذِي يَخْفَى عَنْ الْعُيُونِ وَلَكِنَّهُ يَظْهَرُ فِي الْعُقُولِ الْمُسْتَبْصِرَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي
كِتَابِهِ الْعَزِيزِ:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (الْعَنْكَبُوتُ: ٢٠)،

فَهَذِهِ دَعْوَةٌ لِلنَّظَرِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْبَحْثِ عَنِ الْحَقَائِقِ مِنْ خِلَالِ مَا نَرَاهُ
وَنُجَرَّبُهُ». تَتَلَأُّ عُيُونُ الْحَاضِرِينَ بِلَمَعَانِ الْفَهْمِ الْجَدِيدِ، وَتَعْلُو هَمْسُهُ تَسْأُولُ
تَمَلُّهُ الْهَوَاءَ كَأَنَّهَا نَسِيمٌ لَطِيفٌ يَحْمِلُ بُدُورَ الْفَهْمِ وَيَزْرَعُهَا فِي الْقُلُوبِ
الْمُسْتَعِدَّةِ.

تَتَحَرَّكُ خَشْخَشَةُ قَلَمِ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ عَلَى الْوَرَقِ الْخَشَنِ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ
بِطُءٍ، وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِشَغَفٍ أَلْبَاحِثِ الَّذِي يَرَى فِي كُلِّ كَلِمَةٍ دَلِيلًا جَدِيدًا،
وَيَقُولُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ وَلَكِنَّهُ مَمْلُوءٌ بِالْحِمَاسِ: «يَا سَيِّدَنَا الْكَرِيمَ، أَلَمْ يَنْظُرْ
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَاسْتَدَلَّ بِالشَّاهِدِ الْمَرْيِيِّ

عَلَى الْغَائِبِ الَّذِي لَا يَزُولُ»

يَمِيلُ الْإِمَامُ قَلِيلًا نَحْوَ جَابِرٍ، وَجْهَهُ يَشْعُ بِإِنْسَامَةٍ لَطِيفَةٍ كَأَنَّهُ يَرَى نُورَ إِبْرَاهِيمَ يَتَجَلَّى فِي كَلِمَاتِ الْفَتَى الْمُتَعَلِّمِ، وَيَقُولُ بَتَّانٌ يُشَبِّهُ الْحَكِيمَ الَّذِي يَكْشِفُ سِرًّا عَظِيمًا: «نَعَمْ يَا جَابِرُ، فَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقْبَلْ دِينَ قَوْمِهِ بِمُجَرَّدِ الْوَرَاثَةِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، بَلْ نَظَرَ إِلَى الْكُونِ الْمُحِيطِ بِهِ بِعَيْنَيْنِ مُسْتَبْصِرَتَيْنِ، فَرَأَى كَوْنًا يَلْمُعُ فِي السَّمَاءِ اللَّيْلِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثُمَّ رَأَى غُرُوبَهُ وَزَوَالَهُ، فَتَبَرَّأَ مِنْهُ وَقَالَ إِنَّ رَبَّهُ لَا يَغِيبُ. ثُمَّ رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا بِنُورِهِ الْفِضِّيِّ، فَقَالَ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثُمَّ رَأَى أَفُولَهُ وَإِخْفَاءَهُ، فَتَبَرَّأَ مِنْهُ أَيْضًا. ثُمَّ رَأَى الشَّمْسَ طَالِعَةً بِضُوءِهَا الْقَوِيِّ الَّذِي يُنِيرُ الْأَرْضَ، فَقَالَ: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾، وَلَكِنَّهَا غَابَتْ أَيْضًا، فَقَالَ:

﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٧٨-٧٩).

لَقَدْ اسْتَدَلَّ إِبْرَاهِيمَ بِالشَّاهِدِ الْمَرْئِيِّ - الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغُرُوبِهَا - عَلَى الْغَائِبِ الَّذِي لَا يَغِيبُ وَلَا يَزُولُ، وَهُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ هَذَا النَّظَرَ:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

الْمُوقِنِينَ ﴿الْأَنْعَامُ: ٧٥﴾،

فَكَانَتْ مُلَاحَظَتُهُ الْحِسِّيَّةُ مِفْتَاحًا لِلْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ الْحَقِّ».

يَسْتَرْسِلُ الْإِمَامُ فِي شَرْحِهِ، وَصَوْتُهُ يَتَدَفَّقُ كَأَنَّهُ يَرُوِي حِكَايَةَ الْكُونِ بِأَسْرِهِ، فَيَقُولُ بِتَأَكِيدٍ يَمْلَأُ الْفَضَاءَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إِلَى الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَمُجَرَّدِ أَجْرَامٍ سَمَاوِيَّةٍ، بَلْ كَانَ يَرَى فِيهَا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَدِلُّ مِنْ زَوَالِهَا وَغُرُوبِهَا عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ الْحَقَّ لَا يَزُولُ وَلَا يَغِيبُ، فَكَانَ نَظَرُهُ مُلَاحَظَةً حِسِّيَّةً تَقُودُ إِلَى الْغَائِبِ الْعَظِيمِ. وَهَذَا الْمَنْهَجُ الْقُرْآنِيُّ يَدْعُونَا إِلَى النَّظَرِ فِي الْخَلْقِ لِنَصِلَ إِلَى الْخَالِقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلْ عِمْرَانُ: ١٩٠)،

فَالْمُلَاحَظَةُ لَيْسَتْ حِفْزَةً عَلَى الْحَوَاسِّ، بَلْ هِيَ جِسْرٌ مُحْكَمٌ إِلَى الْغَائِبِ الَّذِي يَكْشِفُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ». تَتَحَرَّكُ الْحَلَقَةُ بِهَمْسَةٍ إِعْجَابٍ وَتَفَكُّرٍ، وَيَكْتُبُ جَابِرٌ بِحِمَاسٍ فَائِقٍ، كَأَنَّهُ يَسْجِلُ دَلِيلًا ثَمِينًا فِي دَفْتَرِهِ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْرَارَ الْعِلْمِ.

لَكِنْ يَقْطَعُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ الْبُرْهَانِيِّ الْهَدُوءَ السَّائِدَ، يَهْزُ رَأْسَهُ بِاسْتِنْكَارٍ وَاضِحٍ كَأَنَّهُ يَدْفَعُ فِكْرَةً غَيْرَ مُقْنَعَةٍ، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ ثِقَةَ الْمُتَعَلِّمِ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

مِنْ فَلَاسِفَةِ الْأَقْدَمَاءِ: «يَا سَيِّدَنَا الْحَكِيمَ، إِنَّ أَرِسْطُو أَلْفِيلَسُوفَ الْأَعْظِيمَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْعُلْيَا تُدْرِكُ بِالْعَقْلِ الْمَجْرَدِ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى الْحَوَاسِّ الَّتِي قَدْ تَخَدَعْنَا، فَلَمْ نَحْتَاجْ إِلَى نَظَرِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى الْكَوَاكِبِ وَغُرُوبِهَا أَلَيْسَ أَلْفِكْرُ أَلْعَقْلِيِّ أَسْمَى مِنْ أَلْحَوَاسِّ أَلْمَادِيَّةِ وَأَقْدَرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ»

تَعْلُو هَمْسَةً فِي أَلْحَلْقَةِ مِنْ بَعْضِ أَلْحَاضِرِينَ، وَتَنْظُرُ سَلَمَى الصَّنَاعَةَ إِلَى صَاحِبِ أَلْقِيَاسِ بِأَسْتِغْرَابٍ وَاضِحٍ كَأَنَّهَا تَتَعَجَّبُ مِنْ تَجَاهُلِهِ لِقِيَمَةِ التَّجَرُّبَةِ الْيَوْمِيَّةِ. يَرْفَعُ الْإِمَامُ يَدَهُ يَهْدُوهُ وَلُطْفٍ، كَأَنَّهُ يَهْدِي عَاصِفَةً شَكٌّ قَدْ تَشَوَّرَ، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ مُتَرَنَّيْنٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْحَزْمِ وَالرَّحْمَةِ: «يَا صَاحِبَ أَلْقِيَاسِ، إِنَّ أَلْعَقْلَ نُورٌ عَظِيمٌ وَأَدَاةٌ قَوِيَّةٌ لِلْفَهْمِ، لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ حَسِّيٍّ لِيَرَى وَيَنْتَبِتَ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ أَلْعَقْلُ فِي فَرَاغٍ دُونَ مُلَاحَظَاتٍ مِنْ أَلْكُونِ أَلْمُحِيطِ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ نَظَرَ إِلَى الْكَوَاكِبِ وَغُرُوبِهَا، فَكَانَتْ مُلَاحَظَتُهُ أَلْحِسِّيَّةَ مِفْتَاحَ أَطْمِئْنَانِهِ وَإِيمَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَلنَّظَرُ حِفْرَةً عَلَى أَلْحَوَاسِّ بَلْ دَلِيلًا عَلَى أَلْعَقْلِ أَلْمُنِيرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠)،

فَالْأَلْبَابُ أَلْمُسْتَبْصِرَةُ تَنْظُرُ إِلَى الشَّاهِدِ لِتَصِلَ إِلَى الْغَائِبِ». يَسْتَرْسِلُ الْإِمَامُ فِي شَرْحِهِ، وَصَوْنُهُ يَتَدَفَّقُ كَجَدْوَلٍ يَرُوي أَلْعُقُولَ أَلْعَطَشَى: «إِنَّ أَلْمُلَاحَظَةَ لَيْسَتْ حِفْرَةً وَلَا تَحْقِيرًا لِلْعَقْلِ، بَلْ هِيَ جِسْرٌ مُحْكَمٌ إِلَى الْغَائِبِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
(فُصِّلَتْ: ٥٣)،

فَالْأَفَاقُ الشَّاهِدَةُ تَقُودُ إِلَى الْحَقِّ الْغَائِبِ. يَصُمْتُ صَاحِبُ الْقِيَاسِ
لِلْحِظَةِ، وَعَيْنَاهُ تَتَرَدَّدَانِ بَيْنَ الشَّكِّ وَالتَّفَكُّرِ، كَأَنَّ كَلِمَاتِ الْإِمَامِ زَرَعَتْ بَذْرَةَ
تَفَكُّرٍ جَدِيدَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمُتَشَبِّثِ بِالْفَلَسَفَةِ الْقَدِيمَةِ.

تَتَحَرَّكُ فَاطِمَةُ الْمُهَنْدِسَةُ فِي مَقْعَدِهَا، تَحْمِلُ رَسْمَ جِسْرِ مُفَصَّلٍ عَلَى
وَرَقَةٍ صَفْرَاءَ، وَتَقُولُ بِفَضُولٍ يَعْكُسُ شَغَفَهَا بِالْبِنَاءِ وَالْفَهْمِ: «يَا سَيِّدَنَا الْعَالِمَ،
أَلَمْ يَسْأَلِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى
بِتَجَرُّبَةٍ حَسِّيَّةٍ وَاضِحَةٍ تَكْشِفُ الْغَائِبَ»

يَنْظُرُ الْإِمَامُ إِلَى فَاطِمَةَ بَعَيْنَيْنِ مَلِيئَتَيْنِ بِالرَّضَا، كَأَنَّهُ يَرَى فِي سُؤْلِهَا نُورَ
الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْعَمَلِ وَالْإِيمَانِ، وَيَقُولُ بِتَفْصِيلٍ يُشَبِّهُ الْمُدْرَسَ
الْحَكِيمَ: «نَعَمْ يَا فَاطِمَةُ، فَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَطْلُبُ الْأَطْمِئْنَانَ الْأَكْبَرَ، فَقَالَ:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (الْبَقَرَةُ: ٢٦٠)،

وَلَمْ يُجِبْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلَامٍ فَلَسَفِيِّ مُجَرَّدٍ أَوْ حُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْحَوَاسِّ، بَلْ أَجَابَهُ بِتَجَرُّبَةِ حِسِّيَّةٍ وَاضِحَةٍ يَشْهَدُهَا إِبْرَاهِيمُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ:

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة: ٢٦٠).

إِنَّهَا تَجَرُّبَةُ حِسِّيَّةٍ مُّبَاشِرَةٌ، حَيْثُ قَطَعَ إِبْرَاهِيمُ الطُّيُورَ وَوَضَعَ أَجْزَاءَهَا عَلَى الْجِبَالِ الْمُتَبَاعِدَةِ، ثُمَّ نَادَاهَا فَبَجَاءَتْ سَعْيًا وَتَجَمَّعَتْ أَجْزَاؤها وَعَادَتْ إِلَى الْحَيَاةِ، دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَجَمْعِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ. تَتَلَاؤُا عُيُونُ فَاطِمَةَ بِلَمْعَانِ الْفَهْمِ، وَتَمَسُّحُ رَسَمِ جِسْرِهَا كَأَنَّهَا تَرَى فِيهِ جِسْرًا مِّنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ، جِسْرًا يَرْبِطُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

يَقْطَعُ حَبِيبُ اللَّهِ الْمُصْلَحِجِّي الْهُدُوءَ السَّائِدَ فِي الْحَلَقَةِ، يُحَرِّكُ سُبْحَتَهُ بِعَجَلَةٍ وَاضِحَةٍ كَأَنَّهُ يَحْسُبُ أَرْبَاحَ تِجَارَتِهِ، وَيَقُولُ بِلَهْجَةٍ تَكْشِفُ عَنْ تَرْكِيزِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ الْمَادِّيَّةِ: «يَا سَيِّدَنَا، مَا لَنَا وَلِهَذِهِ التَّجَرُّبَةُ الْقَدِيمَةُ إِنَّ التَّجَارَةَ وَالْحَيَاةَ الْيَوْمِيَّةَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِ طُيُورٍ وَوَضْعِ أَجْزَائِهَا عَلَى الْجِبَالِ، وَالَّذِينَ أَمْرٌ خَاصٌّ بَيْنِي وَرَبِّي دُونَ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا!»

تَعْلُو هَمْسُهُ اسْتِنكَارًا مِّنْ عُمَرِ الْحَدَّادِ الَّذِي يَرَى فِي الْعَمَلِ وَالَّذِينَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً. يَمِيلُ الْإِمَامُ نَحْوَ حَبِيبٍ بِلُطْفٍ، وَيَقُولُ بِحَزْمٍ مُّغْلَفٍ بِالرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ: «يَا حَبِيبُ، إِنَّ تَجَرُّبَةَ إِبْرَاهِيمَ لَيْسَتْ قِصَّةً قَدِيمَةً بَلْ دَلِيلٌ حَيٌّ عَلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنَاطِقِ الْبَيَانِ

أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّجَرُّبَةَ يَقُودَانِ إِلَى الْإِيمَانِ الْحَقِّ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مُتَّصِلَتَانِ. إِنَّ الْعَدْلَ فِي تِجَارَتِكَ وَصِدْقَ الْمِيزَانِ يَحْتَاجَانِ إِلَى مُلَاحَظَةٍ وَتَجَرُّبَةٍ لِتَثْبِيتِ الْحَقِّ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٥٢)،

فَكَيْفَ تَكُونُ تِجَارَتُكَ عَادِلَةً دُونَ اسْتِدْلَالٍ مِنَ الشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ؟
يَتَوَقَّفُ حَيِّبٌ عَنْ تَحْرِيكِ سُبْحَتِهِ لِلْحِطَّةِ، وَسُبْحَتُهُ تَسْكُنُ فِي يَدِهِ، كَأَنَّ
كَلِمَاتِ الْإِمَامِ أَوْقَدَتْ شَرَارَةً مَنِ اتَّفَكَّرَ فِي قَلْبِهِ الْمُشْغُولِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا.

يَتَحَرَّكُ عُمَرُ الْحَدَّادُ فِي مَقْعَدِهِ، يَمْسَحُ يَدَيْهِ الْمُلَطَّخَتَيْنِ بِالْفَحْمِ
وَالْحَدِيدِ مِنْ عَمَلِهِ الْيَوْمِيِّ، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ يَعْكِسُ قُوَّةَ يَدَيْهِ: «يَا سَيِّدَنَا، أَلَمْ
يَسْأَلْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ أَنْ يَرَاهُ، فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَجَرُّبَةٍ حَسِيَّةٍ تَكْشِفُ
حُدُودَ الْمَعْرِفَةِ وَعَظَمَةَ الْغَائِبِ»

يَنْظُرُ الْإِمَامُ إِلَى عُمَرَ بَرِضًا، كَأَنَّهُ يَرَى نَارَ وَرَشَتِهِ تَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةٍ، وَيَقُولُ:
«نَعَمْ يَا عُمَرُ، فَقَدْ كَانَ مُوسَى يَطْلُبُ الرُّؤْيَا الْمُبَاشَرَةَ، فَقَالَ:

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الْأَعْرَافُ: ١٤٣)».

يُشِيرُ الْإِمَامُ إِلَى جَبَلٍ بَعِيدٍ فِي الْأَفْقِ الْمُمْتَدِّ، كَأَنَّهُ يَرَى الْجَبَلَ يَتَحَرَّكُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَيَسْتَرْسِلُ فِي الشَّرْحِ بِتَفْصِيلٍ: «فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِكَلَامٍ مُجَرَّدٍ، بَلْ بِتَجَرُّبَةٍ حَسِّيَّةٍ وَاضِحَةٍ:

﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾
(الْأَعْرَافُ: ١٤٣)،

ثُمَّ تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ فَذَكََّ وَصَارَ دَكَّا، فَسَقَطَ مُوسَى صَعَقًا مِنْ عَظَمَةِ الْمَشْهَدِ. إِنَّهَا تَجَرُّبَةٌ حَسِّيَّةٌ كَشَفَتْ حُدُودَ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَدَلَّتْ عَلَى عَظَمَةِ الْغَائِبِ الَّذِي لَا تَحْتَمِلُهُ الْخَلَائِقُ». يَهْزُ عُمَرُ رَأْسَهُ بِرِضَا، وَيَمْسَحُ يَدَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ دَلِيلًا حَيًّا مِنْ نَارٍ وَرَشْتِهِ.

تَتَقَدَّمُ سَلْمَى الصَّنَاعَةُ خُطْوَةً، تَحْمِلُ أَدَاةَ قِيَاسِ الْمَاءِ الَّتِي تَسْتَخْدِمُهَا فِي عَمَلِهَا، وَتَقُولُ بِصَوْتٍ مَلِيٍّ بِالْفُضُولِ: «يَا سَيِّدَنَا، أَلَمْ يَسْأَلْ عُزَيْرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إِحْيَاءِ الْقَرْيَةِ الْخَرِبَةِ، فَأَجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَجَرُّبَةٍ حَسِّيَّةٍ تُحوِّلُ الشَّكَّ إِلَى أَطْمِئْنَانٍ» يَنْظُرُ الْإِمَامُ إِلَى أَدَاتِهَا، كَأَنَّهُ يَرَى لِسَانَ الْعِلْمِ يَتَكَلَّمُ مِنْ خِلَالِهَا، وَيَقُولُ: «نَعَمْ يَا سَلْمَى، فَقَدْ مَرَّ عُزَيْرٌ بِقَرْيَةٍ خَرِبَةٍ مَدْمُورَةٍ، فَتَعَجَّبَ وَقَالَ:

﴿أَنْتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الْبَقَرَةُ: ٢٥٩).

يُشِيرُ الْإِمَامُ إِلَى الْأَرْضِ الْخَصْبَةِ حَوْلَهُمْ، كَأَنَّهُ يَرَى حِمَارَ عُزَيْرٍ يَقُومُ مِنْ مَوْتِهِ، وَيَسْتَرْسِلُ فِي الشَّرْحِ بِتَفْصِيلٍ: «فَأَمَاتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِائَةَ عَامٍ، ثُمَّ أَحْيَاهُ، وَأَرَاهُ

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ رَغْمَ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَحِمَارُهُ يُعَادُ تَرْكِيبُ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ حَتَّى عَادَ حَيًّا. إِنَّهَا تَجَرُّبَةٌ حَسِيَّةٌ مُبَاشِرَةٌ، حَوَّلَتْ شَكَّهُ إِلَى يَقِينٍ كَامِلٍ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ». تَبْتَسِمُ سَلْمَى بِرِضًا، وَتَضَعُ أَدَاتَهَا عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهَا تَضَعُ دَلِيلًا فِي مِيزَانِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ.

يَتَحَرَّكُ خَالِدُ الْمَزَارِعِ فِي مَقْعَدِهِ، يَمْسَحُ ثَرَابًا عَنْ يَدَيْهِ الْمُتَعَبَتَيْنِ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْحُقُولِ، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ يَعْكِسُ بَسَاطَتَهُ وَعُمُقَ إِيمَانِهِ: «يَا سَيِّدَنَا، إِنَّنِي الْأَحِظُ بِذُرَّتِي الصَّغِيرَةِ تَنُمُو وَتَصِيرُ شَجَرَةً كَبِيرَةً تُثْمِرُ، وَأَسْأَلُ دَائِمًا كَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا، أَلَيْسَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُحْتِنَا عَلَى هَذَا النَّظَرِ وَالسُّؤَالِ عَنْ 'كَيْفِ' الْأَشْيَاءِ»

يَنْظُرُ الْإِمَامُ إِلَى خَالِدٍ بِعَيْنَيْنِ مَلِيئَتَيْنِ بِالشُّكْرِ، كَأَنَّهُ يَرَى سِرَّ الْحَيَاةِ وَالنَّمُوِّ فِي بِذَرْتِهِ الصَّغِيرَةِ، وَيَقُولُ: «نَعَمْ يَا خَالِدُ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَدْعُو إِلَى النَّظَرِ الْعَمِيقِ وَالسُّؤَالِ الْمُسْتَمِرِّ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
(الذَّارِيَاتُ: ٢٠-٢١).

يُشِيرُ الْإِمَامُ إِلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ الْوَاسِعَةِ، وَيَسْتَرْسِلُ فِي الشَّرْحِ بِتَفْصِيلٍ: «إِنَّ كَلِمَةَ 'كَيْفِ' فِي الْقُرْآنِ دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِلْبَحْثِ وَالْمُلاحَظَةِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾
(الْعَاشِيَةُ: ١٧-١٨)،

فَهَذِهِ دَعْوَةٌ لِلنَّظَرِ فِي الْإِبِلِ وَكَيْفِيَّةِ خَلْقِهَا وَتَكْوِينِهَا مَعَ الْبَيْتَةِ، وَفِي السَّمَاءِ وَكَيْفِيَّةِ رَفْعِهَا دُونَ أَعْمَدَةٍ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ. يَكْتُبُ جَابِرٌ بِحِمَاسٍ فَائِقٍ، وَتَتَلَاؤُا عُيُونُ خَالِدٍ كَأَنَّهُ رَأَى فِي بَذَرَتِهِ الصَّغِيرَةِ دَلِيلًا عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ.

يَقِفُ الْإِمَامُ بِطُءٍ وَثَقَلٍ يَعْكِسُ عُمُقَ الْحِكْمَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا، وَصَوْتُهُ يَرْتَفِعُ قَلِيلًا كَأَنَّهُ يَدْعُو الْجُحُومَ الْمُتَلَاثِمَةَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْخَضْبَةَ لِتَشْهَدَ عَلَى كَلِمَاتِهِ الْمُنِيرَةِ، فَيَقُولُ بِلَهْجَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْحَزَمِ وَالرَّحْمَةِ: «إِنَّ الْعَالَمَ فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدٌ مُتَّحِدٌ مُتَّصِلٌ، يَجْمَعُ بَيْنَ الشَّاهِدِ الْمُرْتَبِيِّ الَّذِي تَرَاهُ الْعَيْنُ وَالْغَائِبِ الْمَخْفِيِّ الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْقَلْبِ، فِي نِظَامٍ إِلَهِيٍّ مُحْكَمٍ يَشْهَدُ لِعَظَمَةِ الْخَالِقِ،

قَالَ تَعَالَى:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التَّغَايُنُ: 18).

إِنَّ الْمَنْهَجَ الْقُرْآنِيَّ يَجْعَلُ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ جِسْرًا مُحْكَمًا مُتَوَازِنًا إِلَى

مِيزَانُ الْبَيَانِ: النِّشَاطَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ التَّجَرُّبَةِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْحَقُّ الْأَبَدِيُّ الَّذِي لَا يَزُولُ، فَالْمَلَا حِظَّةُ تُنِيرُ الْعَقْلَ وَالتَّجَرُّبَةُ تُثَبِّتُ الْقُلُوبَ،
وَالْغَائِبُ يَتَجَلَّى فِي الشَّاهِدِ كَأَنَّهُ نُورٌ يَخْرُجُ مِنْ مَصْبَاحٍ مُنِيرٍ. قَالَ تَعَالَى:

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يُونُسُ: ٢٤)».

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ﴾ (آلْ عِمْرَانَ: ١٩٠)،

فَصَارَ الدَّرْسُ لَيْسَ كَلِمَاتٍ فَقَطْ بَلْ نُورًا يَهْدِي إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ.

✦ ✦ النشأة القرآنية لعلم التجربة ✦ ✦

يُقدِّمُ هَذَا الْعَمَلُ السَّرْدِيُّ «رَوَايَةَ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَنَشَأَ الطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ التَّجْرِبِيَّةِ وَالْعِلْمَ الْحَدِيثَ» مَشْهَدًا فِكْرِيًّا مُرَكَّبًا يَنْسُجُ حَوَارًا تَخْيِيلِيًّا بَيْنَ الْإِمَامِ وَجَابِرٍ لَا سَتَكُنَاهُ أَصُولَ التَّجْرِبَةِ وَمِيزَانَهَا الْمَعْرِفِيَّ فِي ضَوْءِ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» الْمُسْتَقَيِّ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَهُوَ يَزَاجُ بَيْنَ الْخَيَالِ الْأَدَبِيِّ وَالتَّأْسِيسِ الْمَنْهَجِيِّ لِمَبَادِي السَّبَبِيَّةِ وَالْعَائِيَّةِ وَالتَّوَثُّيقِ وَالتَّكْرَارِ، وَيُظْهِرُ كَيْفَ تَتَازَرُ الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ وَالصَّنَاعَاتُ التَّطْبِيقِيَّةُ فِي فَسِيحِ الْمَسْجِدِ وَالسُّوقِ لِتَشْكِيلِ عَقْلٍ تَجْرِبِيٍّ مُتَوَاضِعٍ يَطْلُبُ الْبُرْهَانَ وَيَزِنُ الْأَقْوَالَ بِالشَّوَاهِدِ. وَتُسَهِّمُ الرُّوَايَةُ فِي رَسْمِ بَنِيَّةِ ابْتِسَامِيَّةٍ تُوَحِّدُ الْمَرْجِعَ الْقِيَمِيَّ بِالْإِجْرَاءِ الْعِلْمِيِّ، فَتَعِيدُ اقْتِرَاحَ قِرَاءَةِ حَيَّةٍ لِلتُّرَاثِ التَّجْرِبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَتَفَكِّرُ فِي مَوْقِعِهِ مِنْ خَرِيطَةِ الْعِلْمِ الْمُعَاصِرِ، مَعَ تَشْدِيدٍ عَلَى اخْلَاقَةِ الْبَحْثِ وَحُدُودِ الْمَعْرِفَةِ وَتَوَازُنِ الْأَدَاةِ وَالْعَائِيَّةِ.

فَوْقَ ذَلِكَ فَهِيَ رَوَايَةُ تَعْلِيمِيَّةٍ تَرْبَوِيَّةٍ مُوجَّهَةٌ لِلطُّلَّابِ فِي الْمَرَاكِلِ الثَّانَوِيَّةِ وَالْجَامِعِيَّةِ وَلِمُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الْإِسْلَامِيِّ، تَهْدَفُ إِلَى تَوَامَةِ الْعَقْلِ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْفِطْرَةِ، وَإِلَى تَنْشِئَةِ بَا حِثٍ يَزِنُ الْأَدَاةَ بِالْعَائِيَّةِ وَيَصِلُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْقِيَمِ.